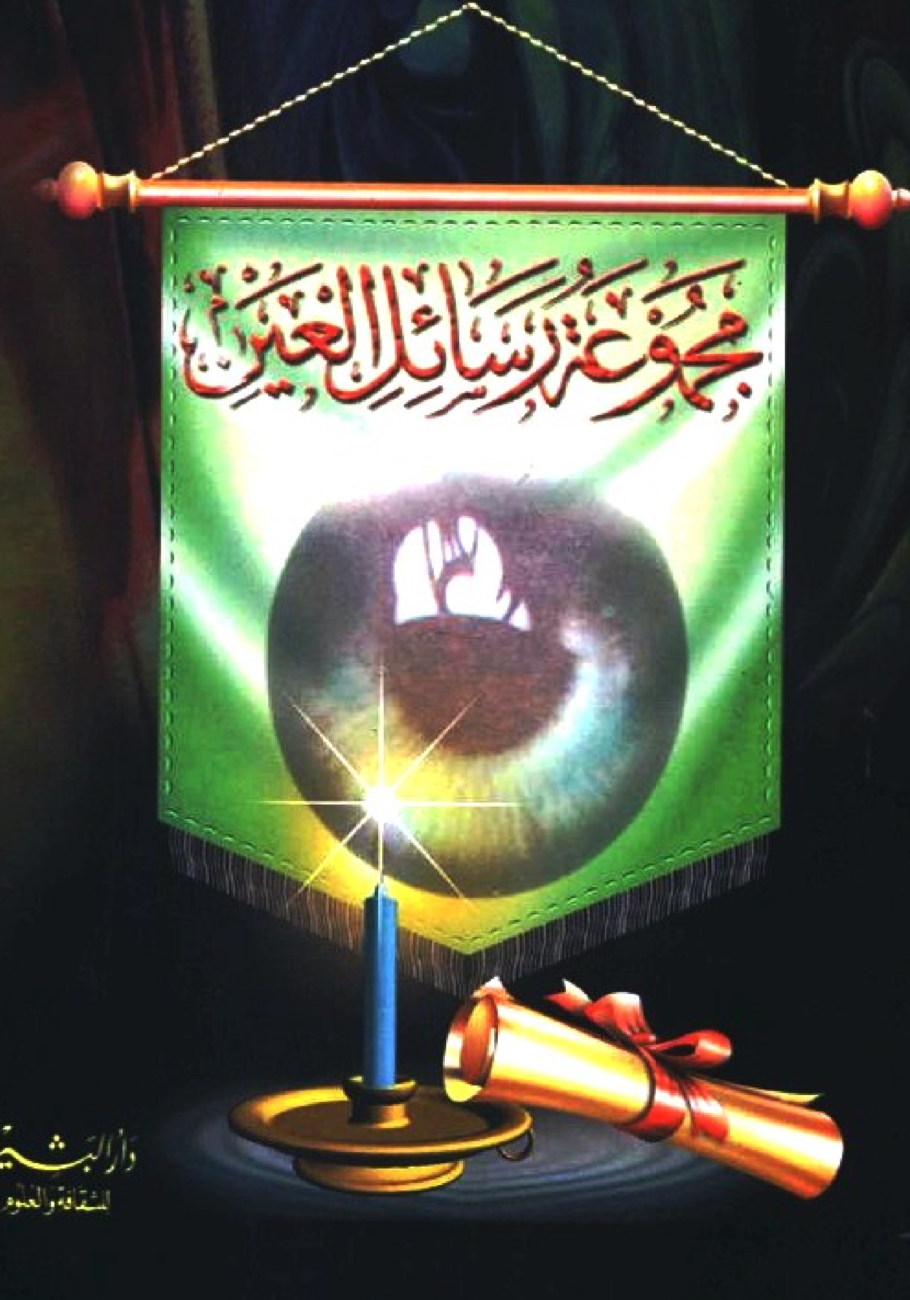

مجموعة رسائل العين
دار البشير
للثقافة والعلوم


مجلد رسائل العين وهى :
نحو المعالى
ربانية التعليم
التقويم الدعوى
معاً نتطور
الإيجابية فى حياة الداعية
تقرير ميدانى
تقويم الذات
فضائح الفتن
فارس لا يترجل
محمد أحمد الرَّاشد د. عَادِل الشويخ
دَارُ البَشِيرِ
لِلثَّقَافَةِ وَالعُلُوم

دار البشير للثقافة والعلوم

الموضـــــــــــوع : مواعظ للمسترشدين.

اسم الكتـــــاب : مجلد رسائل العين .

التـــــأليـف : محمد أحمد الراشد د/ عادل الشويخ .

الصف التصويري : الندى للتجهيزات الفنية .

عـدد الصـفـحـات : 520 صفحة .

عــدد الطبـعـات : (الطبعة الأولى)

التـــوزيع والنشـر : دار البشير للثقافة والعلوم .

طنطا ـ 23 ش الجيش عمارة الشرق للتأمين

تليفاكس040/3305538 - 040/3316316

Dar_elbasheer@hotmail.com

الإيداع القـانوني : 1687 / 1994 م

الترقـيم الدولي : I. S.B.N.977 - 5065 - 71 -2

1425 هـ

2004 م

سلسلــة رسائل العيـن

الرسالة الأولــى

نحو المعــالى

بقلم

محمد أحمد الرَّاشِد

إهداء

* لوحة « **العين** » التي تكرر شروقها في الماضي على الخاصة : تنشر شعاعها اليوم على عموم دعاة الإسلام .

* لقد صارت رمزاً معروفاً ، وعلامة في تجارة الإيمان مميزة ، فحق لها أن تحتل مكانها في صدر غلاف الحلقة الأولى من سلسلة الخير ، وحق لنا أن ننتسب لها .

* فيها من معاني العين . . . العين الباصرة ، وعين الشمس ، والنصل في آخر النون ، وعين الماء الثرية ، وفي خلفيتها طبقات متموجة في تصاعد وتبادل ألوان . . في إشارة إلى السمو نحو المعالي .

* وفيها حرف الألف السامق المنتصب في ثقة ، يشمخ مرتفعاً . . نحو المعالي .

* وفيها حرف العين الملتف ، مقتبساً مما اقترفته يد هاشم البغدادي إمام الخطاطين ، كأنه في التفافه ذراع حانية تجمع شتات خواطر الفقه وتضمها إلى حضن أمين .

* كل ذلك هدية . . إلى الصاعدين . . . ومواعظ لرجال الصحوة الإسلامية تعجل وصولهم إلى آفاق التمكين . .

محمد أحمد الراشد

هذه العين

دفّاقة ، صافية . . هي عينُنا . .

كل معنىً جميل ، وكلُ إشارة خير . . حواها لفظ « **العين** » .

وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يحب الفأل الحسن . . ومن ثمّ، تفاؤلا : كانت هذه العين . . .

لعيننا شبه **بماء العيون** ، فإن رسائلها تروى قلوبا قد يعتريها الجفاف ، فتنتعش بعد ظمأ ، وتسقى ساحات العمل ، فتنشط وتنتج

ولماء العيون صفاء ، ويتفجر رقراقاً غير ملوث ، وعين الفكر هذه تأتيك بصفاء مصادر الإسلام الأصيلة ، غير مشوبة بفكر أرضى أو حثالة بدعية .

والعين : نبيل القوم ، ومقدمهم ، وشريفهم ، وإنما تصدر هذه العين لنبلاء الدعاة ، ومن هم مظنة الفضل والعقل .

والعين : الذهب ، وكل معدن نفيس ثمين ، وأجود كل شيء وأحسنه وخياره ، وهي كذلك مباحث هذه العين واجتهاداتها ، وسيبقى فقه الدعوة هو الأنفس ، والحوار فيه هو الأثمن .

ثم هي عينك الباصرة ، تنظر بها واقعك ، فتحلل وتصف وتعلل وتعرف بها الدرب ، فتقتحم ، أو تكون الدليل .

والعين : الرقيب والرائد ، والطليعة ، فهى عينك على الخصم تجس لك تحركه وسوء نيته .

ولها أيضا مع عين الخليل بن أحمد الفراهيدى نسب ، فكما أراد أبواب معجمه مفاصل لتوزيع المعانى أو التقاطها عبر تشكيلات الحروف : ستكون أبواب هذه العين ناشرة لحسان المعانى ، جامعة لشتات الاجتهادات الجزئية ، من أجل وعى إسَلامى ، عبر لغة فقهية تعلم الفصاحة كلّ داعية خليل .

ومن معانى **العين** : المال ، والجماعة ، والشمس ، والجديد ، والحديدة فى رأس آلة الحراثة ، كل ذلك وما قبله فى لسان العرب قد بيَّنه ابن منظور ، وكذلك أفكار عيننا ، هى أغلى مال يتموله داعية ، من خلال اجتهاد **جماعى** واضح وضوح **الشمس** ، يستنبط من التراث القديم بنظرة **جديدة** فى غير ما تقليد جامد ، ويعلم الدعاة طريق الجهاد بآلة **الحديد** .

كل ذلك لنا ، ثم نطمع بمزيد ، من ربّ كريم ، نرجوه أن يقسم لنا حظاً مهما كان صغيرا من وعده للكريم عليه السلام .

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[1] . . . ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[2]

فامض راشداً مع رسائل **العين** التى ستبلغ المائة إن شاء الله ، واجمعها : يجتمع لك فقه الدعوة .

وإنه لنعم الزاد للماشى فى درب . . . . الإيمان .

---

(1) سورة الطور : (48) .

(2) سورة طه : (39) .

عُيُون الأعيان

إن دعاة الإسلام هم أعيان الجيل الحاضر ، لا جدال ، بما وُهبوا من همة تحرص على الإصلاح ، وتجرّد يعيد ضرب المثال .

ولهم تصدر هذه السلسلة . . .

فلهم مع كل إشراقة جديدة . . . تحية . . .

إن هدف « رسائل العين » يتركز فى كشف الآفاق الرحبة لفقه الدعوة ، وتجارب العمل الإسلامى ، وأنماط معاناة المربين ، ووضع كل ذلك بين يدى شباب الصحوة الإسلامية ، تعليماً لهم ، وتمكينا .

لكن الأبعاد الحضارية مكملة لكل ذلك ، لأنّا نعيش حياة الانفتاح من جهة ، ونواجه حضارة مغايرة تَتَدَسّس بهدوء ولباقة أو تجاهر بالغزو ، من جهة أخرى ، فكان لابد للداعية المسلم أن يسعى نحو الثقافة الشمولية ، وأنواع العلوم والفنون ، ليعلو فوق التيار ، مسيطراً مهيمنا ، وكان على هذه السلسلة أن ترافقه فى دربه الحضارى هذا ، تعين ، وتستكشف له ، وتُنبيه الخَبر ، ووكيلها فى ذلك : محمد أحمد الراشد ، ينتقى ويختار ، إن لم يكتب ويعقب ومعه على قدم سواء : الدكتور عبد الله يوسف الحسن ، يكتب وينقح ويطور ويوسع الدوائر .

على أن الاستقصاء فى إيراد كلام الفقهاء ومراجع نصوصهم

ليس من وسيلة هذه الرسائل ، وإنما هو الاستئناس والتبرك بأقوال السلف ، ولا نرى أن يلزمنا داعية ما ألزمته الجامعاتُ أصحابَ البحوث ، وإنما نهتم نحن بالتعليل والقياس والتأويل ، مما يوجب على الممارس التأمل فى عباراتنا على ضوء واقع العمل الإسلامى ، وأن يدرك المعانى التى نذهب إليها من خلال الإشارات والمجاز .

فقرر أن تكون حَسَن المطالعة والاستيعاب ، بمقابل ماترجوه منّا من حُسْن الكتابة والاختيار ، وكرّر المطالعة : يؤذَن لك بمزيد فهم ، وَقدّم نسخاً أخرى من هذه الرسائل هدية إلى إخوان لك : تنتشر الفوائد ، ويروج مذهبك فى الإصلاح ، ويقتنع بمثل قناعاتك عدد أوفر ، فتكون النتيجة أقرب . .

ثم سبّح معنا ربّاً هادياً . . . . ونصيراً .

مذهب الاحتياط

1

فى أول شبابى ، يوم كنت صغيراً بعدُ فى عداد ناشئة المساجد ، وفى وقت مبكر قبل أربعين سنة : فطمتنى عن اللهو تلك الهزة النفسية التى سادت الأمة عقب ضياع فلسطين ، واستبدت بى عزائم الجد التى كانت تتصاعد كلما قرأت رسالة من رسائل فكر الدعوة الإسلامية ، فلم أتردد فى الاستجابة لأول داع يدعونى إلى « الدار » دار الدعوة ، فولجتُ مدخل الصدق بعد صلاة المغرب ، فإذا شاعر الدعوة الإسلامية الأستاذ وليد الأعظمى يتوسط شباباً يقربون من عشرين يتدارس معهم فصلاً من الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى فالتقت نظرتى بنظرته بُرهة بعد السلام ، ثم قال : تفضل واجلس ، فكان أول أستاذ لى . . .

ومنذ ذلك اليوم القديم كان يعظنى ويعظ شباب جيلى ، فيقف وقفاته المباركة فى الجموع الحاشدة فى حفلات المساجد وغيرها ، فيزمجر تارة ، ويرفق فى أخرى ويتلطف ، يتنقل بين معانى الخير ، ويغرس غرسه فى القلوب ، كأن يقول :

كُنْ رابط الجأشِ وارْفَع رايةَ الأملِ
وسرْ إلى اللهِ فى جدٍّ بلا هزلِ
وإن شَعُرْتَ بنقصٍ فيكَ تعرفهُ
فغذِّ روحكَ بالقرآنِ واكتملِ

وحـارب النفس وامنعـهـا غوايتهـــا

فالنفسُ تَهوى الذى يدعو إلى الزَّلَلِ (1)

وكان أن استقرت مواعظه فى قلبى ، فنشأتُ معتقداً وجوب أنماط التربية الإيمانية فى الطريق الدعوى ، وأنّ تجاوزها إلى الشكل السياسى المحض محفوف بالمخاطر ، وقد ينتج أفئدة فيها قسوة ، ليس لها من الصفاء وفرة نصيب ، ويؤدى إلى رجحان النفس الأمارة بالسوء على النفس الزكية ، وهى التى عناها وليد بالمحاربة ، وكل من يفقه آداب الإسلام وسننه يدرك تماماً أن هذا السوء المعنى ليس من شرطه أن يكون حالكاً ثقيل الوطأة موغلاً فى الإغراب والإيذاء ، وإنما يكفيه أن يكون لمماً وصغائر وحالات ريائية وتحاسدية ، مثلاً ، لأن الميزان الإيمانى حساس جداً ، ولفظ السوء يشمل هذه الأمراض القلبية ، ومن ثم لزم أن يكون محيط الدعاة بريئاً منها ، بعيداً عنها .

✧ فخرّ عليهم السقف من فوقهم ✧

ولذلك فهمتُ ، ومنذ وقت قديم ، وجوب وراثة الرعيل الدعوى الأول ، وأن أرفع شعار « الاكتمال من خلال تغذية الروح بالقرآن الكريم والسنة المطهرة » ، وأن أرصد نفسى للدندنة حول كل معنى تربوى يقود إلى تحليق الأرواح نحو المعالى .

وكان أبو مسلم الخولانى رحمه الله قد دخل مسجداً ، فرأى فيه حلقة ظنّهم فى ذكر ، فجلس إليهم ، فإذا هم يتحدثون فى الدنيا

---

(1) ديوان الشعاع / 162 .

فقال : « سبحان الله ! هل تدرون يا هؤلاء ما مثلى ومثلكم ؟ كمثل رجل أصابه مطر غزير وابل ، فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين ، فقال : لو دخلت هذا البيت حتى يذهب عنى أذى هذا المطر ، فدخل ، فإذا بيت لا سقف له . جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على خير ، على ذكر ، فإذا أنتم أصحاب دنيا »[1] .

وقد أسرنى هذا المثل ، وتجلّت لى فيه حالة رهط الدعاة إذا غفل ولم ينشغل بالتربية ، وكثر فيه ذكر الأموال والأسعار والنساء والسيارات .

✧ رقاب منكسة ... يرفضها طريق المعالى ✧

والآيات زاجرة ، تدعو إلى القناعة .

قال تعالى فى سورة طه : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[2] .

فقوله تعالى : ﴿ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ أى أصنافاً من الكفرة أو الفسقة .

(ولقد شدّد المتقون فى وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعُدد الفسقة ، فى ملابسهم ومراكبهم ، حتى قال الحسن : لا تنظروا إلى دقدقة هماليج الفسقة ، ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب ! !)[3] .

وأنا وإياك لفى غنى عن معرفة لفظ غريب فى كلام الحسن

---

(1) زهد ابن المبارك / 338 .

(2) سورة طه : (131) .

(3) تفسير النسفى 2 / 84 .

البصرى ، لنتجاوزه إلى رؤيته للظاهرة الواضحة فى مواعظ الحياة ، والتى لا يلحظها غير مسلم يصون نفسه ، وهو تمييزنا لذل المعصية الثقيل على رقاب أهل الدنيا ، فلقد صدق رحمه الله ، وإنها لمسحة تعلو المترفين واللاهين فيسفلون ، إذ طائع ربه العابد يسمو نحو المعالى .

فإنما نريد أن نعيذك بالله من الغفلة والركون إلى زهرة الحياة الدنيا ، ليس غير ، ونحن الذين شجعناك ـ عبر روايتنا لك قصة صناعة الحياة ـ على أن تصفق وتسيطر على حصة الإسلام فى الأسواق والمزارع والمصانع ، ولكن ليكون المال فى يدك . . لا فى قلبك ، وعلى نية منافسة حصة الفسوق والعصيان .

وإنك لتتقلب فى البلاد العريضة ، وتهاجر ، وتقيم وتسيح ، وتتاجر ، وتتصدى لأنواع من الخير تظنها ، وتطلب التمكين ، وترجو السطوة والعز ، فأنت وما يوفقك الله إليه ، لا نحسدك على فضل تناله ، ولا ننهاك عن طلب ثروة وسعة ، ولا نسألك كشف حساب أو ضريبة أو حصة إرث ، وإنما نسألك ـ أيها الأخ العزيز ـ عن دينك وتوحيدك وتوكلك وإخباتك ونوايا المعروف ، ونتشبه بحرص يعقوب عليه السلام لما (سأل البشير : كيف يوسف ؟ قال : هو ملك مصر !

فقال : ما أصنع بالملك ؟ على أى دين تركته ؟

قال : على دين الإسلام .

قال : الآن تمت النعمة) (1) .

---

(1) تفسير النسفى 2 / 128 .

فإنما نريد أن تتم النعم على شباب يريد الإصلاح فى محيط قاس فيه أنواع الشبهات والشهوات ، لنقول ـ إذ يطمئن القلب ـ مثل قول يعقوب عليه السلام .

✧ لا ... ثم..... لا ✧

وتذهب الفراسة التربوية فوراً ومباشرة إلى أن تقرن الآية السالفة المزهدة بزهرة الحياة الدنيا بآية الاستقامة في سورة هود ، في قوله تعالى ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ** ﴾[1] .

(يعنى : فاستقم أنت ، وليستقم من تاب عن الكفر ورجع إلى الله مخلصاً) .

وعن الحسن : **جعل الله الدين بين لائين : ولا تطغوا ، ولا تركنوا**)[2] .

فالطغيان : كل مجاوزة للحد تؤدى إلى الغفلة والإعراض عن الذكر .

والركون إلى الظالم : يتناول صوراً كثيرة ، وليس هو أن نكون من جنده فحسب ، بل ورجاء صورة خير منه أيضاً ، والثقة به ، وطلب نصرته لنا ، وتمنى مثل ما عنده ، كل ذلك كان سيؤه عند ربك مكروها .

وإن الواعظ ليدرك ثقل مثل هذه المعانى على النفوس التى تقادم

(1) سورة هود : (113:112) .

(2) تفسير النسفى 2 / 84 .

عهدها فى درب الإسلام ، كأنها تتكبر عليها وتظن أن قد تجاوزتها ، ولكن المجرب يدرك أن الشيطان يترصد ، وله غزوات ، وماذا على موعوظ إذا تقبل هذه الكلمات الممنوحة له مجاناً ، فادّكر ورأى اللاءات القرآنية ثانية وثالثة كما رآها أول مرة ! !

وكان يقال : (**النصيحة منيحة ، تدرأ الفضيحة**)

ويا لله كم من فضيحة غشيت مسلمين وثقوا بظالم وظنوا أن بيده مفتاح الفرج ! ففريق منهم يثق بظالم فاسق من أبناء جلدتنا ، وفريق يثق بظالم كافر يأتى من وراء دار الإسلام ، وفاز وقّاف عند حدود الحلال والحرام واستعلى على جميع الظالمين وفاصلهم مفاصلة قلبية ولسانية وعملية .

✧ حين تنصر الملائكة ورثة الأنبياء ✧

ولذلك كان من موازين الحسن البصرى رحمه الله : ترجيح مذهب التخويف فى التربية ، احتياطاً وتعجيلاً فى الاستدراك ، فيقول : (لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تبلغ المأمن : خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تبلغ المخاوف) [1] .

ولا تستغربنّ ذلك ، كأنك لست المعنىّ ، أو كأن جيلك بدعة فى الأجيال، أو قومك ليسوا على طبائع من سلف من الأقوام ، بل النفس هى النفس دائماً ، وشكل عنفوانها واحد : يُرخَى لها ، فتستكثر ، وتستطرد ، فتستكبر ، وتغفل ، فتخرج إلى ظلم ، حتى يغلب على القرية الظلم ، وتكون متمردة على وصايا الأنبياء ،

---

(1) نفح الطيب 7/ 90.

فيأتيها الحصاد ، وكان يأتيها فى الأيام الغابرة فى صورة حجارة من السماء وهو يأتى اليوم عبر هزة اقتصادية ، أو حرب ، أو تفكك اجتماعى ، فيكون الضيق من بعد دهر من الترف .

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ (1) .

أى (لا تركضوا وارجعوا إلى منازلكم وأموالكم لعلكم تُسألون مالاً وخراجاً فلا تُقتلون .

فنودى من السماء :

يالَثارات الأنبياء ! !

وأخذتهم السيوف . . .

فثم قالوا : يا ويلنا إنا كنا ظالمين . اعترفوا بذلك حين لا ينفعهم الاعتراف) (2) .

✧ نعوذ بالله من سهو الخرّاصين وتنسية الخائبين ✧

ولذلك كان الفقه الإيمانى يرتكز كله على التفريق بين نفسين ، والتحذير من اللهو أو السدر فى السهو ، ومقاربة أسباب الفتنتين ، فى دعوة للعلو ، خوف الهبوط ، وذلك هو الذى جعل شيخ الإسلام

---

(1) سورة هود : (113:112) .

(2) تفسير النسفى سورة الأنبياء 2 /393 .

ابن تيمية رحمه الله يكثر التخويف ، استنباطاً من مثل قوله تعالى :

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾[1] فيقول :

(أى ساهون عن أمر الآخرة ، فهم فى غمرة عنها ، أى فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها ، ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له . وهذا يشبه قوله : ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[2]

فالغمرة تكون من اتباع الهوى ، والسهو من جنس الغفلة . ولهذا قال من قال : السهو : الغفلة عن الشىء وذهاب القلب عنه . وهذا جماع الشر : الغفلة والشهوة .

فالغفلة عن الله والدار الآخرة : تسد باب الخير الذى هو الذكر واليقظة .

والشهوة : تفتح باب الشر والسهو والخوف ، فيبقى القلب مغموراً فيما يهواه ويخشاه ، رائداً غير الله ، ساهياً عن ذكره ، قد اشتغل بغير الله ، قد انفرط أمره ، قد ران حب الدنيا على قلبه)[3]

وواصل صاحبه ابن القيم رحمه الله طريقته ، فيقول فى مثل قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[4] .

(المعنى : قد أفلح من كبّرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها ، وقد خسر من أخفاها وحقّرها وصغرها بمعصية الله .

---

(1) سورة الذاريات : (11:10) .
(2) سورة الكهف : (28) .
(3) مجموع الفتاوى 10/ 597.
(4) سورة الشمس : (10:9) .

وأصل التدسية : الإخفاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾(1) ، فالعاصي يدسّ نفسه فى المعصية ، ويخفى مكانها ، ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتى به ، قد انقمع عند نفسه ، وانقمع عند الله ، وانقمع عند الخلق . فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها ، حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه ، ومع ذلك فهى أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى ، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو)(2) .

وهذه منهما مواصلة لمذهب الحسن البصرى وطريقته الآنفة ، وكان قد وصل بينهما وبين الحسن جيل أوسط كثير عدده ، جزيل قوله ، وكأن ابن الجوزى قد انتصب لهم إماماً أو فوضوه وكيلاً يترجم خلجات صدورهم ، عبر كشف تلبيسات إبليس ، أو خلال اصطياده لخواطره ، وكان رحمه الله يرى أن : (من نازعته نفسه إلى لذة محرمة فشغله نظره إليها عن تأمل عواقبها وعقابها ، وسمع هتاف العقل يناديه : ويحك لا تفعل ، فإنك تقف عن الصعود ، وتأخذ فى الهبوط ، ويقال لك : ابق بما اخترت . فإن شغله هواه فلم يلتفت إلى ما قيل له : لم يزل فى نزول)(3) .

ثم رفع صوته ينادى : (فالله الله فى حريق الهوى إذا ثار ، وانظر كيف تطفؤه . فرب زلّة أوقعت فى بئر بوار ، ورب أثر لم ينقلع، والفائت لا يُستدرك على الحقيقة ، فابعد عن أسباب الفتنة ،

---

(1) سورة النحل : (59) .

(2) الجواب الكافى لمن يأل عن الجواب الشافى/ 70 .

(3) صيد الخاطر187 / 188 .

فإن المقاربة محنة لا يكاد صاحبها يسلم) [1] .

فلئن كـان الإجـماع فى فقـه الأموال : إجـماع الصحـابة ، أو إجماع جيل من أجيال المسلمين إذا وقعت بهم نازلة غريبة ، فإن هاهنا فى فقه الأحوال يتراكم إجماع الصحابة والتابعين وجميع الأجيال ، وذلك سر شجاعتنا وعنادنا فى الإصرار على هذا المذهب التربوى ، وكان عبد الوهاب عزام رحمه الله ، قبلنا بقليل قد عرفه أيضاً ، حتى منحته معرفته الإيمانية ثقة ، بها طفق يسيطر على نفسه ذات الخيارين ـ بإذن الله ـ حتى لكأن مفتاح التحويل القلبى بيده أسلس من مفاتيح الأبواب ، ليس يحتاج إلا إلى لمسة ليستدرك أو يقصد الخير بعد كل ضياع ، وروى تجربته فى ذلك :

تسفل النفس بالصغائر حيناً

وتضيق الحدود والآماد

فأحل القيود عنها فتسمو

فإذا بى الآزال والآباد [2] .

وإنما يفهم قوله بمعانى المجاز وأبعاده .

فهو ـ بتمكين الله تعالى ـ مسيطر على ساحة المكان والزمان يتجول فى أعماقهما ، بما وفقه الله إليه من فك الأسر وحل القيود .

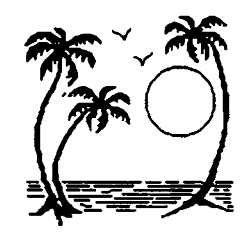
وفى هذا تقرير لحقيقة إيمانية مهمة : أن مذهبنا فى الخوف من

---

(1) صيد الخاطر 187 / 188 .

(2) ديوان المثانى / 95 .

الغفلات حق ، ولكن هناك حقيقة أقوى من ذلك وأظهر وأجلى : أن الله يؤيد المؤمن بالعزائم ، فتكون إرادته أقوى من نداء الشهوات ، ومن هنا نستطيع أن نضع قاعدة في التربية الإسلامية : **إن المؤمن يليق له أن يثق بنفسه ، وأن يحسن الظن بها ، وأنه مؤهل للأعمال الجليلة التي ندبه الله لها ، من خلافة في الأرض ، وإصلاح بين الناس ، وتقويم كل اعوجاج ، وما الخوف إلا طبيعة رقابية تتولى الحفظ والتنقية من الشوائب ، لأن المحيط فيه غبار ، الشيطان يثيره ولأن الطريق فيه عثار ، إبليس يمد رجله بين أرجل الراكضين. . .**



دعوة للسمو

2

يلحظ المراقب الناقد لصفات الأجيال الدعوية المتعاقبة نوعاً من الهبوط فى مستوى الالتزام بدقائق الأخلاق الإيمانية والذوقية ، إذ ليس اللاحق على مثل جودة السابق ، مع احتمال أن يكون أوعى منه سياسياً وعلمياً ، وأطلق لساناً ، وأحكم تنظيما ، ولربما وجدت اليوم شيئاً من الغيبة ، وسوء الظن ، وسرعة الغضب ، وورود اللفظ الخشن على لسان المتكلم ، وعدم إباء أذن جليسه السامع لهذا اللفظ، بل وقد تطرب له ، وهى أمور لم يبرأ الجيل الأول منها ، ولكنها كانت نادرة ، تأتى كالفلتات ، أو يقل عدد المتورطين بها ، بينما تترادف اليوم ، ويزداد الاستدراج ، بحيث أصابت الصورة المثالية التى كنا عليها ثلمة ، وما زالت مثالية بحمد الله تعالى ، لكن درجات الإحسان التى ندرج عليها توجب علينا براءة شبه تامة .

يظن البعض أن هذا التباين إنما هو ظاهرة طبيعية ناتجة من ارتفاع همة من يتولى التأسيس ، تبعاً لمعنى التحدى عند نشوء الدعوة فى كل بلد ، وهذا سبب صحيح ، لكنه ليس السبب الوحيد ولا الأهم والراجح أن هذه الثلمة إنما هى من تأثر بالمحيط العام والبيئة السياسية والفكرية والإعلامية التى تعقدت بعد التحولات الثورية فى كثير من البلاد ، فإن الداعية فرد فى هذا المجتمع العام قبل انضمامه لتيار الدعوة ، خاضع للمؤثرات فيه ، ثم هو بعد انضمامه يخالط الفجرة

مـثلمـا يخـالط البـررة ، فى الجـامـعـة أو عند أداء عـمله المهنى ، وفى السوق والشارع والمنتديات العامة ، بل يخالط فجرة من عائلته ، من بين شقيق أو ابن عم وخال ، فيقلدهم فى أشياء ، إذا غفل ، ويسرى إليه عيبهم دون أن يشعر ، وتظهر على لسانه عبارات عامية يفترض أن يتعفف عنها طالب العلم وصاحب الفكر ، بله المتوضىء ، ويفعل النشاز الذى يأباه الذوق أو ترفضه المروءة ، إذا شاهد فاجراً يذهب فى الإسفاف إلى أبعد منه ، كأنه يفتى نفسه بأنه أفضل من ذاك المسف المبعد ، بدلالة الاقتصار منه ومدى الاختصار ، ذاهلاً عن أن الثلمة الصغيرة التى لم يستكبرها يمكن أن تشوه الصورة وتعكر الصفاء أيضاً ، وأنها سبب فى ضعف الحساسية الإيمانية التى تمنحه الأنفة عن الابتذال ، والعزة على أهل السوء .

وليست هى الخلطة فقط ، وإنما مثلها ردود الفعل لأساليب الأحزاب العلمانية وأنواع تصرفات منتسبيها وأفكارهم التى يعرضونها ، إذ تكون ردود الداعية أحياناً على غير ما فقه صائب إذا استفزه الحزبيون ، وكذلك اللغة الصحفية والإذاعية الرديئة المبنى والجرس والنبرة فضلاً عما فيها من معنى منحرف وشتيمة وظلم واستهزاء وحشو ، كل ذلك يقسى قلب المسلم عن طريق التقليد اللاشعورى لما يسمع ويرى ، ويجعل الجرأة على الفاضل مستساغة عنده ، فيقل احترام الكبير ، من أستاذ أو شيخ مرب أو أمير متقدم ، وتكون منه أنواع من المنافسة للقرين المماثل ، من حسد خفى أو صريح ، وتكذيب ، ويصبح يضيق به ذرعاً إذا رآه يأتى من العمل ما يعجز عنه أو يكون أفصح فى درس أو كتابة مقال ولربما تجاوز عدوانه

الكبير والقرين ليصيب المستجد والتلميذ والناشئ الصغير ، فيتعامل معهم بلا رفق، ويكثر منه الزجر لهم والقسوة عليهم .

إنها فلتات لا يبرأ منها رجال منا ، ولسنا نتكلف التهمة لهم ، وإنما هناك قرائن تشهد وحوادث ترتكب ، وابن آدم لابد أن يلازمه خطأ ، والشيطان يستزل ، والموفق من لم يغالط نفسه ويغالط الآخرين وتكون له مسارعة إلى التوبة والعلاج والترميم والاستدراك، بدل المكابرة والإصرار ، وإذا كان أحد من منحرفى النفوس يعتاد التشهير بنا معتمداً على مثل هذه المكاشفة فإن المفروض أن لا يصدنا ذلك عن كمال المصارحة ، إذ نكله إلى نيته الحائدة عن الحق والإصلاح ، ونلوذ بعز التوبة .

إن ظاهرة نقص الأفراد هى من الظواهر المبتوت بصحة وجودها، وإنما أردنا أن نثبت بكلامنا آنفاً ما هو أوسع من ذلك ، من تأثر جيل بكامله برداءة المحيط والبيئة ، إلا من رحم ربك ، وقليل ما هم ، وأما الغالبية فقد ألمت أو قارفت ، وكأنها تورطت ، لكن منهم الموغل المكثار ، ومنهم المتخفف ، ومنهم صاحب الفلتات النادرة .

إن هذه الملاحظات لا يلاحظها أفراد الأجيال الجديدة ، لأنهم لم يعيشوا لذة صفاء الأجيال السابقة القديمة قبل أن تفسد الحزبيات والثورات البقية التى كانت باقية من جمال الحياة ، مع قلة حجم تلك البقية ، وفاقد الشىء لا يعطيه ، ويمكن أن يدرك ما نقول الأخوة القدماء الذين عاصروا بداية الدعوة ومراحلها الأولى ، يوم كان الخير فى الناس وافراً ، وبين الدعاة عامراً ، ويوم لم يكن الحاكم يتفنن فى أذى الشعب كما يتفنن اليوم ويبتكر ، ولا يرغمهم على

سماع اللغو منه أو من إذاعاته وتلفازه وصحفه كما يرغمهم اليوم .

ويظن البعض أن وجود ضعفاء من الجيل القديم تؤثر عنهم مثل هذه الأدواء ينقض صحة هذا الاستنتاج ، ويدفع التهمة عن الأجيال الجديدة ، وليس هذا الظن على سعته ، لأن الذى يرى ضعيفاً من القدماء فهو إنما يرى نموذجاً واهن التكوين أصابه المحيط الملوث أيضاً ، واستوى مع الجدد فى ذلك ، وتلك زيادة تأكيد على صحة ما ذهبنا إليه ، فإن فساد البيئة إذا كان ينحت فضل القديم الراسخ فأحرى أن تلين أمامه قناة المستجد الطارئ وإنما أردنا الإشارة إلى موقف هذا القديم فى أيامه القديمة التى هى أقرب إلى النقاء وبيئته التى كانت محافظة على مزايا الصفاء : كيف أنه كان أنزه روحاً ، وأسلم قلباً ، وأجود معدناً ، وأشد ركنا .

والمتفحص للأمر ، المقارن بين قصص الحياة اليومية الحاضرة والماضية ، يجد أن التأثر بالسوء حاصل بصورة عامة لدى جميع الناس بصورة أعمق ، وأن الخير والفعل الجميل فى تناقص ، بل إن الذى نسبناه للدعاة ما هو إلا بمقدار عشر المعشار منه ، وتولدت فى الناس غلظة وجفوة وقطيعة رحم ما كان يعرفها الجيل الذى عاصر حياة ما قبل الحرب العالمية الأولى مثلاً ، يوم كان العرق الأخير للدولة العثمانية ينبض ، حتى أصبحنا نرى من عقوق الوالدين والعدوان على الجيران والغش فى التعامل والبخل على الضيف والظلم عند المقدرة أشياء كان يتعفف عنها الناس سابقاً ، أغلب الناس وحتى أصبحت الحكايات الحقيقية لمكارم الأخلاق ، والتى كانت اعتيادية : ضرباً من الرمز والخيال المستبعد تكراره فى تقدير من

يسـمعـهـا ، وهذا الـوضع كـان ومـا يزال مستـمـراً فى بلاد عـديدة ، وبداياته تتزامن مع تطبيق مناهج التعليم الحديثة قبل ما معذله ستين سنة ، أو أقل أو أكثر قليلاً ، ومع مـا صاحب ذلك من انفتاح على الغرب والشرق ، ومع نشوء الصحافة المقلدة للصحافة العالمية التى يسيطر عليها التـوجيه اليهودى ، بل نجزم أن بلاد النصـارى فى الغرب ، وبلاد البوذية وأمثالها فى الشرق ، كانت حياتها الماضية لا تخلو من تراحم بين أهلها ، وبقايا عفة ، وآثار مروءة ، هى خالية منها الآن .

إننا لا نريد بهـذا الكلام أن نقـذف يأسـاً فى قلوب الدعـاة ، أو نولد إحباطاً وشعوراً من الأسف أو الزهد بالعمل الإسلامى ونتائجه ولم نسرد خبر الأمس واليوم من أجل متعة تاريخية أو إثبات حقيقة إحصائية ، وإنما أردنا توجيه الغد ، وأن يكون لنا فى التجربة موعظة .

إن لكلامنا مقاصد خمسة :

* **الأول** : إيراد نمط من التحليل والتسبيب يوسع آفاق تفكير الدعـاة إذا أرادوا فـهـم ظاهرة مـعينة فى الحيـاة الدعـوية ، بحيث تتكشف جـذور المسألة وجذور المداخلات التى تحيط بها ، وضغط المجتمع ، وتأثيرات السياسة .

* **الثانى** : إخراج الداعية من الإطلاق فى الحكم على الأمور ، إلى النسبية ، ومن الاستعجال ، إلى التأمل ، ومن العفوية ، إلى المنهجية ، ومن الغفلة ، إلى نقد الذات والتدقيق مع النفس ، مع أن هذا المسلك خطر ، إذ أن بعض المنافسين والحاسدين سينحرفون بهذا المقصد النقدى الاصلاحى الواعظ إلى جعل كلماتنا وثيقة اتهام لنا

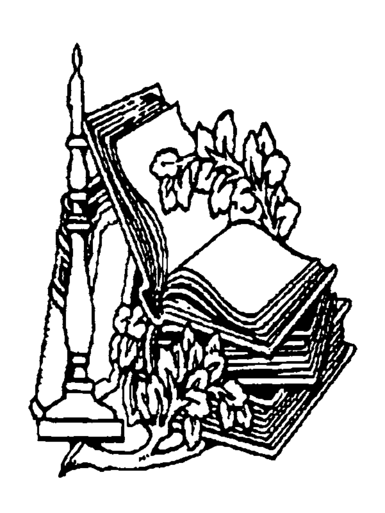
يدللون بها على ضعفنا ، وما دروا أن الحساسية المفرطة هى التى تنطقنا ، وإن صف الدعاة ـ بحمد الله ـ أنقى وأرفع من أى صف آخر رغم ملاحظتنا .

* **الثالث** : الانتصار للأجيال الجديدة ، وإعادة الاعتبار لها إزاء أحكام يصدرها عليهم بعض المتشددين من أفراد الجيل القديم ، بتقرير ما ذهبنا إلى ترجيحه من أن **هذه الأجيال إنما هى ضحية البيئة الملوثة أخلاقياً وفكرياً وسياسياً ، وأن الخيرية مركوزة فيها أيضاً** ، ولكن تغطى شيئاً منها الأوساخ المحيطة أو تميل بها العواصف الداهمة ، وأن هذا كله من دلالات الظاهرة التربوية العامة التى تجعل تأثر كل فرد بالمسموع والمنظور محتملاً ، ومن نتائج تضاد التربيات المتزاحمة .

* **الرابع** : إثبات وجوب التربية التى تعالج هذه السلبيات الأخلاقية ، وضرورة أن يتواضع كل داعية أمام ما تستوجبه هذه الظاهرة من خضوع لمنهج يعظ القلوب بكثافة ، ويعيد ذكر بديهيات الطريق وأسس الإيمان والأخلاق ، **وليس بصواب أن يضع داعية نفسه فوق التربية ، ويستعلى على حديث يزجره عن السوء ولو سمعه مائة مرة ، فإن فى النفوس ـ كل النفوس ـ قابلية لطيش فى أوقات الغفلة ، فتنزل إلى مستوى العوام ، وإن استقام صاحبها على دين الخواص الفقهاء العبَاد دهراً ، أو حاز على أعلى شهادة وأرقى منصب وأضخم رصيد مالى ، بل وإن ابيضت لحيته وتجاوز الكهولة سنه .**

* **الخامس** : التخطيط الدعوى لإصلاح أخلاق الناس عامة وأذواقهم وأعرافهم ، وإعادة إحياء عواطفهم ، وتجديد الحس الإيمانى بعد ضموره فيهم ، ويبدأ هذا التخطيط والتنفيذ له ابتداء من يومنا هذا فى مرحلتنا التى نحن فيها ، رغم ثقل أحمالنا وجزالة همومنا ، ثم يمتد إلى مراحل التمكين ، بل يجب أن يتركز هذا التوجه آنذاك ويشتد ، وليس من شأننا أن نخطط سياسياً واقتصادياً فقط ، أو نبث علم اللسان فحسب ، فإن طريقنا يمر قبل السياسة والاقتصاد وخلاف الفقهاء بتطهير الجنان .

إن دعوتنا هى دعوة المروءة والنبل والعفة ، ورقة التعامل والذوق الرفيع ، قبل أن تكون دعوة سياسية ، أو حملة جهادية ، أو مدرسة علمية ، ولن ينزل الطغاة إلى نهاياتهم مالم تتسامً أخلاقنا صعداً ، ونعود إلى بداياتنا .



زيادة هَم لا نقص همّة

3

دعاة الإسلام على خير إن شاء تعالى .

والدليل على هذه الخيرية الوافرة الجميلة : ما عندهم من حساسية إيمانية ، لدى جميع طبقاتهم ، تدعهم فى سؤال دائم ، يكاد أهل صنعة التربية فيهم يتلقونه من الجديد منهم والراسخ ، يستفهمون فيه عن ظاهرة ضعف الهمة : ما أسبابها وما علاجها ؟

إن هذا السؤال المتكرر يكشف لوحده عن همة ضافية ، والقرينة تصرف الطلب إلى طلب كمال الهمة ، ودرجاتها العالية ، وطورها النموذجى ، فإنهم إذ يسألون ، يسدر غيرهم من المسلمين فى الغفلة، بل قد يكون بعض الغافلين أحرص من الدعاة على صف الصلاة الأول ، أو أظهر علماً ، أو أفصح لساناً .

✧ فرسان المدينة الفاضلة يرثون عمارة الإيمان ✧

إن المفتش عن صورة العمارة الإيمانية المأثورة عن السلف ، من مجاميع زهاد يتجردون ، أو أرهاط أقوياء يجاهدون ، أو عشاق جنة يتهجدون : يجد الدعاة فى هذا العصر قد ورثوا أكثر بقاياها ، واستبدوا بالحظ الأوفر من أسهمها ، وغيرهم يقتتل على أسهم الشركات لا يدقق حلالها من غررها ، ويلهيه الصفق بالأسواق ، يستهويه نشاز ضجيجها وصخبها ، أو تشغله المناصب ومفاتن

النساء، وربما كان أعلى السائبين همة من يلهو بالمباح ، ويظن أن التعفف عن الحرام أبعد المناقب وأشرفها ، وإنها كذلك ، لولا أن إنكار المنكر أشرف منها .

إن دعاة الإسلام اليوم ، ومن على سنة التربية منهم بصفة خاصة : ليس فوقهم إلا الملائكة ، بما لهم من نقاء قلب وطهارة جوارح ، وغيرهم من الناس يأكل قلوبهم التحاسد ، ويعمّهم التحايل ، ويتربص بعضهم بعرض بعض وبماله ، حتى لا يأمن الرجل ابن عمه فضلاً عن جاره .

بل يتميز دعاة الإسلام حتى وفق المقياس المدنى ، فإن أحلام الفلاسفة المثاليين القدماء قد تبددت ، ولا يمكن أن يجدوا اليوم رجالاً تنطبق عليهم أوصاف المجتمع الفاضل الذى دعوا إليه فى غير المتدينين . بل حتى أخلاق فروسية العصور الوسطى آلت إلى الاندثار، من النجدة والشهامة والمروءة ، ولم تعد مجسدة فى غير دعاة الإسلام .

لقد كان فضل الله علينا عظيما ، ثم فضل التربية الدعوية التى ألهمها الله الرعيل الأول الذى أشاعها ، حتى بتنا مرفوعى الرأس نتباهى بشرفنا وميزاتنا ، ولكن مع ذلك يبقى السؤال عن علاج اللامبالاة والفتور وضعف الهمة سؤالاً واقعياً ، والجواب عنه واجب ، وذلك لأن طلب الكمال سنة المؤمن ، واتهام النفس بالتقصير علامة إيمانية ، وإنما كان فخرنا بالخيرية والسمو على أناس يشوبهم النفاق لا على قوم مؤمنين . كذلك تظهر واقعية السؤال من باب آخر : إن مجتمع الدعاة على طبقات ، منهم القدوة السريع

الهـمـام ، ومنهـم المقـاد المتـثـاقـل ، والواجب أن نمد يداً من المساعـدة جاذبة ، وأخرى ماسحة حانية ، لهذا الثانى البطىء .

✧ علم الهندسة النفسية ✧

لكن أهم ما يجب أن ننتبه له إذ نحن ننتظر وصفة العلاج : أن الجواب لا يمكن أن يكون نظرياً بحتاً أو أن يوضع من وراء حجاب ، بل لابد من معاينة وتشخيص من خلال التعامل ، وإلا كنا مثل طبيب المجلات ، يسأله القارئ ، ويجيب عن بعد ، دون أن يعد نبضات قلبه ، أو يقيس ضغطه وحرارته ، أو يتفرس فى وجهه ويميز صفرته من حمرته ، وجواب مثل هذا يكون الخطأ فيه كبيراً .

ومن هنا فإن مهمة مثل هذا الكلام أن يضع الموازين والقواعد لا أن يشخص الحالات ، وسبب ذلك أن النفوس مختلفة ، لكل نفس هويتها الخاصة التى لا تكاد أن تشابهها نفس أخرى ، حتى لكأنها مثل بصمات الأصابع فى دلالتها على هوية الشخص ، لا تتكرر أبداً ، وإن كانت تتقارب ، فهناك لكل شخص (هوية نفسية) يجب أن نفحصها ونتعرف عليها قبل أن نحكم عليه فى قضية يتعلق الحكم فيها بهذه الهوية ويتأثر بنوعيتها ، وقضية الفتور ف العمل الدعوى من ضمن هذه القضايا .

وإنما تنشأ اختلافات النفوس من حقيقة أن كل نفس هى عبارة عن (خلطة) أو (مزيج) أو (تركيبة) من صفات شتى متضادة ، صفات خير ، وصفات شر .

فمن جانب توجد الشجاعة ، ويوجد الكرم والحلم والصبر ، وبقية الصفات الإيمانية الحسنة ، ومن جانب آخر يوجد الجبن والبخل والحسد وسوء الظن وبقية الصفات السيئة ، ويختلط مقدار

من هذه وهذه فى بوتقة واحدة وبمقادير معينة ، فتكون نفس فلان ، وبمقدار آخر ، فتكون نفسية أخرى ، فى تعدد وتنوع لاحصر لهما يجاريان كثرة الاحتمالات الرياضية للتوافيق والتباديل بين الصفات الجزئية وكما أن جميع معادلات الرياضيات نشأت من الأرقام العشرة، الصفر إلى التسعة ، فإن جميع النفوس نشأت من تلك الصفات ، فنفس فيها ١٠٪ من الكرم ، ونفس فيها ٩٠٪ منه ، وبينهما درجات .

إن هذا الفهم للتركيب النسبى للنفوس هو أحد أهم القواعد فى التعامل مع النفوس فى كل أحوالها ، وهو وإن ظهر للوهلة الأولى أنه البديهية التى لا يحتاج أحدنا إلى أن يذكر بها ، إلا أن التجربة التربوية تشير إلى أن هذا الفهم كان كثيراً ما يغيب عن بال المربين وواصفى العلاج .

بل أكثر من هذا ، فإن (الخلطة) الواحدة التى تتكون منها نفس شخص ما ليست دائمة ، بل لها تغير كبير واضح فى كل حقبة ، وأصغر منه فى كل سنة ، وأصغر منه فى كل موسم ، وأصغر منه فى كل يوم ، **ولو كانت النفوس جامدة لا تقبل التغير لما كان للوعظ دور ، ولا للتربية معنى** ، لكن أغلب هذا التغير إنما يكون بالتطبع وقسر النفس على الظهور بمظاهر معينة والقيام بأعمال ثقيلة عليها ، وإن كان طول التطبع قد ينسى النفس طبعها القديم وتتحول المغالبة إلى عادة ميسورة .

من هنا ينتفى صواب وصفة مطلقة للعلاج ، بل لابد من دراسة ميدانية للظواهر العامة وتشخيص أسبابها وتاريخ ظهورها ، ولابد من إقامة علاقة ثنائية مباشرة قبل الإفتاء فى الظواهر الفردية الخاصة تتيح اكتشاف جذورها .

✧ منحة... بين فطرة وآهة ✧

* ولعل من أهم موازين العلاج : إدراكنا تعلق المسألة النفسية ببقايا الفطرة فى كل شخص كمثل تعلقها بالإيمان المكتسب ، وهذا المعنى مستفاد من قول النبى صلى الله عليه وسلم : (الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا) . فالذى لا يسعفه أساس فطرى متين لا يرقى به إيمان مستحدث لأكثر من الدرجات الدنيا ، ويبقى العلو صعباً عليه ، وقد تكون الفطرة فى شخص ما متلاشية ليس لها بقايا ، وهى فى الأنبياء أوفر ما تكون ، باقية بتمامها ، ويشير إلى ذلك قول جبريل عليه السلام : « أخذتَ الفطرة » ، لما مدّ النبى صلى الله عليه وسلم يده إلى اللبن فى المعراج وترك الخمر [1] ، وما بين الأنبياء وأصحاب الفطر المتلاشية درجات لا حصر لها .

* **ومن الموازين أيضاً** : اعتقاد وجود عنصر مؤثر ثالث غير الإيمان والفطرة ، وهى المنح الربانية المحضة لمن يحسن إيمانه ، مثل الإلهام ، وصدق الرؤيا ، وصحة الفراسة ، والمحبة أو المهابة التى تلقى فى قلوب الناس لمؤمن ما ، وأنواع أخرى من الكرامات المعنوية، وهى من فروع الإيمان وثمراته بلا شك ، لكنها فرع مستقل مكافئ ، وهذا الاستقلال آت من أن حصولها لا ينضبط زماناً أو كمية وفق القوانين الحياتية الظاهرة المحسوسة التى يمكن أن

---

(1) صحيح البخارى 4 / 186 طبعة صبيح .

تعرف بالقياس والمشاهدة والاستدلال وحتمية الارتباط بين المقدمة والنتيجة ، وأمثال ذلك ، وإنما تحصل بفضل بحت من الله تعالى ، وصحيح أنها إنما تُمنح لأهل الإيمان العالى ، لكن هذه القاعدة لا تخضع لقياس ، لأن الإيمان سر ، ولا يدرى حتى المؤمن نفسه فى أى أجزاء الإيمان وأخلاقه تكمن الأهمية ، لأنها متعلقة بالظروف المحيطة وبالأشخاص المقابلين الذين يتعامل معهم المؤمن ، وقد تكون كلمة معروف فى آن تجاه شخص ، أو حكم بعدل : أفضل من عبادة طويلة، مثلاً ، وكذلك ستر مؤمنة بل أنثى ولو كافرة ، ويشهد لهذا وصف النبى ﷺ للكلمة التى تُدْخل قائلها الجنة أنه (لا يأبه لها)، وتتوالى ظنون الخير فى أفعال الناسَ ـ بَلْهَ المؤمنين ـ حتى ليُغفر لمومس تسقى كلباً ، كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكل ذلك من فضل الله عز وجل ، ليس عليه بواجب كما توهم بعض المبتدعة ، بل إن شاء .

* **ومن الموازين أيضاً** : أن (خلطة) الصفات هذه لا تكون اكتيالاً لكل ما هو محمود منها ، جزافاً دون اختيار ومقدار ، وإنما يجب أن يحل التناسب بينها إن لم يكن التكافؤ والانتقاء ، فكأن فى القلب قناة وحيزاً لكل صفة فاضلة ، لو فرّغ منها وملأته صفة أخرى تضاعف حيزها ومكانها لحصل طغيان فى تلك الصفة زائد عن حد الاعتدال ، فيخرج المرء إلى تطرف ، ففى القلب مثلاً أماكن للشجاعة والكرم والصبر والحلم ، فما من مبالغ فى صفة من هذه الصفات إلا كانت مبالغته على حساب الصفات الأخرى ، ناحتة منها، وقد أشار الإمام الغزالى إلى قريب من هذا المعنى ، وقد يكون هذا هو سر لغز انهيار بعض المبالغين فى الحماسة والمناوشة والتحدى

وحب الصـدام عند المحن والفتن ، لأن صـفـاتهم هذه نحتت من صبرهم وأزاحته وسكنت مكانه ، واختل التوازن الكمى فى خلطة صفاتهم ، والله أعلم ، وقد قلت هذا بين يدى الأستاذ صلاح شادى رحمه الله مفسراً له ظاهرة سرعة انهيار دعاة الصدام فى المحن ، فاستحسنه منى .

* **ومن الموازين أيضاً** : أن هذه الحياة لا تؤثر فيها الصفات النفسية الإيجابية فقط ، بل يؤثر فيها السلب أيضاً ، بقدرة الله تعالى ، فالمظلوم المتحرق ، والحزين المنكسر ، والملهوف المشتاق ، والتائه التوَّاق ، كل أولئك فى تعطل وانعزال وانسحاب وسكون وتسليم ، لا يقدرون فى أكثر الأحيان على شىء من المدافعة واتخاذ الأسباب ، فإذا فوضوا أمرهم إلى الله تعالى : انتصر لهم بلا فعل منهم غير المعنى الذى تفورُ به قلوبهم ، حتى الكافر ينتصر الله له من ظالمه .

✧ نسبية التوثيق والتضعيف ✧

* **ومن الموازين** : أن لا تتعسف فى نسبة فتور لداعية فى ميدان لم يخلق له ، بل كلٌ ميسرٌ لما خلق له ، وليس الاتصال بالناس ونشر الدعوة بينهم هو المقياس الوحيد لجدية الداعية ، بل يمكن أن يكون موهوباً فى الفقه ، فانسب له الفتور فى التفقه إن عطل ذكاءه وموهبته ، ويمكن أن يكون موهوباً فى الأدب ، ولك أن تفتش عن أسباب قلة كتابته وانسداد قريحته ، وقد يكون ماهراً فى التحليل السياسى ، فتستغرب أن لا يكتب التقارير أو المقالات ، أما أن تريد

من الشاعر دق أبواب الناس ، ومن السياسى التشمير مع الناشئة ورحلاتهم وتجوالهم ، فقد أرهقت نفسك مثلما أرهقتهم .

الآن ، بكل هذه الموازين حاكم هؤلاء أشباه الملائكة الأخيار إذا فترت هممهم أو قلت حركتهم ، وستجد من جميل أخبارهم ما يثنيك عن التهمة والملامة .

إن التحقيق الذى يقترن به استحضار هذه الموازين فى فهم النفس وأحوالها وما ينتظر لها أو يوهب لها : يبدى أن دارنا ليس فيها متهم ، بل الكل ثقات ، والجميع نبلاء ، ولكن الهموم استولت فربطت أقداماً مسرعة ، ولفّت أشرعة مبوسطة ، وأثقلت أجنحة لطالما رفرفت .

إنها زيادة هَمٍّ استولت فدوخت ، ليس ثمَّ كسل وتفريط وفتور ونقص همه .

نعم ، هناك فتور وضعف فى الهمّة ، لكنه لا يظهر كعائق نفسى أصيل ، وإنما هو ظاهرة عرضية جانبية لواقع صعب ، والكشف عن الأسباب والجذور المكنونة لهذا الواقع وتشخيصها أول العلاج ، وثم مبتدأ الجواب .

✧ طوق .. وحصار .. وإيغال فى اللوْم ✧

قد يكون الداعية مشتاقاً للبذل ، محباً للعمل ، لكن تعقله متاعب تثيرها زوجه ، أو رسوب فى امتحان ، أو خسارة فى تجارة ، أو علاقة متوترة مع رئيس فى المهنة .

* وهل من داعية اليوم تخلو حياته من أن يعكرها ظلم مركب

متعدد الأنواع ، من بين قتل قريب أو حبيب ، أو سجن حتى قضبان الزنزانة تمل من طوله وتضجر من قسوة وراءها ، أو تشريد إلى دار هجرة يقل فيها مورده من بعد عز ، ويضطر فيها أن يدارى ، ويغض الطرف ويسكت ، وقد كان هو من قبل أستاذ الصراحة ، فصيح اللسان رفيع الصوت ؟

* وأى داعية أصبح لا يقول للصعلوك الثورى فى بلده ، أو للحدث الحافى فى دار هجرته : أيها الأستاذ ، وأحدهما لا يساوى فلسين أحمرين ؟

* وأى داعية ليست تعركه مشكلة الوثائق وجواز السفر والإقامة والغرامات ومقابلة مانعى حقوقه ؟

* وأيهم لم تفركه تعقيدات أحوال الأولاد فى المدارس ؟

* وأى مهاجر مشرد لا تشتاق زوجه إلى أمها وأخواتها وبنات عمها ولا تخنقها العبرات ؟

* وأى رجل تموت أمه ولا يحضر جنازتها ثم يصبر ، ويموت أبوه ولا يصلى عليه ؟

هذا كله إذا كان عديم الإحساس بقضايا الأمة ، ولا يقشعر جلده لمذابح بورما والبوسنة ، ولا تستفزه مأساة الأفغان ، ولا تفجر شفقته مجاعة أفريقيا .

إنها بطولة حقيقية أن يصمد داعية أمام كل هذه الضغوط النفسية ، الخاصة والعامة ، وأن لا ينهار ، وقد أرته السنون نجوم النهار . . . !

متعدد الأنواع ، من بين قتل قريب أو حبيب ، أو سجن حتى قضبان الزنزانة تمل من طوله وتضجر من قسوة وراءها ، أو تشريد إلى دار هجرة يقل فيها مورده من بعد عز ، ويضطر فيها أن يدارى ، ويغض الطرف ويسكت ، وقد كان هو من قبل أستاذ الصراحة ، فصيح اللسان رفيع الصوت ؟

* وأى داعية أصبح لا يقول للصعلوك الثورى فى بلده ، أو للحدث الحافى فى دار هجرته : أيها الأستاذ ، وأحدهما لا يساوى فلسين أحمرين ؟

* وأى داعية ليست تعركه مشكلة الوثائق وجواز السفر والإقامة والغرامات ومقابلة مانعى حقوقه ؟

* وأيهم لم تفركه تعقيدات أحوال الأولاد فى المدارس ؟

* وأى مهاجر مشرد لا تشتاق زوجه إلى أمها وأخواتها وبنات عمها ولا تخنقها العبرات ؟

* وأى رجل تموت أمه ولا يحضر جنازتها ثم يصبر ، ويموت أبوه ولا يصلى عليه ؟

هذا كله إذا كان عديم الإحساس بقضايا الأمة ، ولا يقشعر جلده لمذابح بورما والبوسنة ، ولا تستفزه مأساة الأفغان ، ولا تفجر شفقته مجاعة أفريقيا .

إنها بطولة حقيقية أن يصمد داعية أمام كل هذه الضغوط النفسية ، الخاصة والعامة ، وأن لا ينهار ، وقد أرته السنون نجوم النهار . . . !

تتـهم فى تسببه خطط التشغيل ، وهذا مبحث تستوفيه الآراء المطروحة حول عوامل الجدية الجماعية ، وفى ذلك إشارة إلى **أن قضية الفتور لا يستوعبها نظر واحد من زاوية واحدة ، بل يجب النظر إليها من زوايا كثيرة ، وزاوية النظر ها هنا فى هذا الكلام هى الزاوية النفسية .**

لكن كل هذا النضال عن القوم الذين ظلموا ففتروا فتوهَّم العاملون ضعفهم وتسيبهم لا ينفى وجود أفراد فى الصف ألهتهم عن الجد أمراضُ القلب ، وركن بهم حب الدنيا عن نجدة إخوانهم المسلمين ، ولو أنكرنا وجود هؤلاء لوقعنا فى المبالغة المذمومة والمغالطة المفضوحة ، لكنهم العدد الأقل ، ويبقى ميزان التفتيش عن خلفياتهم النفسية صحيحاً أيضاً وضرورياً للكشف عن أسباب فتورهم، فمنهم من تجده حسن التوجه ويفهم الدعوة ، لكن قلبه ما زالت تعكره بقية من حسد يشغله عن العمل الصالح إذا ربح قرين له ربحاً تجارياً أو نال مركزاً مرموقاً . ومنهم من يعشق الرئاسة والصدارة، فيظل ساخطاً إذا أُبعد عنها ، فيصرفه سخطه عن التصدى لإرشاد الناس ، وكل خلق آخر مذموم يمكن أن يؤدى إلى شكل من أشكال الحياة السلبية ، وهؤلاء الرهط تنفع معهم الموعظة ، فتكون بالإيماء ، وإلا فالبصراحة ، وإلا فبالخشونة والتقريع ، ولن ينفك مخلص عن اتعاظ إذا كان معدنه صافياً ولم يزد ذهوله عن أن يكون غفلة اعترت ، وذو الشوائب يبتئس ، ويتعالى على النصيحة ، فينتكس ، وليس الصف عليه بحريص ، ونتأول لأنفسنا أنها تجربة تجميع معرضة للخطأ والصواب ، أصابت

كثيراً . والبركة فيمن ثبت وتواضع وانشرح قلبه لوجود ناصح له ، وأخطأت قليلاً ، وسلوتنا أن السيرة المطهرة لم تبرأ من ظاهرة المخلّفين .

كل هذة الموازين سهلة الاكتشاف والتطبيق إذا كانت الأخلاق المستولية على الشخص المدروس من الأخلاق المشهورة والصفات الواضحة الرئيسة ، محمودة كانت أم سيئة ، لكننا نكون أحياناً إزاء حالة مشكلة إذا كانت الصفات المسببة من الصفات الخفية .

* من أمثال ذلك : ضيق الداعية ذرعاً بمن يخالفه فى الرأى ، وعدم استيعابه له : هو من الأخلاق الخفية ، ويسبب عزوف المخالفين عن العمل .

* وكذلك : قسوة الأمير على أعوانه ، وفهمه وجوب الطاعة بشكل يابس ، هو من خفى الأخلاق ، وتسبب النفور الذى هو أبعد من الفتور . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رحيماً ، والرحمة وخفض الجناح تليق لكل أمير .

* كذلك يحل بالأتباع إزاء هذين الخلقين ما هو مثيل لهما فى السوء ، فبمقابل ضيق الداعية برأى المخالفين يكون إلحاح التابع ، وطول نَفَسه فى الجدل والاعتراض حتى لكأنه يتنطع . وبمقابل قسوة الأمير يكون إسراف المقود فى التفلُّت وعدم الاكتراث بالنصيحة وكثرة استنباط الأعذار وطول التشكى ، وما إلى ذلك وإنما أردنا من هذين المثالين وعكسهما الإشارة إلى **أن نقص النفس المؤدى إلى الفتور يكون فى الطرفين ، وليست الإمارة شهادة عصمة، ولا الانقياد مبرر تدلل واتكال** .

✧ إقبـــال..وإدبـــار ✧

ومع ذلك فـإن الحـذر فى التـشـخـيص واجب ، إذ أن بعض حالات الفتور هى حالات وقتية طارئة ، وعلينا أن نستقبلها كظاهرة طبيعية دونما جفلة واستكبار ، وقد أخبرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن (لكل عمل شرَّة ، ولكل شرة فترة) ، والشرة : أقصى الجد ، ومن بعـد كل جدَ فـتـور ، وهذا يعنى أن حيـاة المؤمن ضـفـيـرة من سلسلتين ، سلسلة جد وسلسلة فتور ، تتداخلان ، فبين كل جدين فتـور ، وبين كل فتورين جد ، وتتشـابك معهـمـا سلسلة ثالثة من الأخلاط تطيل الفتور أو ترجح الجد ، وفق ظاهرة (الخلطة النفسية) التى قلناها آنفـاً ، والإيمـان يزيد وينقص تبعـاً لذلك ، ولأسـبـاب أخرى علمها عند الله ، أى كأنّ هناك ثوابت نفسية تسبب الشرّة والفتور وتعاقبهما ، لكن الأخلاط المتأرجحة غير الثابتة ترجّح مَدة ودرجة كل منهما ، وقد رصد بعض الصحابة للقلوب إقبالاً وإدباراً فأوصى بإلزامها العمل عند إقبالها ، والرفق بها عند إدبارها .

✧ لا تخدش عزة النفس ✧

فإن كـان التـشـخـيص فليكن العلاج الرفـيق ، فإن النفس لا تعـاقَب ، وقد غلط الصوفـية إذ سنّوا سُنّة عـقـابهـا ، بحرمانهـا من المباحات ، والإثقال عليها فى الأعمال ، يريدون استدراك تفريط الماضى بمضاعفة واجباتها ، ومثل هذا الإرهاق قد يؤدى إلى نتيجة عكسية وإلى ملل بعد حين قد يجر إلى نكوص ، والمنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

أما أن بعض النماذج تتحمل الأثقال فتلك هى النفوس القوية ، وحين يُضرب عمر بن عبد العزيز لها مثلاً أو أضرابه فلكى يكون رمزاً لو كنا على عشر ما كان عليه لكنا على خير وافر ، وأما حرفية الاقتداء فتلك أمنية بعيدة المنال ، يهب الزمان لها واحداً فى الأمة على مدى قرن ، ولكن نسدد ونقارب ، والناس كإبل مائة ، هزال مترنحة مسترخية ، وراحلة شديدة سباقة واحدة .

✧ الحصيرة...عرش الداعية ✧

فإن لم يكن إرهاق النفس سائغاً ، ولا انتظار النفس الرمزية وارداً : لم يَبق لنا إلا الطريق الأوسط الأقرب ، طريق تلاوة القرآن ، والصلاة ، واللبث فى المساجد ، وحلق الذكر ، وتهجد الثلث الأخير ، وزيارة القبور ، ومجالس العلم ، وغدوة النهى عن المنكر إذا انطلق ، وروحة أمر الأصحاب بالمعروف إذا آب ، وعلى هذا دل الهَدى النبوى الشريف ، ومن لم تُحلّق به روحه إذ هو على حصيرة المسجد البالية فلن يطير به بساط السندباد .

إن علاج الفتور لا يكون بتقريع ، بل بانتصاب البعض قدوات ، والقدوة إمامة بلا إمارة ، وعنوان بلا تسمية ، تنبثق تلقائياً دونما تكلف أو إشارة ، وليس شرف من يوفق للتأسى بأقل من شرف مؤمن رائد استتم له النبل فصار بموضع الأسوة .

والدعاء من قبل ومن بعد هو الذخيرة ، وقد وضع الأستاذ مصطفى مشهور مناجاة دعوية يتذلل بها الداعية بين يدى رب غفور ودود كريم لطيف ، هى أول الطريق ، وهى آخره ، فليحرص عليها الدعاة ، وليقولوا مثلها : تفتح لهم نفوسهم بعد إغلاق ، وتفتح لهم قلوب الناس بعد إدبار ، وتفتح لهم قلاع العدو بعد امتناع .

كتاب ومحراب

4

إذا كان الأمر كذلك ، فإن فى « العلم » حلاً رئيساً .

العلم يُجفل صاحبه ، ويقلقه عن حالة السكون ، ويحركه نحو التمرد على الهواتف الصوارف وقواطع الطريق .

وفى الزمن القديم ، أيام عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، كانت هناك مشاكل مشابهة وإحباط وحالة حزن ترهق المؤمنين ، بسبب الفتن والمظالم التى تراكمت ، فعالجها عمر بالعلم كما عالجها بالعدل ، وبانتصابه قدوة للأمة فى التجرد وابتذال النفس ، فكتب لكل وال من ولاته أن : (أما بعد : فمر أهل الفقه والعلم مَن عندك فلينشروا ما علّمهم الله فى مجالسهم ومساجدهم) .

وقد كان منهم الأداء ، فكانت النهضة العلمية التى قادها عمر هى التى رمّمت ما هدمته سيوف التأول وعواطف الخلاف من قبله .

وأمرنا شبيه ، ولنا به اقتداء ، وإذا كان تحليلنا ينتهى إلى أن فى الأمة الإسلامية اليوم تخلف وفتن وافتراق ، أو أن الدعوة الإسلامية تشكو من تعاكس المواقف ، فإن العلم يتكفل بتوضيح الرؤية وتوحيدها ، والتأثير إيجاباً فى أخلاق الرجال . ويجدر بنا أن نعلم فوق ذلك أنه منزلة اختصاص وتفضيل ، كما فهمها أبو بكر الآجرى حين قال :

« إن الله عـز وجل وتقدست أسمـاؤه : اختص من خلقه من أحب، فهداهم للإيمان ، ثم اختص من سائر المؤمنين من أحب ، فتفضل عليهم فعلّمهم الكتاب والحكمة ، وفقههم فى الدين ، وعلمهم التأويل ، وفضلهم على سائر المؤمنين ، وذلك فى كل زمان وأوان ، رفعهم بالعلم ، وزيّنهم بالحلم » .

فهذا الحلم هو الثمرة الأخلاقية الإيجابية التى نعنيها ، وهو أساس علاج الفتن والافتراق ، وما ينتجه الحلم من التأنى وهدوء النفس هما أيضاً أساس البحث المستفيض العقلانى الذى يدرأ تعاكس التأويل المسؤول عن تعاكس المواقف ، لكن العاطفة حين تستبد : تشرّق وتغرّب ، وذلك هو سر الخيرية الذى أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم ، كما فى الحديث الصحيح عند البخارى ، حين قال : (من يُرِد الله به خيراً : يُفقّهه فى الدين) .

✧ العلم الشرعى حقق وحدة أجيال الأمة ✧

بل وأكثر من هذا ، فإن داعية الإسلام إذ يعيش فى مجتمع الصخب الحاضر إنما يُقبل على الكتاب والعلم إقبالاً يتعدى الحافز الشرعى والإحساس المحرك الإيمانى ليجد سلوة وتحقيقاً لحاجة نفسية يستروح لها تنسجم مع سمته الإصلاحى وإعراضه عن اللغو ، لأنه يكره نفاق المداهنين وتحاسد الناس ، فيجد فى الكتاب الصاحب الوفى ، كما قال الشاعر :

نِعمَ الجليس إذا خلوت به
لا مكرُهُ يُخشى ولا شَغَبُه

فالكتاب أمين لا يغدر ، صامت لا يهذر ، ناصح لا يشاغب ، وهذه أوصاف عالية وأخلاق صافية ليس فى هذه الدنيا أحد أفرح بها من داعية مسلم أحاطه الجد فدقّ على صدره وقال : أنا للإصلاح . ثم يدق ثانية ويقول : أنا لمواصلة الدرب ، وأنا صلة الأجيال ، وذلك أن الأمة إنما بقيت حية نابضة القلب بحياة العلم الشرعى وحياة العلماء التى أفصح عنها الشاعر بقوله :

ما مــات قــوم إذا أبقــوا لنا أدبــاً

وعلم ديـن ولا بانــوا ولا ذهــبوا

فالوارث لهم يستشعر وحدة الأمة فى كل أجيالها ، وأنها طبقات متصلة مجتمعة حاضرة ، غير منقطعة ولا متفرقة ولا غائبة ، وذلك أن ثلة الفقهاء الأولين المتتاليين لم تمت ، ولم تتناثر حلقاتها ، وإنما هم أحياء بيننا بكتبهم وحروفهم ، ويمكن أن نصدق أو نكذب فى دعوى وراثتهم بمقدار الوفاء الذى نكنه لهم ، وبمستوى الهمة التى تحركنا إلى مطالعة أوراقهم .

✧ زيت وأحبار... لا خمر وأوتار ✧

وكان قد قيل لبعض الحكماء : (**بم كنت أعلم قرنائك ؟ قال : لأنى أنفقت فى زيت المصباح لدرس الكتب مثل ما أنفقوا فى شرب الخمر**) .

فهذا فرق مابين الجمع العلمى المبارك والرهط الزكى ، وبين آخرين من أبناء جلدتنا تلهيهم حفلات المعازف ورنّات الكؤوس .

إلا أن الجهل قد تقطعه انتفاضة تتمرد على الاسترسال فى

الصـدود ، ولذلك وصف العلم بأنه : (بداية تذكرة للغافلين) ، لكن خيريته لا تنقطع ، بل تزداد وتتعاظم ، فيكون أيضاً : (سبب منافسة بين المطيعين) ، وبذلك لا يقتصر على أن يؤدى دوره فى تجديد حياة المُعرض ، وإنما هو دافع يدفع التقى على أن يعدّد صوابه ، ويوسع دوائره ، صاعداً سلم ارتفاع يظل أبداً يسمو ، ومستنيراً بشعاعٍ هادٍ مستمر فى الانتشار ، تومض به قمة كل منار .

✧ أبيض...وأسود ✧

لكن قابلية هذا العلم على التأثير فى حَمَلته والتعدى إلى آخرين متوقفة على شرطين مهمين :

*** الشرط الأول : صفاء بلا ابتداع .**

بأن يكون على السنيّة المحضة ، والاتباع الصارم ، والانتساب إلى ما كان عليه السلف فهماً وعملاً ، وهذا الانتساب معلمٌ بارز من معالم تمييز البدعة أشار إليه النسفى فى تفسيره لما وصف الله تعالى به نفسه أنه : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] ، فقال : (أى مخترعهما ومبدعهما لا على مثال سبق . وكل من فعل مالم يسبق إليه يقال له : أبدعت . ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة : مبتدع ، لأنه يأتى فى دين الإسلام مالم يسبقه إليه الصحابة والتابعون رضى الله عنهم)[2] .

ويجتمع هذا التمييز إلى تمييز آخر كامن فى الوضوح الذى حواه الدعاء الذى لقّنه الله تعالى لكل مؤمن فهو يقوله بكرةً وأصيلاً ويتضرع أن :

(1) سورة البقرة : (117) .
(2) تفسير النسفى 1/ 83.

﴿اهْدنَا الصراط الْمُستقيم﴾ (1).

أى (ثبتنا على المنهاج الواضح) ، كما قال النسفى .

فصاحب السنة ظاهرة مفاخر مشاور ، والمحْدث باطن شائن مائن. وذو الاتباع أبداً فى العرصات علانية ، والمبتَدع يهرب أبداً إلى الدهاليز والأقبية والظلام ، يتوارى .

وكأن هذه الإحساسات هى التى أنطقت الشاعر فى تشبيهه للسماء ، فقال :

وكـــأنّ النجـــــوم بين دجُـــاها
سُنَـــن لاح بينـــهـن ابتـــــداعُ

قال السكاكى :

(فإنه حين رأى ذوى الصياغة للمعانى شبّهوا الهدى والشريعة والسنن وكل ما هو علم بالنور ، لجعل صاحبها فى حكم من يمشى فى نور الشمس فيهتدى إلى الطريق المعبّد ، فلا يتعسف فيعثر تارة على عدو قتّال ، ويتردى لجعل صاحبها فى حكم من يخبط فى الظلماء فلا يهتدى إلى الطريق ، فلا يزال بين عثور وبين تردد : قصد فى تشبيه هذا تفضيل السنن فى الوضوح على النجوم ، وتنزيل البدع فى الإظلام فوق الدياجى) .

✧ اجتهادنا المنضبط فى مواجهة الاعتزال الجديد ✧

ثم إن الدعوة إلى (العلم الإسلامى) هى أبعد من مجرد دعوة

---

(1) سورة الفاتحة : (6) .

تعميمية إلى علم إسلامى ملفّق من أقوال علماء المسلمين بلا قاعدة تحدد الاختيار والانتقاء ، وإنما هى دعوة تخصيصية للرجوع إلى علم شرعى على منهج الأصالة الذى تركته لنا واضحاً جمهرة أئمة المذاهب الأربعة ومن قاربهم من السلف القديم ، وهو علم وقّاف عند النصوص الحديثية الصحيحة ، مستنبط لما فيها من معانٍ وفق قواعد فن أصول الفقه وضوابطه الدقيقة .

إنها إذن دعوة إلى العلم مرتبطة منهجية صارمة هى وحدها القادرة على أن تتكفل بتحجيم (المنهجية العقلية) التى رفعت رأسها مجدداً على طريقة التوسع فى التأول فى إطار المدرسة الاعتزالية المعروفة ، والتى ربما ستجلب مزايدات غير محدودة فى الترخّص والتسهيل والتجانس مع الحياة العلمانية السائدة تبعاً لاختلاف عقول المشاركين فى الإفتاء والتوصيف والتعليل ، والدليل على ذلك أن من حاز علم الأصول من أصحاب هذه المدرسة لا زال أقل إغراباً من غيره وأسلم قولاً .

نحن دعاة (الاجتهاد) والإبداع والنظر الشمولى ، ولا فخر ، ولنا فى ذلك بحمد الله صولات ، وتشهد لنا وثائق ، ولسنا نقبل الجمود والتقليد وإلغاء العقل والوقوف عند أقوال الفقهاء الذين لا تسند النصوص ما ذهبوا إليه ، ولكن الاجتهاد الذى نرومه إنما هو اجتهاد منضبط ، ومحروس بسنن ، وهو يتجول بحرية داخل العرصات الواسعة التى منحتها (القواعد الفقهية) للمتفقه والمفتى ، بحيث يذهب مع المصالح والضرورات إلى أبعد مدى ، لكن اجتهادنا قد ألزم نفسه أن يقترب ما أمكن من منطق الشاطبى فى موافقاته

مثلما يقبس من جرأة ابن حزم فى محلاه ، متجنباً غرائبه القليلة، وأن يقترب من احتياطات ابن حجر فى فتحه ، ومن ترددات النووى بين التهيب وإحداث قول جديد فى مجموعه ، مثلما يساير ويماشى توسيعات ابن تيمية فى فتاواه ، وأمثال ذلك مما أتى به علم فطاحل آخرين كأن القدر جمع علم بعضهم إلى بعض لتكتمل صورة فقهية ناضجة تفرض نفسها علينا بقوة حججها ووضوح تقعيدها . وغاية اجتهادنا أن يستجيب للمستجدات التى أتت بها الحياة المعقدة المعاصرة من خلال الارتباط الوفى باجتهادات السلف الأولين ، وليست غايته نبش وقلب صورة الفقه التى تكونت فى قرون الفضل الأولى من خلال ظنون وتأولات تترك الناس فى فوضى أمام زخم العقلانيات التى قد تكون متضادة بنفس حجم تضاد العقول البشرية والخلفيات التى ينطلق منها الخائضون ، حتى أن رغبات السلاطين باتت تشكل إحدى أهم هذه الخلفيات التى تحاول التمرد ، فتحيص حيصة مفضوحة كلما حاصرتها عوازم الفقه وجوازم الإيمان .

ثم يحرس اجتهادنا نفسه مرة أخرى بمظلة من العقيدة السنية النصّية ، فى وفاء ثان لحدود عقيدة الإمام أحمد بن حنبل التى ميزها عن الاستطرادات البدعية التى أوغلت فى التعطيل والتمثيل ، ونحن ندرك أن المدرسة العقلية الفقهية التى يريدها الاعتزال الجديد ستقوده إلى نزعة فى الاعتقاد ولابد ، لأن المحركات واحدة .

❁ الشرط الثانى : إخبات بمحراب

كما قال بعض الصالحين : (ما فتح الله تعالى على عبد حالة

سَنية إلا باتباع الأوامر وإخلاص الطاعات ولزوم المحاريب)[1] ، واستشهد بدعاء زكريا وكيف أن الله تعالى وهبه يحيى وبشره به وهو قائم يصلى فى المحراب .

والتأثير فى الآخرين هو أسمى هذه الصور السَنية التى نطمح لها ، ولن تكون إلا من خلال المحاريب .

وإنما يحرك المحراب فينا معانى الرجاء والخوف معاً ، وهى أحوال قلبية وممارسات عملية معاً .

أما الرجاء : فرجاء الكرامة والفوز والنجاة ، وطريق هذه النعم معروف ، بينته معادلة شرطية فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[2] .

قال النسفى : قال أهل الإشارة :

(أوفوا فى دار محنتى ، على بساط خدمتى ، بحفظ حرمتى : أوف فى دار نعمتى ، على بساط كرامتى ، بسرور رؤيتى)[3] .

وأما الخوف : فمن فزع يومئذ ، وأقل هذا الفزع ما صوره صالح المرى لما قرأ قارئ : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[4] .

فقطع صالح عليه القراءة وقال :

---

(1) تفسير النسفى 1 / 213 .
(2) سورة البقرة : (40)
(3) تفسير النسفى 1 / 46 .
(4) سورة غافر : (18) .

كيف يكون لظالم حميم أو شفيع والمطالب له رب العالمين ؟

إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصى يساقون فى السلاسل والأنكال إلى الجحيم ، حفاة عراة مسودة وجوههم ، مزرقة عيونهم، ذائبة أجسادهم ، ينادون : يا ويلنا يا ثبورنا ، ماذا نزل بنا ؟ ماذا حلّ بنا ؟ أين يذهب بنا ؟ ، ماذا يراد منا ؟ والملائكة تسوقهم بمقامع النيران ، فمرة يجرون على وجوههم ويسحبون عليها منكبين، ومرة يقادون إليها مقرنين ، من بين باك دماً بعد انقطاع الدموع ، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت . إنكَ والله لو رأيتهم على ذلك لرأيت منظراً لا يقوم له بصرك ، ولا يثبت له قلبك ، ولا تستقر لفظاعة هوله على قرار قدمك .

ثم نحب وصاح : يا سوء منظراه ! يا سوء منقلباه !

وبكى وأبكى الناس ، فقام فتى فقال : أكُلُّ هذا فى يوم القيامة يا أبا بشر؟

قال : نعم والله يا ابن أخى ، وما هو أكثر .

فصاح الفتى : إنا لله ، واغفلتاه عن نفسى أيام الحياة ، وا أسفا على تفريطى فى طاعة الله ، وا أسفاه على تضييعى عمرى فى دار الدنيا ! ثم بكى، واستقبل القبلة فقال :

اللهم إنى أستقبلك فى يومى هذا بتوبة لا يخالطها رياء لغيرك ، اللهم فاقبلنى على ما كان فىّ ، واعف عما تقدم من فعلى ، وأقلنى عثرتى . ثم استقام حتى مات .

وهذا النمط من كلام صالح المرى هو الأصل الذى وسعه سيد قطب فى وصفه لمشاهد القيامة فى القرآن .

وإنما تتاح لك مثل هذه الذكرى التى تنفعك وتنفع المؤمنين إذا طالعت كتب الرقائق والمواعظ وقصص أهل الصلاح وأصحاب المحاريب ، وهى تجربة ابن الجوزى رحمه الله ، التى يشدد عليها . قال :

(رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفى فى صلاح القلب ، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر فى سير السلف الصالحين ، لأنهم تناولوا مقصود النقل ، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها .

وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق ، لأنى وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم فى الحديث العالى وتكثير الأجزاء ، وجمهور الفقهاء فى علوم الجدل وما يغالب به الخصم ، وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء ؟

وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه ، لا لاقتباس علمه ، وذلك أن ثمرة علمه : هديه وسمته ، فافهم هذا ، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد فى الدنيا ، ليكون سبباً لرقة قلبك) [1] .

ولذلك حذرنا فى مناسبة أخرى من طريقة الفقهاء فى تجريد دراسة الأحكام ، حين (جعلوا النظر جُل اشتغالهم ، ولم يمزجوه بما يرقق القلوب من قراءة القرآن وسماع الحديث وسيرة الرسول ﷺ

(1) صيد الخاطر / 216.

وأصحابه ، ومعلوم أن القلوب لا تخشع بتكرار إزالة النجاسة والماء المتغير ، وهى محتاجة إلى التذكار والمواعظ لتنهض لطلب الآخرة ، ومسائل الخلاف وإن كانت من علم الشرع إلا أنها لا تنهض بكل المطلوب) [1] .

وذلك لأن هذا النظر إنما يفتيك الفتاوى التى تحكم الجوارح والأبدان ، وذلك نصف الإسلام ، وأما نصفه الآخر فعلم يكشف لك أحوال القلوب ومكانتها من الإخلاص والتجرد والرضا والشكر والتوبة ، فى مائة منزل تنزلها قلوب السالكين إذ هى فى مدارج الإيمان الصاعدة .

✧ فى ظلال التفويض ✧

وكما يكون فى أحكام الجوارح (اجتهاد) و (مذاهب) : يكون فى علم القلوب (اجتهاد) و (مذاهب) أيضاً ، وذلك أن المؤمن يظل يزداد تأملاً فى أحوال القلب حتى يدخل مرحلة (الاجتهاد الإيمانى) ، ربما ، ويسعفه الإلهام والتوفيق ، فيكون أقوى فراسة وأدق تمييزاً وأكثر جمعاً للمصالح .

فمما لا يدركه كثير من الناس أن الاجتهاد كما يكون فى أحكام فقه الحلال والحرام يكون فى فقه الإيمان أيضاً ، فيفاضل بين منازل الأخلاق ، أو يكون له ذوق فى المزج بين منزلتين ، أو تتابعهما أو الفصل بينهما ، مثلاً .

ومن أجمل وأبرع (الاجتهادات الإيمانية) : اجتهاد البخارى

---

(1) تلبيس إبليس / 116 .

رحمه الله ـ فيما يروى عنه فى سيرته ـ بين الدعاء وتركه ، وقوله أنه قد دعا الله تعالى مرتين فاستجاب له ، فهو يستحى أن يستطرد فى الدعاء ، أو يخشى الاستدارج .

ولا يفهم الناس هذا التمنع ، ويظنونه عدولاً عن سُنة ، فإن الدعاء سُنة إيمانية محكمة ، بل هو مطلوب مندوب ، وهو علامة ثقة المؤمن بربه وتعويله على إحسانه وكرمه ، ولكن البخارى إنما ينتقل عبر هيبته تلك لله تعالى إلى سنة أخرى يراها فى مذهبه واجتهاده أحكم وأبلغ فى الإخبات والتواضع والتذلل بين يدى حكمة الله تعالى ، وهى سنة (التفويض) ، فإنه يكل الأمر إلى ربه يفعل به ما يشاء ويختار له الأصلح فى دينه ودنياه ، وهذا نوع آخر من الثقة بالله تعالى هو قسيم الثقة المحركة للدعاء ، وتعبير آخر عنها ويسع المجتهد فى فقه الإيمان أن يفاضل بينهما .

ومما يزيد فى توضيح معنى الاجتهاد الإيمانى وإثبات وجوده أن تعلم ما ارتكبه بعض المسلمين من خطأ فى السلوك باسم التصفية والتزكية والترويض والتربية ، مما كثر عند بعض المتصوفة ، أو من خطأ فى فهم العقيدة حتى استحال خطؤهم إلى بدع متتالية ، وكل ذلك إنما هو (اجتهاد) لكنه خاطئ ، و(مذهب) فى التأويل ، لكنه قاصر . وإذا كان هناك اجتهاد مثل هذا هو عن الصواب بمعزل ، فإن ذلك يعنى إمكانية أن يكون هناك اجتهاد له من التوفيق والصحة نصيب .

وانظر فى هذا ما يروى عن رابعة العدوية من عدول عن التعبد بنيّة الثواب أو خوف العقاب ، مما هو عدول عن عبادة سُنية محضة : يتضح لك مثل من أمثلة الخطأ فى الاجتهاد الإيمانى . وفى إرهاق

النفس وفطمها عن المباحات مثل آخر فعله ويفعله آخرون خلاف السنة ، وفى فعل الكرامية الذين يرتكبون القبائح لتكون توبتهم ـ بزعمهم ـ أوثق . ولكن بمقابل ذلك دارت اجتهادات أخرى فى دائرة الممكن والسائغ والمقبول ، كمفاضلة البعض بين الشكر والصبر أيهما أفضل وأعلى ، مما هو مشهورفى محاورات أصحاب القلوب ، والتأمل فى هذه الأمثال يفتح لك باب الفهم لمعنى الاجتهاد الإيمانى .

ومن شعب هذا الإيمان : الاستسلام للقدر حين يرى العبد أن الأسباب الظاهرة المألوفة عند الناس ما عادت تجدى أو توصله إلى مبتغاه ومراده ، فيدرك أن فى الأمر سراً ربانياً وحكمة خفية ، وأن الله سبحانه يريد به لطفاً ـ ربما ـ حين يمنعه عن نيل ما يناله الناس ، ربما حتى فاجرهم ، بل كافرهم ، فيطرح نفسه على باب ربه متذللاً مفوضاً ، ويختط لنفسه مذهباً قدرياً خاصاً ، فيفتى نفسه بأن يكون ريشة فى مهب ريح القدر ، وقد كان من قبل يصارع قدر الشر بقدر الخير على طريقة عبد القادر الكيلانى المشهورة الصحيحة السنية ، وقد أتاها وحاول وأجهد نفسه وقواه ورصد الأسباب فسلكها وخاض الغمار ، وأوغل فى العمق واحتال بكل الحيل ، لكنه فشل ، فيغمره إدراك حينئذ لموقعه ، وأنه محروس بلطف ورعاية إلهية ، مما يظنه خيراً وهو شرله ، أو هو معاقب ممنوع ، من جبار منتقم بعدل فيتميز له طريق التوبة إذ هو فى حالة الإذعان المبالغ فيه والإخبات الذى يوصله إلى أدنى درجات المسكنة ونكران الذات والإزراء على نفسه وتوبيخها وردعها واتهامها ومنعها من الاعتذار والتأول ، فيسد عليها مسارب التملص كلها ، ويحمّلها المسؤولية

كاملة ، حتى يرهقها محاسبة ، فعسى عندئذ أن يفتح له باب من التوفيق يلج من زاويته هارباً ، أو يسلك فى الدرب الذى بعده صاعداً ، وهذا مذهب سُنى صحيح ليس له مع مذهب الابتداع القدرى التقاء ، وإنما يميزه قدماء أهل المعاناة فقط ، ولن يؤذن لطارئ أن يقارب مغزاه ، وهو شأن القلب وأحاسيس اللُجج ، لا شأن اللسان ودعاوى اللَجاج .

فإذا استوى على أمواج القدر ، وهتف به من جانب الأفق هاتف فى صورة صاحب صلاة يتلو ويبشره أن ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1] ، فليس فى ذاك الأوان أسعد منه ولا أكثر منه وثوقاً فى المستقبل ، فيدرك أن العاقبة للمتقين ، وأنها محجوزة له محتكرة إذا استقام ، وإذا قرأ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[2] فإن قلبه يجد إلى الطمأنينة سبيلاً ، وكأنه يتناوش اليسر من مكان قريب أو يُرمى به إليه هدية وعليها اسمه وعنوانه ملفوفة بوثيقة امتياز يؤهله لتصرف غير ذى حد ولا انتهاء ، إلا أن يكون هو الناكل بعدما يتدخل حسد الشيطان ، فينكبح ، فتكون له قصة توبة ثانية ليست لذة الاستئناف فيها بأقل من لذة الرفل بتلك السكينة الأولى لو كان مستمراً ، أما إن سمع ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[3] ، أو أحاطته معانى ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[4] فإنه سيبلغ ذروة عالية ، وكأن زمام الصعاب فى يديه ، فما

---

(1) سورة الحج : (38) .
(2) سورة الشرح : (6:5) .
(3) سورة الفرقان : (31) .
(4) سورة الطلاق : (3:2) .

من شـوارد ، ولا صـوائل . ويظل يزداد ثقة إذا قـرأ أمثـال ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾(1) .

وفى القـرآن الكريم مـبـشـرات كـثـيـرة أخـرى ، وفـى الحـديث الشريف ، وفى شعر المؤمنين ، وهى البشائر التى نقلهـا عمر بهاء الدين الأميرى رحمه الله ، حين وصف صاحب اليقين فقال :

ولا يُـــرى من فـــزعٍ رهـــنَ أسى
يقــينُـهُ كالطـــودِ فى القــلب رَسَـــا
يُبْـــصِرُ فى غـــورِ الخطـــوب قَبَساً
من نُـصرة الله إذا مـــا اسْـتَيأسَـا (2)

ثم استطرد شعراء الإيمان فى جمعهم للمعانى الكبيرة فى ألفاظ صغيرة تهز قلب المؤمن هزة التمحيص ، لتتركه يستقر ثابتاً عند ركن التفويض ، أو طائفاً حول محاور العمل على سُنة الترويض ، فهو يكفيه موعظة أن يذكره شـاعر بـأن عيون النـاس قد نـامت قاطبـة ، (لكن عين الله لم تنم) ، فيحس معنى الحراسة الربانية ، وأن له أن يستريح ، وأن يسيح ، خافقاً بجناحيه مع الريح ، لأنه فى كلاءة الله تعالى ولطفه ، تلحظه عين الرعـاية أينما انقلب ، فترد عنه العدو وصور الشر ، فتكون له جرأة على الاقتحام فى مواطن يتلكأ عنها الغـافلون المحرومون من تحسس تلك الكلاءة ، ويُقدم على التحدى وهو رابط الجأش ، بفؤاد متين ، ثم يحس فى انعطافة مباشرة معنى

(1) سورة الليل : (7:6:5)
(2) ديوان مع الله / 77 .

الرقابة الربانية أيضاً ، وأنه محاصر بها أينما ذهبت به حيل التفلت ، فيدرك عجزه عن الاختباء في زاوية أو في قعر كهف أو بين جدران ، فهو مفضوح مكشوف أينما ذهب ، وليس له إلا أن يذعن ويستسلم ويضع نفسه في تيار التعبد الدئب ، وهكذا يظل المؤمن الموقن بأنّ (عين الله لم تنم) متقلباً بين هذين الإحساسين الإيجابيين فهو رافل بسكينة اللطف من جانب ، متدرع ، من جانب آخر ، بطمأنينة إبراء الذمة فيما يظن ، بعد أن قدم من العمل شيئاً ولاذ بركن الرجاء ، طامعاً ببر رب هو عند حسن ظن عبده به .

ومن فروع هذا التفويض أيضاً : قبول المؤمن لوقوع الظلم عليه من آخرين ، بلا مقاومة أو انشغال بالرد ، وبلاسعى إلى التقاضى ورفع الخصومة لدى المحاكم ، أو الشكاية إلى أولى الأمر أو إلى ذى مكانة يستطيع أن يردع الظالم ، بل يسكن ، ويتعفف ، ويرى أن مكانته الإيمانية أعز من أن يتساوى فى الظاهر مع ذى العيوب الذى اعتدى عليه ، ويرى أن المروءة تدعوه إلى أن يشمخ على الذى يبدى الإسفاف ، وأن يترفع عن موقف يقوده إلى رفع صوت أو إثارة فضول الغرباء أو جدل أو لجاج ، فيلوذ بالصمت ، ويركن إلى معانى التوكل على الله : أنه هو سبحانه الذى سيعوضه خيراً مما سلب منه ، إن كان مالاً : فسيبارك له من مصدر آخر . أو كان ذماً : فسيفتح قلوب الناس لمحبته ويحسن ذكره فى الآفاق . أو كان حرماناً من منصب أو رئاسة : فسيهبه نقابة المؤمنين والصدارة فى جماعة الخير ، وأنا نفسى قد اخترت هذا النوع من التفويض فى حياتى فوجدته لذيذاً جداً ، ووجدت الله كريماً معى غاية الكرم ، يعوضنى الضعف إذا سلبنى أحد دراهمى ، ويبعث لى من يسمعنى ألفاظاً

جميلة إذا تجاوز عليّ متجاوز فاستفزني ، وهكذا صرت أتأول الخير وحسن العقبى حتى فى صغار الأمور اليومية ، كأن يأخذ أحد دورى فى دخول محل أو ركوب حافلة ، مثلاً ، أو حصول غش من بائع لى ، فاستولت عليّ سجية الاسترسال مع رغبة المنافس أو الطامع ، وبقلب بارد مطمئن إلى أن ما هو أحسن إنما هو فى انتظارى ، فى حين أرى غيرى يشتاط ويزمجر ويدخل المعارك فى مثل ما أستقبله أنا بالتجمل .

ويتوسع الأمر السلمى ومفهوم الوداعة حتى يشكل سلسلة من الذوقيات الرفيعة التى وصفتُها فى تقريرى الميدانى المعروف ، بل صغتها لأصحابى فى قوانين تعاملية ذات حساسية مسرفة فى التعفف والدماثة وهضم حقوق النفس فى سبيل إرضاء الغير ، مع حياء فيه مبالغة ، وحرص على التشبه بأصحاب مكارم الأخلاق وتقليد النبلاء ، ومازال يتوسع عدد الرهط الذين ارتضوا هذه القوانين ، ولكن مازال هناك من لا يصبر على اللأواء الظاهرية لهذه المسالمة ، غير منتبه إلى ما فى باطنها وعواقبها من لذائذ روحية حين يرى المسالم نفسه فى الأماكن العوالى .

لكن هذا الباب إنما هو إزاء الحقوق الشخصية ، أما الظلم السياسى فشأنه مغاير ، وإنما شرع الله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمثله ، وتترجم معانى الإيمانى إذا وقع هذا الظلم فى صورة رفضه ومنازعته ومقاومته ، لأن الظالم إنما سلب حقاً إسلامياً عاماً ، واعتدى على شعيرة من شعائر الله ، وقد ندب الله تعالى المؤمنين إلى أن يكونوا أعزة يعلمون الناس الإباء . . . الشوق إلى الحرية .

الاندفاع الواثق

5

إن هذا التفويض ، الذى يهب صاحبه السكينة الداخلية وهدوء النفس ، إنما يمنح لصاحبه أيضاً صورة ظاهرية فيها هيبة ، فتكون له مكانة محترمة بين الناس ، ويأخذوا بمعاملته على أنه مثال المروءة ، حتى ليظل ذكره الحسن بعد مماته زينة لأحفاده .

وتكملة العزة التى تحرك المفوض إلى الإنكار على الظلم السياسى ، لأن الناس مأسورة إلى صور الشجاعة ، وتفتأ تشتاق إلى الحرية ، فيكون لها اقتداء بمن يلقنهم إياها ، وتظل تعامله حتى بعد دهور وقرون على أنه رمز ومصدر إلهام وحث .

• وتجتمع هاتان النتيجتان لتكوين صورة الجمال الحقيقى فى الحياة الإنسانية ، والتى اكتشفها عمرو بن معد كرب فوصفها فقال :

إنَّ الجمالَ مَعَادنٌ

ومناقبٌ أورثْنَ مَجْداً

وهو فى ذلك ينطلق من إحساسه الإنسانى العام ، فيلتقى مع موازين الإيمان ، وذلك لأن الفطرة النقية إذا حركت أحداً فلن تبعده عن معانى الإسلام ، وإذا كانت خطواتنا فى طريقنا نحو المعالى توهم بأننا نخص التفويض وطلب الحرية بوصف الجمال ، فإن الشعر

يعمّم، فكل معادن النبل جميلة ، وكل ما يُسلفه العاملون من صور الخير جميلة .

وليس هو التكبر ، ولا الغرور ، ولا تزكية الذات ، وإنما هو التحدث بنعمة ربنا عز وجل علينا ، حين ننظر إلى تاريخ الدعوة الإسلامية وواقع الدعاة المعاصر فنقرر أن الدعاة يحتلون مكاناً مهماً من بؤرة الجمال .

نحن الذين نمنح للحياة جمالها ومعناها ومغزاها .

ونحن الثقل الذى يمنع الأرض أن تميد .

وما من منصف إلا ويتساءل معنا أن :

كيف الحياة إذا خلت منا الظواهر والبطاح ؟
أين الأعزة والأسنّة عند ذلك والسماح ؟

ستعوج الحياة ، وتغيب المروءة بغيابنا .

والمقارنة توضح ذلك جلياً .

ففى غياب دعاة الإسلام اليوم عن الصدارة صار غير الأعزة فيها ، فترى تبعية للدول الكبرى ، وخوفاً من يهود، وترقيعاً فكرياً ، وانهزامية نفسية .

وبغيابنا غابت الأسنّة ، وما عادت رؤوس الحرابِ تلمع بين الروابى ، ولا النبال .

وافتُقد السماح ، وحضر للناس التعذيب والحديد والحبال .

✧ إني امرؤ مكرم نفسي ...ومتئد ✧

هي مسألة محسومة إذن : أن نرشح أنفسنا لقيادة الأمة .

ليس لمارق حق ، ولا لمن بيده سوط .

لكن بعض الدعاة يتلكأ ، بسبب ضباب في الطريق ، أو يتردد بسبب شبهات معترضة ، وإنما الواجب عليهم أن يثقوا بأنفسهم ، وأن يعزموا عزائمهم ، لأن هذه المعوقات إنما هي جنس مألوف في الصراع ، وهي ظاهرة من ظواهر الحياة السياسية والفكرية وتنافس الجماعات ، وليس لنا أن نتوقع أن نكون بدعة في العاملين ، بحيث نمضي بلا صعوبات ، ولا متساقطين .

ينظر الداعية الجاد إلى نفسه ، وإلى إخوانه في الرهط الدعوي ، فيرى نقصاً عن بلوغ الصورة المثالية التي تصفها أسطر فقه الدعوة ، وتستوقفه بقايا ضعف أو طمع أو جهل ، فيأخذ يتهم ذاته والآخرين ، وتزيده الاتهامات الظالمة التي تطيرها أجهزة الإعلام المعادية إحباطاً ، وليس ذلك بصواب أبداً ، وملاذنا قاعدة صريحة في الفقه : (إن عُقْدَ الإسلام لا ينحل بازدحام الآثام ، وترتفع ألف حوبة بتوبة)[1] .

فلو ذهبنا جدلاً أن حياة بعض الدعاة تزدحم بذنوب ، فإن التوبة تعدّل ذلك وتعالج الأمر معالجة تامة ، ونحن التوّابون ولا فخر ، ونحن أساتذة الاستغفار بحمد الله ، لأن منهجية التربية الدعوية تفرض رقابة صارمة على الأداء والممارسات ، وتعالج كل ظاهرة سلبية ، فتكون النتيجة دوماً نوعاً من الاتزان الذي تكون كتلته

(1) تفسير النسفي 1 / 438 .

النوعية فى العموم ثقيلة راجحة على مجموع أحوال الإحسان الفردية التى يمثلها أشخاص متفرقون خارج محيط الدعوة ، فقد يبلغ مسلم درجة فى العبادة ومكارم الأخلاق لا يبلغها داعية ، وتتكرر هذه الصورة فى عدد من الأفاضل ، ولكن المجتمع الدعوى يمثل حضوراً تعبدياً وأخلاقياً وعلمياً فى حياة كل قطر إسلامى هو أنفذ وأقوى وأبعد تأثيراً من تأثير العناصر المفردة ، وما النقصان فى أفراد الدعاة ـ لو كان ـ إلا ظاهرة متوقعة محسوبة مهما وصفت الكتابات العلو المطلوب لأن هذا العلو إنما يضرب كمثل ورمز وغاية ، ليصل من يصل إلى نصف الوصف النموذجى وثلثيه وثلاثة أرباعه ، وما يكاد يقارب الأعالى الحقيقية إلا قلائل ، ولا يتقمص الملائكية أحد ، إنما هو التسديد والمقاربة والتشبّه والمحاولة والرجاء ، وتزداد درجة المحاسن النسبية للدعاة وضوحاً إذا كانت المقارنة بينهم وبين جمهرة السوء فى المجتمع ، وكل منصف يعلم أن الكثير من أبناء الأمة اليوم إنما هم غثاء ، وفيهم من أنواع الغفلات والشطط والفساد والعدوان ما فيهم ، وفيهم كل متردية ونطيحة وما أكل السبع ، ومن لوّثه الربا وأذهله الخمر ، والدعاة بين ظَهرانَيهم يتفردون بالمناقب والصدق والعفاف والجد والهدى النقى ، ومن لم يلحظ هذه المقارنة النسبية فهو عن ميزان العدل ناكب .

لذلك يليق بدعاة الإسلام اليوم أن يثقوا بأنفسهم ثقة تامة : أنهم أمثل من فى الساحة ، وأنهم أهل للإصلاح ، وجدير بهم أن لا يلتفتوا إلى وسوسة شيطان أو أكاذيب الملأ الذين يتحلقون حول الظالمين ، بل عليهم أن يشقوا الطريق صاعدين ، بما حكر الإيمان لهم من أولوية وولاية .

وتنهض شبهة ثانية : أن عددنا قليل ، وللباطل سواد عظيم .

وقد جوبه الشاعر بمثل ذلك ، فكان جوابه القديم جوابنا ، وذاك يوم قال :

تُعَيِّرنا أنا قليلٌ عَديدنا
فقلتُ لها : إن الكرامَ قليلُ
وما قَلَّ مَن كانت بقاياه مثلَنا
شبابٌ تسامى للعُلا وكهولُ

فهى ظاهرة أخرى من ظواهر الحياة إذن ـ يجب أن نتنبه لها : أن الكرام قليل ، وأما الأكثرين فدون ذلك ، فى درجات متنازلة ، حتى يكون اللئيم والكاذب وآكل الحرام ، فهى حكمة ربانية جعلت نقباء الفضل فى الناس الأقل ، كما جعلت النسر والصقر بين الطير قلة ، أو أشجار الثمر بين أنواع النبات .

لكن قوة التأثير إنما تأتى من وحدة المنهج العالى ، ومن وحدة الأجيال حين تتوارث الخير ، وذلك ما يعبر عنه الشطر الأخير :

✧ شباب تسامى للعلا ، وكهول ✧

فهو منهج يصعد بأصحابه (نحو المعالى) ، ولا يحوم حول السفليات الدنيوية والمطامع وغصب الحقوق ، وإنما هو منهج التسامى .

ثم هم شباب وكهول ، فى وحدة قلبية تربط الجيلين ومن قبلهما من فتيان ومن بعدهما من شيوخ ، وتجعلهم يحسون بركة

السلف والحاجة للمجرب ، حتى تكون الوصية بينهم أن : كبّروا ، كبّروا ، وأهل الدنيا يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ اللاحق من السابق ، وينعته برجعية و تخلّف ، وينقم عليه طول اللبث .

وبذلك نحقق عنصر امتياز وتفوق ، و﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (1) .

وصار التروّى تهمة ربما ، يتهم الداعيةُ بها رهطه ، يريد النتيجة العاجلة ، وكأنه أصبح ضجراً من طول الدرب ، فى حين يُجمع الفقهاء والساسة والفلاسفة والأدباء على أن الحكمة لا تأذن بقفز يتجاوز التدرج ، حتى الشاعر البدوى أدرك جوهر التخطيط بفطرته ، فقال :

منّا الأناة ، وبعض القوم يحسبُنا
أنّا بطاءٌ ، وفى إبطائنا سرَعُ

قال التبريزى : (المعنى : نحن لا نعمل عملاً ولا نمضى رأياً إلا بعد التأنى والتروّى ، فلذلك بعض القوم الذين لا تجربة لهم يظنون أنا بطاء ، ولا يعلمون أن إبطاءنا فيه سرعة) (2) .

أما كيف يكون الإبطاء سرعة فالحساب بسيط ، ذلك أن الاستعجال يقود إلى فشل ، فتضطر لتكرار العمل ، ولو جمعت الوقت الأول ووقت الاستئناف الثانى لكان أطول من وقت واحد على الطريقة المحكمة المنتجة .

---

(1) سورة البقرة : (249) .
(2) شرح ديوان الحماسة / 262 .

✧ أولئك قوم إن بنوا : أحسنوا البناء ✧

ويتنادى الدعاة اليوم إلى حملة تكشف فقه التخطيط الصحيح وقواعده وتورد أمثلة تفسيرية له ، وقد بدأت بنجاح ، وطرحت فى أوساط الدعاة بحوث عديدة ، وهذا المنحى هو فى غاية الأهمية ، وينبغى أن نواصل الكتابة فيه ، وأن يأخذ مكانه البارز فى المنهج ، فإن المحيط معقد ، ولن تنفعنا بدائية وجُزافية ، إنما يصل بنا تقعيد وتنظير ، وتنويع لمصادر التأثير ، وإحصاء للطاقات وسبل صرفها ، واستدراك على النقص ، وتطوير ، وتقويم ناقد .

✧ أجول على علم ... وأعرف ما أعنى ✧

وشبهة رابعة تنفى القوة عنا حين ترى الحصار المحكم الذى فرضه الخصوم علينا حتى احتكروا أشكال القوة العرفية ، وحصرونا فى الزاوية الضيقة كدعوة خالية الغمد .

وليس هذا التعميم بصواب ، لأن قوتهم مقترنة بغوغائية يقودها جهل ، وتأسرهم أذواق فاسدة منحرفة عن الفطرة ، وتسيرهم أخلاق مصلحية نفعية هى عن المكارم نائية ، مع فوضى فى التفكير ، ومزاجية فى القرار ، وخيانة فى الأداء ، وانظر كيف اجتمعت كل هذه العيوب فى حزب صدَّام ، مثلاً .

بينما ننطلق نحن من منهجية رصينة يخسأ الضالون أن يقاربوها ، ومن قاعدة معرفية عريضة تنضجها تخصصات متكاملة ، حتى أصبح عملنا يمثل سلسلة من المقدمات الحضارية المدنية التى

تفـرض نفسـها فى السـاحـة وفق قـاعـدة البـقـاء للأصـلح ، وهذا هو مكمـن القـوة عندنا ، وذلك لأن مـرجع النـاس فى الآخـر إلى تحكيم العقل ، مهـما طاشت بهم السكرات ، وأوبتهم إلى موازين الفطرة فى المآل ، مهما انتكست الأذواق أيام الغفلات .

ولقد وضع الفيلسوفان الغربيان (بيكون وهوبز) قبل أكثر من قرنين معـادلة صحيحة أوجزا فيها خبر التاريخ وتجارب الصراع فقالا :

(إن المعـرفة معنـاها : القـوة) [1]

وهو شعار جد صحيح ، ونظرة عميقة لحركة الحياة ، والبرهان على ذلك النتيجة التفوقية التى وصل إليها الغرب لما سيّره (بيكون) فى طريق المعرفة أثناء رئاسته لوزراء بريطانيا ، ثم لما واصل مَن بعده الاندفـاع فى هذا الطريق المعـرفى ، فكانت القـوة والقـيـادة والسبق وفنون الإدارة والمخترعـات والنهضة الصناعـية وقـهر الأمم الأخرى وامتصاص أموالـها ، وكانت التخطيطات الاستراتيجية البعيدة المدى وتنفيذهم لها بصبر وصمت وإحاطتها بسرّ دفين ، وبقى غيرهم تخـدعـه العـواطف والارتجـال ، وانظر إلى الحـرب العـالمية الأولى وإجهازهم على الدولـة العثـمانية ، ثم انظر إلى تكامل تدبيرهم فى عـاصفـة الصحراء كـمثل أخير ، واعـتـمـاد صَدَّام على الزمـجرات وهتـاف الغوغـاء ، ثم انظر إلى مـسلسل تركيع الاتحـاد السوفـييتى وتمزيقه ، ولـم يصل المشهد بعد إلى نهايته .

---

(1) الموسوعة الفلسفية / 500 .

وهكذا ، فإن مواصلة الدعوة الإسلامية سيرها المنهجى على قواعد الإدارة المتطورة فى طريق المعرفة الشمولية والعلوم التطبيقية التخصصية والفنون المدنية إنما هو ردّها الحاسم على القوة الطائشة فى الأيادى الملوثة .

✧ منابر التهاة ترسم مسار الحياة ✧

إن هذه التقريرات التى تدفع هذه الشبهات لتحتل اليوم أهمية بالغة فى الإملاء النفسى الدعوى الذى يُنهى التردد ويُقحم الدعاةَ فى معمعة المحاولة ، فى وقت تعرّى فيه المنافس وأفلس ، ومع وجود عاملين مهمين يرجحان الأمر لصالح الدعاة :

* **الأول** : الامتداد العالمى المتستغرق للقارات الخمس ، انطلاقاً من بؤرة العالم الإسلامى ، وأصبح مُتاحاً بفضل الله تعالى حشد الطاقات وتناغم الأداء وتناصر الجبهات ، فى وحدة معنوية وفكرية يعجز عن مثلها المنافسون ، الذين استبدت بهم الأنانية والقطريات والتعصبات ، حتى تفرقوا أيادى سبأ . . . .

وتشـعّبوا شـعباً ، فكل جـزيرة
فيهـا أمـيـرُ المؤمـنين ، ومنبـرُ

كما وصفهم المساور بن هند بن زهير(1) .

* **الثانى** : نهينا عن المنكر ، الذى يضعنا فى مرتبة فريدة بين التيارات والجماعات والأحزاب ، فهم لا يتناهون عن منكر فعلوه ويفعله غيرهم ، وكأن المسلم ينفرد فى فهم مغزى التاريخ وحركته

---

(1) شرح ديوان الحماسة 1/ 275 .

عبر مفاد آية سورة هود ، فى قوله تعالى :

﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾ (1)

معناها : (أولو فضل) .

وكان يقال : (فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا) (2) .

فمرتبة الفضل : النهى عن الفساد فى الأرض .

ومهنة الرجال أساتذة الرجولة : أن يكونوا نُهاة فى ثغر النذارة .

وحركة التاريخ التى توجه تعاقب القرون : كامنة فى تفرّد هذه الثلة المؤمنة فيما هى فيه من إنكار السوء ، فيأتيها التمكين من الله تعالى .

وحق هذا العامل الترجيحى أن يُقَدّم ويُذكر قبل الأول وقبل ردود الشبهات ، فإنما نصول ونجول بتوفيق من الله ، وإنما تأخر إشارة إلى حشد الأسباب ثم التفرغ لاستشعار التوكل والاعتماد على الله تعالى ، تشبهاً بصف النبى ﷺ ، صفوف المهاجرين والأنصار يوم بدر ، ثم تنحيه جانبا يلح فى التضرع والدعاء وطلب النصر الربانى ، حتى وقع رداؤه عن منكبه الشريف ، وإنما نصل هذا التضرع الأخير بذاك التفويض الأول ، فيكون مبتدأ أمرنا وخاتمته : حُسن الظن بالله تعالى .

---

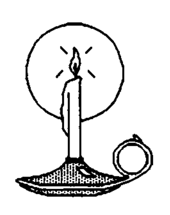
(1) سورة هود : (116)

(2) تفسير النسفى 2 / 86 .

لكنهـا سنة الحيـاة أن لا ننال الذى نرجـوا إلا بالبـذل والجـهـد وتقديم الثمن ، ليس بالمجان ، وهى التى أدركها الشاعر لما قال :

بصـــرتُ بالراحة الكـــبرى فـلم أرهـا
تُنال إلا علـــى جـسر مـــن التعـــب

وكـأن المفـهـوم السـاذج يصـرفـه إلى تعب العـضـلات والأبدان فقط ، وإلى احتمال لحر وبرد ، وجوع وعطش ، وقطع مفاوز وعبور جبال ، وهو كذلك ، **ولكن فقـه الصعـود نحو المعالى يجاوزه إلى التـأكـيـد على الخطة المعـرفـيـة ذات البـعـد الحـضـارى ، وأول ذلك ومفـتـاحـه أن ترجـع إلى الحروف والسطور والكتـاب ، فتـقـرأ ، ثم تقرأ ، ثم تقرأ مبتهجاً مع تساقط . . . الدموع الباسمة .**



الدموع الباسمة 6

يشتهر بين الناس تشبيه الأولين لعمل المصلح المتجرد بشمعة ، تحرق نفسها ، لتضيء للآخرين .

وكان الكاتبون ، أصحاب الأقلام ، والتدوين ، والتأليف ، والصحف ، يرون أنفسهم أصفى هذه الشمعات ، ويظنون شعاعهم أوهج اللمعات ، لما فى وصف الناس للعلم بالنور من قرينة تصرف تفسير التشبيه إليهم .

وذاك شرف ، نعمّا هو ، يحق معه لهم ولغيرهم أن يتنافسوا فى الانتساب إليه ، والسباق إلى التحلى به .

ولكنى رأيت من خفى الحكمة ما هو أبرع فى وصف الأقلام ، ودورها فى التوجيه ، والبهجة التى تبعثها ، فقد أطل ذكى على ساحة الحياة ، يتتبع مكامن البسمات بعد أن امتلأت أحزاناً فاكتشفها فقال :

(لم أر باكياً أحسن تبسماً من القلم)

هكذا هو الكاتب ، وإنها لكذلك الأقلام حقاً إذا سال منها المداد ، وذرفت الدمعات السود .

يجوب صاحب القلم الكبير الميادين ، وتكون له سياحة فى آفاق الأعمال ، كل الأعمال ، وينقب فى الماضى يستخرج

السوابق ، ثم يرجع يختلى ، يقيس ويقارن ، ويحلل ويعلل ، لتسطر دمعات قلمه التجارب وما وجد ، لتجف دمعات قلوب التائهين ، ويكون ثمّ ابتسام .

إنها متاهات الحياة يهيم فيها أكثر البشر ، فتأتى تجارب المربين ، عبر دموع الأقلام ، تعصم من الخطأ وتوجه ، وتنتشل من التخبط وتسدد وترسم الطريق وتخطط ، فيعقل ساذج ، ويتململ راقد ، ويتنافس قانع ، ويتأنى متهور ، وما بين هذا التعقل والتنافس ، والإسراع والإبطاء : تكون البصائر ، وتتكشف أصول المباهج ، فتغمر القلب برودة السكينة بعد حرارة القلق ولذعات الحيرة ، وتنفرج أسارير الوجه عن ابتسام وضّاء ، بعد عبوس أو ذهول .

هو هكذا واجب الأديب المسلم المربى ، يتولى دوره هذا فى إتمام دور الفقيه إذا بيّن دلائل التوحيد ، وحدّد قواعد السلوك الشرعى ، فيشرح ويفسر ، ويستشهد بتواريخ الناس وما كانت لهم من مواقف ، ويذهب فى الإقناع إلى مدى التفصيل والتبسيط والتمثيل بعد إجمال أوجزه الفقيه .

فابتسامة من يبتسم من الناس لن تأتى سهلة أبداً ، والذين مازالت أفواههم تفغر حيرة ليسوا بقادرين على تصور ابتسامة تبتسمها الصفحات ، ولا على فهم دور الأقلام فيها ، وجهد أصحاب هذه الأقلام .

أما أنها ليست كل كتابة ولا كل كاتب فنعم ، فإن السطور الباسمة تستلزم خلفية من التجريب ومن الانغماس الفعلى فى الأعمال والأحداث المحيطة ، ولا يمكن أن توصف للكاتب

التجارب وصفاً مجرداً ، وتروى له رواية ، لينقلها بين أسطره ، فإن مثل هذا وهذا كمثل سائح وراكب طائرة ، فإن من ركاب الطائرات من تنزل به طائرته قبل وصوله مقصده فى مطارات مدينتين وثلاث ، فيرى هذه المدن من مسافة بعيدة ، ويأخذ يصف لك حسن روما وجنيف وباريس ، ويحلف لك الأيمان أنه رآها ، وما كذب ، وإن كان لم يزر متحفاً ، ولا استمتع بشاطئ بحيرة ، ولا صعد برجاً ، وإنما هو راء لها من نافذة الطائرة حين كانت تقترب من المطار وتنخفض ، وحين كانت تقلع وتعلو .

كلا ، بل هى ساعات تأمل ، وخلوات تفكر ، وسياحة تعرّف يضطر خلالها الأديب أو المربى إلى أن يعصر قلبه عصراً ، لتسيل من قلمه الدمعات ، لتبتسم على الورق الكلمات ، تشارك فى منح شىء للناس . . . . اسمه الابتسام .

ولهذا يكون الإعراض عن القراءة من كبائر الناس الكبيرة ، ولعلها الموبقة الحادية عشر ، بعد إذ أمرنا رسول الله ﷺ باجتناب العشر الموبقات ، فإن المتلقين تجب عليهم همة للقراءة توازى تلك الهمة التى عصرت المحكمة من قلوب الكاتبين .

إن من مصائب أمتنا اليوم : أنها لا تقرأ ، ومع ذلك فلا يتجه هذا الخطاب لها ، لأن طريق الاستدراك طويل ، ويبدأ بيقظة الخاصة من دعاة الإسلام ، ليقودوا البقية ، وإنما الخطاب متجه لهذه الخاصة الرائدة القائدة ، بل ولفتيان الدعوة الميامين ، الذين هم قادة المستقبل

فنعم الفتيان ، فتيان الدعوة ، لو قرأوا .

لقد عرفت شباب الإسلام ، وصاحبتهم ، واقتربت منهم ، فوجدتهم من أنقى الناس سريرة ، وأنصعهم طهراً ، وأصفاهم عقيدة ، وأجزلهم وعياً ، ورأيت منهم تشميراً إلى الخير ، فى حرص دائب ، وفراراً إلى الله تعالى من خلال طريق عريض لاحب ، لكنها كثافة المطالعة تنقصهم ، ولو أنهم أحنوا ظهورهم على كتب التفسير والحديث والفقه والتاريخ طويلاً ، واكتالوا لهم من الأدب والثقافة العالمية العامة جزيلاً ، لكملت أوصافهم ، ولتفردوا فى المناقب .

وإنى لأعجب من دعاة الإسلام الذين أراهم اليوم ، كيف يجرؤ أحدهم على إطالة العنق فى المجالس ، والنشر فى الصحف ، قبل أن يجمع شيئاً من البيان جمعه الطبرى فى تأويل آى القرآن ، وقبل أن يرفع له راية مع ابن حجر فى فتحه ، ولم ينل بعد من رفق أم الشافعى وحنانها ، ولا كان له انبساط مع السرخسى فى مبسوطه ، أو موافقة للشاطبى فى موافقاته ؟

وكيف يقنع الداعية وهو لم يقرأ بعد المهم من كتب ابن تيمية ، وابن القيم ، والغزالى ، وابن حزم ؟

وكيف يسرع داعية إلى ذلك وهو لم يكثر من مطالعة كتب الأدب العربى القديم ، ولم يعكف مع الجاحظ وأبى حيّان ، أو ابن قتيبة وأديبى أصبهان ؟

وأعجب أكثر من هذا لداعية أثير حماسته لهذه العلوم والآداب فيقول : ليس لى وقت ، كأنه غير مطالب بإتعاب نفسه تعباً مضاعفاً ، ولا شرع له السهر !

ثم أعجب أكثر إذا ذكرت له كتاباً ، فيأتينى من الغد مغاضباً ، لخطأ وقع فيه كاتبه ، أو بدعة طفيفة ، كأن العلم لا يؤخذ إلا من صاحب سنة محضة وكتاب مصون !

وماذا عليك لو أنك قرأت ونقحت ، وتخيرت وانتقيت ، وأخذت وأعرضت ؟

لا شىء ، وأنت الرابح ، إذ الأصل فى التعليم : صحة المنهج ، بأن تتلقى نصوص القرآن والحديث الصحيح بالتجلة والتعظيم ، والتقديم لها ، بلا تلكؤ ولا رد ، فإنك إن التزمت ذلك : لم يضرك ما يقع بيدك مع كتب التفسير والحديث والفقه من كتب الأدب والفكر العالمى وصحف السياسة ، تقتبس منها ما لا يضادد النصوص ، وتخضع صوابها لخدمة منهجك ، مفترضاً فى نفسك الشجاعة والعقل والتميز ، فإنه لا داعى لاتهام نفسك بضعف أمام خطأ المفكرين وإغراب الكاتبين ، ما دام منهجك صواباً ، ونفترض فيك مقدرة وافية على اكتشاف الخطأ والميل والابتداع ، وإنما ذاك هو المبتدئ الذى مازال يحبو نوصيه بالقرب وعدم الإيغال ، وبالتجزئ وترك الاكتيال ، وبالالتزام والاستئذان ، نحجر عليه ونراقبه .

وتؤدى بنا هذه المعانى والحقائق إلى ميزان مهم يجدر بنا وبناقدينا اللجوء إليه ، مفاده : أن كون المسلم من أعضاء جماعة الدعاة إلى الله لا يحتم علينا أن نمنحه شهادة براءة من البدع والرأى الخاطئ والتأويل البعيد ، وإن كان انتماؤه قرينة على علو همته ، وصفاء نيته ، وإخلاص قصده ، بل هو دارج على مدارج الفضل ، سائر نحو تكميل وعيه وعلمه ، وقد يجمع المرء بين نبل الهدف

والجهل ، وسمو الغاية والسذاجة ، وإنما العلم بالتعلم، ومازال التتلمذ ، وحوار الأقران ، واعتكاف المطالعة : وسائل ضرورية لمن أراد الحكمة ، وإنما يمنح السابقون اللاحق الهمام صفة الانتماء ليتاح له تحصيل العلم بهذه الوسائل ، وليعينوه عن قرب ، إذ هو فى دارهم ، وليس الانتماء نهاية سير ، ولا هو دليل على اجتياز المراحل .

* فانظر أخى دمعات الأقلام : تجد خطها باسماً .

* واقرأ : تعصم سيرك من الخطأ ، ثم لا تزال باسماً . . .

* وارفق بمبتدئ يرعاه الدعاة : يفقه ، وتكتمل له الأسباب ما دمت له باسماً .

** ** **

شعارات 7

قال الصالحون . . . . يوصونك

* الحازم من نظر فى العواقب نظر المراقب ، وعرف الإضاعة ، ولم يجعل الحُلم بضاعة ، فإنما العمل الحقيق : عمل يصعدك ويرقيك .

* فالحذر الحذر أن يعجل للنفس سيرها ، ويفارق القفص طيرها ، وهى بالعَرَض الفانى متشبطة ، وبصحبته مغتبطة .

* وإنك محتاج إلى جذبة توقد مصباح الهمة ، فى ديجور هذه الغفلة المدلهمة .

* فلا تكن مثل فلان ، فإنما هو غريق ، وتائه لا يبدو له طريق .

* اجعلن « أقلل من الدنيا » الشعار .

* فإن الدنيا منزل عبور ، لا مستقر حبور ، ومعبر وممر ، لا وطن ومستقر .

* أتطلب ما يطغيك ، وعندك ما يكفيك ؟

* وما الأموال إلا كالظلال !

* كل ما أغفل القلوب عن ذكره تعالى فهو . . . دنيا .

* وكل ما أوقف القلوب عن طلبه فهو . . . دنيا .

* وكل ما أنزل الهمّ بالقلب فهو . . . دنيا .

* فـاستـقم على طريقـة السلف ، واتجر فى أسـواق العـمل بمالك لا بالسلف .

* وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها : هل راح منها بغير القطن والكفن ؟

* وانظر كم تركت الفتن من قلب مقلّب ، وهوى مغلّب ، وكم سار فى طريقها من كادح ، وكثر الهاجى وقل المادح ، وكم تعددت أسماؤها ، واتحدت أرضها وسماؤها .

* إحدى يدىّ أصابتنى ولم تُرِدِ .

* الصـدأ قد أتلف من النفوس وجـهـهـا الفطرى الصـقـيل ، فـيكف ستستقبل ما يلقى عليها من قول ثقيل ؟

* الخطب جليل ، والمتفطن قليل ، ولكن التنسيق يغنى بإذن الله عن الكثرة .

* وما الكف إلا إصبعٌ . . . ثم إصبعُ .

* وليس سواء عالمٌ وجهولُ .

* وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى .

* فكن الحرّ . . وقُدها بزمام .

* فيا رُبّ نفس بالتذلل عزّت .

* والقلب يصدأ إن لم تجله حينا .

* فجالس من تكلمك صفته ، ولا تجالس من يكلمك لسانه .

* وقصّر الأمل . . . وبالغ فى العمل .

* فإنه ما طلعت شمس إلا وعظت بأمس .

* وإنك أسير عهد وشعور ، وليس لك من فداء .

* حماك الله من الأوهام الطارقة ، والعقول المفارقة .

* فافخر بزيت مصباحك ، وبالأحبار ، وليفرح الغافلون بخمر كؤوسهم وبالأوتار .

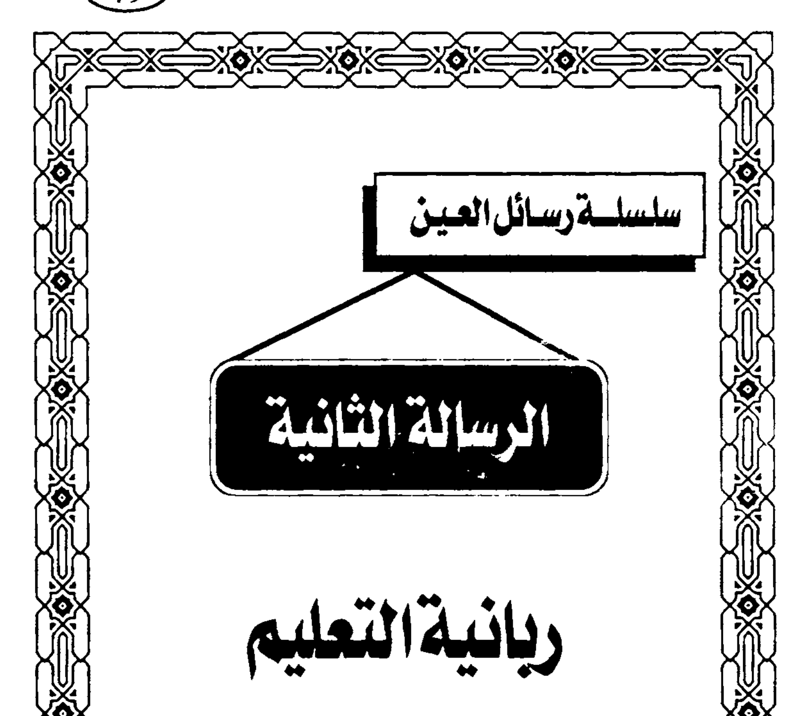
* واعلم أن الحصيرة عرش الداعية .

* وأن منابر النُّهاة ترسم مسار الحياة .

* واهنأ بالسكينة فى ظلال التفويض .

* وليكن آخر ما تدعو . . . أن الحمد لله رب العالمين .

** ** **



سلسلة رسائل العين

الرسالة الثانية

ربانية التعليم

بقلم

الدكتور/ عادل الشويخ

ربانية التعليم



تمهيد

إن (**ربانية التعليم**) أحد أهم المفاهيم التربوية في عملية التدريس عموماً ، وفي مجال التعليم والتربية الدعوية بشكل خاص ويعني هذا المفهوم أن عملية التعليم يجب أن تكون بحكمة ، وتتضمن التدرج في تدريس صلب العلم قبل فروعه ، ولا يقوم بهذا العمل إلا الفقهاء الحكماء . . والمربون الوعاة .

وربانيّة التعليم لا تتم بتبليغ الفقه المجرد فقط ، وإنما باتخاذ الوسائل الحكيمة ، ووفق أفضلها أيضاً ، ومنها : إعطاء صغار العلم قبل كباره ، وقد أخذ هذا المعنى التربوي اسمه من أحد معانيه الخاصة الواردة في قول ابن عباس رضي الله عنه كما في كتاب العلم من صحيح البخاري :

(كونوا ربانيين حكماء فقهاء .

ويقال : الرباني الذي يُربي بصغار العلم قبل كباره) .

وصفة الربانية قد تكون نسبة إلى (الرب) عز وجل أو إلى (التربية) . وإطلاقها على هذا المفهوم التربوي من باب إطلاق الخاص على العام .

وقـد سبق الإسـلام ـ بهـذا الإدراك الواعى ـ أحـد أهم مسـائل وأسس التربية المعاصرة .

ألا ترى أن المناهج فى المراحل الدراسية المتعددة يسبق بعضها بعضاً، والمساقات الجامعية ينبنى بعضها على بعض ، ولا يسبق تدريس بعض الأجزاء أجزاء أخرى ! فكل فن ترتبط أجزاؤه وفق نسق منطقى . والعلم بشموليته : تتسق فنونه بعضها ببعض ، بحيث لا يتقدم المبهم الدقيق على الواضح السهل . ولا النتيجة على المقدمة ، ولا الأهم على المهم . ولا يتقدم صعب على سهل ، وغير ذلك ، وقد أوضح ابن حجر شمولية معنى صغار العلم وكباره فقال : (والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله . وبكباره ما دقَّ منها . وقيل : يعلمهم جزئياته قبل كلياته ، أو فروعه قبل أصوله ، أو مقدماته قبل مقاصده) [1] .

إن الذى يحدو إلى توضيح هذا المعنى التربوى فى مجال العمل الإسلامى الدعوى ـ رغم معرفته فى عالم التدريس والتربية المنهجية ـ هو ما يظهر أحياناً من محاولة بعض الدعاة والمربين أو الخطباء تزويد الناشئة أو من هم دون المستويات الملائمة بكمية هائلة من المعلومات الشرعية أو الدعوية . أو اختيار ما لا يناسبهم من ناحية المعانى ، وقد يكون الأمر فى غالب الأحوال رغبة المربين بالحصول السريع على طبقة متقدمة من الدعاة ، أو تبليغ أكبر كمية من المعلومات بأقصر الطرق، وقد تكون ـ فى أحيان قليلة كما نرجوا ـ بسبب حب المربى لنوع من الوجاهة والرئاسة ، فيحب الظهور بمظهر العالم المتمكن ، أو

(1) فتح البارى 1 / 162 .

لأجل مباهاة الأقران ، فيسارع إلى تبليغ المعلومات الوافرة والمتقدمة .

كما أن الناشئة أو طبقات الدعاة المختلفة هى الأخرى تتطلع إلى الاستزاده من كثرة المعلومات والتشوق إليها دون الاستفادة العميقة منها ، أو دون امتلاك الاستعداد الكافى لهضمها وإدراكها وتشوفهم ـ بتجاوز العلوم الأساسية ـ لمعرفة غيرها من شوارد المعرفة ، أو خصوصيات المسائل ، وقد يكون الدافع لهؤلاء ـ فى بعض الأحيان ـ إخلاصهم للدعوة ومحاولة الارتقاء السريع بمستواهم ، كما قد يكون أيضاً ـ فى أحيان أخرى ـ محاولة منهم للاستشراف الشخصى للتصدر ، أو حباً فى الاستطلاع الفكرى ، أو طمعاً فى التدخل بما لا يعنيه من أجل إشباع غريزة التطلع .

وقد لا يقتصر الأمر على الشيوخ والمربين من جهة ، أو الجدد وطبقات الدعاة من جهة أخرى بل قد يتجاوز الأمر للحديث بكبار العلم ومهماته ـ أحيانا ـ إلى المجالات العامة ، والمنتديات المفتوحة وأمام جماهير المسلمين ، بل وخارج إطار العاملين للإسلام .

إن الالتزام بهذا المفهوم يجب أن يكون واضحاً ، ومقرراً وسط الجماعة المؤمنة ، فهو ليس كتماً للعلم ، ولا محاولة للتمييز بين طبقات الدعاة ، وما هو بالاستعلاء على الناس ، بل هو منهج ربانى يخدم المصلحة الدعوية ويقى من لأواء الفتن ، ومصارع المحن ، ويحقق قواعد الاستقرار الإدارى للجماعات الإسلامية .

ولابد من التوضيح هنا أن ما نقله ابن حجر فى كلامه السابق حول (الفروع قبل الأصول) ليست على إطلاقها ولهذا فسوف توضح فيما بعد إن شاء الله تعالى .

مبررات ربانية التعليم

قبل الشروع بالشرح التفصيلى لمسائل ربانية التعليم ، نوضح أهم مبررات هذا المفهوم :

✧ من أجل عدم الوقوع فى المفسدة لقصر الفهم ✧

وقد امتنع الرسول ص عن هدم الكعبة ثم بنائها حتى لا تظن قريش أنه بناها لينفرد بالفخر عليهم ، فترك المصلحة خوفا من الوقوع فى المفسدة ، واعتبر حديثه ـ هذا ـ من أعمدة أدلة الموازنة بين المصالح ، واستنبط منه البخارى مفهوم ربانية التعليم ، ولابد من ضرورة منع بعض العلم خوفاً من الوقوع بما هو أشد لقصور الفهم عن ذلك .

فترجم البخارى لحديث (عدم هدم الكعبة ثم بنائها) بقوله (باب : من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه ، فيقعوا فى أشد منه) [1] .

✧ عدم إضاعة العلم ✧

إذا أن كل فن له أوائل تقود إلى أواخره ، ولهذا فلابد من أخذ الأوائل قبل الأواخر ، والفروع قبل الأصول ، وذلك فى العلم الواحد ، والفن الواحد ، إذا ما كانت كل من الفروع والأصول على

---

(1) فتح البارى 1 / 224 .

مستوى واحد من صعوبة الفهم ، وعلى درجة واحدة من الأهمية ، أما عكس العملية فيقود إلى إضاعة العلم .

(. . . واعلم أن للعلوم أوائل تؤدى إلى أواخرها ، ومداخل تفضى إلى حقائقها ، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها ، لينتهى إلى أواخرها ، وبمداخلها ليفضى إلى حقائقها ، ولا يطلب الآخر قبل الأول ، ولا الحقيقة قبل المدخل ، فلا يدرك الآخر ، ولا يعرف الحقيقة ، لأن البناء على غير أسٍ لا يُبنى والثمر من غير غرس لا يجنى) [1] .

أما إذا كانت الأصول أهم من الفروع فالابتداء بها أولى ، كأمور العقيدة وصفات الخالق وأسمائه ، فهى أولى من إدراك مسائل الفقه وأمور الخلاف ، وكذلك إذا كانت أصول فن ما أسهل من فروعه ، فالابتداء بها أجدى وأنفع ثم ينتقل إلى التفصيلات الأصعب بعد ذلك .

وبذلك يُتحول ـ فى بعض الأحوال ـ إلى ضرورة الأخذ بالأصول قبل الفروع ، وفى كل من الحالتين يكون الاستبدال إضاعة للعلم ، وتجاوزاً لمفهوم الربانيّة . . . وسيأتى مزيد من إيضاح لذلك

✧ عدم التنفير من العلم والتخبط به ✧

ولهذا المعنى أشار الغزالى ، واعتبرها من وظائف المربى والمعلم ، فحدد ذلك بقوله : (. . . . أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه مالا يبلغه عقله ، فينفره ، أو يخبط عليه عقله . . .

(1) أدب الدنيا والدين للماوردى / 55.

ولذلك قيل : كلْ لكل عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه ، حتى تسلم منه وينتفعَ بك ، وإلاّ وقع الإنكار لتفاوُت المعيار) [1] .

إذ أن طالب العلم إذا ما أخذ علماً لا يستوعبه ، أو أن حدود تجاربه الحيوية وطبيعته النفسية لا تستطيع إدراكه فإنه يؤدى به إلى عدم توازنه ، بل وإلى انحرافه ، ولذلك فإن الفلسفة والمناظرات الكلامية أو بعض أمور المنطق قادت بعض طلبة العلم إلى الشطط ، بل إلى الانحراف عندما لم يتم بناؤهم الفكرى ولم يستكملوا علم الشرع ، كما حصل لأمثال ابن سينا وابن رشد ، مما اضطر بعض العلماء ـ لوجود هذه الظاهرة ـ إلى تحريم دراسة المنطق ، كابن الصلاح وغيره، بينما صار المنطق والكلام سلاحاً ضد أعداء الإسلام بيد جهابذة العلماء كابن تيمية والغزالى ـ رحمهما الله تعالى ـ ، ولذلك فقد يكون فى معرفة القليل من الجاهلية انحراف أو ضلال ، وفى معرفة الكثير منها ـ عند فهم القواعد والأصول ـ مزيد إيمان ويقين .

✧ عدم الوقوع فى الترف الفكرى ✧

إذ أن تعلم المبتدئ جملة من العلوم التى لا يعمل بها ، ولا يستفاد منها ، تجعل منه شخصا نظريا ، فتؤدى الظاهرة عند توسعها إلى عيب كبير فى صفوف الدعاة ، إذ يتحول الداعية عندئذ إلى أشبه بباحث نظرى يبحث فى الكتب وحسب ، فيفلسف الأحداث دون استيعاب، وبالتالى يحصل الفتور فى العمل ، والضعف فى

(1) إحياء علوم الدين 1 / 57 .

الإيمـان، وتصـبـح بضـاعـتـه مـجـمـوعـة من الأحـاديث النظرية والمجادلات ، وتكون متعته في المباحث النظرية والمطالعة المجردة ، دون تحمل عبء المشاكل ، ومشقة المخالطة ، ولو ظل على هذا لهان الأمر ، بل قد يتحول الداعية ـ كما تشهد التجارب ـ إلى كاتب يبرر الانحراف ، ويفلسف الأخطاء ، ويدافع عن الفتن ، وينقد العمل الجاد ، بل وقد يكبر الأمر الصغير ، ويهون الشأن الكبير ، وكل ذلك لأنه أسير تأملاته النظرية ، وثقافته غير المتوازنة .

✧ الأمان من الخطأ ✧

فإن كثرة الحديث تورد كثرة الخطأ والالتباس ، وفى القلة أمان من ذلك (وكثرة الكلام ينسى بعضه بعضاً) ، وقد قالت العرب (من كثر كلامه كثر سَقْطه) ، كما أورد مسلم في مقدمة صحيحه قول الرسول ـ ﷺ ـ : (كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع) . .

وقد علق الإمام النووى على ذلك بقوله عن هذا الحديث والآثار التى فى الباب : (ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان ، فإنه يسمع فى العادة الصدق والكذب ، فإذا حدَّث بكل ما سمع فقد كذب ، لإخباره بما لم يكن . . . . .) .

وكذلك : (إنه إذا حدث بكل ما سمع كثر الخطأ فى روايته ، فترك الاعتماد عليه والأخذ عنه . . . .) [1] .

---

(1) شرح صحيح مسلم 1 / 75 .

✧ الابتداع فى الدين ✧

ما دام الأخذ بهذا المفهوم مما نهى عنه الشارع ، فإن عدم الأخذ به من الابتداع فى الدين ، لمخالفته الهدى النبوى ، وقد ذكر ذلك الشاطبى ضمن أنواع الابتداع فقال (. . . ومن ذلك التحدث مع العوام بما لا تفهمه ولا تعقل معناه ، فإنه من باب وضع الحكمة فى غير موضعها ، فسامعها إما أن يفهمها على غير وجهها ـ وهو الغالب ـ ، وهو فتنة تؤدى إلى التكذيب بالحق ، والعمل بالباطل . إما لا يفهم منها شيئاً ، وهو أسلم ، ولكن المتحدث لم يعط الحكمة حقها من الصون ، بل صار فى التحدث بها كالعابث بنعمة الله . . .) [2] .

✧ انفضاض الناس ✧

إن الإكثار من الحديث ، وما قد يجره من ملل على السامع يجعل الناس تاركين للعلم وراءهم ، وبالتالى يفقد العالم هيبته .

والعلم كعروض التجارة ، تزداد الرغبة فيها عند القلة ، وليس المقصود حجر الناس عن العلم ، وإنما من أجل زيادة حرصهم عليه ، حتى لا يكون من كثرته وإشاعته تزهيداً للناس فيه ، وابتعادهم عنه . وفى حكمة لقمان قوله : (إن العالم الحكيم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار ، وإن العالم الأخرق يطرد الناس عن علمه بالهذر والإكثار) [2] .

---

(1) الاعتصام للشاطبى 2 / 13 .

(2) عيون الأخبار 2 / 112 .

✧ عدم التوازن بين العلم والعمل ✧

وليعلم أن عدم التوازن بين العلم والعمل مفسدة أيضاً . وهى كنمو أحد جناحى الطائر وضمور الجناح الآخر ، فيكون الصعود والتحليق إيذاناً بالسقوط من مرتفع أعلى ، فيؤدى إلى احتمالية أكبر فى أن يلقى حتفه ويتهشم ، وتدل تجارب الحكماء قديما وحديثا على كراهية عدم التوازن بين المنطق والعقل ، وقد قال ـ من قبل ـ سليمان بن عبد الملك : (زيادة منطق على عقل خُدْعة ، وزيادة عقلٍ على منطقٍ هُجْنة) (1) .

بل إن زيادة المنطق ، وحلاوة اللسان ، وعذوبة العلم نهايتهن مريعة إذا لم يزينها عقل ، وتحدها تجارب ، ويدركها عقل واعٍ يحدد مواقع الكلم ، ومواطن اللفظ ، فيختار الحديث المناسب للمجالس المناسبة ، وينتقى أطايب الكلام على قدر الرجال . . . وقد قال حكيم العرب الأحنف بن قيس ـ رحمه الله : ـ (حتف الرجل مخبوء تحت لسانه) (2) .

وحتى يصبح مفهوم الربانية واضحاً ، لا بد من التوسع فى ذكر بعض آفاق هذا المفهوم ، وما قد يتضمنه ، من تقديم بعض العلوم على بعض ، أو أجزاء فن ما دون أجزائه الأخرى ، أو تقديم خاصية قبل غيرها ، وما قد يرتبط بتدريس العلم وتعليم المعرفة من أمور ملازمة .

---

(1) عيون الأخبار 2/ 122 .

(2) عيون الأخبار 1/ 330/ 331 .

آفاق الربانية

ومن هذه الافاق :-

✧ 1- الجزئيات قبل الكليات ✧

والمقصود بهذا ما ورد فى كتب الفقه من مسائل يطالب المكلف بفعلها أو تركها ، إيجاباً أو استحباباً ، وقد أوردت الشريعة أدلة تلك المسائل ، ثم جاء العلماء بعد ذلك ، واستنبطوا من هذه الجزئيات مجموعة قواعد كلية قد تتخلف آحاد الجزئيات عنها ، وصارت معرفة هذه الكليات طريقاً لضبط الجزئيات ، ولكنها تظل غير صالحة لقيام التكليف عليها ، فالمسلم مكلف بفروع الشريعة ، وهى التى سيحاسب عليها فى الآخرة ، ومعرفتها ـ إذن ـ لابد منها للمكلفين ابتداءً ، أما الكليات فلابد للعالم من إدراكها وفهمها بعد فهم الجزئيات التى قادت إلى التقعيد كى يمكن له التدرب على الاستنباط ، والقياس ، ثم الاجتهاد فى الفروع المستحدثة .

وكذلك فإن الشريعة لها مقدمات لابد للمكلف من معرفتها والعمل بها ، ثم يحاسب بمقتضاها ، ولكن من خلال الاستقراء لمقدمات الشريعة يتبين أن لها مقاصد وحكماً وعللاً ، وأن الله تعالى يشرع لحكمة وعلة ، والشريعة تحفظ العقل والمالَ والنفس وغير ذلك من مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، ولكن المكلف يبقى محاسباً على المقدمات دون المقاصد ، ويبقى التكليف مبنيا عليه حتى دون

معرفة المقاصد ، بينما تظل معرفة المقاصد جزءاً من علم المجتهد للبناء عليه ، والقياس وفقه ، ثم يكون الاجتهاد وفق مقاصد الشريعة، وكذلك يمكن للمكلف معرفة المقاصد والعلل زيادة له فى يقينه ، وتعميقاً فى إدراكه .

ونضرب مثلاً على هذا المنهج أيضاً بأصول الفقه الذى دُوّن كعلم تال للفقه ، فالفقه الحنفى على وجه الخصوص بنى جملة وتفصيلاً على فروع الفقه ، فأصبح رغم أصوليته تابعاً للفقه ، وأصول المذاهب الثلاثة الأخرى رغم توسعها وفقاً لمناهج علم الكلام إلا أنها لم تنضج إلا بواسطة تطبيق الفروع الفقهية المستندة على الأدلة ، وبقى الأصول علماً لابد منه للمجتهدين بينما الفقه علم سائر المكلفين ، وقواعد الفقه ما هى إلا مثل آخر إذ أنه لم يتبلور إلا فى القرن السابع ، واستفاد منه العلماء ، ولكن معرفة الفروع تظل سابقة عليه فى ضرورة تعلمها كما كانت سابقة عليه زماناً ، رغم أنها تجمع العديد من الفروع ، وتسهل حفظها وإدراكها .

ولهذا فإن المقدمات قبل المقاصد ، والجزئيات قبل الكليات فى أمور الشريعة عموماً ، وفى مسائل الفقه خصوصاً ، وكلا الأمرين داخلان فى قاعدة الفروع قبل الأصول . أما فيما سوى ذلك فيما لوكان الأصل صلب العلم والفرع من هوامشه ، أو أن الأصل يبنى عليه الثواب والعقاب ، والفرع تبع له ، فإن القاعدة الأصلية تظل (الأصول قبل الفروع) ، كما ستبينه القاعدة التالية

✧ 2- الأصول قبل الفروع ✧

وهذا مبدأ واضح وضرورى ، فتعلم أصول الشريعة لابد منه

قبل فروعها ، وأرفع الأصول : أصل العقيدة ، كمعرفة البارى تعالى وأسمائه وصفاته ، والإيمان به وبأنبيائه ورسله ، ودون معرفة ذلك فالعمل يصيبه الإحباط ، ولذلك قال السلف : العلم قبل العمل ، وترجم الإمام البخارى لهذا المعنى فقال : (باب : العلم قبل القول والعمل ، لقول الله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا اللّه » فبدأ بالعلم ، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء) (1)

بينما الفقه وفروع الشريعة تبع لذلك ، وكذلك فى الفن الواحد، ففى الفقه مثلاً معرفة ما تصح به العبادة أولى بالمعرفة من سنن العبادات وزوائدها، وهكذا .

ولهذا نرى بعض الصحابة استشهد فى المعارك ، وهم لا يعرفون بعد من جزئيات الشريعة إلا معنى (لا إله إلا الله) ، كما أن كلمة التوحيد ـ كما يحصل فى الجهاد ـ تعصم دم المرء . وذلك لضرورة تقديم فهم الإيمان إجمالاً ، وبعد دخول الإنسان فى دين الله تعالى ، يبدأ بالاستفصال عن الأحكام التى تتضمنها كلمة التوحيد .

وحتى فى إطار الأدب نجد أن العملية التعليمية تتخذ هذا المفهوم التربوى، فلا ينتقل المدرس إلى علم الهوامش وتعليقات العلماء ، وزوائد الخلان ، ونوادر الظرف حتى يستكمل أصول العلم والمعارف، ثم لا بأس عليه من الانتقال .

ونكتفى من ذلك ببعض ما أشار إليه الجاحظ حيث يقول : (ولا تلتمس الفروع إلا بعد إحكام الأصول ، ولا تنظر فى الطُّرف

---

(1) فتح البارى 1/ 160 .

والغـرائب، وتؤثر رواية الملح والنوادر ، وكل مـا خفّ على قلوب الفُرّاغ وراق أسماع الأغمار إلا بعد إقامة الحدود ، والبصر بما يثلم من ذلك العـمود ، فـإن بعض من كلف برواية الأشعـار بدأ برواية أشعـار هذيل قبل رواية شعـر عبـاس بن الأحنف . . وناس من أصحاب الفتيا نظروا فى العين والدّين قبل أن يرووا الاختلاف فى طلاق السنة . . . .)[1] .

والعمود من علم الشريعة ما كان المكلف محتاجاً إليه بذاته ، ثم ما يحتاج إليه الناس ، فى عقيدتهم أولاً ثم عباداتهم ثم ما يصحح أمور معاشهم ، ثم الانتقال إلى العادات ، ثم يزيد فى معرفته ما يشاء من زيادة فى دليل ، أو تحقيق لمسألة ، أو إكثار لموارد خبر .

وما ينطبق فى المجال النظرى ينطبق على السلوك أيضاً ، فمن الدعاة من يطيع فى صغار الأمور دون كبارها ، أو ما اعتاد عليه دون ذى الكلفة ، أو ما يتناسق مع الهوى دون ما يغلبه الهوى . وقد قال ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ : (رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاش النجاسة ولا يتحاشون عن غيبة ، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا ويتهجدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت ، فى أشياء يطول عدها من حفظ فروع وتضييع أصول . فالله الله فى تضييع الأصول ، ومن إهمال سرح الهوى ، فإنه من أهملت ما شيتُه نَفشتْ فى زروع التقى)[2]

وللتمييز بين قاعدتى (الأصول قبل الفروع) ، وما سلف ذكره

(1) البرصان والعرجان للجاحظ / 3 .
(2) صيد الخاطر / 156 .

من أحوال استثنائية : أنه فى الفن الواحد ، وعند تساوى أصوله وفروعه فى الفهم ، تكون الفروع قبل الأصول ، ويمكن الاستشهاد بقاعدة شرعية يسهل استقراؤها فى الكثير من الشرائع والفرائض والتوجيهات القرآنية ، ذكرها الأستاذ سيد قطب رحمه الله ـ عند الحديث عن التدرج فى تحريم الخمر بقوله (عندما يتعلق الأمر أو النهى بقاعدة من قواعد التصور الإيمانى ، اى بمسألة اعتقادية . فإن الإسلام يقضى فيها قضاءً حاسماً منذ اللحظة الأولى . . ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهى بعادة وتقليد ، أو بوضع اجتماعى معقد ، فإن الإسلام يتريث به ، ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج ويهيئ الظروف الواقعية التى تيسر التنفيذ والطاعة .

فعندما كانت المسألة مسألة التوحيد أو الشرك ، أمضى أمره منذ اللحظة الأولى ، فى ضربة حازمة جازمة ، لا تردد فيها ولا تلفت ، ولا مجامة فيها ولا مساومة ، ولا لقاء فى منتصف الطريق ، لأن المسألة هنا مسألة قاعدة أساسية للتصور ، لا يصلح بدونها إيمان ، ولا يقام إسلام . . . .)(1) .

وتطبيقاً لهذا المبدأ فإن تعلم العقيدة قبل الفقه لابد منه ، وأصول الشريعة كالقرآن والحديث ، قبل فروع الخلاف والتوسع الفقهى ، كما أن القاعدة تنطبق فى الفن الواحد ، فقراءة القرآن وتلاوته قبل معرفة تفسيره وتفسيره العام قبل الغوص بدقائقه ، والغوص بدقائقه النافعة قبل الخوض بالمتشابهات . أما فى الحديث فمعرفة الصحيح قبل الحسن ، والحسن قبل الخوض بمعرفة الضعيف ومعرفة متون

(1) فى ظلال القرآن 1 / 229 .

الأحاديث الصحيحة والاطلاع على شروح البخارى ومسلم أولى من الانشغال بطرق الجرح والتعديل ، وتخريج الأسانيد ، وتعلم الفروض فى الفقه أولى من دراسة السنن ، وأبواب الصلاة والزكاة مقدمة على معرفة الوكالة والشركة .

ويتبقى على الداعية معرفة أن ما تسلم به العقيدة ، وتصح به العبادة ، وقواعد الدعوة إلى الله تعالى : مقدم على الثقافة العامة وحديث السياسة ، ولابد كذلك من التذكير أن بعض هذه العلوم قد تتغير أفضليتها من شخص لآخر ، أو فى زمان دون غيره ، فالداعية التاجر يكون تعلم الزكاة وقواعدها أوجب عليه من غيره وتعلم قواعد الجهاد لداعية يمارسه مقدم على علوم أخرى ، وتعلم الداعية الرد على الشيوعية فى بلاد تناطح الشيوعية فيها الحركة الإسلامية مقدم على غيرها ، بينما تكون دراسة الشيوعية فى مكان آخر ضربا من الترف الفكرى ، وهكذا . . . .

✧ 3- العلوم الشرعية بالنسبة لغيرها من كبار العلم ✧

وما عدا علوم الشرع فهى من صغاره ، فما كان من الكتاب والسنّة والإجماع فهو علم مقطوع به أنه من الحق ، وهو الذى عليه الثواب والعقاب، وهو ما أراد الله تبليغه لعباده ، وأرسل لأجل هذا التبليغ رسوله به وأنزل كتابه ، وفى مقابل ذلك علوم مختلفة مما فى أيدى أهل الكتاب ، وما روى عن الأوائل من المتفلسفة ونحوهم ، وما دلت عليه الأقيسة العقلية ، وما قاله أكابر هذه الأمة ، علماؤها وأمراؤها . وكذلك تتضمن الأقيسة العقلية الشرعية ، وما ينقدح فى

عقول البشر . كل ذلك فيه الحق والباطل ، فلا يرد كله ولا يقبل كله ، بل يقبل منه ما وافق الحق ، ويرد منه ما فيه من الباطل .

وبهذا الميزان تصبح كل هذه العلوم من صغار العلم مقارنة بعلوم الشريعة القطعية التي يجب تقديمها ، وذلك : (أن الحق الذى لا باطل فيه هو ما جاءت به الرسل عن الله ، وذلك فى حقنا ويعرف بالكتاب والسنة والإجماع ، وأمّا ما لم تجيء به الرسل عن الله ، أو جاءت به ولكن ليس لنا طريق موصلة إلى العلم به ، ففيه الحق والباطل ، فلهذا كانت الحجة الواجبة الاتباع : للكتاب والسنّة والإجماع ، فإن هذا حق لا باطل فيه ، وواجب الاتباع لا يجوز تركه بحال . . . .) (1) .

بل وحتى العلوم الشرعية لها منازل ومراتب ، ولا ينتقل من علم إلى آخر إلا باستكماله ، فقد قال أحدهم لمؤدب ولده : (لا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن اصطكاك العلم فى السمع وازدحامه فى الوهم : مضلة للفهم) (2) .

✧ 4- صلب العلم قبل مُلحه ✧

فكل علم أو فن له صلب ، وله مُلَح ، ويتميز أحدهما عن الآخر بأن صلب العلم يمتاز بثلاثة خصائص :

الأولى : هى العموم والاطراد .

---

(1) فتاوى ابن تيمية 19 / 5 .

(2) عيون الأخبار 2/ 167 .

والثانية : هى الثبوت فى غير زوال .

والثالثة : كون العلم حاكماً لا محكوماً عليه ، بمعنى كونه مفيداً لعمل يترتب عليه مما يليق به .

(والقسم الأول هو الأصل والمعتمد والذى عليه مدار الطلب ، وإليه تنتهى مقاصد الراسخين ، وذلك ما كان قطعيا أو راجعاً إلى أصل قطعى ، والشريعة المباركة المحمدية منزلة على هذا الوجه ، ولذلك كانت محفوظة فى أصولها وفروعها . . وأيضاً فإن الكليات العقلية مقتبسة من الوجود ، وهو أمر وضعى لا عقلى ، فاستوت مع الكليات الشرعية بهذا الاعتبار ، وارتفع الفرق بينهما . .) (1)

وهذا مظهر آخر من تقدم الأصول على الفروع ، بل إن الشريعة نفسها بتكاليفها ليست على نمط واحد ، فقد وجد بالاستقراء أنها على ثلاثة أنواع : ضرورية وحاجية وتكميلية ، ولا ينتقل من إحداها إلى الأخرى إلا بعد استكمالها ، وكل تكليف قد يكون مداره على التقسيمات الثلاثة .

** ** ** ** ** **

---

(1) الموافقات للشاطبى 1 / 77 ، ويعنى باقتباسها من الوجود : أنها من حقائق الحياة وظواهرها العامة المطردة التى تعرف بالاستقراء والتجربة وليس بالتأمل فقط .

✧ 5. الواضح قبل الغامض ✧

ومن معانى الربانية أن الواضح من المسائل مقدمة على الغامض منهـا ، وهذا مـعنى قـول ابن حـجـر : إن المراد (بصـغـار العلـم مـا وضحمن مسائله ، وبكباره ماذقَّ منها) ، إذا إن من المعلوم أن فى كل علم جوانب واضحه يسهل فهمها وفيه ما قد يصعب فهمه ، أو يحيطه شىء من الغموض ، فيكون الواضح أولى بالتعليم من غير .

والأصل فى المفـتى والكاتب والداعـيـة والخطيب إبلاغ العلم لأهله على هذا المنوال ، فلا يجوز للمفتى - عند ابن القيم - (تخيير السائل ، وإلقاؤة فى الإشكال والحيرة ، بل عليه أن بين بياناً مزيلاً للإشكال ، متضمناً لفصل الخطاب ، كافياً فى حصول المقصود ، لا يحتاج معه إلى غيره) [(1)]

ويقاس على المفتى غيره من أهل التوبية والتعليم .

وقد ورد فى النصوص نهى الرسول ـ ﷺ ـ عن الأغلوطات ، وهى الألـغـاز الملتـوية ، وهذا الدليل ، وإن لـم يكن مـبـاشـراً إلا أن الإمـام الأوزاعـى ـ رحـمـه اللهـ أخـذ هـذا المعـنـى المـراد مـن الحديث . . . . فقال مفسراً : (يعنى صعاب المسائل) [(2)]

وكما أن الأمر ينطبق على المعانى ، فهو أيضاً ينطق على الألفاظ فاختيار الواضح منها أولى من اختيار المفهوم ، وترك المعقد ، فالبيان

---

(1) إعلام الموقعين 4 / 228 .

(2) عيون الأخبار 2/ 117 / 173 / 118 .

فى بعض ما قيل عنه : (أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويحكى عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة ، والذى لابد منه أن يكون سليما من التكلف بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأويل)[1] .

ومما يتفرعُ عن ذلك كراهية التقعر فى الكلام ، والبعد عن بسيط القول والسهل المفهوم من الكلام ، والأجدى اختيار أقصر الطرق ، وأسهل الأساليب التى يفهمها المخاطب ، ويدرك كنهها ، دون أن يؤدى به ذلك إلى عدم الفهم ، أو تحميل المعانى غير ما تحتمل

✧ 6- المرونة فى الأخذ والعطاء ✧

فمهما بلغ العلم من العلم فإنه لا يستطيع إدراك كل أمر ، فما أكثر ما سقط جهابذة العلماء فى نسيان أمر بسيط ، وقد قال عمر رضى الله عنه : لا أعلم ما الأبّ ؟ لما قرأ (وفاكهة وأبّا) ، وأنكرت عائشة رضى الله عنها روايات بعض الصحابة ، كما أنها نفسها استذركت على كثير من الصحابة أخطاءهم ، وكأنه سر من أسرار الله تعالى ليثبت العصمة فقط لأنبيائه ، ولكى يظل العلم أخذاً وعطاءً ، ولابد فيه من التدريس لأجل التعلم ، كما أنه لابد من طلب السؤال والاستيضاح كى يتبين الخلل ، ويسد النقص ، ويدفع غرور المتحدث ، ويشارك الآخرين بالرأى .

قال الأصمعى عن إدراكه للعلم ، وكيف تم له ذلك

---

(1) عيون الأخبار 2 / 117 / 173 / 118 .

(بلسان سؤول، وقلب عقول ، وكنت إذا لقيتُ عالماً أخذتُ منه وأعطيته)[1] .

✧ 7-التدرج ✧

وهذا يقتضى الترتيب بين أجزاء الفن الواحد من العلم ، أو بين الفنون المختلفة من العلم ، والقفز دون مراعاة الترتيب يضيع العلم ، ويبعثر الجهد ، وليكن القصد تحرى الترقى باستمرار .

(فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضروريا ، وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب و التدريج)[2] .

وهنا موازنة لابد من ذكرها ، وهى أن لا يعكف المتعلم على إتقان فن من فنون العلم بحيث يحيط بكل جوانبه ومسائله وفروعه فإن العمر لا يتسع لكل ذلك ، بل إن العمر لا يكفى أحياناً لاستجماع علم واحد فقط ، ولكن المقصود أخذ قواعد كل فن ، وأحسن مافيه ، ومناهجه العامة ، حتى لا يضيع غيره ، ولذلك قيل فى وصايا المتعلم : (أن لا يخوض فى فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعى الترتيب ويبدأ بالأهم ، فإن العمر إذا كان لايتسع لجميع العلوم غالباً ، فالحزم أن يأخذ من كل شىء أحسنه)[3] .

والتدرج فى العلم مظهر من مظاهر التيسير ، و التبشير ، وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ كما فى كتاب العلم من صحيح البخارى : «يسروا ولا تعسروا ، بشروا ولا تنفروا » .

---

(1) عيون الأخبار 2/ 118 .

(2) ، (3) إحياء علوم الدين 1 / 52 .

وقال ابن حجر معقباً : (. . . . . . . وكذا تعليم العلم يجب أن يكون بالتدريج ، لأن الشيء إذا كان ابتداؤه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه ، وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالباً الازدياد ، بخلاف ضده) [1] .

ومن فروع التدرج التدرج مع تلميذك : (أن تناوله المعلومات وتكسبه الصفات بتدرج ، وحسب أهميتها المطلقة ، شرعاً ومصلحةً أو أهميتها المرحلية ، أو أهميتها النسبية المنبثقة من طبيعة تربيته السابقة قبل أن يبدأ رحلته معك ، فتبدأ بالأهم ، فالأقل أهمية . . .) [2] . .

وكذلك يجب أن تغرس الموازين الأساسية قبل تطبيقاتها الجزئية ، أو المعلومات التكميلية وعلى تربيتنا الدعوية (أن تهدر الجزئيات والتفاصيل وتعتنى بغرس الموازين الإسلامية وفق نظرات شرعية صافية بعيدة عن أطوار التفكير الجاهلى ، والغربى خصوصاً ، . . . . ولا يضير بعد ذلك أن يكون التلميذ مفتقداً لصفات أخلاقية إسلامية تكميلية ، أو معلومات سياسية ثانوية ، أو أعراف إدارية ثانوية . [3] .

ومظاهر التدريج هذه مطلوبة فى طلب العلوم الشرعية والدنيوية ، كما أنها مطلوبة فى الفقه الدعوى ، وبالتالى فإن معرفة صفات الخالق وأسمائه ومعرفة توحيد الربوبية والألوهية أولى من الخوض فى الخلافات الكلامية ، ومناهج علماء الكلام ، والردود

---

(1) فتح البارى 1 / 163 .

(2) ، (3) من رسالة تذكرة المربى .

على أهل البدع، وكذلك معرفة علم التوحيد يجب أن تسبق معرفة علم الفقه ، والجد فى فهم القرآن وقراءة الحديث مقدمة على أصول الفقه والخلاف .

واستغرب ابن الجوزى كيف أضاع بعض العلماء أعمارهم فى تفويت علوم مهمة نتيجة لانشغالهم بعلم واحد ، طمعاً فى استكماله وتحصيل كل فروعه ، فأدى ذلك إلى تضييع بقية العلوم ، دون الحصول على فائدة العلم الواحد ، إذ إن بين العلوم تداخلاً ، ولا تؤتى الثمرة إلا بفهم القليل من كل علم ، ثم لا بأس من الاستكثار من أحدها أو بعضها .

(اعلم أنه لو اتسع العمر لم أمنع من الإيغال فى كل علم إلى منتهاه ، غير أن العمر قصير ، والعلم كثير . . فالتشاغل بغير ما صحّ يمنع التشاغل بما هو أهم . . . . ولما تشاغل يحيى بن معين فاته من الفقه الكثير . . . . . ومن أقبح الأشياء أن تجرى حادثة يسأل عنها شيخ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله عز وجل فيها)[1] .

فانظر نقد ابن الجوزى ليحيى بن معين على غزارة علمه فى الحديث ، وفضله ، ولكنه مع علمه الحديثى فى الرجال غابت عنه بعض مسائل الفقه البسيطة ، بل ـ ورغم علمه ـ لم يدرك ما وصل إليه أقرانه كالإمام أحمد وغيره رحمهم الله تعالى .

---

(1) صيد الخاطر / 366 .

✧ 8-المتفق قبل المفترق ✧

أن يكون التعليم للمسائل المتفق عليها ولا يخوض فى مسائل الاختلاف ، فالاختلاف للمتعلم مفسدة ، وإضاعة لأصل مقاصد التعليم ، كما وأنه يربك عملية التفكير ، إضافة إلى ما قد يؤدى إلى إضاعة الدين وحفظ أصول الشريعة ، لما فى الأمر من ضياع فى متاهة الجدول ولذلك قيل : (أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس ، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة . فإن ذلك يدهش عقله ويحيّر ذهنه ، ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع)[1] .

ولا يعنى ذلك تقليل أهمية علم الفقه المقارن ومعرفة أسباب اختلاف الفقهاء ، فإن هذا العلم من الأهمية بمكان ، وهو العُدة الرئيسة لمن يطلب الاجتهاد ، أو لمن يطلب جمع صحاح المسائل وجيّد الإفتاء إذا عزم على التحرر من ضيق التقليد المذهبى ، ولكن الكراهة تنصرف إلى تقديم الأشتغال بذلك والتهاء من لازال فى مدارج البداية بمثل هذا الاختلاف ، فإنه يشتت فكره ويوهمه أوهاماً يليق به أن يكون عنها بمعزل .

وما ينطبق على الفقه ، ينطبق على العمل التربوى أيضا ، وقد أورد ابن القيم هذا المعنى تمييزاً بين المتكلم والسالك إلى الله : (فترى المتكلم يبحث فى الزمان والمكان والجواهر والأعراض والأكوان. . . والسالك إلى الله قد تجاوزها إلى جمع القلب على

---

(1) إحياء علوم الدين 1 / 15 .

ربه المكون وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته . . . فالمتكلم متفرق مشتغل فى معرفة حقيقة الزمان والمكان ، والعارف قد شحّ بالزمان والمكان إن يذهب ضائعاً فى غير السير إلى رب الزمان والمكان) [1] .

فعلى المربى والمعلم مراعاة ذلك ، وأن لا يسمح لإخوانه بالقفز فى سلم المعرفة : (وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى . .)[2] .

فهذا الواجب منصب على المربى والمعلم قبل التلميذ الطارئ على طلب العلم والذى قد لا يدرك المفسدة فى ذلك ، لذلك فالتقصير فى تدريس العلم وفق مراتبه مما ينقد عليه العلماء ، ولذلك انتقد السلف بعض العلماء وقالوا عنهم :

(أبحثُ الناس عن صغير ، وأتركهم لكبير) .

(أعلم الناس بما لم يكن ، وأجهلهم بما كان) .

وقد تكون هذه الصفات من خصائص علماء الدنيا ، الذين يطلبون بتدريس العلم الشهرة والرئاسة .

ويتضمن هذا المعنى أيضاً عدم تتبع شوارد المسائل ، أوما لا طائل وراءه وقد قال ابن القيم : (من تتبع غرائب المسائل ، لم يصب من الخير شيئاً) .

---

(1) مدارج السالكين 2 / 349 .

(1) إحياء علوم الدين 1 / 51 .

✧ 9 -التخصيص ✧

ومن معانى الربانية فى التعليم تخصيص قوم دون قوم بنوع من العلم ، وذلك لاختلاف المفاهيم والمدارك ، والتجارب والممارسات، مما قد يؤدى إلى الفهم الخاطئ أحياناً من قبل البعض عند استماعهم أو قراءتهم لعلم دون مداركهم . أو أن يقود إلى تأويل واه ، أو تفسير باطل ، بل قد يؤدى إلى تحميل الكلام أكثر مما يحتمله، والبناء على الألفاظ أكثر مما تطيق ، وفى حالات أخرى قد يكون ظاهر الحديث أو المقال يقوى على بدعة أو يقود إلى معصية بينما ظاهره فى الأصل غير مراد ، ولذلك ورد عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جملة أحاديث يُستنبط منها هذا المعنى . . . ومنها قوله لمعاذ « من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، قال : ألا أبشر الناس ؟ قال : لا ، إنى أخاف أن يتكلوا » [1] .

وقد استنبط البخارى المعنى المطلوب فترجم لهذه الأحاديث فى كتاب العلم من صحيحه بقوله : (من خَصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا . وقال على : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟) .

وقال الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه ، واعتبرها كقاعدة فى منهجه : (فأما عوام الناس الذين هم بخلاف معانى الخاص من أهل التيقظ والمعرفة فلا معنى لهم فى طلب الكثير ، وقد عجزوا عن معرفة القليل) .

---

(1) رواه البخارى ومسلم .

وفى إطار العـمـل الإسـلامى يضطر المربى أحـيـاناً أو المعلم ـ انطلاقاً من هذا المفـهوم التربوى ـ أن يخص أفراداً دون غيرهم ببعض الأحاديث أو الكلام ، وليس ذلك تضعيفاً لهم أو عدم الثقة بهم ، أو حجزهم عن خير كثير ، أو حرمانهم من فضل العلم ، ولكن منعاً لسوء فهم ، أو إدخالهم فى فتنة ، أو أن يكون العلم بحاجة إلى مقدمات أخرى ، بل قد يكون الغرض أحياناً من منع بعض الأحاديث عن بعض الدعاة هو حفظ قلوبهم من الوسواس ، ولآذانهم من سماع الغيبة ، ولصدورهم من الضغينة ، وسد أبواب فضول الكلام عنهم ، وإعانتهم على عدم التدخل فيما لا يعنى ، أو الانشغال بما لا يجدى .

واستدل ابن حجر لهذا المعنى بذكر بعض أنواع الأحاديث التى يحدث بها قوم دون قوم ، فأورد بعض ما اجتهد به علماء السلف . فقال : (وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد فى الأحاديث التى ظاهرها الخروج على السلطان ، ومالك فى أحاديث الصفات ، وأبو يوسف فى الغرائب ، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه فى الجُرابين وأن المراد ما يقع من الفتن ، ونحوه عن حذيفة ، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العُرنيين لأنه اتخذها وسليه إلى ما كان يعتمده من المبالغة فى سفك الدماء بتأويله الواهى ، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوى البدعة وظاهره فى الأصل غير مراد ، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب) (1) .

---

(1) فتح البارى 1/ 225 .

ومما روى أيضـاً مـا ذكـره مـسلـم عن ابن مـسـعـود : (مـا أنت بمحدث قوماً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)[1] .

قال ابن وهب (وذلك إن يتأولوه غير تـأويله ويحـملوه على غير وجهه) .

وخَرَّج شعبة عن كثير بن مروة قوله : (إن عليك في عملك حقاً كما عليك في مالك حقاً ، لا تحدث بالعلم غير أهله فتجهل ، ولا تمنع العمل أهله فتأثم ، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك ، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك)[2] .

ومن دواعي التخصيص أيضاً اختلاف قوة الدوافع التي تدفع الدعاة لتعلم علم من العلوم ، وقد يوافق العلم هوى الداعية وقد لا يكون ، وهذا يؤثر بدوره على المربي أو المعلم بإقباله على التدريس وتوفره على التعليم فلا يطوي ما عنده من المكنون ، ولا يخفي عن جنوده المخزون . ولذلك فاختيار المربين لصنوف الدعاة في استماعهم لأنواع من الكلام يخضع إلى قواعد التربية وأصول البناء . . ، ويحكم ذلك التجارب والممارسات الدعوية وقد قيل :

(لكل تربةٍ غرس ، ولكل بناء أس)

(ولكل ثوبٍ لابس ، ولكل علمٍ قابس) .

وما أحوج جمهور المربين والدعاة لهذا المعنى ، وأن يقتصر حديثهم على ما ينفع ، وترك الخوض في ما يقود إلى الخلاف أو

---

(1) مقدمه صحيح مسلم .

(2) الاعتصام للشاطبي 214 .

قسـوة القلب ، من حديث الوجاهات ، وأقاويل الفتن ، وحوار القادة ، وخلافات الأقران ، وأخبار السوء .

وهذا لا يتم أيضاً ـ فوق ذلك كله ـ إلا بفراسة يمنحها الله تعالى لمن يشاء من عباده العلماء ، حتى يستطيع تمييز الكلام المقال واختيار السامع له . (وينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ، ليعرف مبلغَ طاقته ، وقدْرَ استحقاقه . . فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم . وإذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة ، وكان بقدر استحقاقهم خبيرا ، لم يضع له عناء ، ولم يخب على يديه صاحب ، وإن لم يتوسمهم ، وخفيت عليه أحوالهم ، ومبلغ استحقاقهم ، كانوا وإياه في عناء مكدٍ ، وتعب غير مجد . .) [1]

وهذا الفراسة وإن كان للذكاء والفطرة منها نصيب ، فإن للتقوى والتجارب نصيبها الأوفر .

وقد اعتبر بعض العلماء أن من الضرورة كتمان العالم لبعض العلم ، بل وإنها من مظاهر الإمامة ، فقد قال الإمام مالك مؤكداً لهذا المعنى : (لا يكون إماماً أبداً ، وهو يحدث بكل ما سمع) [2]

فانظر لهذا الفقه الوافر من الفقيه الجليل ، فالفقه ليس بكثرة الكلام وإنما باختياره لمن يصلح له . . . . ولذلك قيل : (قلوب الأبرار قبور الأسرار ، فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد) [3] .

---

(1) أدب الدنيا والدين للماوردي / 89 .

(2) مقدمة صحيح مسلم .

(3) إحياء علوم الدين 1 / 57 .

ويجب التنبيه هنا ـ مع هذا التخصيص ـ إلى عدم إشعار الدعاة الآخرين من قبل المربين بوجود دورس خاصة ، أو بحوث مميزة ، أو دراسات معينة ، وإشاعة ذلك ـ وإن كان من الضروري تربيتهم على ذلك ، والرضا به ـ والسبب ما قد يحصل للبعض من فتور في طلب العلم الأولي والاستزادة ، وتشوقه إلى النهاية ، فينشغل قلبه بحب الاطلاع ، وقد أشار الغزالي لهذا المعنى فقال عن المتعلم القاصر : (ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به ، ولا يذكر له وراء هذا تدقيقاً . . . فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق . .)[1].

✧ 10- سهولة العبارة مقدمة على صعوبتها ✧

لأن الأصل تبليغ السامع بالمعنى ، وتوصيل العلم إليه بأقرب طريق دون التواء ، إذ لو صحت النية من المتحدث أو الكاتب لاختار أحسن السبل لإيصال العلم ، ولا يختار الطريق الوعر ، لأنه ليس بحاجة لإثبات فصاحته ، ولا لإظهار عمله ، بل يطلب بالعلم رضا الرحمن .

(وعلى هذا النحو مرّ السلف الصالح في بث الشريعة للمؤالف والمخالف ، ومن نظر في استدلالهم على إثبات الأحكام التكليفية علم أنهم قصدوا أيسر الطرق ، وأقربها إلى عقول الطالبين ، لكن من غير ترتيب متكلف ، ولا نظم مؤلف ، بل كانوا يرمون بالكلام

(1) إحياء علوم الدين 1 / 58 .

على عواهنه ولا يبالون كيف وقع فى ترتيبه ، إذا كان قريب المأخذ سهل الملتمس . .) [1] .

ومن المسالك الوعرة فى تصعيب الألفاظ ، وإضاعة المعانى , ما قد يلجأ إليه البعض من استعمال المجاز المبالغ فيه ، والرموز الشاذة المعقدة وجميع أنواع المواضعة الاصطلاحية ، والمواضعة ضربان : أحدهما : عامة وهى ما تواضع عليه العلماء فى كل علم فيما جعلوه ألقابا لمعان لا يستغنى المتعلم عنها ، ولا يقف على معنى الكلام إلا بها ، والثانية : خاصة وهذا هو الذى لا ينبغى استعماله من قبل الداعية ، لعدم فائدته من جهة ، ومظهر من التخليط فى النية من جهة أخرى لأنه : (إنما يختص غالباً بأحد شيئين : إما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ، وبجعل المرمز سبباً لتطلع النفوس إليه ، واحتمال التأويل فيه سبباً لدفع التهمة عنه ، وإمّا لما يدعى أرباب أنه علم معوز ، وإن إدراكه بديع معجز . . . .) [2] .

وكلا الأمرين مما يترفع عنه الداعية ، وحتى لو احتاج إليها لسبب ثانوى فيربأ بنفسه عنها ، سداً للذرائع ، وابتعاداً عن قاله السوء ، ولكن مع هذا : (. . . ربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعانى وتعظيمه من الألفاظ ، ليكون أحلى فى القلوب موقعا ، وأجل فى النفوس موضعا ، فيصير بالرمز سائراً ، وفى الصحف مخلّداً . . . . .) [3] .

---

(1) الموافقات 1 / 59 .

(2)، (3) أدب الدنيا والدين للماوردى / 61 .

وعندئذ لا بأس باستـعـمـاله مـا دام مفـهـومـا ، ويقع فـى قلب السامع مـوقعاً جميلاً ، ما دام لا يقـود إلى مفسدة ، على شـرط عدم المبالـغة والإكثار منه ، أو التكلف للاتيان فيه ، وأن يكون السامعون ممن تدرك عقـولهم مثل هذه الرموز ، ومع هذا فالنقد هنا ينصب على الخطيب أو الكاتب إذا تكلف الأمـر والصـعـوبة ، وكـان يمكـن له التبسيط والتسهيل إذ إنه يتعمد التكلف ويسعى إليه مما يُشعر السامع بأنه يبـتـغى وراء ذلك شـهـوة القـول ، ولا يحـرص على تبليـغ المعنى وربما لا يكون مسؤولا عن ذلك فقد يكون الأمر بحد ذاته يحتاج إلى زيادة تـأمل وفـضـل مـعـانـاه ، حـتى ينجلى ذو الخـفـاء ، وينكـشف الغـامض ، وباستـعـمـال الفكر فـيه يكون الارتياض به فـيسـهل منه الصعب ويقرب به البعيد ، وعندئذ يبرأ القائل به من الاتهام ، والأمر مردوده إلى نفس الكلام ، أو إلى العسرفى الأفهام ، بل وأحياناً كل القصور فى الفهم من المستمع أو القارئ ، فقد يمنعه مانع من تصور المعنى وفـهـمـه ، فـهـذا من قلة الفطنة أحيـانا ، ولا ذنب لأسلوب الكاتب ، وعلى من يبـتلى بذلك كـثـرة المطالعـة وإعـادة النظر ، والسؤال عمّا أشكل عليه ، وقد قيل :

(لا يدرك العلم من لا يطيل درســه ، ويكد نفـســه ، وكـثـرة الدرس كد لا يصبر عليه إلا من يرى العلم مغنما ، والجهالة مغرما ، فـيـحـتـمل تعب الدرس ، ليـدرك راحـة العلم ، وينفى عنه مـعـرة الجهل . . . . .)[1] .

وقد يكون السبب شـبـهـة تعتـرض المعنى فـتمنع من تصوره ،

---

(1) أدب الدنيا والدين / 65 .

وتدفع عن إدراك حقيقته ، أو أفكار تعارض الخاطر ، فتذهل عن تصور المعنى لانشغال الذهن ، وتعب العقل ، وغياب الوعى ، فهذه الأمور إذا طرأت على الإنسان لم يقدر على مغالبة قلبه ، وإجبار عقله، وهنا يأتى المعنى التربوى الذى قُصد من ربانية التعليم ، والتوسط فى التقديم . . . وقد قيل : (إن لهذه القلوب تنافراً كتنافر الوحش ، فتألفوها بالاقتصاد فى التعليم ، والتوسط فى التقديم ، لتحسن طاعتها ، ويدوم نشاطها) .

وبناء على ما ذكر يظل واجب المربى منتصبا فى ضرورة تخير الألفاظ لكل طبقة ، ومعرفة طبيعة المستمعين جزء مهم من الوعى ، وقد يكون التدقيق الكثير مضيعة للبساطة المطلوبة ، ولذلك يوصى بأن : (يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ متخيراً للفظ . . . ويكون فى قواه فضل للتصرف فى كل طبقة ولايدقق المعانى كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح)[1] .

بل إن الاسترسال بالمعانى أبلغ حتى فى السمع ، وما خرج من القلب يدخل إلى القلب ، وكثرة الشرح والتفصيل تقتل جمال المعانى، ومن أبيات الشاعر العالمى فيكتور هيجو :

(لا تشرح ، فإن الشرح يفسد طرافة الموضوع) .

✧ 11-الأساليب الجميلة ✧

من الربانية استعمال الأساليب الجميلة الحلوة المؤدية للمعنى ، وعدم استعمال العبارات الخشنة الجارحة والتى لها نفس الأداء ، لأن

---

(1) عيون الأخبار 2 / 173 .

الرفق ما كان فى شىء إلا زانه ، والعبارات الجميلة دليل على شفافية المسلم ، وحسن انتقائه ، وقد قال المصطفى ـ ﷺ ـ : (لا يقولن أحدكم خَبُثَتْ نفسى ، ولكن ليقل لَقِست نفسى) .

(يؤخذ من الحديث استحباب مجانبة الألفاظ القبيحة والأسماء، والعدول إلى ما لا قبح فيه . . وإن كان المعنى يتأدى بكل منهما . .)[1] . وللتعبير أثر فى إبراز الحق وكم من حق يخرجه إلى الباطل سوء التعبير ، وما أحسن القائل :

تقـــول : هذا جناء والنحل تمدحـــه
وإن تشـــأ ، قلت : ذا قيء الزنابيـــر
مدحاً وذماً ، وما جاوزت وصفهما
والحق قد يعتريه سوء تعبيـــر

✧ 12-المزج بالرقائق ✧

ومن الربانية فى التعليم مزج كل علم بالرقائق كى تتحقق السكينة الإيمانية ولا يسيطر العقل وحده على القلب ، والفكر على الروح ، فتتحول المعانى الإيمانية إلى فلسفة عقيمة ، وتضيع المقاصد الأصلية لعملية التعليم التربوى ، إذ أن أصل المقاصد فى التعليم ربط المخلوق بربه ، وتذكيره بالآخرة، وجعله يشمر بساعد الجد للعبادة والعمل ، وإلا فدراسة العلم دون هذه النية مضيعة للوقت ، والتهاء بالشهوات وقد قيل :

(رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفى فى

---

(1) فتح البارى 10 / 564 .

صـلاح القـلـب إلا أن يمـزج بالرقـائق والنظر فى سـيـر السلف الصـالحين ، فـأمـا مجرد العلم بالحـلال فليس له كبير عـمل فى رقة القلب ، وإنما يرق القلب بذكـر رقـائق الأحـاديث ، وأخـبـار السلف الصـالحين ، لأنهم تناولوا مقصود النقل وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها .

وما أخبرتك بهذه إلا بعد معالجة وذوق . . . . . فافهم هذا ، وامزج طلب الفـقه والحديث بمطالعة سير السلف الزهـاد فى الدنيا ليكون سبباً لـرقة قلبك . . . .) (1) .

ولما كان هدف عملية العلم والتعليم القرب من الله تعالى وليس طلب الدنيـا بهـا ، فـفى هذا المعنى صـلاح للمعلـم والمتعلم ، إذ فـيه يتذكـر المتعـلم إن مـال العلم القرب إلى الله ، وقصـده فى القـراءة أو السمـاع تحلية الباطن وأن لا يقـصد به مباهاة الأقران ، والتفـاخر على الغير ، ويذكر المربى أو العـالم نفسه دائما بنفس المعانى ، ويتذكـر أن تعليـمه : لله تعـالى ، دون الرئاسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك فى نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العـالم الفـاجر بأكثر مما يفسده إذا تجافى عن الصواب ، أو فسدت النية .

وهذا المسلك فى التعليم لابد من التذكير به دائماً ، وعدم الأخذ بالأساليب الغربية الباردة حيث الاكتفاء بجوهر الموضوع فقط ، فإنما تصلح هذه الطريقة للمباحث الطبيعة لاختلاف أهدافها ومقاصدها أمـا التعـليم الدعـوى فلابد لـه من حديث القـلب ، وأسلوب القـرآن

---

(1) صيد الخاطر / 197 .

الكريم أكبر دليل على هذا الأمر ، فليس فيه اقتصار على معان محددة، وإنما يخلط الفقه والأحكام بذكر الموت والآخرة وربطها بالثواب والعقاب ، والله تعالى أعلم بقلوب عباده وما تحتاج إليه .

✧ 13- تحذير المحدث من اللجاج ✧

يكره التزود بما لا طائل بعده . . وكذلك التكلف ، وقد قال الجاحظ فى رسائله يحذر المتحدث والكاتب من ذلك وناصحا له : (وأنا أحذرك من اللجاج والتتايع [1] ، وأرغب إلى الله لك فى السلامة من التلون والتزيد ، وفى الاستطراف والتكلف ، فإن اللجاح لا يكون إلا من خلل القوة ، وإلا من نقصان قد دخل على التمكين ، واللجوج فى معنى المغلوب . . . .) .

ومعنى هذا الأمر عدم اختيار المعانى التى تقود إلى الجدل ، أو التى تستثير الفتن والمشاكل ، أو أن المحدث يختار الرد على ما انتقد عليه ليريح نفسه ، ويشبع غروره ، ويبلغ الانتصار من خصمه ، وكذلك عدم المبالغة بمظاهر التقوى ، وادعاء الزهد ، والتكلف فى الوقار ، وعليه أن يسمع نصيحة ابن قتيبة فى مقدمة عيون الأخبار حيث قال : (وأحببتُ أن تجرى على عادة السلف الصالح فى إرسال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع ، ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتنزهتَ ، وثلموا أديانهم وتورعتَ . .)

✧ 14- ربانية الجواب ✧

وأخيراً نختم المبحث بربانية الجواب ، فإن المتحدث أو الكاتب

(1) والتتابع فى الأمر : السير فيه على خلاف الناس .

لابد من تعرضه للأسئلة ، فكان لزاما : الجواب عنها ، وتكثر الحاجة لذلك وسط الدعاة ، بل غالبا ما يكون وقت الأسئلة للمربين والقادة والخطباء ـ في كثير من الأحوال ـ مساوياً لوقت الدرس أو المحاضرة .

وبحسبنا هنا أن نذكر أهم خصائص الجواب ، قياساً على ما ينبغى للمفتى أو الإمام عندما يُسأل عن مسألة :

يجوز للمتحدث أو المربى أن يجيب السائل بأكثر مما سأله : (وهو من كمال نصحه وعلمه وإرشاده ، ومن عاب ذلك فلقلة علمه)[1] .

وقد ترجم الإمام البخارى فى نهاية كتاب العلم من الصحيح (باب : من أجاب السائل بأكثر مما سأله) عند إيراده لحديث المحرم الذى سأله عن ما يلبس المحرم ، فأجابه صلى الله عليه وسلم : (لا يلبس القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا ثوباً مَسَّه الورس)

ويوخذ من الحديث : (إن المفتى إذا سئل عن واقعة واحتمل عنده أن يكون السائل يتذرع بجوابه يعديه إلى غير محل السؤال : تعيّن عليه أن يفصل الجواب) [2] .

ينبغى للمربى إذا سأله إنسان عن شيء يحتاج ، ومنعه منه ، أن يدله على ما يعوض عنه ، وهذا من تمام شفقة المربى والداعية على أخيه حتى لا يدعه فى حيرة من أمره ، أو يصعب عليه الأمر ، أو يجعله يشعر بعدم كفاية المربى .

---

(1) إعلام الموقعين 4/ 205 .

(2) فتح الباري 1/ 231 .

(فمثاله فى العلماء مثل الطبيب الناصح فى الأطباء ، يحمى العليل عمّا يضره ويصف له ما ينفعه ، فهذا شأن أطباء الأديان والأبدان)[1] .

ودليل ذلك منع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبلال أن يشترى صاعاً من التمر الجيد بصاعين من الردىء ، فقال له فى الحديث المتفق عليه :

(بعْ الجمع بالدراهم ، ثم اشتر بالدراهم جنيبا) .

والجنيب : هو المنتقى الذى لا ردىء فيه ، أو الكبيس .

والجمع : هو الدّقل أى ردىء التمر .

والمنع ـ فى إطار الجماعة المسلمة ـ من أمر ما ، دون تبيان السبب أو إعطاء البديل لا يقود فقط إلى الحيرة ، وعدم الشعور بعدم كفاية المربى ، بل قد يقود الداعية ـ والناشئ خاصة ـ إلى التخبط والبحث عن الجواب عند شخص آخر ، يوقعه فى فتنة .

التنبيه على وجه الاحتراز ، إذا شعر المتحدث أن كلامه سوف يؤدى بالبعض إلى فهم خاطئ ، أو إضافة غير صحيحة عليه ، أو أن هنالك استثناء فى أصل المسألة .

وكلما كان كلام المتحدث أو الكاتب مرغوبا فيه ، ومما يتلقفه الدعاة : كلما دعت الضرورة أكثر إلى الحذر فى العبارات ، و التنبيه عما قد يحصل من الفهم الخاطئ ، أو التفسير السئ ، حفظاً

---

(1) إعلام الموقعين 4 / 205 .

للمصلحة ، فليس هنالك ما هو أسوأ من زلة العالم فى اختلاف العقول وتباين الأفهام .

التمهيد للحكم أو القول المستغرب بما يوضح ذلك ، ويدفع السوء ، حتى لا يسبب مفسدة قبل استكمال الجواب ، وحتى تتنبه النفوس للسماع الكامل ، وحتى يرجع صاحب الغفلة إلى الانتباه فلا يقع فى الوهم .

(إذا كان الحكم مستغرباً جداً مما لم تألفه النفوس ، وإنما ألفت خلافه ، فينبغى للمفتى أن يوطئ قبله ما يكون مؤذناً به كالدليل عليه، و المقدمة بين يديه ، فتأمل ذكره سبحانه قصة زكريا وإخراج الولد منه بعد انصرام عصر الشبيبة وبلوغه السن الذى لا يولد فيه لمثله فيه العادة. . . والمقصود أن المفتى جدير أن يذكر بين يدى الحكم الغريب الذى لم يؤلف مقدمات تؤنس به ، وتدل عليه ، وتكون توطئة بين يديه) [1] .

ومثل هذا تكثر الحاجة إليه وسط الدعاة ، كالإفتاء فى بعض المسائل التى تختلف باختلاف الزمان والمكان ، أو الخروج عن المألوف من الأحكام لمصلحة شرعية ، أو لضرورة ، أو التشدد فى أحكام أخرى سداً للذريعة ، أو بعض الفتاوى التى تصح فى دار الكفر دون دار الإسلام ، أو الأخذ بالأحوط حينا وبالأيسر حيناً آخر .

إعطاء الجواب على قدر فهم السائل ، ولذلك قيل : إن معرفة

---

(1) إعلام الموقعين 4/ 212 .

الناس ضرورية ، وتعرف هذه من قرائن الأحوال ، فجواب سؤال العالم ليس كسؤال العامى ، والجواب اللازم للداعية الملتزم ليس كج ،اب من كان جديداً على العمل الإسلامى ، وجواب الباحث عن المعرفة ليس كمن يريد إفحاماً وتعريضاً ، والإجابة فى الجمع ليس كالإجابة لفرد يمكن النظر إلى حاجته ومقصده ، ولهذا اعتبر هذا المنهج من ملامح البلاغة ، فاشترط للبليغ :

(أن لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة) (1)

ولما ذكرنا بعض خصائص الإجابة التى تجب على الداعية الخطيب أو الكاتب ، أو عموم أحاديث الدعاة من الشيوخ والمربين ، فليس من نافلة القول أن نذكر ملخصا للمواضع التى يكره فيها السؤال ، تعليماً للدعاة وتربية لهم وتنبيها ، وأولى المسلمين بالالتزام بها : جمهرة الدعاة على اختلاف مستوياتهم .

ونكتفى بعشرة مواطن مهمة يكره السؤال فيها ، ننقلها ـ بتصرف واختصار ـ عن الموافقات للإمام الشاطبى رحمه الله :

* السؤال عما لا ينفع فى الأمور الدينية والدعوية .

* السؤال عن زيادة لا فائدة منها ، بعدما بلغ المرء من العلم فى المسألة حاجته .

* السؤال من غير احتياج إليه عند وقت السؤال .

* السؤال عن صعاب المسائل وشرارها ، وغرائب الأمور ، والأغلوطات .

---

(1) عيون الأخبار 2 / 173 .

* السؤال عن علل الأحكام التعبدية التى لا يعقل لها معنى .

* أن يبلغ السائل بسؤاله إلى حد التكلف والتعمق الزائد .

* أن يظهر من السؤال معارضة واضحة لظاهر الكتاب الكريم والسنة بمجرد الرأى .

* السؤال عن المتشابهات فى القرآن الكريم .

* السؤال عما شجر بين الصحابة الكرام ، وكذلك السلف الصالح وعلماء الأمة .

* سؤال الإفحام ، والتعنت وطلب الغلبة فى الخصام .

ثم قال الشاطبى : (هذه جملة من المواضع التى يكره السؤال فيها ، يقاس عليها ما سواها ، وليس النهى فيها واحداً بل فيها ما تشتد كراهيته ، ومنها ما يخف ، ومنها ما يحرم منها ما يكون محل اجتهاد . . . .)[1] .

ويكتفى بهذا الحد من خصائص (ربانية التعليم) ، وما هى إلا مجرد لمسات ، وقد يرد ما هو أكثر من ذلك فى مباحث أخرى ولعل ما ذكر فى هذه الحلقة من هذه السلسلة ما يغطى هدفاً عاجلاً فى إتقان عملية التربية الإسلامية .

** ** **

(1) الموافقات 3 / 321 .

المعايير النسبية لربانية التعليم

يثير مبحث (ربانية التعليم) قضية فى التعليم الدعوى المنهجى هى على مقدار عظيم من الأهمية ، وبخاصة أن المذهب السائد فيها ، القائل بالتدرج ، يمكن أن يعاكس بمذهب آخر يقوم على اجتهاد مغاير لايمنع تجاوز التدرج عند توافر مواصفات وشروط معينة .

وفى مثل هذا الموطن تختلط بعض الاصطلاحات ، كما هى مختلطة فى القول المنقول عن ابن حجر من وجوب بدء المعلم بصغار العلم ومقدماته وجزئياته قبل كباره ونتائجه وكلياته ، فصغار العلم تعبير واضح ، وبيان المقدمات قبل المقاصد أو النتائج أمر يوجبه المنطق، ولكن تناول الجزئيات قبل الكليات ، والفروع قبل الأصول، هما من الأمور المنهجية التى يتعدد فيهما الصواب ، وتختلف فيها النظرات ، وفى كل منها مقدار لا يمكن تجاوزه من وجوب التدرج الذى يتلاءم مع نظرية الربانية هذه ، إنما فيهما أيضاً مقدار من تأخير فتح ذهن الطالب المتعلم على صنعة التحليل والاستقراء ، والقياس والاشتقاق ، فى وقت ربما تكون فيه حدّة ذكائه فى أقصى مستوى لها، وشغفه وإقباله فى أكمل حضورهما وبخاصة عند بداية التعلم ، حيث تستبد الأشواق وتستعر الهمم ولذلك يمكن ويجوز لبعض المربين أن ينتهج نهج تدريس العلوم من أعلاها ، بذكر المهم قبل الثانوى ، وذكر الكليات والقواعد والموازين قبل الفروع والجزئيات والمقدمات ، استثماراً لعاملى الذكاء و الإقبال من باب ، وقذفاً لهذه المعانى فى اللاشعور من باب آخر وإن لم

يدرك الطالب تمام ما فيها ، وتدريباً له أيضاً من باب ثالث على التحليل والتركيب فى وقت مبكر يجعله يلتزم المنهجية فى استقبال المعلومات وتصنيفها ومعرفة قيمتها .

وقد يعطى المربى طلابه مثل هذه القواعد والتمارين التحليلية على جرعات ووجبات بينها فواصل زمنية يرجع خلالها إلى تعليمهم الجزئيات والفروع ، وهذه الطريقة تفرضها حاجة ماسة مرئية مجربة فى الواقع هى مفاد نظرية الربانية ، إذ كيف يستطيع الاستقراء من لم تكن له ثروة من المعلومات الجزئية يستطيع إجالة النظر عبرها ليستقرئ منها شيئاً من الملاحظات والأمور المتكررة على نسق واحد ليجمع منها قاعدة ، مثلاً ؟ وكيف يستطيع القياس والاشتقاق مَن لم يحط أولاً بخبر الحكم الواضح الثابت الذى يقاس عليه أو يشتق منه ؟

ولهذا فإن مسألة تقديم الأصول على الفروع أو العكس يمازجها اجتهاد منهجى ، ونظر ذوقى فراسى ، كما يتحكم فيها نوع العلم ، ومستوى الطالب فى الذكاء والاستعداد ، ولانرى الإطلاق فى صحة أحد المنهجين المتعاكسين ، وإنما هو اختيار للمربى تحكمه التجربة . بل وتحكمه المغامرة أيضا فى بعض الأحيان ، كما هى اختيار كذلك لواضعى المنهج التربوى ، ولكن هذه النسبية ليست نفياً للتدرج ، وليست هى أقل أثراً وأهمية فى إثبات وجوب نظرية الربانية ، فإنها تتضمن هذا التدرج المبتغى وإن جاز الوجه الآخر ، وفى ذلك دفع وإبطال لغلط الدعاة المربين الذين يغفلون ولا ينتبهون إلى ضرورة التسلسل أو التدرج الذى تدعو إليه نظرية ابن عباس وابن حجر فى ربانية التعليم .

✧ لماذا تربية التقليد إذ الاجتهاد قريب؟ ✧

وجماع القول فى هذا الأمر ينقسم إلى ثلاث شعب :

(الشعبة الأولى) :

أن الإسراف فى تعليم الفروع ، وتجريدها ، والغلو فى عرض المقدمات بدعوى التدرج : يؤديان إلى نشوء عقلية تقليدية محضة تستولى على التلميذ وتجعله سلبيا ، لا يطمح إلى إعمال التفكير ، ويصبر اتكالياً فى العلم ، بينما الواجب على المربى أن يثير فى التلميذ كوامن القابلتين المتعاكستين ، التحليلية والتركيبية ، من أجل إنماء العقلية الاجتهادية فيه ، وإنما يكون ذلك بطريقة عرض الأصول والقواعد ، وقد يكون الداعية المربى نفسه بحاجة إلى هذه الطريقة من معلم أعلى يعلمه ، أو من خلال المطالعة المكثفة ، إذ إنه بدوره ضحية منهج الاستغناء بالفروع الذى كان سائداً ، بل إن أكثر علماء الأمة الإسلامية اليوم هم ضحية هذا النمط الذى استولى على طرائق التعليم فى قرون التخلف الأخيرة .

(الشعبة الثانية) :

أن المعنى المغاير للتدرج يتأكد فى المحيط الدعوى بخاصة ، وذلك بسبب كون الدعاة الذين هم فى طور التلمذة رجالاً راشدين وأصحاب ذكاء ، ولم يقبلوا فى الجماعة الدعوية أصلاً إلا من بعد قيام قرينة على توفره فيهم ، وأيضاً لأن الكثير منهم أصحاب دراسة جامعية وربما أصحاب شهادة أعلى ، مما يعنى اطلاعهم على أبواب

من العلم التقعيدى والتحليلى ، وهو وإن لم يكن فى المجال الشرعى إلا أنه مفيد ، إذ يوجد سبيل استطراقى مشترك بين العلوم ، وبعضها يؤثر فى البعض الآخر ويمهد له ، والمقدرة الاجتهادية تنمو جزماً لدى دارس للقواعد الإدارية والاقتصادية ، أو لدى متتبع للظواهر الفيزياوية والمعادلات الرياضية ومثل هؤلاء إذا كانوا من الدعاة وأردنا تعليمهم العلم الشرعى فإن الطريق يختصر لهم اختصارا ، وتقوم علومهم التطبيقية أو دراساتهم الإنسانية مقام الترويض الذى يرجوه المعلم من الفروع والجزئيات ، ويمكنه أن يبدأ معهم دراسة الكليات والأصول .

✧ تأثر التربية بعوامل عديدة غير التدرج ✧

(الشعبة الثالثة)

أن أمر صياغة العقلية الناضجة الكاملة التى من صفاتها الاجتهاد أبعد من أن تسأل عنه هذه الطريقة فى التدرج أو عدمها ، وإنما هى عامل واحد من جملة عوامل وفنون عديدة تجتمع لتنتج الأفق الواسع ، وقد يكون سرد هذه العوامل مضمراً لدى الباحثين حين يكتبون ، ولكن القارئ ينحرف بمقاصدهم إلى أحادية التفسير ، ويجعل القضية المبحوثة كأنها الوحيدة المسؤولة عن الظاهرة المرصودة وسببها المفرد ، وليس ذلك بصحيح ، ولا يليق أن نستدرك على مثل هذا الخلل فى التلقى مقدماً وابتداء بذكر جميع ما هنالك من أخبار وفنون التربية ، لأنا نخاف أن يؤدى الإيجاز غير المشروح إلى خلط آخر وتنزيل للكلام على غير منازله المقصودة .

✧ الحوار سنّة السلف المربين ✧

وإنما يسعنا هنا أن نشير إلى أن الحوار بين المربى وتلميذه هو أحد أهم الوسائل الأخرى لتكوين العقلية الاجتهادية الإبداعية ، ويأتى مسانداً للطريقة المضادة للتدرج التى أشرنا إلى نسبية صوابها ، بل ومسانداً لطريقة التدرج أيضاً ، قد مالت (منهجية التربية القيادية) فى سلسلة العين إلى شرحه وتحبيذه وجعله معلماً بارزاً من معالم هذه التربية ، وهى تذكرنا بماكان من حوار ثرى دفاق دائم يومى فى مجالس أبى حنيفة مع أصحابه رحمهم الله ، من أمثال أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى وزفر بن الهذيل ومحمد بن زياد اللؤلؤى والقاضى الكندى ، أو مجالس الشافعى بمصر مع أصحابه رحمهم الله ، من أمثال البويطى والمزنى والحميدى ، ومن قبلهم الحسن بن محمد الزعفرانى وأصحابه ببغداد ، حتى أن كتاب « الأم » الواسع كان ثمرة لتلك المحاورات التى رأسها الشافعى ، وليس هو من تأليف الشافعى كباحث متأمل على انفراد ، وقد تلقف الغربيون هذه الطريقة عن المسلمين وطوروها وجنوا نتائجها الجيدة ، حتى أن أطفالهم فى المدارس الابتدائية اليوم ليتقنون الحوار ، وبشجاعة ، وربما وقف أحدهم أمام التلفزيون وتكلم بكلام مرتب واضح لا يداخله تلعثم ، فى الحين الذى لا يزال بعض الدعاة فى الشرق يربون أصحابهم على السماع المجرد ، ويكون التلميذ الدعوى أمامهم كأنه وعاء يجهدون أنفسهم على صب كم هائل من المعلومات فيه وهو صامت مراقب فحسب ، فكأنه قرص كومبيوتر يتم ملؤه ، وأنّى للقرص أن يتناوش الاجتهاد من مكان بعيد ؟ .

✧ أهلاً.... يسابقهم الغرباء ✧

لكن منافع المحاورات ، ومسوغات تجاوز التدرج فى المحيط الدعوى لا تنفى حصول فوضى مشهودة تعدت كلمات المعلمين خلالها حتى المقادير الدنيا الواجبة من التدرج ، وتحررت من ضوابط تجاوز التدرج ، فأضرت ، ولو كانت قائمة على اجتهاد لجازت ، ولكنها لم تنتسب لأحد المذهبين ، ولم تصدر عن نظر وقصد وعمد وذوق وفراسة ، وإنما هى مجرد ارتجال وإهمال فيهما غفلة عن المعايير المنهجية التى تستند إليها الآراء المتعاكسة فى التدرج أو عدمه .

وساعد على هذه الظاهرة بوجه خاص ما شاع فى المؤتمرات الطلابية الإسلامية المقامة فى أوروبا وأميركا من دعوة كبار الكتاب والمفكرين والقادة للكلام أمام جمهور عريض من السامعين ، أكثرهم من المبتدئين وصغار الشباب الذين يليق لهم الكلام العاطفى وحديث الحماسة أكثر مما يليق لهم كلام المفكرين والقادة الذين ربما لا يجيدون الخطابة والألفاظ الرنانة كإجادتهم للمحاضرة والتدريس وطرح القضايا ذات العمق ، وقد يضطرهم شعار المؤتمر إلى تناول أبعاد تخطيطية أو إيراد نقد شمولى بمستوى أرفع من إدراك أكثر المشاركين .

وصحافتنا الإسلامية مسؤولة هى الأخرى أيضاً عن تسبيب هذه الظاهرة ، إذ أننا بسبب ضمور الحرية فى إصدار الصحف : انعدمت فى أوساطنا الصحافة المتخصصة ، فليست هناك صحف خاصة للسياسة ، ولا للفكر ، ولا للشباب ، ولا للأطفال ، ولا للنساء ،

وإنما هى صحف قلائل نادرة تحاول أن ترضى كل الاهتمامات والمستويات والأذواق معاً ، فيطلع الشاب والمستجد على كثير من الكلام الذى يتجاوز مرحلته الابتدائية فينشأ عنده الفضول والخوض المبكر فيما يستحسن أن يمسك عن الكلام فيه ، ومباحث مجلتى المجتمع والأمة شاهدة على ذلك .

وموجة كتب (أين الخلل) و(النقد الذاتى) و (المذكرات) زادت رقعة الفضول اتساعاً وأصبح ابن البارحة الذى يحبو يعتلى المنابر ليعظ القادة ، ويصول فى (التأصيل) ، ويجول فى (الشورى) ، ووقع أناس فى الخلل إذ هم يبحثون عن الخلل ليبرأوا منه ، وأصبحت الشورى مشجباً تعلق عليه تطلعات النفس ذات الأخلاط .

✧ الحيثيات المتضادة فى ربانية التعليم ✧

والموقف إزاء هذه الظاهرة يمكن أن ينقسم إلى موقفين ، ولكل موقف سلبياته وإيجابياته ، ويمازج صوابهما التكدير .

فقد يصح أن نستقبل هذه الظاهرة بشىء من البرود واللامبالاة ، وندعها تمر ، ونترك المتكلمين فى المؤتمرات والصحف والمذكرات ليتكلموا على رسلهم ، وبكلمات كبار فيها نقد وتقعيد وتخطيط والسبب فى ذلك رؤية حيوية قدرية أقنعت المربين بأن الموفق هو من وفقه الله تعالى ، بذكاء يخلقه فيه ابتداء ، وبنفس زكية سوية ، وشخصية قوية ، أو بتيسير فى يومياته من بعد خلقه ، من صحة وعافية ، ومال يرفعه عن حد الفقر الموسوس ، وزوجة صالحة تسره عشرتها ، وأمثال ذلك ، وهذه العناصر بمثل هذه التوفيقات ينفعها

هذا الكلام العـالى ، ويصـعب حـصـر ذوات هؤلاء وإحـصـاؤهم لنحتكر لهم الحديث ، ولذلك نتكلم للجميع ، فمن كان موفقاً انتفع ونفع الدعـوة وصـار ضـمن الجيل الجـديد الوارث لنظرات المعلمين المتكلمين ، المطبق لها ، وازداد تنميـة لفكره بما يبدع ، وأمـا الذين يسمعون ولا ينتفعون فلسنا نبتئس لسماعهم، فإنهم إما أن ينسوا ما سمعوا ، وهذا خير أحوالهم وأحسنها ، أو يكون منهم الفضـول والتدخل فيما لا يعنيهم فى سلسلة من الأذواق السيئة التى تنتهى بهم إلى خارج الدعوة، وكأن قدر الخير هو الذى جعلهم يتخلفون، ولو علم الله فيـهم خيـراً لأسـمـعهم سـماع المنتفع الذى يتلمس طريق العمل ، فيثبت ويزداد رسوخا .

وقـد يصـح ـ فى رأى آخـر ـ أن نسـتـقـبل هـذة الظاهرة بنوع من التخوف والحذر ، فلا نتكلم بأصول وموازين ، وغير ذلك من كبار العلم فى المجالات العـامة ، خوفاً أن نفسد فطرة المبتدئين ، ونسـاعد على تأسيس الفضـول ، فنكون السبب فى إتلاف كثير من شباب الدعوة من حيث لا نشعر ، وتكون هذه العناصر ضحية خطأ تربوى يرتكبـه القـادة والمفـكرون بتـحـديثـهم هؤلاء أحـاديث لا تبلغـهـا عقولهم ، فتكون فتنة لهم .

ولكل من الرأيين وجاهته وحيثياته المقنعة ، ويبدو ـ والله أعلم أن القـول النسـبى فى ذلك أصح ، بحـيث نلجـأ إلى أحـد الرأيين حسب الظروف المحيطة بالدعوة ، إن كانت شديدة ذات محن ، أو أوقات يسر ، وبحسب سعة الجيل السامع الجديد ، إن كان ضخماً يحـتمل النحت منه من أجل انتـقـاء الأشـداء الأذكـيـاء ، مثل جيل

الصحوة الحاضر ، أم هو جيل محدود تحتاج حتى أصحاب النقص من أبنائه ، وأيضاً بحسب المجموعة القيادية ، إن كانت كبيرة ومتحدة ومنسجمة الفكر ، أم هى صغيرة وتعيش حالة تباين فى الاجتهاد ، وعندئذ نحذر أن يستقوى أصحاب أحد الاجتهادات بشباب جدد يلفّونهم لفاً من حيث لا يدركون ، فيكون سواد واسع يؤيد اجتهادهم فى الظاهر بينما هو فى الحقيقة سراب فكرى وتخطيطى لا يستند إلى أركان متينة ولا صورة واقعية ، لبدائية مؤيدى هذا الاجتهاد وكونهم مجرد مقلدين .

والتأمل الطويل فى أوصاف المرحلة الدعوية الراهنة تجعلنا نميل إلى تفضيل الرأى الأول الذى نتكلم فيه بكبار العلم حتى ولو كان ذلك فى المؤتمرات والصحف والكتب المنشورة ، مع ما يخالط ذلك من سلبيات أكيدة ، إذا أن نظرة الترجيح بين المصالح والمفاسد تجوّز لنا ذلك من حيث المبدأ ، ولا تشترط لتصرفاتنا أن تكون مجموعة مصالح محضة ، وإنما نعمل بالمصلحة الراجحة وإن مازجها شىء من المضرة أقل منها ، ففتنة الفضوليين حاصلة بشكل أكيد ، ولكن تربية جيل جديد بأفق واسع وعلى سنن الإبداع والفهم الحضارى تشكل مصلحة أكبر .

كلمات التقوى وصفات المرونة : مصاعد الاجتهاد

✧ ولكن نضبط هذا الانفتاح فى الكلام بشروط منها ✧

(الشرط الأول) :

أن يكون كلام الرقائق مشاعاً فى أوساط الدعاة ، بحيث تميل

المواعظ وأحاديث الأخلاق الإيمانية بالداعية إلى التواضع والأدب فى التعامل واحترام المقابل وعفة اللسان إذا أغرته أحاديث الأصول والقواعد بإبداء نقد أو التقدم بين يدى أساتذته .

(الشرط الثانى) :

أن يرافق ذلك سعى لشرح النظرية السياسية الإسلامية وأبعادها، لأن المعانى الكلية والتعميمات إذا لم يفهمها الداعية جيدا وأخذها على ظاهرها فلربما يذهب فى التأول بعيداً ، ويميل إلى الإطلاق والأحكام الحادة فينفى بقواعد الجهاد احتمالات الهدنة ، ويلغى بموازين الاستقلال مناورات التحالف ، ويستعلى بأحاديث العزة والصبر على إفتاء الضرورات ، بينما تمده النظرية السياسية الإسلامية الشاملة بعقلانية وتوازن مع المحيط ، وتجعله احفظ للدماء، والأموال والأعراض ، وأحرص على تقليل الثمن الواجب عليه دفعه وتهبه من المرونة ما يتملص به من المحاصرات ، أو تنفذ به إلى حضور قسمة له فيها نصيب إذ يريدها المنافسون أن تكون ضيزى .

✧ القضاة الفاضلون فى دار الأمان ✧

(الشرط الثالث)

أن تتوافر قدوات كافية فى المحيط الدعوى ، من قادة ومربين وعلماء ، يعجلون بالرد والتقويم وإرجاع الأمور إلى نصابها الصحيح إذا اشتط مُغرب فركب شذوذاً ، لأن الاعتماد على الكتابة يسبب تسويفاً وتأخيراً ، ولربما وصلت الصفحات بعد الخراب ، بينما يؤدى الاستدراك السريع من القدوات النازلة إلى ميدان

المخالطة دوره بشكل آكد ، فإن لم ينفع لفظ ، نفع آخر ، وإن انغلق معنى ، فتحه تمثيل ، وإذا أشكل قياس ، أظهره تعليل ، نقداً ، يداً بيد ، هاءً بهاء ، غير نسيئة ولا محال إلى مؤتمر لاحق .

(الشرط الرابع) :

أن لايكون الزمن زمن فتنة وخلاف ، فإن حرص النفوس على حظوظها يجعل بينها وبين الصواب القريب حجاباً ، حيث يغلب على الأفئدة أن تطيع أهويتها ، ومن الخير آنذاك أن نجمد الأفكار ونقطع لسان الأصول والكليات وكبار العلم ، ليتاح مجال للتقوى أن تهمس فى الآذان داعية لنفسها ، ولتكون لحروف الإصلاح بين الناس قناة جارية .

✧ فى الرواق والركن لا فى الساحة ✧

(الشرط الخامس) :

أن لايكون قصد المفكرين والقادة الكلام بكبار العلم فى المؤتمرات والصحف عن عمد واستمرار يجعلها هى الموطن الطبيعى لهذا النوع من الكلام ، أو الموطن المختار ، وإنما يجعلون ذلك من باب الاستثناء بقصد اكتشاف وإثارة وتشجيع عناصر قوية ذات إبداع ربما لا يصلون لها بطريق الاتصال الخاص ، وأما كثافة ما ينقلونه من كبار العلم مما علمهم الله فيجب أن يكون عبر المدارس القيادية والمجالس المنهجية المتكررة ، ليتم الشرح بأوفر ما يكون البيان ، وليكون الحوار المباشر المستخرج من قلب الأستاذ لما لم يكن قد زوّره سلفاً من المعانى والإرشادات .

✧ ننتظر رشد الرهط ✧

(الشرط السادس) :

أن يشـدد فى تعليم الفـروع وصـغار العلم أيام مـراهقـة العـمل الدعـوى فى بلد مـا ، فكل عـمل يمـر بمرحلة المراهقـة هذه ، بعـد اكتمـال تأسيسه وقبل توسعه وانفتـاحه ، وهى ذات ظواهر نفسية تعترى المجموعة تشابه إلى حد كبير طباع الفتى المراهق ، من تقلب الرأى ، والعناد ، والإغراب ، والجنوح إلى الخيال، وحب المغامرة وكراهية الرقابة ، فإذا جاءت المباحث العالية وحقائق العلم الكبيرة فى أيام المراهقة الحركية هذه فإن المجموعة يمكن أن تنحرف بهـا إلى جدل طويل يصاحبه اختلاط الأصوات ، أو تجنح به إلى اجتهادات شاذة ينكرها عرف الفقهاء المجربين ، ولكن يكون تداول كبار العلم بعد مرحلة المراهقة هذه ، إذ تهدأ النفوس ، وتميل إلى العقلانية ، وتشعر بضرورة الواقعية ، وعندئذ يؤتى تعليمها نتيجته المرجوة ، ويساعد على تفجّر الإبداع الشخصى لدى أذكياء الدعاة . ومثل هذا التعليم فى المرحلة المتقدمة يفترض أن يقوم به جيل من المتعلمين تربى على كبار العلم من قبل فى مرحلة التأسيس من خلال دورات خاصة ورعاية مكثفة .

✧ والمنهجية....دوماً ✧

(الشرط السابع) :

والالتزام بالمنهجية فى العمل والموضوعية فى الفكر تعصم من الانحراف، فإذا شاعت مجموعة من المبادئ المنهجية ، والأعراف

الصحيحة، والموازين الدقيقة فى مجموعة الدعاة : ولدت كبحاً للفهم الخاطئ، وبها نمنع تسرب التفاسير المشوشة، والتأويلات المفرطة البعيدة، وبذلك تظل الأجواء نظيفة دائما، وتعمل القواعد المنهجية والأعراف التنظيمية كمرشحات تحول دون سلبيات الانفتاح، وخصوصاً إذا أضيف إلىَ ذلك إشاعة مفاهيم أدب الحوار، وأخلاق المناظرة، واعتاد عليها الدعاة من خلال الممارسة والتطبيق، مما يجعل الشطط دائماً يحصر فى أضيق الدوائر .

✧ كوابح...تمنع التصدر ✧

(الشرط الثامن) :

وكلما كانت شروط التوثيق وقواعد الانتقاء أكثر وضوحاً فى محيط الجماعة، والضوابط الحازمة أشد سيطرة : كلما قلت سلبيات تعليم كبار العلم وكلياته، لأن حديث القواعد و الأصول فيه بلاغة وجمال صياغة، وفيه دغدغة لعقول الشباب الأذكياء، وقد يستغل معلم متطلع إلى مراكز الصدارة هذه الخصائص فى طبيعة هذه القواعد فيستثير بها إعجاب الشباب، ويصنع له (شلة) موالية، ويجعل اللذة التى تصاحب كلماته ثمناً يدفعه لإدامة ولاء هؤلاء، غير ناظر إلى ما يسببه لهم من فتنة بحديث فوق مستواهم، حتى لكأنه فيلسوف يديم انشداد الناس إليه بغموضه وتمتماته المبهمة بينما يؤسس فقه التوثيق جملة قناعات فى نفوس الشباب تمنعهم من السير وراء من لا يملك غير اللسان وتزويق الكلام .

فهذه وأمثالها شروط يرجى أن تتقلص معها سلبيات المباحث الكلية ويجمعها أن نحتاط لأنفسنا ما استطعنا بتعلم صنعة العقلانية

فإن فيها الرشاد والاتئاد ، وأما العواطف فصنعة لطالما موّهت بدعة مبتدع فنشرتها أوغلّفت الإغراب فأذاعته ، وكم من فكر كاسد غنّاه شاعر مترنم يعزف على أوتار القلوب فأصبح رائجا .

✧ كانت المتاهة رغم وضوح المعالم الهادية ✧

ويؤكد الظن فى لياقة بعض المبتدئين لسماع الأصول والقواعد : مشاهدات حيوية وتاريخية تشير إلى أن فتنة بعض المبتدعة كانت بسبب فهم قاصر لبعض الفروع ، وتنزيلهم لها على غير منازلها ، أو قياسهم عليها قياساً مع الفارق ، ويغنينا عن تتبع الشواهد لهذه الملاحظة فى التاريخ الإسلامى القديم ما شاهدناه ، وما زال خبره حيّاً فينا من وهم التكفير لدى بعض الشباب المتحمس الصادق التوجه بلا شك ، فإن ظاهر النصوص المفردة الفرعية الجزئية فى أبواب الردة والكفر هى التى تسببت فى شطحاته ومذاهبه القاصية عن مقاصد أهل السنّة والجماعة ، ولذلك كان رد من رد بدعتهم معتمداً على الأصول والقواعد بشكل مكثف ، وجاء مثل رد الشيخ القرضاوى فى نقض التطرف مفهوماً مع أن قلمه جال فى ذروة الفقه وحام حول أعلاه ، وكذلك كانت الأصول العشرين من قبل ، مما يمنحنا قناعة بأن الأمر يتعدى مجرد الأسلوب التقليدى فى دراسة صغار العلم وجزئياته قبل كباره وكلياته ، وأن طرق التدريس ومناورات الكتابة إذا كانت ماهرة واستوعبت أطراف المعانى فإن عظام المسائل وضخامها تلين قناتها وتصبح سلسلة مفهومة ، ولا تستلزم هذه القناعة ادعاء هدر العلم الجزئى تماماً والبدء بتداول الكليات دون سابق أية معرفة بجزئيات الأحكام ، كما لا يستقيم

الاعتراض على هذه القناعة بمثل هذا الإلزام لما لايلزم ، بل قلّ أن يوجد داعية يرتاد المساجد ويسمع خطب الجمعة والمواعظ على مثل هذه الدرجة من التعرّى والتبرّى من علم الجزئيات ، ولكن قناعتنا تفهم بالحسنى ، وبالحدود الوسطى ، وهى تأكيد لعدم الإسراف فى تدريس الجزئيات والمقدمات أكثر مما هى محاولة تجاوز وهجر لها .

✧ عطاء التفاعل الحضارى يعين على الاجتهاد ✧

وتتيسر محاولات تفهيم الكليات وأمهات المسائل هذه الأيام بوجود ظاهرة (التفاعل الحضارى) فى المجتمعات الحديثة ، فإن معظم دعاة الإسلام من جيل الصحوة والذين من قبلهم هم من المثقفين الذين يحيون حياة عصرية فيها قراءة للصحف اليومية ومشاهدة للبرامج التلفزيونية ، فوق ما حازه أكثرهم من دراسة جامعية وعليا ، وهذه الدراسات والسماعات والمشاهدات لها تأثير مباشر ودور مكثف فى صياغة عقلية الداعية ومفاهيمه العامة وأذواقه كفرد فى المجتمع ، بغض النظر عن صفته الدعوية ، ويصبح بوجود هذه التأثيرات صاحب استعداد جيد لاستقبال علم القواعد والنتائج والأصول وفهمه بسرعة ، وبشكل قد يعجز عنه الطالب الذى يحيا حياة بدائية ، أو الذى اختار له أستاذه أو اختار لنفسه العزلة اليابسة التى تنحرف بمزاجه وأذواقه ، وكأن أكثر الكلام المنقول عن الفقهاء فى ضرورة التدرج فى التدريس وتقديم الجزئيات على الكليات كان يراعى مَن هم على هذا النمط فى اليبوسة والعزلة المنتجة للسذاجة والبساطة .

إن إيماء المعادلات الرياضية لدارس الرياضيات ـ كمثل من

أمثلة التفاعل الحضارى ـ هو إيماء قوى جداً ، يغرس فى أصل عقل الدارس وفى لاشعوره معانى التعادل والتوازن والتساوى المطلق أو التساوى النسبى ، فى معانى أخرى هى نفسها مرتكزات لكثير من القواعد الفقهية ، بحيث يتلقف الداعية الرياضى هذه القواعد حين روايتها له بسهولة ويسر ، نتيجة الخلفية الذهنية المساعدة التى يملكها .

والداعية الكثير النظر للأشكال الهندسية ، وما فيها من تناظر أو تدرج فى الأطوال ، أو تميّز بحدود حادة ، أو تجاور للمساحات الصمّاء وذوات الثغرات ، وأمثال ذلك : هو داعية طريقه ممهد لمرور معانى الفقه فى التدرج والاستثناء والفروق والشروط ، بالتوطئة التى صنعتها الهندسة .

وداعية آخر أطال استمتاعه بجدول الألوان وما ينسجم منها وما يتنافر ، ومرّت عينه على موازين الجمال الفنى : هو داعية أسرع إحاطة بما فى النتائج الفقهية من منطق متجانس صحيح .

وهل إيحاء معنى التكامل والتصاعد أقل منه لدى دارس الكيمياء الذى يحيط علماً بالجدول الدورى للعناصر ، ويعرف خبر ما يفعله كل بروتون يضاف لنواة الذرة من خصائص جديدة ؟

وهذه أمثلة فحسب لما عسى أن يسببه التفاعل الحضارى وتناول العلوم التطبيقية و الفنون من توسيع للآفاق وتفتيح للأذهان يسهل معهما التفهيم الفقهى ، والداعية اليوم إن لم يكن جامعياً فهو مشاهد للتلفزيون ، قارئ للصحف ، وحائز من مطالعاته ومشاهداته

لنصف العلم ، ثم هو سائح فى مدن وطنه أومدن العالم يرى نتاج المهندسين والفنانين مع كل نظرة وإن لم تكن عامدة ، فتنطبع فى لاشعوره الموازين والظواهر الحيوية الممهدة لاستقرار الموازين الشرعية .

✧ الجمال... وغرام العقل ✧

وأما مَن لا يحيا حياة العلوم وانعزل فى قرية بين الخضرة والجبال والطير فليس هو بأقل من صاحب التفاعل الحضارى ، فإن هذا ترق أحاسيسه ويحدث له ما يحدث للشعراء من إرهاف والتذاذ بالجمال ، فتزكو نفسه ، وتتزن ، وتطمئن ، حتى تكون سكيِّنتها هىَ الممهدة لقواعد الفقه الكبيرة ، وله مع لون وشكل كل وردة خلقها الله تعالى وتلمسها أنامله وتقبّلها شفته وينطبع خيالها فى شغاف قلبه : قُبلة عقلية أخرى لميزان من موازين الفقه ، وإطلالة على الاجتهاد .

لكن المحروم هو من حرم هذا وهذا ، فعاش فى عزلة عن الحضارة والمدنية ، وعن آيات الله فى الآفاق ، وهو من سَجَن نفسه بين الجدران حتى يخشوشن طبعه ويتبلد عقله ، أو حبسه أستاذه فى مدرسته وجعل له من وظيفة حفظ الحواشى ما يطيل معه حنى ظهره ، ولمثل هذا كانت وصايا تدريس علم الجزئيات قبل الكليات .

✧ قلوبٌ أمم.. ✧

ولايظنن ظان أن هذا النمط من تأثير التفاعل الحضارى أو الروح الشاعرية إنما هو وليد عصرنا الراهن ، بل هو قديم ضارب فى القدم ولذلك كان علماء بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وأمثالهم أوعى من علماء النواحى القصية ، لتفاعلهم مع معطيات الحضارة

الإسلامية التى كانت عامرة فى هذه العواصم ، ولذلك أيضاً كان شعراء الإيمان فى تاريخ الإسلام أصحاب مهارة فى فقه النفوس ووصف خصائصها وأحوالها ، لانعكاسات الحياة الجمالية التى عاشوها مع الشجر وترقرق الماء ، حتى أن الواحد منهم ليُعَدّ مؤسسة ثقافية شاملة لوحده بما يحوز من أحاسيس وخواطر يصطادها ، وتأملات فى حوادث الدهور ينتبه لها ، ورؤى تاريخية ، ولغة ثرية وربما يكون أحدهم مُقلاً لم يترك غير قصائد قلائل أو قطعاً متناثرة ، لكنها تشكل اكتشافاَت لسنن الفطرة هى فى أصول الذوق وأصول حركات القلب أخوات أصول فقه المعاملات .

✧ ربانية التعليم قضية منهجية خططية ✧

ونظراً لهذه الحقائق من تأثير التفاعل الحضارى أو الجمالى فى الصياغة العقلية والنفسية للمتفقه فإن على التربية الدعوية إذا أرادت لمتدربيها إتقان صنعة الاجتهاد الإبداعى أن تنحى منحى دفع الدعاة ـ وفق منهج متكامل ـ للعيش فى البيئة الحضارية العلمية ، والتعامل معها ، والاستلال منها مع ما يكملها من سياحة وتعرّف على خلاصة عقول وعلوم وفنون البشر عبر آلاف السنين ، المعروضة فى دور الوثائق والمتاحف والأماكن المصانة ، ثم فى مطالعة صفحات جمال ما خلق الله فى البرارى والبحار ، أو تكثيف مطالعة الخطوط السود فى الصفحات البيض مما سطرته أنامل كل إنسان ، من أدب شعرى ونثرى فيه رمز وخيال وعاطفيات وانتقاء ألفاظ ، أو تاريخ يكشف الحقائق ويحلل دروس الحياة ويقابل بين قبح الظلم وإشراق

العدل ، أو وصف يعين على تصور البعيد ومعرفة ما غاب ، أو فقه لغات يطور الاشتقاقَ الذى فيه إلى مهارةٍ فى قياس الأحكام .

إن قضية (تداخل) صغار العلم وكباره ، أو تسلسلهما ، ليست هى مجرد وصية تقدم إلى المعلمين ترجوهم أن يتقنوا فن التربية وفق معيارها ، فمنهم متقن وقليل إتقان ، وإنما هى ـ فى وجهها الأهم ـ قضية منهجية عميقة ينبغى أن يحكمها التخطيط التربوى بعيد المدى ، وعلى المنهج الجماعى أن يراعيها ويضع جداول عملية تطبيقية لتبليغ وتفهيم الثوابت الموازين والأصول والقواعد لعموم الدعاة بعد إحصائها وتصنيفها نوعياً ، وكذلك الفروع ومفردات الأحكام ، لكل طبقة ما يوازى حاجتها ومقدار استيعابها ، ويستعين بلمسات منهجية متناسقة مع اختياراته يلزم بها المجلات الدعوية ، ويطلب من اللجان والأجهزة المركزية أن تنسجم نشرياتها وأساليب كتابتها مع تلك الاختيارات أيضا ، ثم بأن يتضمن المنهج ما نتمناه للداعية من ذاك الحضور فى البيئة الحضارية ، والسياحة ، ونيل الثقافة العامة ، والعيش التأملى مع جمال الخليقة ومع آيات الله فى الآفاق العريضة ، يتعنى لأقصاها ، ويتغنى ـ مثل داود عليه السلام ـ مع تسبيحات الجبال والطير . . . ثم يكون آخر دعائه أن : الحمد لله رب العالمين .

* * *

سلسلة رسائل العين

الرسالة الثالثة

التقويم الدعوى



الدكتور / عادل الشويخ

التقويم الدعوى

يحتاج الداعية المربى ـ وأحياناً بعض الدعاة ـ إلى عملية تقويم دعوية مستمرة لبعض الأفراد أو كلهم داخل الصف وخارجه ، ضمن دائرة الالتزام الإسلامى العام ، أو حتى خارج هذه الحدود ، وقد تكون عملية التقويم هذه جرحاً أو تعديلاً ، تضعيفاً أو توثيقاً ، بل وقد تتضمن كليهما معاً ، كما أنها قد تكون مجملة أو فيها بعض التفصيل ، وكذلك فإن عملية التقويم قد يقوم بها الداعية حول من هم دون مستواه أو من أقرانه ، وقد تقوم بها أحياناً مجموعة بأكملها ، وقد يمارسها شخص واحد فى أحيان أخرى .

والعملية التقويمية بشقيها رغم أنها عمل تربوى وإدارى إلا أنها قد تمارس من قبل عموم الدعاة عند بعض الظروف . وبالإضافة إلى كل ذلك فإنها قد تمارس بسبب ضرورات العمل ولها ما يبررها ، وقد تمارس أحياناً وبشكل خاطئ ، حيث تتم بسبب الترف الفكرى ، أو حب استغابة الناس ، أو الغلو النظرى فى بعض الأحيان تلذذاً بالعمل العقلى المرافق لها .

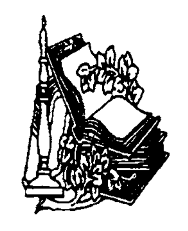
سلبيات وإيجابيات

إن عملية التقويم جد ضرورية ولا محيد عنها فى الجماعة المسلمة وذلك لتنوع الولايات ومقاصدها فى العمل الإسلامى مما يقتضى معرفة الأفراد وتقويمهم حتى يمكن إسناد تلك الولايات لهم ، كما أن معرفة الأنصار والأعداء والدرجات المتفاوتة لهم هى الأخرى ضرورية للعمل الإسلامى فى المجتمع ، ولا غنى عنها لأى خطة تنفيذية أو سَوْقية ، قريبة المدى أو بعيدة ؛ لأن الإنسان ـ فى العمل الإسلامى علىَ وجه الخصوص باعتباره عملاً بشرياً من أهم أركان هذه الخطط ، وأكثرها تأثيراً فى عوامل النجاح أو الفشل .

ورغم أهمية هذه العملية ، إلا أنها قد تستعمل بشكل خاطئ داخل الجماعة المسلمة ، وقد تفتقد إلى شىء من المنهجية أو الموضوعية فتقل الاستفادة منها إلى حد كبير والسبب فى ذلك أن البعض يسرف فى استعمال حقه فى التقويم حتى تتحول العملية إلى نوع من التجريح أو إلى منبر للإطراء والمديح ، وبالتالى يندفع أصحاب اتجاه مضاد ـ بسبب من الشعور المرهف ـ إلى إيقاف العملية والإدعاء بأنَّ هذا الأمر مخالف للتقوى والورع ، فتسند الأعمال لغير أصحابها ، ويوسّد الأمر لغير أهله ، بل وأحياناً يقع بعض المربين بالأمرين معاً فيسرف فى مجلس ، وتدركه حساسيته المرهفة فى مجلس آخر فيمتنع عن الإدلاء برأيه بالأشخاص ، فتتعطل بعض المصالح بسبب ذلك . وللقضية وجه سلبى آخر ، فقد يمارس الدعاة

حقهم فى التقويم دون إفراط أو تفريط ، ولكن دون استناد على أساس منهجى ، فقد يذكر البعض نقاط القوة لشخص فى مجالات ليست هى بمناط البحث ، إذ يثنى على ورع الشخص وعبادته وعلمه الشرعى فى مجال ترشيحه لكتابة سياسية ، وقد يثنى على شخص آخر بالشجاعة والنشاط فى مجال ترشيحه لمهمة شورية ، وهكذا فى إطار الذم والتجريح ، والبعض الآخر يبنى الجرح والتعديل على أساس من المسائل الذوقية والشكلية ، والبعض يتقن فن المديح والإطراء شعوراً منه أن هذا هو واجب الأخوة والمروءة دون النظر لمصالح العمل ، بينما يوجد من هو على النقيض إذ يتقن فن النقد والبحث عن الأخطاء دون النظر إلى نسبية الموازين ، وصلاح الفرد لمهمة دون أخرى، وأن الكمال فى البشر نادر ، واجتماع الفضائل معوز ، وهكذا تضيع الموازين بين الإفراط والتفريط .

إن هذا كله يقتضى دراسة هذا الأمر والتنبيه على العيوب المنهجية ، ووضع بعض القواعد والأسس ليهتدى بها المربون فى أداء العملية التقويمية .



أصالة وانتماء

لاشك أن عملية التقويم هى أحد فنون معرفة الناس وأحوالهم بشكل عام (أى يمكن اعتباره من علوم الانثروبولوجى) ، وهو علم إسلامى أصيل ابتدأ كأحد علوم الحديث النبوى الشريف ، وتميزت الحضارة الإسلامية به .

وفى الواقع أن استعمال التقويم فى الإطار الجماعى اليوم رغم أنه قد يستند إلى بعض ملامح الجرح والتعديل فى علم الحديث ، إلا أن القياس المطلق لا يصح دائماً ، لوجود فرق جوهرى ، وهو أن الجرح فى علم الحديث أو التعديل هدفهما معرفة الرواى على وجه الخصوص ، من حيث ثقته وقدرته على الرواية ، أما فى التقويم الدعوى فلأجل معرفة أى إنسان أو داعية ، ومن حيث مجمل قدراته ونقاط الضعف فيها ، والأصل فى ذلك أن الجرح والتعديل يخدم فى النهاية صحة (النص النبوى) وما يترتب عليه من درجة ضعف الرواية أو صحتها ، بينما التقويم الدعوى يخدم جملة المقاصد الكلية والنهائية للعمل الدعوى .

وبالرغم من أن النظر الدقيق يثبت أن الأصل واحد ، إذ أن البحث الفاحص فى كل منهما مرده إلى معرفة كل من صفتى القوة والأمانة ، والأمانة صفة مشتركة فى التقويمين ، إلا أن نقطة الافتراق هى فى نسبية القوة ، إذ هى عند رواة الحديث تعنى الضبط

والحفظ بينما تعنى فى النشاط الدعوى جملة متباينة ، ومجموعة متنوعة من الخصائص .

ولهذا يقال فى تعريف الجرح ـ اصطلاحاً ـ عند أهل الحديث :

(ظهور وصف فى الراوى يقدح فى عدالته وحفظه وضبطه مما يترتب عليه سقوط روايته أو ضعفها أو ردها) .

والتعديل :

(هو من لم يظهر فى أمر دينه ومروءته ما يخل بهما ، فيقبل لذلك خبره وشهادته إذا توفرت شروط الأداء) .

فيؤخذ من التعريفين أن مناط الحكم على صفة الراوى فيما يتعلق بالرواية ونقل النص ، دون الالتفات إلى الخصائص الأخرى ، بينما فى العمل الدعوى يمكن تعريف التقويم بما يخدم الخصائص الأخرى ، فيقال :

(معرفة أوصاف الإنسان بشكل متكامل مما يترتب عليه إسناد ولاية دينية معينة له ، أو اتخاذ موقف تجاهه سلباً أو إيجاباً) .

وهذا التعريف يخدم المقاصد المختلفة التى تبنى على جملة خصائص وأوصاف الإنسان .

روافد ثلاثة

يُعرف الناس وأحوالهم بطرق متعددة ؛ منها : شهادة الاستفاضة ، وهى ما ينتشر بين الناس ، ومنها : طريقة الاختبار والامتحان . ومنها : عملية التقويم بواسطة الجرح والتعديل ، وقد لخص شيخ الإسلام ذلك فقال :

(ومعرفة أحوال الناس تارة تكون بشهادات الناس ، وتارة تكون بالجرح والتعديل ، وتارة تكون بالاختبار والامتحان) (1) .

ولهذا فيمكن للدعاة أن يأخذوا بشهادة الاستفاضة إذا لم يكن لها معارض ، وهى الأصل فى الحكم على الناس وأحوالهم ، ولا يستفصل إلا عند الحاجة التى يبنى عليها أحكام ، فيمكن التفصيل ببعض الخصائص والاستفسار عنها عندما تدعو ضرورة التعامل ، ومنها الانضمام ، أو إسناد مهمة دعوية له ، وكلما زادت أهمية المركز الدعوى أو الولاية الدعوية كلما كان الداعى إلى الاستفصال أهم وأكثر ضرورة ، وكذلك يمكن للجماعة المسلمة وأميرها أن تسلك طريق الاختبار والامتحان بواسطة التكليف بالمهمات الخاصة ، وبمراقبة تنفيذ التكاليف الدعوية ، والنظر إلى الممارسات الدعوية للداعية ، وكذلك فإن معرفة تاريخه خلال عمله هى نوع من الاختبار بالممارسة ، ومع الأخذ بهذين الطريقين المذكورين يبقى المجال الثالث فى عملية التقويم بجناحيها من الجرح والتعديل أحد

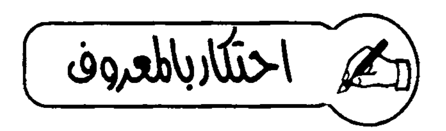
---

(1) فتاوى ابن تيمية 15 / 330 .

الطرق المهمة ، والذى لابد من استعماله ، ولا غنى عنه ، وتظل دائرة التوثيق والتضعيف رحبة لولوج الدعاة فيها بالعدل والإنصاف والمنهجية .

ضوابط .. وموازين

إن أهمية استعمال قواعد التقويم داخل الجماعة المسلمة تقود بالضرورة إلى وضع الضوابط الشرعية ، والموازين العقلية المبنية على قواعد الشرع ، واللازمة لإتمام العملية التقويمية على الوجه الأفضل ، والارتفاع بكفاءتها ، والاستفادة القصوى منها ، دون الجنوح بها عن الحد الذى يخرجها عن الاعتدال ، أو يتجاوز بها حدود الفضل والإنصاف ، أو ينحرف بها عن المسار الصحيح ، ولكى تصبح وسيلة شرعية صائبة وفق مقاصد التشريع العامة ، ويمكن استعمالها دون ضيق وتعسف ، ودونما حرج وتكلف ، من أجل خدمة مصالح الدعوة ضمن ما يرضاه الله تعالى .



رغم سبق الحديث بأن عملية التقويم قد يقوم بها عموم الدعاة ، إلا أن هذا محدد بعموم الناس ، أو الذين هم تحت إشرافهم من جهة، وفى ظروف خاصة ، كالحاجة الماسة لذلك من جهة أخرى ، وإلا فالأصل فى عملية التقويم أن يقوم بها الأمراء ، فهم

يقومون بمجل العملية التقويمية لغرض معرفة الداعية وما يصلح له ، والمسؤول عن عمل ما أقدر من غيره على اختيار من يصلح معه لذلك العمل ، وبناءً على هذا فاحتكار العمل التقويمى لطبقة معينة هو أولى ، دفعاً للمفسدة ، وغلقاً لأبواب السوء ، وسد الذريعة على طرق النجوى ، ومسالك الغيبة ، والأمراء ، هم أشبه ـ فى عملية التقويم ـ بعلماء الجرح والتعديل ، فتقويم الرواة والحكم على روايتهم لم يقم بها كل عالم ، بل وامتنع عنها حتى بعض علماء الحديث من أهل العلم به دراية ، أو من شراحه ونقلته ، ولم يضطلع بهذه المهمة الصعبة إلا جهابذة علم الحديث رواية ، كالبخارى ومسلم والنسائى ، وابن معين والدارقطنى وابن حنبل ، والذهبى وابن حجر ، وأضرابهم من الأفذاذ .

والسبب فى محاولة اقتصار العملية على الأمراء فوق أنها سداً لذريعة بعض المفاسد : أنهم أقدر على وضع العملية موضعها الصحيح ، والالتزام بضوابطها ، وكذلك غلبة الأمر بمعرفتهم الأوسع بعلوم الشرع والواقع ، وما يستندون عليه من أدلة وقرائن وممارسات تمكنت منها عقولهم على مر الأيام ، وفوق ذلك فهم أعلم بمقاصد الولاية ، ومقادير الحاجة إليها ، والخصائص التى يُبنى الترشيح على أساسها ، ومع ذلك فلابد من الوعظ المستمر للأمراء بضرورة الالتزام بالخلق الإسلامى ، وتذكر الضوابط الشرعية ، والشعور بالورع المستمر ، من إصلاح النية ، وحفظ اللسان أثناء عملية التقويم ، تجنباً للإسراف ، ومنعاً للوقوع فى المفسدة ، التى فيها تفتقد المعادلة ، ويكون وزر الإسراف أكبر من أجر التقويم .

موازين فى التقويم

وهذه جملة ضوابط عامة ، وموازين ثابتة لعملية التقويم بنوعيها التوثيقى والتضعيفى ، ثم يستل منها على وجه التفصيل مجموعة ضوابط لكل عملية ، إذ أن مبنى التوثيق على الموضوعية وعدم المبالغة ، وضوابط التضعيف والجرح أساسها الآداب الإسلامية ، والعدل والإنصاف ، كما أن هذه الضوابط تحتوى على الكثير من المفاهيم التربوية ، وآداب الدعاة .

الإخلاص أولاً

(1) أن يتحرى من يقوم بعملية التقويم ، الإخلاص فى قوله ، وأن يكون التوثيق والتضعيف مقروناً بحب الأجر والمثوبة ، وأن يكون كلاً من المدح والثناء أو الذم والنقد خالصاً لوجه الله تعالى غير مشوب بنيّة أخرى ، كأن يكتسب من وراء ذلك مصلحة شخصية حتى ولو كانت صغيرة كاكتساب ود ، أو عبارة مجاملة ، أو أن يحصل على شىء لنفسه ، كما يجب أن لا يكون المدح من أجل تقريب شخص لصداقة خاصة ، أو مودة قريبة ، أو حتى علاقة دعوية سابقة ، كما ينبغى ـ بنفس الميزان ـ أن لا يكون الذم من أجل استبعاد شخص أو محاربته لهوىً جامح ، أو رغبة ذاتية ، أو لخلاف

فى الرأى ، أو لحسد طارئ ، إذ أن عملية التقويم يراد لها أن تكون خالصة حتى تؤتى ببركة ثمارها للدعوة ، كما يجب التذكر أن ذمة الله ورسوله تبرآن ممن رشح أحداً لمهمة ، وهو يرى غيره أصلح لها . وليكن المقوّم على انتباه عظيم أن لا يكون عمله فى التقويم لإثبات قدرته فى جزالة الرأى ، وأن لا يجعل العملية كنوع من الترف العقلى الذى يمارسه ، إذ أن فضول الآراء وجزالة العقول إذا لم تستعمل للخير كانت طامة على صاحبها، واسمع قول الحسن البصرى :

(. . . وفضل الرأى إذا لم يستعمل فى رضوان الله ومنفعة الناس قائد إلى الذنوب) [1] .

وعلى المقوّم التذكر دائماً أن لا يلجأ للتقويم ما لم تدع حاجة إليه ، وأن الأقوال من الأعمال ، والأعمال بالنيات ، وليعلم دائماً أن أعراض المسلمين حفرة من حفرة النار ، فكيف إذا كانوا من العلماء أو الصالحين ، وما أحلى قول ابن عساكر ـ وإن كان حول العلماء على وجه الخصوص ـ إذ قال :

(الوقيعة فيهم بما هم منه براء : أمر عظيم ، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم ، والاختلاق على من اختاره الله منهم ليُفشى العلم خلق ذميم ، والاقتداء بما مدح الله به قول المتبعين من الاستغفار لمن سبقهم وصف كريم . . . . .) [2] .

---

(1) عيون الأخبار 1/ 329 .

(2) تبيين كذب المفترى / 29 .

ولابد من التذكر دائماً قول المصطفى ـ ﷺ ـ كما ورد فى البخارى :

(إن العبد ليتكلم بالكملة ما يتبين فيها ، يزل بها فى النار أبعد مما بين المشرق) [1] .

العدل أساس الشريعة

(2) تحرى العدل والإنصاف ، لأن عملية التقويم نوع من الأمانة ، وقد أمرنا الله تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها ، والقيام بالقسط ، والأمانة العامة أولى من الأمانة الخاصة ، والقسط فى المصالح الدينية أوجب ، والأمانة لا تؤدى إلا بالعدل ، وبه قامت السماوات والأرض ، ولأجله نزلت الشرائع ، بل وجبل الإنسان على القبول به إذا تحرر من الأهواء والشهوات ، وقد قال تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [2] . .

وأداء الأمانة إلى الناس بأنواعها لا يتم إلا بالولاية فهى أساس ذلك ، ولابد أن أمر الولاية يترتب عليه أمر بمعروف ونهى عن منكر ، ويجر ذلك إلى نوع من الجرح والتعديل فكانت بذلك عملية التقويم جزءاً من واجب الولاية الذى لابد منه ، وشرطها العدل باعتباره من شروط الولاية .

---

(1) فتح البارى 11 / 308 .

(2) سورة النساء : (58) .

(وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة ، والولاية الصالحة . . ثم إن المؤدى للأمانة مع مخالفة هواه يثبته الله فيحفظه فى أهله وماله بعده، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده فيذل أهله ، ويذهب ماله . .)(1) . .

ولو كان ذا قربى

ومن الأمانة فى التقويم أداء الشهادة حتى ولو كان قريباً ، وهنا يمكن القياس على أقوال الثقات من المحدثين (فقد سئل ابن المدينى عن أبيه ، فقال : سلوا عنه غيرى ، فأعادوا المسألة ، فأطرق ثم رفع رأسه فقال : هو الدين ، إنه ضعيف) . . . . (وقال أبو داود صاحب السنن : ابنى عبد الله كذاب) . (ونحوه قول الذهبى فى ولده أبى هريرة : أنه حفظ القرآن ، ثم تشاغل عنه حتى نسيه . .) وغير ذلك كثير فى كتب الحديث والطبقات ، أمّا أهل المداهنة فإنهم لا يؤدون الأمانة بسبب قلة الورع ، فلذلك قيل :

(. فإن كان مداحاً مداهنا : لم يلتفت إلى الورع ، بل ربما أخرج مساوئ الكبير وهنّاته فى هيئة المدح والمكارم والعظمة) (2) .

(1) فتاوى ابن تيمية 28/ 246 .

(2) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوى .

وقد يكون الخروج من العدل إلى الظلم ، أو من الإنصاف إلى المبالغة ، أو من الصدق إلى المداهنة لأسباب كثيرة ، فقد يكون الذم بسبب الكره والبغض أو الحسد ، أو المنافسة على المراتب ، أو ظن فاسد ، وغير ذلك ، كما يكون المدح لحاجة خاصة ، أو إعجاب طارئ ، وكل ذلك دلالة على عدم الإنصاف ومن بخس الناس أشياءهم ، وهو مناقض لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (1) .

بل من إنصاف المقوم لنفسه الاعتدال والورع فقد تتبدل النفوس وتتغير الأحوال ، فقد روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال :

(لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً ، فقلت : كيف ذاك ؟ قال : إذا أحببت كلفت كلف الصبى ، وإذا أبغضت أحببت لصاحبك التلف) (2) .

التقوى .. مفتاح العدل

ولذا كان الورع لابد منه ، ويشترط هذا الشرط للمقوّم كما اشترط العلماء ذلك لأهل الجرح والتعديل وللمؤرخين ، ولا بأس بنقل ما ذكره السبكى فى هذا الشرط للمؤرخ فقال :

---

(1) سورة الأعراف : (85) .

(2) الأدب المفرد للبخارى .

(وهم على شفا جرف هار ، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس ، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من كاذب أو صادق ، فلابد أن يكون المؤرخ عالماً عادلاً عارفاً بحال من يترجمه ، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له ، ولا من العداوة ما قد يحمله على الغض منه . . . .)(1) .

ولعل هذه الخصائص من أهم مبررات حصر العملية التقويمية فى الجماعة المسلمة ، فى إطار ضيق ومعين ، تحقيقاً للمصالح العامة ، ودفعاً لجملة المفاسد المترتبة عليها .

ومن العدل .. الموازنة

(3) ومن العدل ومقتضياته الموازنة بين الجرح والتعديل ، والتوسط بين التوثيق والتضعيف ، وعدم الاكتفاء بطرفى الحق والسكوت عن الطرف الآخر ، إذ قد تحمل العبارة بين طيّاتها ذم وهى مدح ، وقد يكون ظاهرها المدح وفيها مكامن الذم . . ومنها ما حصل لبعض علماء الجرح والتعديل حيث يطنب أحدهم بمدح من يحب ويذكر كل محاسنه ويبالغ فى وصفه ، ويتغافل عن غلطاته ، ويتأول له ما أمكن ، وإذا ذكر أحداً من الطرف الآخر يكثر بنقل أقوال من طعن فيه ، ويعيد ما ذكره ، ويبديه ، ويكرر عبارات الجرح بأساليب شتى ، ولا يستوعب المحاسن ، وإذا ظفر على أحد منهم

(1) معيذ النعم ومبيد النقم للسبكى .

بغلطة : أظهرها ، وأحياناً يذكر الكلام المبطّن ، كما يرد على الألسنة اليوم مما هو قديم يصفه ابن السبكى فيقول :

(إن من يرتكب ما تقدم كلما يذكر بين يديه شخص ، فيقول دعونا منه، أو أنه عجيب ، أو الله يصلحه ، فيظن أنه لم يغتبه بشىء من ذلك ، مع أنه من أقبح الغيبة . . .) (1) .

أو أن يركز المقوّم على جانب ـ هو حق ـ ويتغاضى عن حق آخر ، فتكون نتيجة الصورة مشوهة ، وكل ذلك تجاف عن الإنصاف ، وما الإنصاف إلا من العدل ، كما ورد فى تفسير الإمام على ـ رضى الله عنه ـ للعدل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ (2) :

(فقال : العدل : الإنصاف . والإحسان : التفضل) (3) .

ومن اقتضاء العدل والإنصاف : الموازنة وعدم المبالغة فى المدح والثناء أو الذم والهجاء ، فهذا الأمر ليس من اقتضاء الموازنة ، وعلى المقوّم ـ جهد الإمكان ـ أن لا يرفع من يحب فوق مرتبته ولا العكس ، وإن كان الغالب أنه لا قدرة للمرء على تجنب هذا ، فحب الشىء يعمى ويصم . . .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما أن عين السخط تبدى المساويا

(1)طبقات الشافعية لابن السبكى .

(2)سورة النحل : (90).

(3) عيون الأخبار 3 / 19 .

ولكن يحاول المرء جهد استطاعته ، ويصدق مع نفسه جهد الإمكان ﴿فَاتَّقُوا اللَّه ما اسْتَطَعْتُمْ ﴾(1) .

(ولو لم يكن من آفات المبالغة إلا ما أشار إليه إمامنا الشافعى رحمه الله بقوله : ما رفعت أحداً فوق مقداره إلا واتضع من قدرى عنده بقدر ما رفعته به أو أزيد . . .) (2) .

والواقع أن التوازن من خصائص الشريعة فى كل أمورها ، وما المدح والثناء إلا أحد ظواهر هذه الخاصية ، كما أورد ذلك سلطان العلماء العز بن عبد السلام عند ذكره لقاعدة الاقتصاد فى المصالح فقال منبهاً على ضرورة الاقتصاد والموازنة حتى فى أمر المدح والذم :

(وكذلك المدح المباح لا يكثر منه ، ولا يتقاعد عن اليسير منه عند مسيس الحاجة ترغيباً للممدوح فى الإكثار مما مدح به ، أو تذكيراً له بنعمة عليه ليشكرها ، وليذكرها بشرط الأمن على الممدوح من الفتنة ، وكذلك الهجاء الذى تمس الحاجة إليه لا ينبغى أن يكثر منه إلا حيث أمر به فى الشهادات والروايات والمشورات ، ولا تكاد تجد مدّاحاً إلا رَذلاً ولا هجّاءً إلا نَذلاً)(3) .

ولابد من الإيضاح أن كلمتى (مدّاح وهجّاء) ، هما من صيغ المبالغة ، والمقصود بهما أصحاب الإفراط والمبالغة بالمدح والهجاء . ويؤخذ من النص أن من المصالح التى جاءت بها الشريعة التوسط والموازنة الممدوحة .

---

(1)سورة التغابن : (16) .

(2)الإعلان بالتوبيخ للسخاوى

(3) قراعد الأحكام للغربن عبد السلام 2 / 177 .

المنزلق الخطر

(4) عدم تجاوز الحدود الشرعية فى المدح أو الذم ، والوصف بما لا يعلمه إلا الله تعالى ، كالشهادة بالإيمان المحض أو دخول الجنة للمرء ، أو الجزم بالنفاق ودخول النار لآخر ، فتجاوز مثل هذه الحدود مما لا سبيل للبشر لمعرفته مهما أوتوا من عقل وذكاء ، وبصيرة وصفاء ، هو من التقول على الله بغير علم ، وانحراف عن منهج العقيدة ، والتصرف بما لم يأذن به الله ، لأن الله عز وجل اختص نفسه بمعرفة ما فى القلوب ، وهو وحده المطلع على السرائر ، وأوكل إلى البشر الحكم على الظاهر . إن المطلع على أشد عبارات الجرح والتضعيف لا يجد فيها من يحكم حتى على المبتدعة بكفر أو نفاق ، ولا يجزم بالإيمان كذلك لأحد ، وذلك لشدة حرص السلف والعلماء على عدم الدخول فى المنزلق الخطر ، والولوج بالمركب الصعب ، خوفاً من أن يرتد الوصف عليهم ، وإشفاقاً على أنفسهم مما حذر الرسول ـ ﷺ ـ منه .

ولهذا كانت عقيدة السلف ، وقاعدة أهل السنة والجماعة هى ما عبر عنها متن الطحاوية بالنص التالى :

(ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ، ويدخلهم الجنة برحمته ، ولا نأمن عليهم ، ولا نشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئهم . .) .

(ولا ننزل أحداً منهم جنةً ولا ناراً ، ولا نشهد عليهم بكفر ولا شرك ولا بنفاق ، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ، ونذر سرائرهم إلى الله . .)[1] .

ويمكن القياس على ذلك كل العبارات التى توحى بمعرفة خصائص غيبية استأثر الله تعالى بمعرفتها .

التبدل : سنة القلوب

(5) هنالك ثبات نسبى فى خصائص الأشخاص ، ولكن الخصائص الإيمانية المؤثرة ينالها مد وجزر ، إذ الإيمان يزيد وينقص ، كما أن قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن ، ولهذا فالنفوس تتغير ، والقلوب تتقلب ، والخصائص تتبدل ، ولأجل هذا كان لابد لعملية التقويم أن تراجع ما بين فترة زمنية وأخرى ، وأن لا يكون التقويم فى مرحلة ما ضربة لازب ، أو حتماً دائماً ، إذ أنه بالإضافة إلى سنة الله تعالى الجارية فى تغيير القلوب وتبدل النفوس فإن مجمل الظروف الحياتية ، وتغير الزمان ، وتقلب الإنسان فيها ما بين طاعة ومعصية ، وشدة ورخاء ، وفقر وغنى ، وعزوبة وزواج ، وتلمذة وتخرج ، واستيطان وتغرب ، وحرية وقيود ، وفرح وترح ، كل ذلك يؤدى ولا شك إلى تغير خصائص

---

(1) شرح الطحاوية 277 : 332 .

الإنسان النفسية والروحية ، وندرك ذلك أيضاً من بعض عبارات المحدثين الذين يروون عن شخص قبل اختلاطه، ويضربون على أحاديثه بعدها ، أو يوثقون روايته وهو فى بلد مع تضعيف غيرها ، وما قد يأخذون فى رواية محدث عن شيخ ما ، ويتركون روايته عن غيره ، وهكذا .

ومن أجل هذا ، كان لابد لعملية التقويم أن تتغير مع تبدل الزمان، وأن لا يقتصر الدعاة والمربون على تقويم مرحلة معينة . ومما يقاس عليه أيضاً أن الفتوى وهى تستند إلى دليل شرعى ثابت ، قد وضع لها قاعدة :

(تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد) (1) .

فكيف بالجرح والتعديل وهو مبنى على خصائص الإنسان المتغيرة ، والخصائص تتبدل بمجمل المؤثرات الدينية والدنيوية الخاضعة لتغير الظروف والزمان والمكان .

ومما يتبع هذه المسألة ما قد يجرح به الداعية ولكن قبل انضمامه للجماعة المؤمنة ، كاقتراف المعاصى ، أو التمسك بمذهب بدعى ، أو الانضمام إلى حزب جاهلى ، فإن مثل هذا النقص لا عبرة به ، ويجب أن لا يتعرض له ، إذا رجحت دلائل توبته ، ويقاس على ما ورد عن السلف فى تجنب ذكر أخطاء بعض أصحاب الفضل فى شبابهم فيقول السخاوى :

---

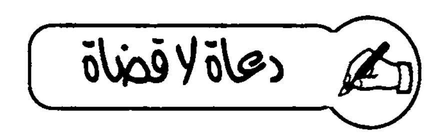
(1) إعلام الموقعين 3 / 5 .

(وكذا يتجنب التعرض للوقائع المنقصة الصادرة فى شبوبية من صيّره الله تعالى بعد ذلك مقتدى به ، فمن ذا الذى سلم . . . والاعتبار بحاله الآن . . .) (1) .

ومثل ذلك أيضاً الزلات الطارئة وخصوصاً الصادرة عن أصحاب الفضل من قدماء السالكين .

(ولا يكتفى بالنقل الشائع خصوصاً إذا ترتبت على ذلك مفسدة من الطعن فى حق أحد من أهل العلم والصلاح ، بل إن كان فى الواقعة أمر قادح فى حق المستور فينبغى له أن لا يبالغ فى إفشائه ، ويكتفى بالإشارة ، لئلا يكون المذكور وقعت منه فلتة ، فإذا ضبطت عليه لزمه عارها أبداً ، وإلى ذلك الإشارة بقبول الشارع : أقيلوا ذوى الهيآت عثراتهم . . .) (2) .

والأصل فى المعاصى سترها إن لم تدع حاجة لها ، فكيف بها وقد مضت ، بل وإن هتكها ليس من خصائص المؤمنين .



(6) يجب معرفة أن أحكام التقويم هى أحكام دعوية تخدم المقاصد التى لأجلها يتم التقويم ، فهى بهذا ليست أحكاماً قضائية ، ولا تبنى عليها أحكام دينية ، كاتهام الناس بالمعاصى أو الفسوق ، أو

---

(1)، (2) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى .

الشهادة لهم بالتقوى والورع فنحن (دعاة لا قضاة) ، فقد يكون صاحب الذنب من أهل الخير لكثرة محاسنه ، وصاحب الفضيلة من أهل الشر لسوء نيته ، ولذلك فإن الأحكام الدينية تبنى على الظاهر من كثرة الفضائل .

و : (ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل - يعنى من غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لا ينبغى أن تذكر عيوبه ، فمتى كان فضله أكثر من نقصه : وُهب نقصه لفضله . . .)(1) .

كما ينبغى اليقين بأن الخطأ لا يلغى المحاسن ، وإنما العبرة بكثرتها، وأن القاعدة فى الشريعة أنه ما من بشر إلا وله ذنوب ، وقد تغيب هذه الذنوب بكثرة المحاسن ، وهذا لابد من فهمه من عموم الدعاة فى تسامحهم لصاحب الإحسان العظيم ، وتذكر أن الله تعالى غفر لأهل بدر عيوبهم ، ورضى عن أهل الشجرة ، وقبلها احتمل من موسى وأحبّه رغم ما قام به ، ولهذا نقل ابن القيم عن شيخه أنه قال :

(انظر إلى موسى - صلوات الله وسلامه عليه - رمى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه بيده فكسرها ، وجر بلحية نبى مثله وهو هارون ، ولطم عين ملك الموت ففقأها ، وعاتب ربه ليلة الإسراء فى محمد - ﷺ - ورفعه عليه ، وربه تعالى يحتمل له ذلك كله ، ويحبه ويكرمه ، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة فى مقابلة أعدى عدو له ، وصدع بأمره ، وعالج أمتى القبط وبنى إسرائيل

(1) الكفاية للخطيب البغدادى / 79 .

أشد المعالجة ، فكانت هذه الأمور كالشعرة فى البحر . .)[1] .

فالذنب الظاهر لا يلغى المحاسن ، وكذلك العكس ، والحكم عند الله تعالى ، والأصل فى التقويم ما تخدمه معرفة الخصائص من مقاصد الولاية ، بل وفيها محافظة على كرامة الشخص ، والذب عن عرضه فى حالة توليه ما يصلح له دون ما لا يصلح له .

صدقٌ : أساسه العلم

(7) الصدق المستند إلى العلم فى التقويم أمر لابد من الالتزام به كضرورة دينية ، إذ أن عملية التقويم فيها شهادة ورواية ، كما فيها إفتاء وحكم ، ولذا وجب تميّز من يقوم بالعملية الأخذ بشروطها ، ومن أهم شروطها الصدق المستند إلى العلم ، والابتعاد عن آفة الكذب ، والجماعة المسلمة لابد لها من هذا الالتزام حتى تتحقق بركة العمل :

(والواجب على هؤلاء الأربعة أن يخبروا بالصدق المستند إلى العلم ، فيكونون عالمين بما يخبرون به صادقين فى الإخبار به ، وآفة أحدهم الكذب والكتمان ، فمتى كتم الحق أو كذب فيه فقد حادّ الله فى شرعه ودينه ، وقد أجرى الله سنته أن يمحق عليه بركة علمه ودينه ودنياه إذا فعل ذلك . . ومن التزم الصدق والبيان منهم فى مرتبته بورك له فى علمه ووقته ودينه ودنياه . . فبالكتمان يعزل الحق

(1) تهذيب مدارج السالكين / 186 .

عن سلطانه ، وبالكذب يقلب عن وجهه ، والجزاء من جنس العمل . .) (1) .

وهنا يصح القياس مرة أخرى على الرواية فى الحديث ، وكيف يشترط لها المستند الجازم والتحقق الأكيد ، فذكر فى شرط الراوى الثقة والعدل ، وكما يشترط فى الرواية فإنه يشترط فى الشهادة والإفتاء والحكم ، كما سبق بيانه ، وكذلك ذكر هذا كشرط من شروط المؤرخ ، وكل ذلك يؤكد أهمية ذلك للمقوّم ، فقيل فى رواية الأحداث والأخبار :

(ولابد أن يكون عالماً بطريق النقل ، حتى لا يجزم إلا بما يتحققه ، فإن لم يحصل له مستند فى الرواية ، لم يجز له النقل لقوله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع » ـ رواه مسلم ـ وليكون بذلك محترزاً عن وقوع المجازفة والبهتان ، والافتئات والعدوان ، وهو لا يشعر ولا يبصر . . .)(2) .

وفى ما ذكر منهج واضح لعملية التقويم ، والقياس على ما ذكر .



(1) إعلام الموقعين 4 / 225 .

(2) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى .

قوالب واضحة للمعانى الواضحة

(8) أن تكون عبارات الجرح والتعديل واضحة جداً ، كى لا تتباين العقول فى فهمها واستيعابها ، أو المدارك فى إدراكها ، بل وقد تقود العملية إلى مفسدة عند التأويل الفاسد ، أو التفسير البعيد ، وعلى الأخص عندما يختلط مع التفسير هوى ، أو مع التأويل غرض ، وحكى ابن السبكى عن أبيه اشتراط معرفة مدلولات الألفاظ والدقة فيها عند الترجمة للعلماء والمحدثين فقال موضحاً ضرورة هذا الأمر :

(وأن يكون حسن العبارة ، عارفاً بمدلولات الألفاظ ، حسن التصور ، بحيث يتصور حين ترجمة الشخص جميع حاله ، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عنه ولا تنقص ، وأن لا يغلبه الهوى ، فيخيل إليه هواه الإطناب فى مدح من يحبه والتقصير فى غيره ، وذلك بأن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ، ويسلك معه طريق الإنصاف ، وإلا فالتجرد عن الهوى عزيز . . .) (1) .

والواقع أن مصطلحات كل فن هى أشبه بالمقاييس المستعملة فى العلوم الطبيعية ، فكلما كانت دقيقة وواضحة ، كان البناء عليها متيناً ودقيقاً .

---

(1) طبقات الشافعية لابن السبكى .

ما بين الجرح والتعديل

(9) لمّا كان الأصل فى الناس أنهم ثقات وفى الدعاة أدنى درجات شروط التوثيق وخصائصه ، فإن التعديل والتوثيق يقبل مجملاً ودون تفصيل ، بينما الجرح لا يقبل إلا مفسراً ، وخصوصاً فيما يتعلق بالمقاصد التى يجرح المرء لأجلها ، وهنا يقاس الأمر على ما ورد عند علماء الحديث لوجود نفس العلة ، وهى درء المفسدة ، لاختلاف الناس فى النظر إلى العيوب ، فقد يظن المرء بعض الأمور من الذنوب والمعاصى أو مما يجرح الإنسان به ، وهى ليست كذلك بل إن مردها للتأول والاجتهاد ، ولذلك قال ابن عبد البر :

(إن أهل العلم لا يقبل الجرح فيهم إلا ببيان واضح) [1] .

وليس الدعاة بمنأى عن ذلك فقد يجرح بعضهم بأمور لا ينبغى التجريح بها ، إذ أنها من مسائل الاجتهاد والرأى ، أو أنها من العادات والأعراف ، أو أنها من المسائل الذوقية التى يختلف الناس فى درجاتها بسبب التربية العائلية والوضع الاجتماعى ، وطبيعة المجتمعات . . . أما إذا اجتمع الجرح والتعديل فى شخص ، فإن الجرح مقدم على التعديل فيما يخص مقصد الولاية المرشح إليها ، ولا ينظر إلى الجرح فيما سوى ذلك ، وهذا التخصيص هو الفارق مع قاعدة علم الحديث ، لأن المقصد فيها واحد فقط وهو الصلاحية

---

(1) جامع بيان العلم 2/ 152 .

للرواية ، بينما تتعدد المقاصد فى العمل الإسلامى ، وفى الواقع أن لهذه القاعدة استثناء أيضاً ، فإذا ما كثر عدد المعدلين عن الجارحين ، واستفاضت الأخبار بالتوثيق فلا يتلفت إلى الجرح وخصوصاً بالنسبة للأمراء ، وأصحاب الفضل من علماء الجماعة وكبارها :

(والحذر كل الحذر ، أن تفهم أن قاعدتهم (الجرح مقدم على التعديل) على إطلاقها ، بل الصواب أن من ثبتت إمامته وعدالته ، وكثر مادحوه ، وندر جارحوه ، وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب مذهبى أو غيره : لم يلتفت إلى جرحه . .)[1] .

خصوصاً وأن من طبائع الناس تكبير الأخطاء ، وأن الزلة الصغيرة يعطى لها الحجم الكبير ، وانطلاقاً من هذا المفهوم أيضاً ، فقد يعتبر تجريح الأقران أحياناً قرينة على وجود التنافس المذموم ، فلا يؤخذ به غالباً ، وخاصة فى أوقات الفتن ووجود المشاكل ، ويقاس ذلك على منع بعض المحدثين قبول جرح الأقران بعضهم ببعض ، ومنهم ابن عبد البر الذى عقد باباً خاصاً لكلام الأقران المتعاصرين من العلماء بعضهم فى بعض وقرر :

(أن لا يقبل كلام بعضهم فى بعض ، وإن كان كل منهم بمفرده ثقة حجة)[2] .

ولذا كان تجريح بعض الرؤوس لبعضهم البعض مما يجب أن لا يستمع له ، ولا يعتد به ، إلا بأدلة واضحة بيّنة ، وخصوصاً إذا كان

---

(1) طبقات الشافعية لابن السبكى 1/ 188 .
(2)جامع بيان العلم 2 / 150 .

مع كل رئيس جملة من الأتباع يغلب على الظن الخير الوافر فيهم ، لوجود مظنة الحسد والتنافس ، وسيطرة الغضب فى أوقات المحن والشدائد ، وأزمان الخلاف والانشقاق ، وغنى عن القول أن المقصود هنا برد التجريح إذا كان فى الدين والمروءة ، وليس مانعاً من ذكر الخطأ فى الاجتهاد ، أو الغلط فى المواقف .

والإلهام .. مصدر

(10) الأصل الشرعى فى عملية التقويم الأخذ بظاهر الأعمال، والحكم من خلال الوقائع ، مع مراعاة الظروف ، وكذلك الأخذ بالقرائن كأدلة إضافية ، وليست أصلية ، لأن الأخذ بالقرائن لوحدها نوع من الظن ، والظن أكذب الحديث ، ولكن يؤخذ بها للترجيح أو عند الضرورة ، أو لدرء خطر كبير محتمل ، ويتفرع عن هذا الأصل ما يلى :

(أ) لا ننكر أن الإلهام والبصيرة الإيمانية حق ، ويقذفها الله فى قلب من يشاء ، وقد يستعمل للترجيح بعد استيفاء الأدلة والقرائن ، أو يحكم به المرء على نفسه ، أو يستعمله عند تساوى الأدلة وغياب الترجيح عند التقويم ، إذ أنّ :

(القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعى . . فمتى ما وقع عنده وحصل فى قلبه ما يظن معه أن هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى لله ورسوله : كان هذا ترجيحاً بدليل

شرعى ، والذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقاً إلى الحقائق مطلقاً أخطأوا ، فإذا كان اجتهاد العبد فى طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجح أقوى من أدلة كثيرة ضعيفة . .)[1] .

ومن أدلتها ما ثبت للرسول صلى الله عليه وسلم أنه :

(حذّر وبشّر ، وأنذر وندب ، وتصرف بمقتضى الخوارق ، من الفراسة الصادقة والإلهام الصحيح ، والكشف الواضح والرؤيا الصالحة) . ولذلك (كان من فعل ذلك ، ممن اختص بشىء من هذه الأمور : على طريق من الصواب ، وعاملاً بما ليس بخارج عن المشروع ، لكن مع مراعاة شروط ذلك)[2] .

وكذلك ما دلّ عليه عمل الصحابة بمثل ذلك من الفراسة والإلهام .

إياك ... وخرم الاستدراج

(ب) يجب أن لا يبالغ بها ، وأن لا تعتبر إلا بشرط وهو :

(أن لا تخرم حكماً شرعياً ، ولا قاعدة دينية ، فإن ما يخرم قاعدة شرعية أو حكماً شرعياً ليس بحق فى نفسه ، بل هو إما خيال أو وهم، أو من إلقاء الشيطان) .

---

(1) فتاوى ابن تيمية 20/ 42 .

(2) الموافقات للشاطبى 2/ 263 .

ومن خَـرْم القـواعـد الأخـذ بالإلهـام وحـده وترك الظواهر الواضحة . . وقد جاء فى الحديث الصحيح :

« إنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأحكم له على نحو ما أسمع منه » (1) .

وترى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحكم إلا على وفق ما سمع ، لا على ما علم ، وهذا أصل فى منع الحاكم أو الأمير أن يحكم بعلمه أو إلهامه .

الإلهام فى المباح

(جـ) أن لا يؤخذ بالإلهام ، ويسوغ عمل الجرح والتعديل وفقه إلا فى أمر مباح ، وأن لا يتعامل الداعية مع غيره وفق ذلك ، وأن لا يتجاوز الإنصاف والعدل ، وكذلك لا يؤخذ بذلك إلا لفائدة يرجو نجاحها .

(فإن العاقل لا يدخل على نفسه ما لعله يخاف عاقبته ، فقد يلحقه بسبب الالتفات إليها عجب أو غيره ، والكرامة كما أنها خصوصية ، كذلك هى فتنة واختبار لينظر كيف تعملون . .) (2) .

ولهذا فالمربى يجب أن لا يكون مغروراً ببصيرته ، ومعجباً بما قد يفتح الله عليه ، فقد يسلم الله تعالى هذا الإلهام منه ، إذا تجاوز

(1) متفق عليه .

(2) الموافقات 2 / 273 .

الحد ، وعليه بالتذكر أن الخطأ الواحد الذى يؤدى إلى سلب حق مسلم إثمه كبير .

الافتقار : طاقة الإبصار

(د) على القائد أو المربى ، ومن يقوم بعملية التقويم الدعوية الاستعانة بالله فى تقوية بصيرته ، والالتجاء إلى الله تعالى حتى يفتح عليه فى معرفة الناس ، وفى كشف أبواب الحق ، ويدله على الخير ، وأن لا يركن المرء لنفسه ، ويظن بعقله الرجاحة الكافية وبقلبه اليقين التام ، فإن الله تعالى هو المعطى والآخذ ، والمقوّم عليه الالتزام بالوصية التى تقال للمفتى إذا نزلت به المسألة ، وصعب عليه أمر ما :

(أن ينبعث من قلبه الافتقار الحقيقى الحالى ، لا العلمى المجرد ، إلى ملهم الصواب ، ومعلم الخير ، وهادى القلوب أن يلهمه الصواب ، ويفتح له طريق السداد . . . فمتى قرع هذا الباب فقد قرع باب التوفيق ، وما أجدر من أمَّلَ فضل ربه أن لا يحرمه إياه) (1) .

ومثل هذه البصيرة وانفتاحها ، والإلهام وما يعود به من المعرفة : لا تتم إلا بالطاعة وترك المعاصى حتى يكشف له النور والضياء الذى يبصر به حقائق الأشياء ، ومنها معرفة الرجال ، حتى ليدرك طبيعتهم من فحوى كلامهم ، أو لحن قولهم :

(1) إعلام الموقعين 4/ 222 .

(وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : الصلاة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، فكيف من معه نور وبرهان وضياء ، كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها . . .)[1] .

ومن جملة ما تقدم فإن ورع قادة الدعوة إنما هو الطريق الأقرب لمعرفة الرجال واكتشاف الثقات ، كما أنه من دروب معرفة أهل الفتن وضعاف النفوس ، وبالتالى فإن اختيارات القادة الأتقياء تكون موفقة دائماً فى الانتقاء للمراكز ، وفى إبعاد المرجفين والضعفاء ، وبعكس ذلك قد يتسلق الضعفاء الذين يتقنون فن الكلام ، أو المرجفون الذين يثبطون الهمم ، أو أصحاب الوجاهات الذين يبحثون عن المراكز ، بينما يبتعد الأصفياء وينخزل الأتقياء ، وينتكس الأبرياء ، وتتحجم الصفوة عن أداء عملها فيضعف بناء الجماعة ، وتقل بركة العمل ، وتزيد لأواء الفتن ، ويتقلص العمل الجاد ، وبالتالى لا يحالف التوفيق العمل .

وخلاصة الأمر فى الإلهام ما حدده الإمام الشهيد واعتبره من أصول الدعوة ، حيث قال فى الأصل الثالث من الأصول العشرين :

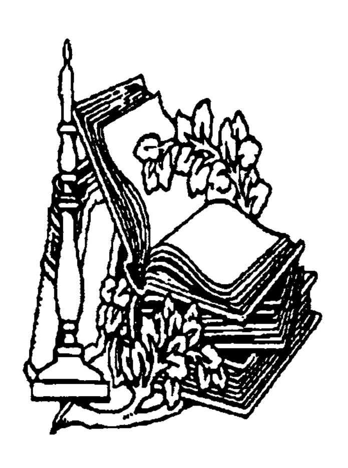
(وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة : نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب من يشاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطر ، والكشف والرؤى ، ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولا يعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه) .

والوصية الدائمة للدعاة : أن لا يتبعوا الهوى وحب الذات .

---

(1) فتاوى ابن تيمية 20/ 43 .

(فإن اتباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق ، ويفتح عليه أبواب الخذلان ، فتراه يلهج بأن الله لو وفّقه لكان كذا وكذا ، وقد سد على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه . قال الفضيل بن عياض : من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات : انقطعت عنه موارد التوفيق . .) (1) .



(1) روضة المحبين / 479 .



تتناول عملية التقويم الدعوية جانبين :

✧ القسم الأول: التوثيق ✧

ويتم ذلك بتوثيق الشخص والثناء عليه فى أحد الجوانب، سواءً أكان سائباً ، من أجل اتخاذ موقف معين معه ، كالتعاون معه فى عمل عام ، أو الاستفادة من جهوده فى إطار معين ، أو الاتفاق وإياه على إنجاز مهمة ، أو قد يكون توثيق داعية له انتماء ، من أجل إسناد مهمة دعوية خاصة ، أو إسناد أحد المراكز له ، ولا شك فى جواز الثناء على شخص بذاته ، ولكن لابد من أخذ الاعتبارات التالية :

الثناء الواجب

(1) الثناء مستحب ، وهو من أخص واجبات الأخوة ، ويدل على قوة الآصرة فى الجماعة المؤمنة ، وخصوصاً أمام الغير ، والمدح يقود إلى تهيئة عقول الناس وقلوبهم لسماع كلام الداعية والتأثر به ، ولذلك ذكر أن من واجب المؤمن نحو أخيه بشكل عام ، ناهيك عن خصوصية الداعية الذى ارتبط بأخيه بعقد الأخوة مع رابطة الإيمان :

(أن يثنى عليه بما يعرفه من محاسن أحواله عند من يؤثر الثناء عنده ، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وأفعاله ، حتى فى خلقه وعقله ، وهيئته وخطه ، وتصنيفه ، وجميع ما يفرح به من غير إفراط ولا كذب . . .) (1) .

والاكتفاء باليسير من المدح مطلوب ، إذ أن المبالغة تسقط الهيبة، والكثرة من المدح تورث الريبة ، والتوسط فى كل الأمور ممدوح ، حتى ولو كان من يثنى عليه من أصحاب الفضل الأعلى ، والمبالغة فى كل أمر مذمومة .

المبالغة القاصمة

(2) أن لا يبالغ المدح فى غيابه كما ذكر ، ولكن المبالغة فى وجهه أولى بالمنع ، والثناء بحضرته أدعى للحظر ، وذلك للنهى الوارد فى ذلك ، إذ أن كثرة المدح تورث العجب بالنفس ، والثناء يؤدى إلى الغرور ، وقد سمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً يثنى على رجل ويطريه فى المِدحة فقال :

« أهلكتم ، أو قطعتم ظَهر الرجل » (2) .

وفى حديث : « **ويحك قطعت عنق صاحبك** » (3) .

---

(1) مختصر منهاج القاصدين / 103 .

(2) صحيح البخارى / كتاب الأدب .

(3) صحيح مسلم / كتاب الزهد والرقائق .

وأخذ العلماء من ذلك كراهية المدح ، وهو الأصل :

(وفى الجملة المدح والثناء على الرجل مكروه ، لأنه قلّما يسلم المادح عن كذب يقوله فى مدحه ، وقلّما يسلم الممدوح من عُجب يداخله .)[1].

والنص يشير إلى علة المنع ، فهو قد يجر المادح إلى مبالغة وكذب، كما أنه قد يجر الممدوح إلى العجب والغرور .

مديح التشجيع

وقد يستثنى من ذلك أحياناً جواز مدح المربى لتلميذه ، أو القائد لجنديه ، إذا كان لغرض التشجيع ، وأمن عليه من العجب والغرور ، بل وحتى التشجيع للقادة أو بين الأقران فقد جبلت النفوس على ذلك، ولنا فى رسول الله ـ ﷺ ـ أسوة حسنة حيث يقول فى حادثة إغارة الكفار على سرح المدينة وذهاب سلمة وأبى قتادة فى أثرهم :

« كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة وخير رَجّالتنا سلمة »[2]

فعلق النووى على ذلك بقوله :

---

(1) شرح السنة للبغوى 13/ 151 .

(2) رواه مسلم .

(وهذا يدل على جواز ثناء الإمام على من ظهرت منه براعة فى القتال)[1] .

واستنبط ابن حجر منه :

(استحباب الثناء على الشجاع ومن فيه فضيلة ، لا سيما عند الصنع الجميل ليستزيد من ذلك ، ومحله حيث يؤمن الافتتان. . .)[2] .

ومن الثناء ما يكون فردياً ، كقوله ـ ﷺ ـ لسعد يوم أحد :

« **ارم فداك أبى وأمى** » [3] .

وكذلك قوله للزبير ـ رضي الله عنه ـ :

« إن لكل نبى حوارياً ، وحوارىّ الزبير »[٤] .

الإطراء ... يدفع الرهط

وقد يكون الثناء جماعياً يخص مجموعة كاملة ، مما يقاس عليه الثناء على مجموعة من الدعاة ، أو دعاة مكان بعينه ، أو مدح رهط معين يقومون بمهمة دعوية ، ومما ورد ما قال ـ ﷺ ـ عن قبيلتى أسلم وغِفار :

---

(1) الأذكار / 183 .

(2) فتح البارى 7 / 463 .

(3) ، (4) رواهما البخارى ومسلم .

« غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله ... » (1) .

وكذلك ما قاله عن بنى تميم ، لشدتهم وشجاعتهم :

« . . . هم أشد أمتى على الدجال . . » (2) .

التماس العذر للكرام

وقد يكون المدح أيضاً لغرض قبول العذر ، ومنع شعور الداعية بالخذلان والذلة ، كما فعل الرسول ـ ﷺ ـ مع الصحابة بعد الغزو ، وقالوا :

« يا رسول الله نحن الفرارون ، قال : بل أنتم العكَّارون ، وأنا فئتكم » (3) .

« وقوله : (وأنا فئتكم) يمهد بذلك عذرهم » (4) .

وشعرُ كعب معروف عندما قبل المصطفى ـ ﷺ ـ عذره بعدما قال : (وَالعذر عند كرام القوم مقبول) .

وخلاصة القاعدة فى المدح والثناء المأخوذة من جملة الأحاديث ،

(والضابط : أن لا يكون فى المدح مجازفة ، ويؤمن على الممدوح الإعجاب والفتنة . .) .

---

(1) ، (2) رواه البخارى ومسلم .

(3) رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

(٤) شرح السنة للبغوى 11 / 69 .

أما فى غير ذلك مما تكون نتائجه نافعة ومثمرة فهو من الجائز المباح، أو المستحب المطلوب .

وقال ابن حجر معلقاً على حديث (باب من أثنى على أخيه بما يعلم). .

(. . . وهذا من جملة المدح ، لكنه لما كان صدقاً محضاً ، وكان الممدوح يؤمن معه الإعجاب والكبر مدح به ، ولا يدخل ذلك فى المنع ، ومن جملة ذلك الأحاديث المتقدمة فى مناقب الصحابة. . .)[1] .

الشرعية .. من الموضوعية

(3) يجب أن يكون التوثيق موضوعياً يُبنى على الخبرة والتجربة، وعلى شهادات الاستفاضة ، أو على توثيق العدول من أصحاب الخلطة مع من يجرى توثيقه ، ومن أهم أنواع الخلطة التعامل اليومى مع ما يتضمن من تعامل بالدرهم والدينار ، والخلطة بالجوار وما يقاس عليه من خلطة العمل بنوعيه المهنى والدعوى ، وكذلك الخلطة بالأسفار وما يشابهه من خروج الخلاء والرحلات والسفرات العائلية والسياحة إلى أقطار أخرى ، إذ أن مثل هذه الأمور هى التى تكشف الإنسان على حقيقته ، وكان لابد للجماعة عند إعدادها المناهج التربوية أن تضمنها كثرة الرحلات والسفرات

(1) فتح البارى 10 / 479 .

وكل ما فيها من الخلطة التى تجعل عملية تقويم الأفراد سهلة ومتيسرة عند الحاجة إليها .

كما أن التوثيق لابد أن يكون مبنياً على الخصائص الشرعية المرغوبة ، وعلى محاسن العادات التى تقبلها العقول والفطر السليمة ، والحسن كل ما حَسّنه الشارع ، ولذا ينبغى أن لا يكون التحسين منطلقاً على خصائص أهدرها الشارع ، كالانتماء إلى قبيلة أو بلد ، أو الارتباط بعشيرة أو قرية ، وما المدح إلا من مقتضيات التحسين فلهذا لابد أن يكون بسبب ما مدحه الله ورسوله ، وفيما مدحه الله ورسوله ﷺ .

(وليس لأحد أن يعلق الحمد والذم ، والحب والبغض ، والموالاة والمعاداة ، والصلاة واللعن بغير الأسماء التى علق الله بها ذلك ، مثل أسماء القبائل والمدائن والمذاهب ، والطرائق المضافة إلى الأئمة والمشايخ ، ونحو ذلك مما يراد بها التعريف . . فأما الحمد والذم ، والحب والبغض ، والموالاة والمعاداة ، فإنما تكون بالأشياء التى أنزل الله بها سلطانه ، وسلطانه كتابه ، فمن كان مؤمناً وجبت موالاته من أى صنف كان ، ومن كان كافراً وجبت معاداته من أى صنف كان . . ومن كان فيه إيمان وفجور أعطى من الموالاة بحسب إيمانه ، ومن البغض بحسب فجوره . .) (1) .

ولكن هذه المعانى لا تمنع استصحاب قرينة انتماء أحد إلى قبيلة معينة أو قرية لترجيح توثيقه وظن الخير فيه إذا كان سواد القبيلة أو القرية مشهوراً بالأوصاف الحسنة ، من شجاعة ونجدة وكرم .

---

(1) فتاوى ابن تيمية 28 / 227 .

التلازم النسبى

(4) ضرورة تحرى المدح بالصفات الملازمة ، والملازمة يقصد بها الملازمة النسبية ، لأن الإنسان بطبيعته متغير ، ولكن لا ينبغى الاعتماد على الصفات الحسنة الطارئة ، والتى قد يتصف بها الشخص لظرف طارئ ، أو ملابسة معينة ، فيوصف بها الشخص وكأنها سمة من سماته الدائمة ، فموقف شجاع واحد نتيجة حماس مختلط بشوائب لا يعنى بالضرورة أن صاحب الموقف شجاع ، وإقراء ضيف فى مناسبة لا يحتم ضرورة أن صاحبه كريم شهم ، والباذل فى مناسبة لا تدل على أنه فى منتهى التجرد ، لأن سمات الشخص الثابتة ـ والداعية على الأخص ـ يجب أن تكون دائمة وملازمة للفرد، بحيث يكون تخلفها عنه هو النادر ، وكذلك العكس فإن الصفة الحسنة الملازمة يجب أن لا تقدح فيها آحاد الحوادث ، وهذا الأمر أحد الموازين الشرعية الثابتة وسبق الحديث عنها فى الضوابط العامة ، وهى قاعدة صحيحة ، ولكن يجب أن لا تكون مدعاة للوسوسة وظلم الناس ، وقد أمرنا أن لا نبخس الناس أشياءهم ، وحدها الوسط هو الضامن للعدل .

التفصيل بعد الإجمال

(5) إن توضيح جوانب الفضل والحسن فى الشخص ضرورية حتى تتبين المقاصد التى لأجلها يكون التقويم ، وكى لا يكون الثناء على جميع الجوانب عموماً ، إذ الكمال متعذر ، والناس يتفاوتون فى قدراتهم ، وتوضيح جوانب التفوق مهمة ، ولنا فى ذلك شواهد كثيرة من الأحاديث النبوية إذ مدح بعض الصحابة ببعض جوانب الخير دون غيرها .

* منها أن النبى - ﷺ - قال للأشج (أشج عبد القيس) : « **إن فيك خصلتان يحبهما الله : الحلم والأناة** » (1) .

والتؤدة خلق جميل يقود إلى التأنى فى الرأى ، وعدم الاستثارة المؤدية للغضب والخشونة .

* ومنها مدحه لزيد بن حارثة وصلاحه للإمارة ، . . فقال - ﷺ - عنه عندما طعن فى إمارته :

« **وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة** » .

رغم أنه لم يكن من أكابر الصحابة .

(وفيه جواز إمارة الموالى ، وتولية الصغار على الكبار والمفضول على الفاضل) (2) .

* ومنها ثناؤه على أربعة في القراءة . . فقال - ﷺ - :

---

(1) رواه مسلم. (2) فتح البارى 7/ 87 .

« استقرؤوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل » [1] .

وهؤلاء هم طبقة القراء من الصحابة ، وهم القدوة فى الأمر ، وفى غيرهم بركة من جوانب أخرى .

* وفى مجال الحفاظ على الأمانة ، والصلاحية لها فى الأمة . . أثنى على أبى عبيدة بقوله :

« لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة : أبو عَبيدة بن الجراح »[2] .

وأمانة أبى عبيدة ، لا يؤخذ منها (مفهوم المخالفة) فى القدح فى غيره ، ولكنها الصفة المتميزة فيه .

* وأثنى على الإمام علىٍّ بسبب قدرته القتالية . . فقال عنه يوم خيبر :

« لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه » [3] .

وغير ذلك مما يطول من الأحاديث النبوية مما ورد فى أبواب المناقب من كتب الحديث النبوى .

والإيمان بأن الخصائص تختلف من شخص لآخر ، ويتفاوت قدر الناس بها ، يحددها حديث من جوامع الكلم ، وهو قول المصطفى ـ ﷺ ـ :

« تجدون الناس معادن . . فخيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » [4] .

---

(1) ، (2) ، (3) ، (4) رواه البخارى ومسلم .

أمانة الوجه الآخر

✧ القسم الثانى: التجريح ✧

وتكون بذكر بعض عيوب الشخص ، أو بعض مساوئه النفسية أو الروحية ، أو نقد بعض تصرفاته حسب الظن الراجح ، ويكون ذلك بالبينات أو القرائن ، من خلال الشهادات والخلطة والتجارب ، ولا شك أن هذا الأمر من القدح ، والقدح منهى عنه إلا أن بعضه مستثنى من هذا المنع ، وقد شرح العلماء ما يستثنى من القدح ، أو الأعذار المرخصة فى الغيبة فى مواطنها مع ذكر أدلتها التفصيلية . .

(انظر على سبيل المثال مما يصلح بحد ذاته كدروس تربوية :

الأذكار للنووى / 292 ، فتح البارى 10 / 468 ، منهاج القاصدين لابن قدامة ، إحياء علوم الدين / الجزء الثالث ، فتاوى ابن تيمية / ج 28 ، وغيرها) .

ويكتفى هنا بنقل بعض الاقتباسات مما ذكره النووى ، مما له علاقة بهذا المبحث :

لكل قاعدة .. استثناء

(اعلم أن الغيبة وإن كانت محرمة ، فإنها تباح فى أحوال للمصلحة . . وهو أحد ستة أسباب :

الأول : التظلم ، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضى ، وغيرهما ممن له ولاية .

الثانى : الاستعانة على تغيير المنكر ، وردّ العاصى إلى الصواب ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر .

الثالث : الاستفتاء . . لحديث هند : « يا رسول الله ﷺ ، إن أبا سفيان رجل شحيح . . » الحديث .

الرابع : تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم ، وذلك من وجوه :

منها : جرح المجروحين من الرواة للحديث والشهود ، وذلك جائز بإجماع المسلمين ، بل واجب للحاجة .

ومنها : إذا استشارك إنسان فى مصاهرته ، أو مشاركته ، أو إيداعه ، أو الإيداع عنده ، أو معاملته . .

ومنها : إذا رأيت متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم . . فعليك نصيحته ببيان حاله .

ومنها : أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها ، إما بأن لا يكون صالحاً لها ، وإما بأن يكون فاسقاً أو مغفلاً ونحو ذلك ، فيجب ذكر ذلك لمن عليه ولاية عامة ليزيله ، ويولى من يصلح أو يعلم ذلك منه ، ليعامله بمقتضى حاله ولا يغتر به ، أو أن يسعى فى أن يحثه على الاستقامة ، أو يستبدله .

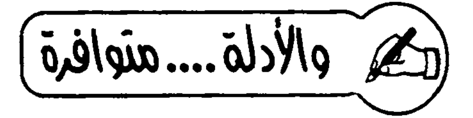
الخامس : أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته .

السادس : التعريف ، فمن كان معروفاً بلقب . . جاز تعريفه بذلك بنيّة التعريف . . . . . .)[1] .

وقد جُمعت الأعذار الستة فى بيتين من الشعر تُسهّل حفظها :

القــــدح ليـــس بغــــيبة فى ستـــة
متــــظلــم ومُعــــرّف ومُحَـــذّر

ولمظــــهرٍ فســـقاً ومستــفــتٍ ومـَــن
طلــب الإعانـــة فى إزالــــة منكر



أما الاستدلال لذلك فهو كثير ، ولكن يمكن ذكر ما له علاقة بهذا المبحث بشكل مختصر ، وهو على نوعين :

(1) الأذكار للنووى / 292 .

✧ 1- الاستدلال لعموم الاستثناء من الغيبة ، ولها صور ✧

* منه غيبة الفاسق لقوله ـ ﷺ ـ :

« بئس أخو العشيرة ، أو ابن العشيرة »[1] .

وقد قال الحسن البصرى :

« أترغبون عن ذكر الفاجر ؟ اذكروه حتى يحذره الناس » .

* ومنها ما كانت الصفة لقباً كقوله ـ ﷺ ـ :

" ما يقول ذو اليدين .. » .

وعلق ابن حجر موضحاً ترجمة البخارى :

(هذه الترجمة معقودة لبيان حكم الألقاب ، وما لا يعجب الرجل أن يوصف به مما هو فيه ، . . . وحاصله أن اللقب إن كان مما يعجب الملقّب ولا إطراء فيه مما يدخل فى نهى الشرع فهو جائز أو مستحب ، وإن كان مما لا يعجبه فهو حرام أو مكروه ، إلا إذا تعين طريقاً إلى التعريف به حيث يشتهر به ولا يتميز عن غيره إلا بذكره . .)[2] .

ومن ذلك ما قد يوصف به البعض كالأعمش والأعمى والأعرج أو شبه ذلك من الصفات الجسدية ، وابن فلانة أو ابن فلان من الناس ، وقد تكون فى صفة الأم أو الأب ما لا يستحب فى العادة ، وأمثال ذلك مما لا سبيل إلى تحاشيه .

---

(1) رواه البخارى ، وشرحه فى فتح البارى 10 / 471 .

(2) فتح البارى 10 / 468 .

والجرح للمصلحة أولى

(2) الاستدلال لخصوص الجرح والتعديل ، وما يتعلق بالعمل الإسلامى ، أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بأشهر حديث فى هذا الباب ، مما ثبت فى الصحيح أن النبى ـ ﷺ ـ قال لفاطمة بنت قيس :

« وأما أبو جهم فرجل ضراب للنساء ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له» .

والاستدلال بهذا الحديث فى فقه الدعوة وتقويم الأفراد واضح ، كما استنبط منه علماء الحديث جواز الجرح والتعديل ، وكذلك تقاس عليه كل مصالح الدعوة بما تتضمنه من ترشيح لمراكزها ، والندب لمهامها ، وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية مثل هذا القياس فقال معقباً على الحديث :

(وفى معنى هذا نصح الرجل فيمن يعامله ، ومن يوكله ويوصى إليه ، ومن يستشهده ، بل ومن يتحاكم إليه ، وأمثال ذلك ، وإذا كان هذا فى مصلحة خاصة فكيف بالنصح فيما يتعلق به حقوق عموم المسلمين من الأمراء والحكام والشهود والعمال ، أهل الديوان وغيرهم ، فلا ريب أن النصح فى ذلك أعظم .) (1) .

---

(1) فتاوى ابن تيمية 28 / 230 .

كما استنبط العز بن عبد السلام من هذا الحديث نفسه قاعدة عامة مفادها :

(. . . أن القدح فى الرواة واجب لما فيه إثبات الشرع . . وكذلك كل خبر يُجَوِّز الشرع الاعتماد عليه والرجوع إليه ، وجرح الشهود واجب عند الحكام وعند المصلحة وحفظ الحقوق من الدماء والأموال والأعراض والأبضاع والأنساب ، وسائر الحقوق أعم وأعظم . . .) (1) .

وفى الجرح ... صيانة

ومن هذا المنطلق : أجمع المحدثون على جواز ذكر مساوئ الرواة.والشيوخ ، والتفصيل فى أحوالهم ، دون حرج ، لمصلحة حفظ الحديث النبوى ، واعتبروا ذلك أمانة شرعية فى أعناقهم ، وليست عباراتهم بتجاوزٍ للإنصاف ، حتى قال يحيى بن معين :

(إنا لنطعن فى أقوام لعلهم حطّوا رواحلهم فى الجنة أكثر من مائتى سنة) (2) .

واعتبر العلماء أن علم الجرح والتعديل صيانة للشريعة ، وذلك

---

(1) قواعد الأحكام ، نقلاً عن التوبيخ للسخاوى ، وورد المعنى مختصراً فى النسخة المطبوعة من قواعد العز 2 / 28 .

(2) شرح مقدمة ابن الصلاح / 441 .

لحفظه الحديث النبوى ، ويقاس على ذلك ضرورة استعماله لحفظ مصلحة الإسلام العليا ، وحفظ دماء وأعراض المسلمين ، وذلك بحفظ الدعوة ورجالها ، وتصدى الثقات لقيادتها ، وترشيح أصحاب الكفاءات لمهماتها ، وقد نسترشد بما قيل أيضاً لعلماء الحديث ، فقد :

(قيل لأحمد بن حنبل : لا تغتب العلماء ، قال : ويحك ، هذه نصيحة ليس هذا غيبة) .

(وقال بعض الصوفية لابن المبارك : تغتاب ، قال : اسكت ، إذ لم نبين ، كيف تعرف الحق من الباطل ؟) [1] .

غيبة غير المعيّن

أما غيبة غير المعين فلا خلاف فيها ، فقد تواردت نصوص كثيرة من القرآن والسنة فى لعن أصناف كثيرة تذم الفاجر والظالم ، والحاسد ، والبخيل والفخور المتكبر ، كما ورد مدح أصناف كثيرة كالمؤمن والتقى ، والصادق والبار ، والراشد الكريم ، والخلاصة :

(فكل صنف ذمّه الله ورسوله ، يجب ذمّه ، وليس ذلك من الغيبة ، كما أن كل صنف مدحه الله ورسوله يجب مدحه ، وما لعنه الله ورسوله يلعن ، كما أن من صلى الله عليه وملائكته يصلى عليه . .) [2] .

---

(1) تدريب الراوى للسيوطى 2/ 369 .

(2) فتاوى ابن تيمية 28 / 225

ومن العيب السكوت

أما شبهة التزام الصمت تجاه المظاهر السلبية للأشخاص ، وعدم التعريف بها عند الأمراء بالطرق الخاصة ، ووفق ضوابطها الشرعية ، وما يقود ذلك بالتالى إلى مفاسد بحجة أنها غيبة ، فهو من باب عدم التمييز بين المصالح ، وقد أسلفنا ذكر قول الإمام أحمد فى ذلك ، ونردفه ـ هنا ـ بفتوى أخرى له ، حيث قال له البعض :

(إنه يثقل عليّ أن أقول فلان كذا ، وفلان كذا ، فقال : إذا سكتًّ أنت، وسكتُّ أنا ، فمتى يعرف الجاهلُ الصحيحَ من السقيم؟) (1) .

ولذا فإن من الضرورة الشرعية أن يبلِّغ الدعاةُ الأمراءَ بما يرونه من مساوئ البعض ، مما له علاقة بمصلحة الدعوة العامة ، لأنها مقدمة على مصلحة الستر على معايب الأفراد .

أما غيبة الأشخاص بسبب الأعمال ، أو نقدهم تجاه بعض مواقفهم فهو لتبيان الحق أيضاً ، والشخص مأجور على اجتهاده ، ويجب أن لا تقف عملية التقويم بسبب فضل الشخص ومكانته وصلاحه .

(ولهذا وجب بيان حال من يغلط فى الحديث والرواية ، ومن يغلط فى الرأى والفتوى ، ومن يغلط فى الزهد والعبادة ، وإن كان

---

(1) الجامع لآداب الراوى والسامع 2 / 260 ـ وفتاوى ابن تيمية 28 / 231 .

المخطئ المجتهد مغفوراً له خطؤه ، وهو مأجور على اجتهاده ، فبيان القول والعمل اللذين دلّ عليهما الكتاب والسنة واجب . . ومن علم منه الاجتهاد السائغ فلا يجوز أن يذكر على وجه الذم والتأثيم ، فإن الله غفر له خطأه ، بل يجب لما فيه من الإيمان والتقوى موالاته ومحبته ، والقيام بما أوجب الله من حقوقه من ثناء ودعاء وغير ذلك . .)(1) .

الجرح لا ينافى الصحبة

إن عملية الإيضاح هى لتقويم الخطأ ، وليس لتأثيم الشخص أو اتهامه بل إن هذا الأمر ـ بحد ذاته ـ دليل على بركة الجماعة ، وأن الجماعة كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ، ومن التجربة يتبين أن أخطاء أى شخص داخل الجماعة هى أقل منها لو كان خارجها .

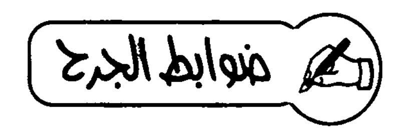
وفى نفس الوقت يجب أن لا يجد الداعية فى نفسه شيئاً إذا علم بتقويم مجموعة المربين له ، ما دام يثق بإخلاصها ، وأن عملها التقويمى فى الجرح والتعديل هو جهاد فى سبيل الله ، وليس لقصد العلو أو الفساد فى الأرض ، أو الغرور والاستعلاء ، أو بمنزلة من يقاتل جاهلية وحمية ورياءً ، والتقويم المخلص للأفراد ـ وفق الضوابط الشرعية ـ ليس منافياً للأخوة ، أو معارضاً لوفاء

(1) فتاوى ابن تيمية 28/ 234 .

الصحبة ، بل هو من الحق الذى يجب أن يرضاه الدعاة ، ويقبلوا به وتصفو سرائرهم تجاه ذلك .

(وليس هذا الباب مخالفاً لقوله ﷺ « **الغيبة ذكرك أخاك بما يكره** » فإن الأخ هو المؤمن ، والأخ المؤمن إن كان صادقاً فى إيمانه لم يكره ما قلته من الحق الذى يحبه الله ورسوله ، وإن كان فيه شهادة عليه وعلى ذويه ، بل عليه أن يقوم بالقسط . . ومتى كره هذا الحق كان ناقصاً فى إيمانه ، ينقص من أخوته بقدر ما نقص من إيمانه .) (1) .

وهذا النص الجليل يغنى عن الشرح والاستطالة .



ضوابط الجرح

لقد سبق ذكر الضوابط والموازين العامة لعملية التقويم ، ثم ذكرت مجموعة أخرى من الأمور التى هى أشبه بضوابط التوثيق ، وهنا لابد من ذكر نظائرها من ضوابط التضعيف ، وهى موازين لابد منها فى عملية الجرح، ولاشك أنها تدخل ـ بشكلٍ أو آخر ـ ضمن الموازين العامة ، ولكنها هنا مفصلة لأهميتها المنهجية والخلقية :

---

(1) فتاوى ابن تيمية 28 / 235 .

علة الجرح ... مصلحة عامة

(1) أن يكون الجرح والتضعيف لأحد الأغراض الشرعية التى تحقق المصلحة العامة بشروطها ، وذلك كمنع مسؤولية دعوية عن أحد الأشخاص ، أو الاعتراض على قبول أحد فى صفوف الجماعة ، أو عدم إناطة إحدى المهام الدعوية لأحد الأشخاص ، أو حجب داعية متقدم عن إمارة الجماعة ، أو للتحذير من تصرف أحد الدعاة فى مكان معين ، أو للتنبيه على المشاكل المحتملة عند وجود بعض الدعاة فى مكان واحد ، وغير ذلك مما يستعان به على تغيير المنكر ، أو الأمر بالمعروف ، أو محاولة دفع أهون الضررين ، أو المساهمة فى تقوية أعرف المعروفين ، وكل هذه الأمور من المصالح الشرعية التى ينصب عمل الجماعة عليها .

وقد يكون التضعيف لأحد أعداء الجماعة ، فإن كان من غير الملتزمين بالإسلام سلوكاً فهو من باب غيبة الفاسق ، وإن كان ملتزماً مع آراء فاسدة فهو من باب غيبة المبتدع ، أما إذا كان من الملتزمين بالإسلام سلوكاً وعملاً وله بعض الآراء الشاذة ، الداعية للفتنة ، فهو من باب التحذير ، ودفع الظلم حرصاً على وحدة الجماعة ، ومسيرة العمل الإسلامى ، والحفاظ على المكاسب الدعوية . . وأحياناً يضطر للجرح لحل مشكلة دعوية ، أو القضاء بين المنازعات ، أفراداً أو جماعات ، فهذا من باب التظلم ، إذ لا يمكن فض المنازعة ما لم يتطرق الشهود أو من يقوم بالحكم إلى التعرض

لخصائص المتنازعين لحل المنازعة ، وذكر بعض أخطائهم للبت فى بعض الأمور .

كما قد يضطر لبعض الجرح والتضعيف فى التقويم الدعوى ، أو الحوارات القيادية ، ضمن عمليات متتابعة ومستمرة من التعريف أو الاستفتاء أو المسح ، من أجل تقويم العمل ، أو قياس الأداء ، أو اختيار عناصر جديدة لمراكز جديدة ، وكل ذلك قد يتضمن التعرض لمواصفات الدعاة السلبية . وكذلك يلجأ لذلك عند انتقال الداعية من مكان إلى آخر ، أو من مهمة لأخرى ، مما يستدعى تنبيه المربى الجديد عن سلبياته حتى يتقن التصرف معه ، ويحسن معاملته ، ويتمم المسيرة التربوية معه .

والنصوص المجوزة لكل ما ذكر كثيرة ، ولعل من أجملها ومما يقرب من حاجة الدعاة إليه قول ابن حجر ـ رحمه الله ـ عندما نقل خلاصة أقوال العلماء :

(تباح الغيبة في كل غرض صحيح شرعاً حيث يتعين طريقاً إلى الوصول إليه بها ، كالتظلم والاستعانة على تغيير المنكر ، والاستفتاء ، والمحاكمة ، والتحذير من الشر ، ويدخل فى تجريح الرواة والشهود ، وإعلام من له ولاية عامة بسيرة من هو تحت يده ، وجواب الاستشارة فى نكاح أو عقد من العقود ، وكذا من رأى متفقهاً يتردد إلى مبتدع أوفاسق ويخاف عليه الاقتداء به ، وممن تجوز غيبتهم من يتجاهر بالفسق أو الظلم أو البدعة . . .) [1] .

---

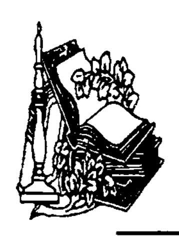
(1) فتح البارى 10 / 472 .

الزيادة .. ظلم

(2) أن تكون الغيبة بقدر الحاجة إليها دون الاستزادة على الحد اللازم ، ولذلك لا يعرض الاسم إذا كان التعريض كافياً ، ولا يفرط فى الذم إذا كان القليل يفى بالغرض ، ولا يجنح إلى ذكر مساوئ أهله وبيته ، إذا كان المقام لا يتسع لذلك ، ولا يتوسع بذكر ما لا يحتاج إليه من المساوئ الأخرى ، وإذا كان التقويم لأجل مهمة معينة أو ولاية دينية فيقتصر على ذكر المثالب المنافية لتلك المهمة ، والمانعة عن تلك الولاية ، ولذلك قيل عن الجارح :

(وإذا أمكنه الجرح بالإشارة المفهمة ، أو بأدنى تصريح لا تجوز له الزيادة على ذلك ، فالأمور المرخص فيها للحاجة لا يرتقى فيها إلى زائد على ما يحصل الغرض) [1] .

فمن خُلق الداعية والمربى الترفع عن إقحام مثالب الناس فى حديثه ، فما يستزيد من ذكر المعايب إلا ناقص .



(1) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى .

اكسُ ألفاظك أحسنها

(3) أن يستعمل الجارح أجمل الألفاظ فى التجريح ، ولا يركن إلى الشديد منها عند وجود السهل ، ولا يلجأ إلى اللفظ النابى والكلمة الخشنة ما دام يتوفر غيرها ، وهذا من خلق الإسلام العام ، ويكتسب خصوصية لمن يضطر إلى كثرة الجرح والتقويم ، حتى لا يغلب على لسانه العبارات الخشنة ، وما أشد ابتلاء أصحاب المسؤولية بهذا الأمر ، إذ أنهم يضطرون بحكم إماراتهم لكثرة الجرح والتقويم فإذا سكتوا من أجل شفافية قلوبهم ضاعت مصالح الدعوة ، وإذا تكلموا ضاع الصفاء من جهة وكثر عليهم الاتهام من جهة أخرى، ولذلك وجب عليهم الموازنة الدقيقة من أجل المصلحة العامة، والمحافظة على صفاء قلوبهم .

ولذلك روى عن المزنى أنه قال :

(سمعنى الشافعي يوماً وأنا أقول : فلان كذاب ، فقال لى : يا إبراهيم اكسُ ألفاظك أحسنها ، لا تقل كذاب ، ولكن قل : حديثه ليس بشيء ونحوه أن البخارى كان لمزيد ورعه قل أن يقول : كذّاب، أو وضّاع ، أكثر ما يقول : سكتوا عنه ، فيه نظر ، تركوه ، ونحو هذا نعم ربما يقول : كذّبه فلان ، أو رماه فلان بالكذب . . .) (1) .

---

(1) الإعلان بالتوبيخ للسخاوى .

ليحذر المقوّم التلبيس

(4) أن يتحرى المربى المضطر لعملية الجرح قمة التجرد فى ذلك، وأن يستشعر الحد الكافى لخدمة الإسلام ، دون بواعث الغيبة الأخرى كالتشفى من الغير ، أو محاولة التنقيص منهم برفع النفس ، أو محاولة استدرار موافقة الأقران ، أو أن يمتزج التضعيف بدواعى الغيرة والحسد ، أو أن يكون التضعيف لمجرد الهزل واللعب دون فائدة مرجوة ، كما قد تكون الغيبة للتلذذ أو بسبب من سوء الظن ، أو نتيجة لتتبع العورات ، وفى بعض الأحيان يجنح المربى إلى كثرة النقد وتبيان النقائص ، وهو فخور بذلك خصوصاً عندما يرى صدقها وانطباقها ، فإذا ما ظهرت صحة بعض النتائج والأمور ـ وهو أمر طبيعى ، لأن العيوب لا تخفى ـ فيحسب ذلك كفاءة خاصة ، فيُسرف فى الأمر ، الواقع أن التضعيف أمر سهل حيث المساوئ ظاهرة ، والكفاءة ليست فى تبيان الضعف فقط ، لأن كل إنسان لا يخلو عن عيب ، وتتبعها أمر سهل ، ولكن الأصل اكتشاف المحاسن مع العيوب ، ومعرفة العيوب المانعة من الولايات الخاصة ، أو السلبيات غير المانعة من عمل ما ، ومثل هذا الأمر المتكامل هو الذى يحتاج إلى تقويم الثقات من الدعاة ، والأمر مشابه لمسائل الفتوى ، فالتشديد يحسنه كل إنسان ، حيث يستطيع تحريم كل أمر يجهله ، أو يختار الأحوط ، أو يصعب على الناس ويخرج من الحرج ، ولكن الصعوبة فى معرفة الأحكام ، وتبيان الرخص دون الخروج على

مقاصد الشرع ومقتضيات التكليف ، فهذا هو الفقه ، ولذلك قيل :

(إنما العلم : الرخص عن الثقات ، أما التشديد فكل إنسان يحسنه)[1] .

والسبب فى ذلك كما أوضحه الأمير أسامة بن منقذ أن العدل متفرد ، والجور يتخذ صوراً متعددة ، كإصابة الهدف والخطأ فيه .

(العدل فى الشىء صورة واحدة ، والجور صور كثيرة ، ولهذا سهل ارتكاب الجور ، وصعب تحرى العدل ، وهما يشبهان الإصابة فى الرماية والخطأ فيها ، فإن الإصابة تحتاج إلى ارتياض وتعهد ، والخطأ لا يحتاج إلى شىء من ذلك)[2] .

وكذلك لابد للمربى الحذر من تلبيس إبليس عليه فى استغلال الجرح والتعديل للتشفى ، أو لإبراز علمه وذاته ، أو كى يتنافس بها على أقرانه ، أو ليطلب بذلك شهرة له ، وانتقاصاً من غيره ، وقد سبق فى ذلك ما انتبه إليه ابن الجوزى حيث وجد أن إبليس قد ألبس على بعض المحدثين فى ذلك الأمر ، فقال : (ومن تلبيس إبليس على أصحاب الحديث قدح بعضهم فى بعض طلباً للتشفى ، ويخرجون ذلك مخرج الجرح والتعديل الذى استعمله قدماء الأمة للذب عن الشرع ، والله أعلم بالمقاصد . . .)[3] .

---

(1) شرح السنة للبغوى 1 / 290 .
(2) لباب الآداب / 459 .
(3) تلبيس إبليس / 143 .

التحديد .. يدفع الزلل

(5) لابد من تحديد الصفة التى يضعف الشخص لأجلها ، فإذا كان الشخص فاسقاً أو جاهلياً فلا غيبة له ، وفضحه واجب على العموم ، وتقل أهمية الصفات الإيجابية مقابل فقدانه للصفات المهمة .

وفى إطار تقويم الدعاة ، يصبح من الأهمية بمكان تحديد صفة الضعف حتى لا يتهم الداعية بالضعف الإجمالى ، وإنما يختص كل داعية بمجموعة من الصفات تؤهله للقيام ببعض الأعمال دون غيرها ، وهذه حقيقة بشرية ، وسنة سائرة ، إذ أن اجتماع مجموع الخصائص فى الناس قليل ، والكمال النسب نادر ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن ، وقد قيل أن النقائص خَبَث ، والماء إذا بلغ القلتين لا يحمل الخبث ، وإنما الغرض من تحديد الضعف : مصلحة الولاية ، أو لمصلحة الشخص نفسه .

ومن هذه الخصائص ما ذكره المصطفى - ﷺ - فى ضعف أبى ذر ، رغم امتداحه الكبير له ، ولكن رأى من ضعفه وحساسيته وحرصه ما يمنعه من ولاية المسلمين ، أو ولاية المال ، فقال له : « إنى أراك يا أبا ذر ضعيفاً ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمَّرَنَّ على اثنين ، ولا تَولّين مال يتيم » (1) .

وقد اعتبرت هذه قاعدة عامة .

(1) رواه البخارى ومسلم .

(وأمّر النبى - ﷺ - عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل استعطافاً لأقاربه الذى بعثه إليهم على من هم أفضل منه ، وأمّر أسامة بن زيد لأجل ثأر أبيه ، وكذلك كان يستعمل الرجل لمصلحة راجحة ، مع أنه قد يكون مع الأمير من هو أفضل منه فى العلم والإيمان) [1] .

من المروءة .. ستر العورات

(6) دفعاً للتهمة ، وانفكاكاً عن الريب يفضل فى وسط الجماعة المسلمة تفسير أسباب الجرح ، لأن الأصل فى أفراد الجماعة التوثيق ، ولابد من الأخذ بقاعدة : (لا يقبل الجرح إلا مفسراً) . . ولكن تبقى ضرورة حفظ التفسير بأضيق نطاق حفاظاً على نظافة الصف المسلم ، وقد تكون بعض العيوب أو المساوئ مشتهرة ، وقد تكون بعضها محصورة بطبقة ، بينما يجب أن تظل بعض المساوئ ذات الصبغة الخاصة ، والتى يؤدى كشفها إلى مفسدة واضحة حصراً على قيادة الجماعة المؤمنة فقط ، بل قد يكتفى الأمير - أحياناً - بحقه فى معرفة بعض الأمور وسترها عن البقية وبعبارة أخرى ، أن جواز الأخذ بالغيبة محصور بمن تتحقق المصلحة بأقوالهم ، ولا يحق للآخرين الاقتداء بهم حتى لا يصبح عرض المسلم مشاعاً بحجة الاقتداء .

---

(1) الفتاوى 28 / 256 .

(وأمّر النبى - ﷺ - عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل استعطافاً لأقاربه الذى بعثه إليهم على من هم أفضل منه ، وأمّر أسامة بن زيد لأجل ثأر أبيه ، وكذلك كان يستعمل الرجل لمصلحة راجحة ، مع أنه قد يكون مع الأمير من هو أفضل منه فى العلم والإيمان) [1] .

من المروءة .. ستر العورات

(6) دفعاً للتهمة ، وانفكاكاً عن الريب يفضل فى وسط الجماعة المسلمة تفسير أسباب الجرح ، لأن الأصل فى أفراد الجماعة التوثيق ، ولابد من الأخذ بقاعدة : (لا يقبل الجرح إلا مفسراً) . . ولكن تبقى ضرورة حفظ التفسير بأضيق نطاق حفاظاً على نظافة الصف المسلم ، وقد تكون بعض العيوب أو المساوئ مشتهرة ، وقد تكون بعضها محصورة بطبقة ، بينما يجب أن تظل بعض المساوئ ذات الصبغة الخاصة ، والتى يؤدى كشفها إلى مفسدة واضحة حصراً على قيادة الجماعة المؤمنة فقط ، بل قد يكتفى الأمير - أحياناً - بحقه فى معرفة بعض الأمور وسترها عن البقية وبعبارة أخرى ، أن جواز الأخذ بالغيبة محصور بمن تتحقق المصلحة بأقوالهم ، ولا يحق للآخرين الاقتداء بهم حتى لا يصبح عرض المسلم مشاعاً بحجة الاقتداء .

---

(1) الفتاوى 28 / 256 .

خاصة . (وقد قالوا لعمر بن الخطاب فى أهل الشورى : أمّر فلاناً وفلاناً ، فجعل يذكر فى حق كل واحد من الستة ـ وهم أفضل الأمة ـ أمراً جعله مانعاً له من تعيينه . . .)[1] .

وليس فى نقصان كل صفة عيب أو إثم ، لأنها مما جبل الله سبحانه وتعالى النفوس عليها ، وقد أثنى الرسول ـ ﷺ ـ على أبى ذر فى مواطن عديدة ، ومنع عنه الإمارة .

بل قد يكون نقد الشخص أو الداعية ، ومنعه عن أمر ما ، وعدم ترشيحه لمهمة ما ، رحمة به ، أو شفقة عليه ، أو حباً له ، لحماية دينه من الفتنة ، أو نفسه عن البلاء ، أو لإبعاده عن أجواء تفسده ، أو بيئة تعكر عليه، وقد يكون كل ذلك لأجل الحفاظ على دينه والاستبراء لعرضه .

وقال أيوب السختيانى :

(رب أخ من إخوانى أرجو دعاءه ، ولا أقبل شهادته)[2] .

ومن درء المفسدة ... كشفها

(9) السكوت عن المفاسد وعدم التبليغ بها وفق ضوابطها الشرعية ، بسبب المواقف السلبية ، أو الاحتجاج بإثم الغيبة :

---

(1) فتاوى ابن تيمية 28 / 231 .

(2)الجامع لأخلاق الراوى 2/ 259 .

مردود، لما قد يقود إليه الأمر من صعود الضعفاء ، أو تولية غير الثقات ، أو السماح للذين يجيدون فن الكلام فى استلام زمام التربية، وبالتالى يتصدع الصف ، أو تفشل المهمات ، بل وقد تتكون الجيوب التى تقود إلى الفتن ، أو الانشقاقات ، بل قد يكون أمر الكشف نوعاً من التعبد .

(حتى قيل لأحمد بن حنبل : الرجل يصوم ويصلى ويعتكف ، أحب إليك ، أو يتكلم فى أهل البدع ، فقال : إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه ، وإذا تكلم فى أهل البدع فإنما هو للمسلمين، وهذا أفضل .)[1] .

ويدل هذا النص على أن الأصل فى الجرح والتعديل هو المصلحة العامة، وبالتالى فإن المصلحة الخاصة تكون مهدرة أمام مصلحة الإسلام والمسلمين.

عرض المسلم لا يباح

(10) الدفاع عن عرض المسلم ، والذب عنه عند عدم القناعة ، فلا يصح السكوتَ عن عيب مسلم يذكر من قبل البعض لمصلحة ، ويسكت عن ذلك من لا يقتنع به ، لأنه محاسب على قناعته ، ولا يحاسب على اجتهاد الآخرين وقد ورد فى سنن الترمذى :

(1) فتاوى ابن تيمية 28 / 231 .

« من ردّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة » .

(واعلم أنه ينبغى لمن سمع غيبة مسلم أن يردها ويزجر قائلها . . . فإن سمع غيبة شيخه أو غيره ممن له حق ، أو كان من أهل الفضل والصلاح ، كان الاعتناء بما ذكرناه أكثر)[1] .

ومن حادثة كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ الواردة فى صحيح البخارى ومسلم ، يستنبط :

(جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد وهم الطاعن أو غلطه)[2] .

وقد قال ابن سيرين :

(ظلمتَ أخاك إذا ذكرتَ مساوئه ، ولم تذكر محاسنه)[3] .

فوائد التقويم

لابد بعد استعراض طرفى التقويم والمتمثلة فى الجرح والتعديل ضرورة تبيان فوائد ومصالح هذه العملية داخل إطار الجماعة المسلمة ، وبالتالى معرفة أهمية إجراء هذه العملية التقويمية باستمرار ، وأنه لا غنى للجماعة عنها .

(1) الأذكار للنووى / 294 .

(2) فتح البارى 8 / 124 .

(3) الجامع لأخلاق الراوى 2 / 260 .

ميزان القسط

(1) الحكم بالعدل ، وهو ميزان القسط الذى به قامت السماوات والأرض ، فخير الإنسان يُذكر ، عبادة وأخوة ومروءة وتشجيعاً ، والسيئات تُذكر تحذيراً وتخويفاً ، وذكرهما معاً يحقق ميزان العدل.، وكيف يمكن التعامل مع خير كل إنسان وشره .

(وإذا اجتمع فى الرجل الواحد خير وشر ، وبر وفجور ، وطاعة ومعصية ، وسنة وبدعة ، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير ، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر ، فيجتمع فى الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة . .)[1] .

وهذا التقويم الذى يوجبه الحكم بالعدل هو الذى يؤدى إلى دفع الظلم ، وإقرار الإنصاف وفض النزاع ، والفصل بين الخصومات ، بل وقد يكون الجرح والتعديل ، أو الذم والمدح من القرائن التى يتوصل بها إلى حقائق الأحوال ، وصدق الوقائع ، والحكم على المواقف ومعرفة الناس :

(أصل عظيم يحتاج إليه المفتى والحاكم ، فإن لم يكن فقيهاً فيه ، فقيهاً فى الأمر والنهى ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، فإنه إذا لم يكن فقيهاً فى الأمر له

---

(1) فتاوى ابن تيمية 28/ 209 .

معرفة بالناس تصور له الظالم بصورة المظلوم وعكسه ، والمحق بصورة المبطل وعكسه ، وراج عليه المكر والخداع والاحتيال . .) [1] .

المعرفة بالتعريف

(2) التعريف ، وهو لابد منه إذ أن بعض خصائص الداعية جزء من صفته ، والأسماء المجردة لا دلالة لها ، فالإنسان بمجمل أوصافه ، لا بحروف اسمه وآبائه ، وحتى ينزل الناس منازلهم ، ولا يبخس الناس أشياءهم ، وبالتعريف يمكن إناطة الأعمال بأصحابها ، وترشيح كل داعية لما هو أهل له . . قال شيخ الإسلام رحمه الله :

(فإذا كان المقصود الأمر بالخير والترغيب فيه ، والنهى عن الشر والتحذير منه ، فلابد من ذكر ذلك) [2] .



(3) اختيار الأصلح : إذ قد يتشابه الدعاة فى مجموعة من الصفات ، والحاجة تقتضى اختيار أحدهم للمهمة ، وهذا لا يتم إلا

(1) إعلام الموقعين 4/ 261 .
(2) فتاوى ابن تيمية 28 / 226 .

بمراجعة مجمل الخصائص السلبية والإيجابية للدعاة ، وهذا الأمر من باب أداء الأمانة ، ولابد للأمير من عملية التقويم حتى تتم عملية التولية الصحيحة .

(فيجب على ولى الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل ، قال النبى - ﷺ - : « **من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله** » . .) (1) .

استكفاء الأمناء

(4) اختيار الأمثل فالأمثل لمناصب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، التى هى هدف الدعوة الإسلامية ، ومعرفة الأمثل فالأمثل لا تتم إلا بمعرفة مواطن الجرح والتعديل وأن تتم عملية التقويم بالشكل الصحيح .

(فلهذا يجب على كل ولى أمر أن يستعين بأهل الصدق والعدل ، وإن تعذر ذلك استعان بالأمثل فالأمثل ، وإن كان فيه كذب وظلم فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم . والواجب إنما هو فعل المقدور) (2) .

وهذا الأمر هو أيضاً من باب الأمانة ، وكلا المسألتين من واجب الأمير ، أو من ينوب عنه .

---

(1) ، (2) فتاوى ابن تيمية 28 / 246 / 67 .

(فليس عليه أن يستعمل إلا أصلح الموجود ، وقد لا يكون فى موجوده من هو أصلح لتلك الولاية ، فيختار الأمثل فالأمثل فى كل منصب بحسبه ، وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام ، وأخذه للولاية بحقها ، فقد أدى الأمانة ، وقام بالواجب فى هذا ، وصار فى هذا الموضع من أئمة العدل المقسطين عند الله . . .)[1] .

وهذه النظرية من قواعد العمل السياسى الإسلامى ، وهى مقبولة شرعاً وعقلاً ، والأخذ بها لا يتم إلا من خلال ذكر جرح الأشخاص وتوثيقهم .

التكامل ... بركة الجماعة

(5) الموازنة بين أعمال الرجال ، فقد تحتاج الدعوة إلى خصائص متباينة فى آن واحد ، كى يكون العمل الناتج متكاملاً ، ولابد لاستكمال هذه الحقيقة من تقويم الأشخاص وإجراء عمليتى الجرح والتعديل عليهما .

ونستدل لهذا التكامل مما حصل من استنابة أبى بكر لخالد ، واستنابة عمر لأبى عبيدة ، وذلك بسبب لين أبى بكر وأبى عبيدة ، وشدة عمر وخالد.

(وكان الأصلح لكل منهما أن يولى من ولاه . . ولهذا لما تولى أبو بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ صارا كاملين فى الولاية ، واعتدل

(1) فتاوى ابن تيمية 28 / 252 .

منهمــا ما كان ينسبان فيه إلى أحد الطرفين فى حياة النبى - ﷺ - من لين أحدهما وشدة الآخر . .) [1] .

ومثل هذه الموازنة من أجل أن يدرأ نقص أحد الدعـاة بفـضل الآخر ، فتتحقق المصلحة ، وهذا لا يتم إلا بعملية التقويم والبحث عن كل من فضائل الدعاة وسلبياتهم .

واجبات ومراتب

(6) عملية الإصلاح والتربية ، وهى لا تتم إلا بمعرفة الخصائص والصفات ، وإجراء التقويم ، وقياس الأخطاء على وفق القابليات ، إذ أن تحديد الواجبات والحقـوق من قبل الأمراء ، لابد أن تتم وفق مراتب الدعاة ، وقد ذكر ابن تيمية - رحمه الله - قاعدة جليلة أوردها فى آخر (المسودة) وكـذلك فى الفتـاوى نقتـبس منهـا أقل مـا يمكن حيث تحدث عن واجب المجاهدين والعلماء فقال :

(مثال ذلك الجهاد ، فإنه واجب على المسلمين عموماً ، على الكفاية منهم ، وقد يجب أحياناً على أعيانهم ، ولكن وجوبه على المرتزقة الذين يعطون مال الفىء للجهاد أوكد ، بل هو واجب عليهم عيناً ، واجب بالشرع ، وواجب بالعقد الذى دخلوا فيه . . وواجب بالعوض ، فإنه لو لم يكن واجباً لا بشرع ، ولا ببيعة إمام ، لوجب بالمعاوضة عليه . . .) [2] .

(1) فتاوى ابن تيمية 28 / 257 .

(2) فتاوى ابن تيمية 28 / 184 .

ويقاس على ذلك أن بعض الأمور واجبة على أعضاء الجماعة بالشرع وتزداد بعقد البيعة ، ثم تصبح آكد وجوباً على من يأخذ على عمله أجرة فوق ذلك . كما أن الأعمال الدعوية يتباين الالتزام بها من شخص إلى آخر ، كما تتباين المحاسبة على ذلك تبعاً لذلك .

فالجيل الرائد له معاملة خاصة تختلف عن الجدد ، والمكلفون بمهمات خاصة يتباين النظر إليهم عن غيرهم ، والعلماء من الدعاة لهم منزلة خاصة، وهكذا . . أمّا عن المعلم فقد قال شيخ الإسلام عنه ما يمكن أن يقاس عليه المربى .

(وكذلك أهل العلم يحفظون على الأمة الكتاب والسنة ، صورة ومعنى ، مع أن حفظ ذلك واجب على الأمة عموماً على الكفاية منهم ، ومنه ما يجب على أعيانهم ، وهو علم العين ، الذى يجب على المسلم فى خاصة نفسه ، لكن وجوب ذلك عيناً وكفاية على أهل العلم الذى رأسوا فيه، أو رزقوا عليه ، أعظم من وجوبه على غيرهم . لأنه واجب بالشرع عموماً ، وقد يتعين عليهم لقدرتهم عليه وعجز غيرهم ، ويدخل فى القدرة استعداد العقل ، وسابقة الطلب ، ومعرفة الطرق الموصلة إليه من الكتب المصنفة ، والعلماء المتقدمين ، وسائر الأدلة المتعددة ، والتفرغ له . .) [1] .

وبهذا المنظار يحاسب الداعية العالم على جهده فى الكتابة والتربية ، وعلى التوجيه وإقامة الدروس . كما يحاسب النشط صاحب العلاقات العامة على معرفته بالطبيعة الاجتماعية فى البلد ،

---

(1) فتاوى ابن تيمية 28 / 186 .

ويحاسب الوجيه على معرفته بأهل البلد وأغنيائه والمؤثرين فيه ، كما أن المكلف بمهمة يحاسب على أدائه لمهمته ، وهكذا الأمر فى الواجبات الدعوية الأخرى .

(فترك أهل العلم لتبليغ الدين كترك أهل القتال للجهاد ، وترك أهل القتال للقتال الواجب عليهم كترك أهل العلم للتبليغ الواجب عليهم ، كلاهما ذنب عظيم . . .

ولهذا جبل الله قلوب الأمة على أنها تستعظم جبن الجندى وفشله ، وتركه للجهاد . . أكثر مما تستعظمه من غيره وتستعظم إظهار العالم الفسوق والبدع أكثر مما تستعظم ذلك من غيره ، بخلاف فسوق الجندى وظلمه وفاحشته ، وبخلاف عن الجهاد بالبدن . . .) (1) .

قاعدتان ملحقتان

وأخيراً ، فهنالك قواعد فى الجرح والتعديل لها غير هذا الموطن ، إذ المقصد هنا الموازنة بين الجرح والتعديل ، وجواز كل منهما لأغراض الدعوة دونما إفراط أو تفريط ، ولكن بحسبنا أن نشير إلى مسألتين إشارة عابرة :

---

(1) فتاوى ابن تيمية28 / 189 .

معاملة ذوى الفضل

(1) احترام أصحاب السابقة ، وكبار الدعاة ، وعدم المسارعة إلى تجريحهم ، والتزام :

(الحذر ، كل الحذر ، أن تفهم قاعدتهم الجرح مقدم على التعديل على إطلاقها ، بل الصواب أن من ثبتت إمامته وعدالته ، وكثر مادحوه ، وندر جارحوه ، وكانت هنالك قرينة دالة على سبب جرحه، من تعصب مذهبى أو غيره ، لم يلتفت إلى جرحه .)[1] .

والسبب فى عدم المسارعة : أن أسباب التجريح عليهم قد تزيد بسبب من عداوة أو حسد ، أو منافسة أقران ، كما أن تجريحهم يسىء إلى الجماعة التى يمثلها ، والطعن فى الأشخاص من أقرب الطرق إلى تحطيم الجماعات ، ولهذا جاء فى الحديث :

« **أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم ، إلا الحدود** »[2] .

إلا إذا رشح لأداء عمل معين وهو يعلم عجزه عنه ، فيسوغ له تنبيه من رشحه إلى الصفات المانعة .

---

(1) طبقات السبكى 1 / 188 .

(2) رواه أبو داود وأحمد والبخارى فى الأدب المفرد .

تقويم الذات

تقويم الشخص لنفسه :

وقد يقوم الإنسان به مضطراً أو غير ذلك ، قناعة بنفسه ، أو غروراً للإعلان عنها ، كما أنه قد يقوم بذم نفسه ، وخلاصة الأمر : أنه لا يجوز ذم النفس أمام الغير ، ومن كان مخلصاً فى الملامة فليحاسب نفسه سراً ، ويلتجأ إلى الله بالاعتراف بذنبه ، أما مدح النفس فغالباً ما يكون ناتجاً عن الغرور ، ولذلك نهى عنه ، ولكن يستثنى ما كان منه لمصلحة عامة ، كما قال يوسف عليه السلام :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾(1) .

أى أن المدح مذموم إذا كان للافتخار وإظهار التميز ، والغرور ، ومناكفة الأقران .

(والمحبوب أن يكون فيه مصلحة دينية ، وذلك بأن يكون آمراً بمعروف ، أو ناهياً عن منكر ، أو ناصحاً ، أو مشيراً بمصلحة ، أو معلماً أو مؤدباً أو واعظاً ، أو مذكراً ، أو مصلحاً بين اثنين ، أو يدفع عن نفسه شراً ، أو نحو ذلك ، فيذكر محاسنه ناوياً بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله ، واعتماد ما يذكر) (2) .

---

(1) سورة يوسف : (55) .

(2) الأذكار للنووى / 238 .

وأخيراً

لعل فى هذا المبحث مع فهم رسائل (الشروط) ، و(استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء) ، و(المداراة التربوية) [1] ما يشكل نظرية دعوية متكاملة لها أصولها الشرعية وضوابطها ، مما لابد من الأخذ بها واستعمالها فى العمل الدعوى والتربوى لتحقيق المصالح الشرعية المترتبة عليها ، وكذلك فالالتزام بضوابطها يمنع الخلل ، ويقضى على الأهواء ، ويسد منافذ الإفراط والتفريط ، ويقارب وجهات نظر العاملين ، ويدفع عنهم غائلة الاختلاف والتشتت ، كما أن فى هذه النظرية وأمثالها تأصيل لعمل الجماعة المسلمة المعاصرة ، وتحقيقاً لمبدأ التزامها بالقرآن الكريم والسنة المطهرة ، واقتداءً بمنهج السلف الصالح . . كما أوضح ذلك رائدها الإمام الشهيد ـ رحمه الله ـ إذ حدد منهج التأصيل لفكر الدعوة بأصلين :

أولهما فيما يتعلق بالأمور التى فيها نص شرعى ، فيكون المنهج فى ذلك الاتباع كما فى الأصل الثانى من الأصول العشرين :

(والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الإسلام ، ويفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير

---

(1) ستنشر هذه الرسائل الثلاث إن شاء الله ضمن سلسلة رسائل العين ، وهى رسائل متداولة فى أوساط الدعاة منذ أمد ، وتتكامل مع هذه الرسالة التى ورد فيها بعض ما فيهن من المعانى .

تكلف ولا تعسف، ويرجع فى فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات) .

أما ما كان مرجعه إلى أقوال السلف فيؤخذ منهم ما كان موافقاً للقرآن والسنة ، وهذا ما جاء فى الأصل السادس :

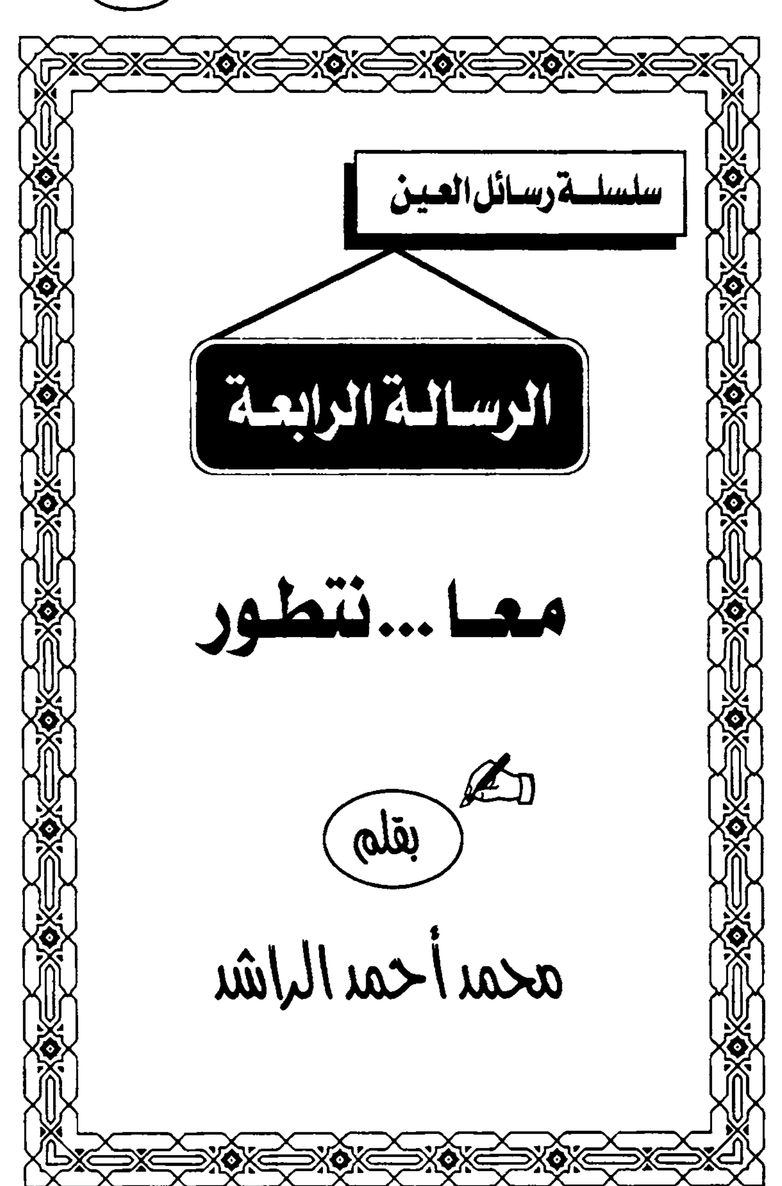
(وكل ما جاء عن السلف - رضوان الله عليهم - موافقاً للقرآن والسنة قبلناه ، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع) .

ولهذا ، فإن التأصيل هو من مبادئ وأعراف الجماعة المسلمة ، وهو المانع من الخلل والارتباك ، وبه يصح العمل ، ويتحقق التوفيق .

ونسأل الله أن ينفع بهذه المعانى ، وأن يكون نشر هذه المباحث مدعاة لتطبيقها ، وأن تتحقق المصلحة المرجوة من كتابتها .

ونسأله تعالى أن يلهم الكاتب والقارىء إخلاص النية وصواب العمل ، وأن ينفع الجميع بما يقولون وبما يفعلون . . والله الموفق للصواب ، ومنه موارد التوفيق ، وهو الهادى سواء السبيل .




سلسلة رسائل العين
الرسالة الرابعة
معا ... نتطور
بقلم
محمد أحمد الراشد



معاً نتطور..

يشهد العمل الإسلامى فى جميع أنحاء العالم إقبالاً واضحاً تضاعفت معه فرص النمو العددى والانتشار الأفقى ، وأصبح الشباب يفدون إلى دار الدعوة الإيمانية زمراً ، يجذبهم جمال الإسلام ، وتدفعهم إحساسات التوبة ، ويرتفع بهممهم وعيُهم للحقوق الكامنة فى القضايا الإسلامية الناتجة عن ظلم الواقع أو تحديات جاهلية ، كقضايا فلسطين والأفغان وأريتريا والفلبين ، والبوسنة ، وجهود التبشير النصرانى فى إفريقيا وأندونيسيا ، وتسيب الجاليات والقمع فى كل مكان .

وما من أرض إسلامية إلا وقد وصلتها الصحوة رغم الكبت والحصار الفكرى والإرهاب النفسى والتضليل الإعلامى ، وأفرزت كفراً بالعلمانية ، وأوبة إلى الحق ، فعمرت المساجد بالساجدين ، ونبضت فيها عروق جديدة .

وحالة هذا بهاؤها وتبشيرها بالمستقبل إنما تحتاج الرجال القادة الأكفياء الخبراء ، من أجل إدامتها وتنميتها ، ولتكميل العواطف المتأججة فى الجيل الصاعد بالعقلانية ، وجميل فورتهم بالتخطيط الهادف ، وتحويل شتات مسموعاتهم وخواطرهم إلى فقه موزون وتنظير شامل .

أى أن المدة القادمة إنما هى مدة الامتحان بكل معانيه ، فى العالم أجمع ، وبنتيجة هذا الإمتحان يتأثر المستقبل إيجاباً وسلباً .

لقد حصل التجميع فى أوسع تكاثره ، ولكن ماذا بعد التجميع ؟ .

ولقد زكت المشاعر الفياضة ، ولكن هل لها من علم التجربة قرين ؟

ولقد أسلم الصاعدون الزمام ، فهل يطيق القادة الصعود ؟ .

وإن أصداء الهتاف لتملأ العرَصَات ، فهل فى الأروقة تشاور ؟ .

أسئلة تفرض نفسها ، والزمن يسرع المرور وليس له استعداد لانتظار البطىء ، والمنافسات إنما يكسبها المبادر الفورى الاستجابة ، الحاضر البديهة الذى ينفر من أول التباشير ولوائح الإرهاصات إذا الفجر طلع ، وأما من توقظه الشمس فلات حين استدراك ، وسيجد الطريق مزدحماً .

وعند الزمرة المؤهلة للمشاركة الريادية فى كل بلد تصديق هذه الأخبار أو تكذيبها ، وتصديقها إنما يكون بأن يبذل المجرب نتائج معاناته لكل لاحق متشوق للسير فى الدرب الصعب ، وبأن يحتفى هذا اللاحق بما يُهدى إليه احتفاء الشاكر الراغب فى الوراثة ، ويزيد من عنده ما شاء الله .

لكنه ليس كل راغب ، ولن تؤهل الأمنيات أصحابها على الوجه الذى يريدون وإنما المؤهل من أهل بعقل وذكاء ، وبنفس سوية تعادلت أطرافها ، وكانت له مع المخضرمين محادثة ، ومن العابدين

اقتباس ، وفى الكتب غوصة ، وعلى اللأواء صبرة ، وما ثم فى رهط المؤمنين غير ثقة ، ولكن الله تعالى يرفع الذى له نصيب من العلم درجات فنرفعه نحن وقسم مقادير العقل كما قسم الأرزاق ، فنحن للثرى نقدم ، وخلق القلوب صوافى وذوات غبرات ، فعلى الأبيض نحرص وإنما هى القرائن فى كل ذلك نحكم بها ، ولنا حق الاجتهاد وليس علينا دوام الإصابه ، وإنما نسدد ونقارب ، ونرجح ونرجوا ، وطبعات الخير على أرض العمل لن تمنعها فراستنا المخطئة إذا صمم على طبعها مقُتدر جهلنا فضله فظل خفياً ، والآثار الزاكية تهواها الأنفس وتشكرها وتتبعها إذا خطها قوى مهما كان قصياً .

من هنا فإن كل إمارة أن تستخبر ، وتفتش وتشاور ليستقر قرارها على ترشيح مجموعة من الدعاة هم فى ظنها الأقدر على حمل ثقل العمل والأيقظ فى حراسة ثغور الدعوة ، والأصوت فى رفع الأذان، لتسلك بهم سبيل التطوير والتثقيف والتعبد ، والتعرف على الميدان ، على أمل أن يضيفوا من أنفسهم جهداً ذاتياً موازياً ، فيكون الارتقاء والنضوج ويكون بعد ذلك أو أثناءه تقاسم الأدوار بينهم فيحصل التكامل ، وتتقدم الدعوة الإسلامية خطوات نحو أهدافها .

إن صياغة الرجال هى أهم الواجبات ، والعاطفة الإيمانية اللاهبة التى يتحلى بها معظم الدعاة لا تكفى لقيامهم بمهمة إصلاح الحياة بعد إعوجاجها مالم يقترن إيمانهم بعلم شرعى ، وثقافة شمولية، ودراية إدارية ، وخبرة ميدانية واقعية ، وخلطة اجتماعية .

ومن أجل ذلك كان حرصنا الدائم على اكتشاف (منهجية

التربية الريادية) ووضعها فى التطبيق العملى ، واصطياد الأوقات وتجميع الطاقات لتجويدها ، وربط سلسلة حلقاتها التنفيذية .

والظروف اليوم مواتية فى كل مكان لفتح مدارس فى مجال التربية الريادية ، وهى مدارس يجب أن تظل دوماً جزءاً متميزاً فى العمل الإسلامى كحلقة جديدة لها نسب مع المحاولات السابقة ، وتبنى فوق بنائها السالف ولن تكون الأخيرة ولا أهلها بالمكتفين ، وإنما الاستزادة من الخير وتجديد الخبر ديدن كل داعية ناشئاً كان أم مخضرماً .



دهمتنا أشياء .. فأضعفت

وتبدأ عملية التطوير بتشخيص النقص ومعرفة السلب ، إذ أن الاجتماع المثالى للصفات الجيدة وبالمقادير المتناسبة أمر نادر ، والمثاليون الكمّل قليل عددهم ، مع أن الفطرة هيأت ويسرت نيل مكونات الخير ، وهى أسهل عليها من تعقيد ملازم لكل شر ، وكلمات التربية ومواعظ الناصحين تبلغ بالفطرى مراحل أبعد ، ولكن الخواذل تنحت وتصد وتصرف وتبعثر وتؤخر ، من بين حزن يلف المرء إذا فاتته أموال ومصالح ولذات وغفلة عن المبادرة تسببها أنواع الملهيات ، وشبهة لا يسعف ذكاء المحاول فى إيضاحها وجلائها ونقص عن التأمل المتأنى تفرضه العاطفة المتأججة إذا غمرت واستولت ، وللشيطان أنف يدسه فى كل ذلك ، وما تزال قنوات الحياة يسلكها مهزومون وثابت ، ومترددون وحازم ، وغضاب وعقلانى ، ومبطئون وسريع ، وللفقر وسوسة تقرب بصاحبه من الكفر مالم يعصم الله ، وفى الهجرة الآم وفراق أحبة ، والأعراض عزيزة وتنكسر عندها سيوف الإنكار والتغيير إذا هددها عُتُل وزنيم .

والدعوة الإسلامية ليست فوق تأثير المؤثرات ، ولن تكون ملائكية الأنماط ، ودهم بعض أفرادها حزن مذهل ، أو أثقل آخرين منهم بطر مقعد ، فقست قلوب ثمّ ، وتحولت عن زينة العلم عقول ، وكره جوازم الأمراء نفر من جند الحق .

وهذه الظواهر الثلاث هى أهم ما يميز الفاحص من نقص فى دار العمل الإسلامى اليوم ، والهبوط يستدرك عليه العلو والعلم بالتعلم ، والتراخى يليق له الالتزام .

قوموا بنا نتأله ...

إن قسوة القلب إنما هى نتيجة لفقر فى الحياة الإيمانية للداعية ، ومن شأنها أن تقترن بأسواء أخرى ، من الحسد وسوء الظن والغيبة والتكبر ويحتاج كل داعية إلى أن يغالب نفسه مغالبة ، ويتكلف التطبع بطباع المؤمنين ويحرص على أضداد ذلك من مقارنات الخشوع ، من الأخوة وحسن الظن والكلم الطيب ، ليلين قلبه .

وإنما هى عزمات أكثر مما هى مواعظ ومناهج تحصى ركوع المؤمن بعد الفرائض والسجدات ، أو تحصى عليه تلاوة الآيات ، ولقد اكتال كل مرشح لحمل ثقل الأعباء الريادية كيلاً وافراً من التذكير وكلمات التشجيع وتبيان طريق الآخرة ، ونكره أن نتكلف عدّ العبادات عليه عداً ، ولكنا نكله إلى ألمعينة وهمته ، ونأمل أن ينتفض على الفتور المستولى ، وأن يقطع التوانى آيباً إلى بداياته القديمة يوم كان حمامة مسجد ، مستغفراً مخبتاً ، متنقلاً بين تسبيح وحمد وتكبير وتهليل ، مكرراً كنز الجنة : لا حول ولا قوة إلا بالله ، منقلباً إلى بين عمودين يمرغ الجبهة طوراً ، ومتغنياً بالزهراوين والحاميمات وما بينهما قبل شروق وغروب ، مائلاً إلى المقابر من بعد وعاكفا على قراءة فصول من المدارج والجواب الكافى

وإحياء الإحياء ، متأملاً التحفة العراقية لنفخر به هو تحفة بعد ذلك حقاً .

إن إهدار إلزام الداعية بكميات تنفلية والاكتفاء بالندب تجربة تربوية لها شواهد من النجاح كثيرة ، وخير من الرقابة على العبادة أن نتلمس ونتحرى آثارها وأماراتها فى الصاعد ، من خفض جناح يديه ورفق وحياء وحلم ولين جانب وطراوة لسان ، وعصامية نفس ، مع مروءة وكرم ، وتأول الأحسن وظن اللائق بالمؤمنين ، وصبر على العسر ، وعلى تقصير الأصحاب فى حقه وشكر للجميل فإن جماعة الدعاة إلى الله مكلفة قبل كل شيء بتجديد مكارم الأخلاق بعد ذبول اعترى الحياة فتركها مائلة الجنب ليست تعرف استواء الخطو ولا للعيش فى رحابها لذة ، وقد ذهبت اللذائذ مع النبلاء السادة أهل العلم والإنفاق والستر ونهوض الفجر ودموع الليل ، ونحن المرشحون لاستئناف ما سلف ، وعلى التوكل وعسى ولعل والأمل والثقة نعتمد ، والمتابعة لكل الصاعدين فى سعيهم التعبدى واجبة ، ولكنها التشويق والذكرى وما هى بفحص وتدقيق ، ونهب إدبار قلب المحاول حين يدبر إلى أيام كان فيها من المقبلين وسيكون ، كما الله تعالى يهب .

ثم هيا بنا نشترى المصابيح ...

ولئن كانت التقوى تدير المعركة الخفية للحياة وتفرض ترجيحاً للتقى النقى على أهل الكفر والفجور والعصيان ، فإن العلم من جانب آخر يدير معركة الحياة الظاهرة ، نحن أو أولئك ، أينا الأعلم

ولئن رجع ذو التأله بأجر فإن ذا العلم يرجع بأجر ونصر .

ومن هنا لزمت أنواع من العلوم لكل منتدب لعمل إسلامى ريادى ، لزوماً يصحبه تدقيق ، وتديمه رقابة ، وتنظمه منهجية تفصيلية ذات استقصاء وتكامل ، وقد ألحقنا بهذا الميثاق التطويرى قائمة تسرد أسماء كتب فى شتى العلوم والمعارف والفنون نرى ضرورة عكوف التلميذ على مطالعتها واستيعابها واقتباس الفقرات المهمة منها ليجزل عوده ، ويستوى فهمه للإسلام ولمحركات الحياة ، وأسرار الأنفس وخفايا دهور مرت وخطط أحزاب أثرت ، وصفات واقع حى ، وتوجهات تطور يجرى فى مجارى النماء ، والتغير لن توقفه أوهام عاجز مقل يرغب فى أن تنتظره دوره الكون الدوار إلى حين يلم شعثه أو تعفيه من المهمة معجزة تأتى على نمط غير ذى قياس .

العلم بالتعلم ، ولابد من أخذ النفس بالشدة ، وإطالة المجالس ، وإحياء المحاورات ولأن يتملق الداعية لمالك حكمة حتى يمنحها له خير له من أسمار الأقران ، وهذا عصر ثورة العلم ومنهجية الأعمال والعمق شرط للمضى فى المنافسة ، وما عادت الأحرف اليسيرة تدبر نقاشاً أو ترشح صاحبها لندوة أو تقرير ناجح أو مقالة لها رواج أو خطبة ينصت لها الناس ، بل الملىء هو سيد الساحات وأبو المنابر ، وما نظن أن حائز العلم الشرعى يستطيع بثه مالم يضف إليه علماً باللغة والأدب والتاريخ ومقدمات الاقتصاد والإدارة والعلوم التطبيقية مع نظرة فى الفلسفة ، وهذا الشمول هو مظنة تأثيره فى أوساط المثقفين ، وبدونه يتلعثم أو يضطرب عرضه .

التابع يستطيع الإقلال ، والواضى بمنازل الهامش يمكنه سماع

الأشرطة مكتفياً بها أو الركض وراء خطباء العاطفيات ليشبع نفسه ، ولكنا نتحدث عن قوم فى المركز والبؤرة والقلب والصميم ، يريدون قيادة الناس ومعاكسة التيار ومقاومة الغزو ومعاندة العالم ، ولهم هدف إصلاح وتغيير وهدم طواغيت استعبدت العلم وسخرته وقوم هذه هواياتهم وخواطرهم وغاياتهم يفترض أنهم نذروا أنفسهم للتعب وجمع العلوم والمعارف والفنون .

ونسمى التعلم تعباً وهو لذة كله ، وعز ، وارتفاع درجات ، وسبب احترام ، وجواز مرور ، وشهادة امتياز ، ووثيقة انتساب إلى نادى النخبة .

ويجمعنا العرف الجميل ..

غير أن تلك العبادة تمنح العابد اعتداداً بالنفس ، وهذا العلم يغمر صاحبه بنشوة ، فوجب بذلك على طالب الريادة العابد المتعلم أن يراقب وضعه ، لئلا يلبس عليه الاعتداد أو تموه عليه النشوة فيتشبه بالسائبين ويستسيغ الاستقلال والتفرد وحرية اتخاذ القرار ، إذ أن الفروق هاهنا طفيفة ، وقد لا يلحظها المنهمك والملتذ ، فإنها ليست فارقة بين إسلام وكفر أو خير وشر حتى تكون جلية لكل مؤمن ، وإنما هى فروق بين منازل الفضل ودرجات القربات ، وللداعية أن يختار الحرية ، لكن حريته نزول عن علو وضعتنا الدعوة فيه مُذ اخترنا أن نكون دعاة إلى الله ، وقبول العمل الجماعى ذروة وعى الواعى ، ومن مفاده أن يوزع جمهرة الدعاة بين أمير ومأمور

ومخطط ومنفذ ، ولابد من الحفاظ على صرامة الالتزام إذا أردنا إتمام الجولة ، بذلك ننفى السلب الثالث المتمثل بتراخى الاستجابة لجوازم الرؤساء .

إن الدعوة تعمل فى محيط ملغوم ، والأعداء يتربصون بنا ، وأقاموا أحلافهم فى وجهنا ، وما زال كيدهم يتجدد ويأتمرون لوضع مخططات التضييق ، ومثل هذه الحالة من الخطر المحتمل توجب علينا رصّ صفوفنا بالطاعة التامة ومراعاة مخططنا الإسلامى ووحدة الكلمة ، من سرعة الامتثال للأمر ، وحفظ السر ، والحياء من النقباء، واستكبار فضول من يحاول معرفة ما يجرى فى أوساط القدماء ، والحزن عند سماع نبأ اختلاف آراء السائرين ، ومغالبة النفس عندما تميل الأوامر إلى ما يخالف اجتهاد الداعية ، والتنفيذ بنية التعبد واستحضار المعنى الأخروى ، والاستغفار للأمراء إذا بدرت منهم خشونة فى ساعة غفلة أو تعب ، وعيافة النجوى ، وعدم مظاهرة المنشق ، والصد عن المخذل ، وترك طلب التولية ، ومحبة الصفوف الأخيرة والأعمال الخفية فى آداب أخرى .

هى الطاعة الواعية وليست التبعية المعطلة للحواس ، وهى الشورى وقول الحق وليس الانقياد الأبكم ، ودعوة العزة لا تعلم أتباعها غير التعامل العزيز ، ولكن ذلك لا يعفى من كمال الطاعة إذا عزم الأمير وتوكل ، وما نراه اليوم من تساهل بعض الأخوة فى هذه المعانى الدعوية الأساسية إنما هو من الابتداع المحدَث المؤدى إلى نمط هش من الروابط لا يقوى على احتمال المحن وتكذيب الفتن ، وما كنا نظن حين كنا ناشئة تلفنا الفورة أن سيأتى يوم يتأخر فيه أحد عن

لقاء أو دفع مال ، أو يهفو بتمريض أمر صريح ، وكانت الحياة الصارمة قد أدبتنا فأحسنت تأديبنا ، وعلمتنا الانضباط الجاد والانفعال المعنوى اللاهب ، وكنا نتحرك بأرواح سلسة وقلوب سوية لم يشبها تعقيد ، وتغمرنا العواطف الأخوية والتطلعات الأخروية ، وما زلنا كذلك فى خير وافر ودأب عامر حتى انحدر الزمان إلى أواخره ، ونبغ جيل يدقق قبل المسارعة ويجادل قبل الإقرار ، ويُفشى للقرين ، ويستنصر على الولاية ، ويفرح لخلاف بين المربين ليتخذه ذريعة إلى إقلال البذل ، ويطبق معادلات السوق الاقتصادية على علاقات أراد الله لها أن تكون سامية ، وربما وجدنا فى هذا الجيل من يغضب على الأمراء ويرتفع صوته ، أو يعرض ويصد متألماً أو يشترط اعتذارهم له عند خطأ يسير يبدر منه ، وربما تبلغ به الجرأة أن ينظر فى وجوههم : العين بالعين ، وكان جمال الحياء فى الأجيال الأولى يمنع كل ذلك وكانت قوانين الذوقيات الرفيعة وأعراف الاحترام تُلحق ذلك بالحرام، وكان فخر المنتسب فى الزمان القديم وأوج لذته أن يستعد أمام المربى استعداد الجندى ويقول له إذا ندب : أمرك يجرى لك ما تريد ، روحى فداء دعوة الإسلام ، ووقتى ومالى ملكها ، أفندم ، تفضل ، يحصل ، نعم ، على عينى سمعاً وطاعة ، على خير إن شاء الله ، ادع الله أن يعيننى ، حلت البركة ، وأشباه ذلك .

لبيك نداء المضاعفة ...

إلا أن معانى الأصالة مازالت تمثلها عصابة قائمة على الوفاء لتربية الأولين ، وفى ذلك ما يمنع اليأس ويجعلنا على ثقة من جدوى صيحة ينادى بها مجدد داخل رحاب دارنا يدعو لعودة فورية إلى الشكل القديم المبارك ، ويُراد لمدارس التطوير أن تكون هى البيئة الصحية ذات النافذة القريبة المفتوحة على هذا الصائح الناصح ، المستفز المستنهض المنذر بوجوب استدراك يقارن سعة انفتاح الأبواب اليوم بعد افتضاح سذاجة الناس وتوبتهم من مشية بلهاء خلف كل ظالم نزق طائش مستبد .

إن فنوناً عديدة تدخل تحت شعار هذا التطوير ، ويجب أن تقارنها فعاليات شخصية يسعى لها كل داعية ، ثم هى المدارس نفسها درجات وأنواع .

رواه بين ظهرانينا ...

نسمع لهم من قريب ...

وأهم أنواع وسائل هذا الخط التطويرى : المدارس المحلية التى نقترح أن تعقد على مدى سنتين ، أى فى نفس المدينة التى يسكنها

المرشحون ، بحيث يجتمعون أسبوعياً أحياناً ، وكل أسبوعين أحياناً وقد تُكثف الاجتماعات أحياناً فتكون فى أيام متتالية .

ويكون المنهج منوعاً مراعياً للشمول وسد أنواع الحاجات ، فيه علم شرعى ، وفكر ، وتحليل سياسى ، وتاريخ إسلامى ، وتاريخ سياسى ، مع مقدمات العلوم ، ولكن النصيب الأكبر إنما هو لفقه الدعوة والتخطيط وفنون الإدارة وتجارب التربية وطرق تنمية العلاقات العامة مع استعراض تحليلى لتاريخ الدعوة الإسلامية فى الأقطار ، ووصف واقعى لحاضر العالم الإسلامى ، وتعريف بأسرار القضايا الإسلامية الحية ، وبيان لوجوه نشاط المؤسسات الإسلامية ، وبعض هذه المعانى تعطى على شكل دروس ، وبعضها على شكل ندوات فيها أكثر من متكلم ، وبعضها على شكل حوار مفتوح ونقاش حر بين الأعضاء بحيث يدلى كل واحد برأية ويعقب على آراء الآخرين ، وقد أرفقنا ملحقاً ثانياً بهذه الرسالة فيه بيان واف لعناوين الدروس والندوات والحوارات الممكنة ، ويسع المشرف التربوى أن يختار بعض هذه العناوين ويترك البعض الآخر إذا لم يجد من يجيد الكلام فيها ، ويمكنه أيضا أن يضيف وأن يوسع أو يقلص حدود الموضوع ، ولا مانع من تكرار درس كان قد ألقى سابقاً إذا تقادم عهده فنسبه السامعون أو لم يسمعه البعض أصلاً وفى هذه الحالة نطالب من سمعه بشىء من الصبر والحلم ، من أجل استفادة إخوان له ، مع أنه نادراً ما تكون الإعادة متطابقة مع المحاولة الأولى ، وإنما فيها تجديد وزيادة أمثلة والتفاتات طريقة تمنع الملل وتلغى وهم الزهد بها .

إن هذه القائمة ليست جدولاً إدارياً يسوغ أن يستقبله رجال الخط الثانى الصاعد بفتور واهتمام هامشى ، ولا هى نتاج خواطر عابرة أو صنعها الدمج التلفيقى بين مذاهب شتى ، وإنما هى خلاصة تجربة فى التطوير على مدى سنوات طويلة ، واستمرت المحاولات الناجحة فى التفهيم والتفاعل مع المستجدات وحقائق المحيط تتراكم على مهل حتى غدت بهذه الصورة الشاملة التى تنطلق من مذهب واحد تحكمه رؤى تربوية متجانسة وفلسفة منهجية متناسقة ، ومن اللائق أن ينظر لها الدعاة على أنها وثيقة تربوية مهمة صاغتها جهود جماعية عبر معاناة طويلة لأمر التفقيه والتطوير ، مع أنها لا تمثل الاختيار الرسمى ، وإنما نقدمها كمقترح لمن شاء الأخذ به .

ومحور التحريك الموضوعى فى هذه المدارس إنما هى المجموعة التربوية ، بحيث يحاول أعضاؤها ، تحضير بعض المواضيع ذاتياً ويلقونها ، ويجوز تركز الأمر على بعض أعضاء المجموعة أو على أحدهم ، ثم تحاول الإدارة الاستفادة من كفايات الطلاب أنفسهم ، بحيث يلقى من يمهر منهم فى موضوع معين موضوعه على البقية ، ثم تتم الاستفادة من كفايات دعوية وإسلامية أخرى من مواطنى نفس البلد أو من المقيمين فيه ، وهى كثيرة ، وتمثل هذه الكفايات عناصر من المجربين القدماء ، أو الرواد ، أو العلماء الشرعيين، أو أساتذة الجامعات ، أو رؤساء وأعضاء مجالس إدارة الجمعيات الإسلامية ، وأمثالهم .

ومن المكن أن يقترن بذلك استثمار زيارة أمثال هؤلاء للبلد إن لم يكونوا من المقيمين فيه ، والمفروض أن تضع الإدارة جدولاً

تفصيلياً بأسماء المحاضرين والموضوعات المقترحة وتواريخ إلقائها ، مع مراعاة تنفيذه بشيء من مرونة تسمح بالبدائل وتستجيب للضرورات المفاجئة وتستفيد من عناصر جديدة لم تكن مكتشفة عند وضع الجدول ، أو من زائرين طارئين على غير موعد ، وأما اليبوسة الحرفية وعدم التبديل فإنها تحرم من خير محتمل ، ويجوز أن تتنوع الاهتمامات في الموسم الواحد أو يخصص الموسم لباب واحد فقط ، كأن يكون للتوعية السياسية كله أو في فقه الدعوة ، أو في الفكر وهذا التنويع أو التفريد هما من الاجتهاد الإداري الذي يسوغ فيه أكثر من وجه ، ويعتمد على قضايا ذوقية أيضاً ، وعلى اغتنام فرصة وجود بعض المحاضرين ، وعلى رغبة الطلاب ، أو على تجانس مع نشاط آخر مزامن .

طرقنا رحّالون .. في بضاعتهم نفائس

ومن أهم عوامل نجاح هذه المدارس : زيارة الأمراء لها لإلقاء سلسلة دروس ، وعلى الأخص في فقه التحرك ، وفي قضايا القطر وتاريخه وتاريخ الدعوة الإسلامية .

والمفروض أن يستثمر الطلاب زيارة الأمير استثماراً مضاعفاً عن طريق توجيه أسئلة حيوية له ، ومن عناصر حيويتها : أن تفصح عن اهتمامات عالية وقضايا رئيسية ومسائل أصولية واستراتيجية ، وليس يليق بهم أن ينزلوا إلى مستوى الفرعيات والحوادث اليومية والغرائب التي ترد على غير قياس .

وتشير التجارب التطويرية إلى ضرورة استثمار هذه الزيارات لمدى أبعد من خلال بيات الزائر عند الطلاب تباعاً ، كل ليلة مع أحدهم فى بيته وطرفاً من النهار ، بحيث يكون التصارح ، والقول الحر ، ومعرفة الآراء الذاتية ، وكذلك ليتاح للأمير معرفة نمط تفكير الصاعد ، ومدى فهمه واستيعابه ، وظروفه الخاصة ، وآماله وآلامه .

ومن عوامل نجاحها أيضاً : تدريس رسائل فى فقه الدعوة وتضمينه منهاجها ، مثل رسائل العين هذه ومختارات من المجلات التربوية ، وينبغى ألا ينُسى أن رسائل العين إنما أريدت لتكون منهلاً ثرياً لمناهج المدارس الدعوية ومحاضريها ، وننتظر زيادة التفاعل معها وعمقاً أبعد فى الاحتفال بها والدراسة الجماعية لها ، ولا تقتضى الدراسة الجماعية نطقاً حرفياً لكل ألفاظها ولكن يشرح المدرس المجمل ليتاح له الوقوف عند مفاصل الموضوع والنقاط البارزة والقواعد الحاكمة والاستنتاجات الأخيرة بحيث يكون شرحه المجمل خلفية جيدة لإثارة حوار يشارك فيه جميع الطلاب ، ويترك لهم حرية التعقيب والنقد وقياس المعانى على الواقع الإسلامى .



فطفق يصف له ما حدث ..

ومن عوامل نجاحها أيضاً : تكميلها بمشاهدة جماعية ـ أو فردية عند الاضطرار ـ لنخبة من شرائط الفيديو ذات الأهمية الاستثنائية ، كالأفلام الوثائقية عن الحروب والثورات ، والأفلام التمثيلية الساردة لسير المشاهير أو المستلة من قصص الأدباء الكبار ، والمسلسلات السياسية والجغرافية والعلمية والفنية ، والندوات الناجحة ، وأمثال ذلك ، إذ تنعكس هذه المشاهدات انعكاساً مباشراً على الدعاة ، وتوسع آفاق فهمهم لتقلبات الحياة ومؤثراتها ، وترقق أذواقهم ، وتبعد بهم عن السذاجة ، وتريهم كم هى صعبة معقدة عملية قيادة الناس وكم تلزم الدعاة من مقادير المنهجية والواقعية والتوثيق المرجعى ، وكيف يتعامل المسلم مع المعادلات الدولية ومراكز القوة والجماعات الضاغطة .

ونعلم خبر رجال تقاسموا الزوايا والأركان .

ومن عوامل نجاحها : حث الطلاب على الالتقاء مجتمعين أو كل اثنين أو ثلاثة منهم بعدد من أهل التأثير فى مجتمع بلد إقامتهم والبلاد الأخرى المجاورة ، أو التى يسيحون فيها ، مسلمهم وكافرهم كالعلماء الشرعيين والأدباء والإعلاميين ونواب البرلمان ،

ورجال الدولة وقادة الأحزاب وشيوخ القبائل ، ورؤساء النحل والطوائف ، ورؤساء الجمعيات ، وكبار الضباط والسفراء ، ومدراء الشركات ، وكبار المحامين وعلماء الفيزياء والكيمياء والفلك ، ومشاهير أساتذة الجامعات ، والفنانين ، والبارعين من المهندسين والأطباء ، وأمثالهم .

ولتنفيذ هذه العملية يلزم كسر حاجز الحياء والخوف من الناس لدى الدعاة ، بحيث تكون فيهم جرأة تمكنهم من المبادأة بالاتصال بهؤلاء والجلوس لهم جلسة التكافؤ والثقة بالنفس وتقديم أنفسهم على أنهم من دعاة الإسلام وأنهم يريدون الاستفادة من تجارب المقابل فى اختصاصه أو فى أمور الحياة جميعاً ، ورأيه فى قضايا الساعة ورجال الساحة ، وأنهم جاؤوه سائلين متعلمين لا مجادلين ومستنفزين ، وبدافع تطوير مستوياتهم لا بدافع الفضول والإحراج ، وأنهم دعاة إصلاح وحرص على مصالح الأمة وليسوا سلبيين .

إن هذه المقابلات لو تمت فإنها ستقفز بالدعاة الذين يقابلون قفزة تطويرية واسعة ، إذ أنها تصقل شخصياتهم وتمدها بقوة ، وتنمى المقدرة على الحوار ، وتطلعهم على أسرار المجتمع والمنافسة الخفية فى داخله وأسرار الحكومة والأحزاب ، كما أن هذه المقابلات تجبر الدعاة على مراعاة أدق الذوقيات حتى تكون لهم عادة ، وعلى توسيع قاعدتهم الثقافية ليكونوا بمنزلة التكافؤ مع المقابل ، وتمنحهم قدرة على تقويم الرجال وتجويد الفراسة بهم ، وتوسع دائرة علاقاتهم العامة ، وتفتح لهم نافذة يدركون من خلال النظر عبرها كم هو واسع المجتمع ومتداخل الأجزاء ، أوسع من مجتمع الدعاة الصغير مهما كبر .

إنها مهمة صعبة جداً أن يضع الصاعد الحياء جانباً ويبادر إلى طلب التعرف والزيادة ، لكنها عملية ضرورية ، وقد لا ينفتح بعض المقصودين ، حذراً من الاحتمالات السيئة ، ولكن آخرين سينفتحون ولكل صعوبة طريقة في التحايل عليها وتذليلها ، من توسيط أحد يعرف الجانبين ، أو مصاحبة مسلم لهم وافر القبول لدى الناس ، وفي سبيل تحصيل فوائد ملاقاة هؤلاء الرجال نهدر سرية غير لازمة يتوهمها بعض الإخوة ونعلن لهم بأننا دعاة إسلام ، صراحة بلا وجل فقد قتلنا الانزواء والانكفاء على النفس ، وأتلفت قابلياتنا العزلة ، وأضعف شخصياتنا العيش الرتيب مع الأتراب .

فلنترك الخوف من الناس ، ولتكن لنا سياحة بينهم فإنهم تبع للأعلم والأفصح ، ونحن في المركز الأقوى بما معنا من إيمان وأخلاق وجد وعلم ، ومن اللازم إحصاء أسماء هؤلاء الرجال الذين يزارون ، والمداخل لهم وما يقال لهم ، ووضع جدول زمني بكل ذلك ، ولسنا ندعوا إلى حكر أوقات طلاب الريادة لإجراء هذه الزيارات ، وإنما هو التوازن في سد الحاجات وتحصيل المصالح نعنيه ، وهذه مصلحة تقدر بقدرها ، ونختار نخبة من الأسماء قد لا تزيد عن الخمسين خلال السنتين المرصودتين للتطوير ، ثم المتخرج يجتهد في مواصلة الاتصال بعدها بمن شاء ، والمهم أن نسير على الدرب الصحيح بالتدرج الذي تحدده الأوقات وتمليه الظروف ويسمح به تزاحم الضرورات .

وفي بعيد الآفاق حلم .. نرحل لها ..

ثم من عوامل نجاحها : اقترانها بسلسلة زيارات ميدانية للساحات الساخنة أو ذات التركيب المعقد أو التى يبلغ التحدى والتناقض فيها مبلغاً حاداً ، فإن مثل هذه الميادين وما فيها من جدية وإيجابية وصراع وحركة دائبة وإفصاح عن الهويات وبذل تضحيات إنما تعظ الداعية أى موعظة ، وتدعوه لاقتداء وزهد ، وتهز فى قلبه أوتار العاطفة ، فيعود بروح جديدة يافعة ، ناظراً إلى تسويفه الماضى بازدراء ، عازماً على الاستدراك والتنافس .

كانت ساحة الجهاد الأفغانى هى أمثل الساحات وأرقاها فى تحصيل هذه المعانى ، لكنها ليست الساحة الوحيدة ، وإنما هناك ساحات عديدة تتفاوت فى درجة حيويتها وتأثيرها فى الزائر ، مثل مجاهل إفريقيا السوداء حيث التنافس على أشده بين الجهود الإسلامية وسطوة التبشير النصرانى ، ومثل أجواء ثورة المسلمين فى الفلبين وثورة أريتريا ، والصراع فى لبنان ، وفى البوسنة والهرسك ، ومناظر الجوع فى بنغلاديش ، ومدارس تحفيظ القرآن الكريم فى تركيا ، كذلك تعتبر ذروة المواسم الانتخابية البرلمانية فى كل بلد ساحة مليئة بالدروس العملية إذا نزلها الدعاة ، مثل الانتخابات بمصر والسودان واليمن والجزائر والأردن والكويت وباكستان ، وكذلك التنافس الإسلامى العلمانى فى كردستان .

ومـاذا على الرائد لو توسع فى هذا البـاب فـزار بلداً مـجـهـولاً ودرسه ميدانياً ورأى وشافه ثم قدم تقريراً تفصيلياً حوله أو نشر كتاباً عنه ؟ كأن يزور مسلمى الصين ، أو الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى وقد أصبح الطريق سالكاً ، أو الجاليات الإسلامية فى نيبال وتايلاند وأمريكا الجنوبية ، فمثل هذه المعاينة الميدانية تمده بخبرة حياتية وصداقات وعلاقات ، وتقوى شخصيته ، وتزوده بمادة للحديث وشواهد ا للتمثيل ، وبها يتدرب على البحث والكتابة والاستفادة من الوثائق فى فوائد أخرى لن يذوقها إلا من يرحل ويختلط ، والقابع المؤثر لليوميات المتكررة مع زوجة وبنيه وأصحابه محروم منها ، وبحق كان هذا الحرمان .

إن جانب الإبداع والمبادرة ضعيف فينا جداً ، ولابد من تنميته وإذكاء المحفزات الداخلية بمثل هذا النزول إلى الساحات وقذف النفس فى المعمعة لنتعلم من خلال الورطة شيئاً ما .

بل أحياناً نحن أحوج إلى التعرف على عالم واسع قريب منا فى بلد إقامتنا ، وكذا وما زلنا نتمنى أن يركب رجال الإبداع فى أقطار جزيزة العرب سيارة دفع رباعى تجتاز الرمال ليكتشفوا قرى الصحراء والمناطق النائية والجبال ويشاهدوا الناس وحياة الوحش والنبات فى البيئة الفطرية ، حتى يصلوا الربع الخالى وأودية عسير ثم المضى صعداً إلى جبل حائل وكثبان الدهناء مروراً بخيبر ومدائن صالح وتبوك ، أو ينحدر مقدامون بسفينة شراعية من سواحل الخليج إلى بومبى لتسجل لهم مغامرة أو يتتبع آخرون بتركيا جميع مدنها وقراها وآثارها ومساجدها وخطوطها وزخارفها ، أو يتطوع مغامرون فى

أمريكا لمسحها من أطرافها الأربعة ثم ينحدروا فى نهر الميسيسبى بطوف ليحدثوا إخوانهم إذا رجعوا إليهم عن عجائب ما خلق الله من جبال ووديان وغابات وأنهار وحيوان ونبات برى ، أو يمسح آخرون الهند ومن فيها ، أو يمكث مترفان مع مساكين أندونيسيا ، أو يصعد رجال بباكستان فى طريق الحرير نحو الصين .

إن كل هذا ليس متعة سياحية ـ مع أنها كذلك وإنها مباحة ونحبذها ـ ولكننا نريد جانبها التربوى والتدريبى وإيحاءاتها الإيجابية وإملاءاتها المعنوية ـ ولن نزال يلفنا السكون وتجمدنا الرتابة مالم نرفض الحصار ونشق الشرنقة لنسرى فى كل قنوات الحياة ونمتد إلى العالم الرحيب المتلون بكل الألوان .

ولا تتحدثن عن إجازة ومال تعذر بوهم افتقادهما نفسك ، فإن الحريص يلتف ويحتال ويداور ويناور ويفرك ذهنه للتغلب على المثبطات ، وكن مثل السائحين الغربيين الذين يحملون متاعهم على ظهورهم ويجلسون مع سائقى الشاحنات ، وهذا هو المثل الدون ، ولنا مثل أعلى وأطهر وأزكى : أن نكون مثل رجال التبليغ : ننام فى المساجد ونقنع بالخبز وحبات الزيتون إداماً ولسنا ندعوك لبيات فى هيلتون وشيراتون حتى تعتذر بفقر .

إن هذه الجولات والاستقصاءات الميدانية والحياة الخارجة عن المألوف ليست وسيلة توعية فقط ، وما هى بأداة لتقوية الشخصية فحسب وإنما هى مادة أيضاً لارتقاء خلقى تؤثر بصماته فى صميم حياة الداعية النفسية ، إذ أنه حين الجولة مشغول فى كل وقته بأمور من الخير والفحص والتعرف وإجابة أسئلة السائلين ، وذلك يبعد به

عن الغيبة والهزل واللمز ، ولأن هذه الأسواء شغل الفارغين ، ثم هو ولمدى سنوات بعد الرحلة ثرى الحديث ، يحدث أصحابه عما شاهده وعاناه ، وذلك فطم آخر عن الغيبة والقول المرجوح واللفظ الردىء .

ولنا من بعدُ لقاء ... لنقتسم الغنائم ...

هذا هو خبر الجهد المحلى فى العملية التطويرية وما يتبعه ويتصل به من عوامل النجاح ، لكن التطوير يذهب مذهباً أبعد وأكثر وفاءً للمتطلبات ، عن طريق إقامة المدارس الشاملة التى تعقبها سياحات ، كأن تكون فى أسبانيا ، لرؤية آثار الحضارة الإسلامية فيها والتجول بقرطبة وغرناطة وأشبيلية ، وقد تتكرر فى تركيا إن سمحت ظروفها ، للتجول فى مدنها و رؤية آثارها وأريافها

إن هذه المدارس تدار من قبل الرواد الأوائل مباشرة ، وهذا يحقق فائدة قربهم من الجميع والحوار المباشر بدون وسطاء ، مع فائدة اجتماع رجال من بيئات شتى ، فينقل بعضهم لبعض التجارب المتنوعة، ويكون الحديث عن خصائص كل بيئة وما فيها من إيجاب وسلب ، وعن أسرارٍ ما كانوا لها بسامعين .

عرف واجبه .. فأضاف لبنة فى الصرح

ولا تقف العملية التطويرية عند هذا الحد ، وإنما تقترح على كل مشارك أن يضيف من عنده جهداً ثلاثى الأبعاد لتنمية قابلياته وتجويد دوره فى العمل الدعوى .

✧ الجهد الأول ✧

التخصص بمعرفة بلد معين من بلاد الإسلام ، أو جالية إسلامية، أو قضية إسلامية حية ، ليكون أحد المراجع فيها ، والسفير المبعوث إليها ، والمتحدث لإخوانه عنها ، والكاتب الصحفى حولها ، كأن يتخصص بأمر الجزائر أو اليمن ، أو بأمر مسلمى الصين ، أو بالقضية الأفغانية ، وهذا باب من الأبواب الواسعة فى خدمة دعوة الإسلام .

✧ الجهد الثانى ✧

التخصص بجانب علمى أو معرفى أو فنى من الجوانب الحضارية ، كأن يمارس صنعة الأدب ، أو ينبش عن آثار ، أو يحلل التاريخ ، أو يتقن التصوير أو يبدع الخط ، أو يحاول التفلسف ، لأن تيار الحضارة يسير عارماً ، ونحن أو أصحاب الجاهلية نمسك زمامه ولئن تخلينا : أخذوا مكاننا ، وهم اليوم يحتلون أكثر الأمكنة ، ولابد أن نزاحمهم ، والخير يزيح الشر ، والدعوة لا تجمع رجالها لتتكاثر بأعدادهم وتفخر بسوادهم ، وإنما لتربيهم وتقذف بهم تارة

أخرى إلى أرض الحياة الواسعة ليحاولوا إصلاح المعوج واستئناف حياة الإيمان ورفع بناء الحضارة الإسلامية الجديدة ، ولابد أن يضع كل نبيل حجراً فى هذا البناء ليشمخ ، ودونه الاختيار والتلون ، ويقسم الله له بعد النية وبذل الجهد ما يشاء .

✧ الجهد الثالث ✧

استلام عمل تنفيذى أو مركز إدارى فى مؤسسة إسلامية ، مثل جمعيات الإصلاح أو لجنة إفريقيا ، أو الهيئة الخيرية العالمية ، أو صناديق الزكاه ، أو مجلة إسلامية ، تطوعاً بلا أجر لمدة سنة مثلاً ، فإن ذلك يعلمه فن التعامل والإدارة ، ويعرف من خلاله طبائع الناس، ويؤدى إلى قوة فى الشخصية ، خبرة واقعية ، وفقه الخدمة فى هذه المؤسسات هو نفس فقه الرحلات والتواجد فى الساحات الساخنة والمكوث الميدانى ، ونحب لإخواننا أن يخرجوا من المجتمع الضيق إلى المجتمع العام ، وأن يملأوا أوقاتهم بخير ، فإن الفراغ مفسدة ووسوسة ، ونعرف شباباً كان يؤخرهم الحياء وتتلف السذاجة بعض عملهم ، توظفوا فى مثل هذه المؤسسات ، فتطور حالهم بشكل سريع ملفت للنظر حتى لكأنهم ليسوا أولئك ، وأصبحوا أكثر نظامية ووعياً ودقة فى العمل ، ونحسب أن الأبواب مازالت مفتوحة أمام أكثر إخواننا لنيل مثل هذا التطور ، والعمل الدعوى فى بعض البلاد بخاصة يفتقر بسبب الظروف الصعبة إلى مثل هذه المؤسسات ، وتبرز اليوم فرصة لمن يقيمون فى بلاد حباها الله بمؤسسات ، أن يتدربوا فيها لينقلوا إلى بلادهم خبرة عزيزة المنال .



التكميل والتسهيل والتقويم والتناسب .. شروط النجاح

هذه هى آفاق سلسلة العمليات التطويرية ، ومن شأن هذا التخطيط - لو نُفِّذ - أن يرفع مستويات المشاركين بإذن الله وتوفيقه وتيسيره ، وأن يحرك عناصر الإبداع والاستواء فيهم ، ليكونوا من صناع الحياة .

لكن النجاح فى التنفيذ والوصول إلى النتيجة المرجوة منوط بشروط عديدة فيها تكميل وتجويد :-

الأول : وجود محور إدارى لكل هذه التشعبات العلمية والعملية ، بحيث تكلف مجموعة ثلاثية مثلاً بوضع الجداول التنفيذية وتعيين حجم الدروس وتواريخها وأماكنها ومدرسيها ، وكذلك الفعاليات الأخرى المحلية والرحلات ، وتحاول أن تسيطر على حركة التطوير وتضبطها ، وتظل تراقب وتحاسب وتنبه الناسى وتسأل عن التوقف ، وكذلك تطبع ما ينبغى طبعه ، وتتولى توزيعه ، وتوفر كتب المطالعة النادرة ، وتوفر المال اللازم وتدقق فى عملية صرفه ، وتراسل العناصر المعنية وتخابر وتبرق ، بحيث أن الثقل الإدارى يرتفع عن كل كاهل المربين .

الثانى : تقديم جوائز تشجيعية للمشاركين بجد واهتمام ، ووضع حوافز ودوافع لبذل مزيد ، فإن الإحسان جزاء الإحسان ، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله تعالى ، والإنصاف يدعو إلى

المكافأة والاعتراف ، ولكن جوائزنا لا تكون مادية وبمقاييس دنيوية وتجارية ، إنما هى سامية بمقدار سمو البذل الدعوى ، كأن نبعث الحريص على تطوير نفسه ، وتطبيق المنهج فى رحلة مجانية إلى مؤتمر متميز أو ساحة ساخنة ليرى ويشافه النبلاء ، أو نزوده بكتب قيمة .

الثالث : تكميل المنهج العام بمنهج خاص للبعض فى مرحلة لاحقة بحسب ما يكلفون به من الأعمال التخصصية ، وعلى الأخص : أولئك الذين سيتولون التربية ، فإنهم بحاجة للتداول فى أمور المنهج وتطبيقه ، وكيفية حل مشاكل الأفراد ، وتقوم المطالعة الشخصية بدور هام فى هذا التكميل إلى جانب تفهيم الأعراف ورواية التجارب .

الرابع : اتباع سياسة فى اختيار الطلاب خلاصتها وشعارها (التساهل والتسهيل) ، بحيث تتوسع الإدارة فى الاختيار ، وتعلق التشدد ، فى محاولة تجريبية لإشراك عدد أكبر وإتاحة فرصة التطور لهم إن كان الله تعالى قد كتب لهم فى القدر الارتفاع ، وقد تخامر الذهن فكرة إطلاق المسألة تماماً وفتح الأبواب على مصاريعها وتطبيق منهج التطوير على كل رجال الصحوة وحملة الأمانة ، تعرضاً لهذا القدر الربانى ، إذ لا ندرى كم من عناصر مختبئة تحت ستار الحياء أو تحت ضغط المشاكل الحياتية يمكنها أن تنتفع وهذا الاحتمال منفعة إيجابية تكاد ترجح جانب الإطلاق والتعميم لولا أن تجاربنا الأخرى تفيد باقتران ذلك بسلبية شوهدت لدى بعض الجدد وأصحاب القابليات الضعيفة إذا سمعوا أحاديث الفكر المتقدم فى فقه الدعوة مما لا يمكنهم استيعابه بسبب قلة تجاربهم أو لأسباب

فطرية ، لأن هذا التنظير يجعلهم يتدخلون بفضول فيما لا يعنيهم من المباحث ، ويقلل فى أعينهم هيبة المربين وقدماء السائرين ، مما جعلنا نميل إلى مواصلة العمل بالعرف الراسخ فى اختيار النخبة وحجب هذا الخير عن البعض عمداً ، رفقاً بهم وانتظاراً لنضوجهم التدريجى من خلال التربية والمعاناة ، وليس لأحد أن يطلب العصمة فى هذا الاختيار ، وإنما هى الفراسة تحكم ، وقد يرد الخطأ فى الاتجاهين معاً ، بأن يرشح داعية وهو دون المستوى المطلوب ، أو يحرم آخر من المشاركة وهو أهل ، ولعل شعار التساهل يقلل هذا النوع الثانى من الخطأ، ويبقى حق الأمراء فى الاجتهاد فى الاختيار أصلاً صحيحاً ، وفى تكثيف التربية تعويض لمن يحرم .

وأما التسهيل فهو المعنى المكمل الذى يجعل المجموعة المختارة أكثر تفاعلاً مع المنهج وعموم فعاليات التطوير ، ونعنى به تسهيل طريق الانسحاب للمرشح إذا كان مستثقلاً للحضور والمشاركة ، أو يظن أن تجاوز هذه المرحلة وله عنها استغناء ، أولا يستطيع الانسجام مع الآخرين ، أو لأسباب أخرى ، وسبب هذا التسهيل أننا نعتقد بأن الوعى لا يأتى بالإكراه ، وأن التبرم والتأفف يفسدان الجلسة ، وقد يضطره ذلك لإعلان زهده بما يسمع فيكون من ذلك التثبيط للآخرين فى مفاسد أخرى ، ولذلك نتوسع فى قبول اعتذار المعتذرين ونهب بضاعتنا للراغب الحريص فقط ، الذى يأتى بنية الاستماع والسؤال والمناقشة ، ويرجع وهو من الشاركين ، وإنما نعنى قبول اعتذار من يزهد بالدراسة كلها ، ولا نسمح له بأن يقبل المشاركة ثم يتغيب جزئياً ويحضر مرة ويغيب مرات ، كحق ممنوح له

ولو بدون عذر قاهر ، فإن هذا النمط من التخلخل يولد اضطراباً للإدارة والمحاضرين والدراسين ، ويغرى بانحلال العزائم وكثرة الترخص ، فمن نوى الصبر فبها ونعمت ، ومن أضمر التقطع فلينقطع ابتداء ، ولينتظر المستقبل ، لعل ظروفه تتحسن وهمته تقوى ، وسيبقى أخاً عزيزاً ، ومن أقبح الجهالة أن يتكبر محاضر أو مشارك على إخوان له فى الصف رشحوا فاعتذروا ، مهما كانت الأسباب .

الخامس : تجزئة رحلة التطوير إلى مراحل ومواسم ، لأن طولها الممتد يؤسس شيئاً من الملل فى النفوس ، ربما ، ولا يستطيع كل أحد الانتظار والصبر ، وخير الحلول : أن تقسم الدراسة إلى أربعة فصول ، وبين كل فصلين راحة ، وتفرد أو تخلط المعارف فى الفصل الواحد تبعاً لأسباب ، وتكون كثافة الدروس وكثافة تنفيذ الفعاليات خلال الفصل الواحد متباينة ، وهذه مسائل تختلف من بلد إلى بلد ، وصيفاً وفى الشتاء ، وتؤثر فيها طبيعة مهن المشاركين ، وعلى أى حال فإن التقسيم إلى فصول ليس هو مجرد تسميتها فصولاً ، وإنما يترجم ذلك فى صورة توزيع للدروس إلى أربع كميات تضبطها جداول تنفيذية متناسقة ومتدرجة .

السادس : ضرورة « التقويم » ووزن المشاركين فى آخر الدراسة، ووصف مدى انتفاعهم ونجاحهم فى الاستفادة من معطياتها ومن الفرصة التى أتيحت لهم ، وهذا التقويم هو عملية لازمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمتابعة الإدارية اليومية ، ويعتبر خاتمة لها وتتويجاً للاهتمام التطويرى ، لكى يجازى المتوكل المحسن وتتاح له مجالات الارتقاء وتسند إليه المهمات ، ولتعاد الكرة مع الكسول

المتـواكل ونتريث فى تكليفـه بشىء ، وليس هذا التـقـويم فى نهـاية الدراسـة فـقط ، بل يجب أن يتم فى نهـاية كل فـصل من الفـصـول الأربعة ، وتوضع معايير للنجاح ودرجات وأوصاف .

لكن الدعوة الإسلامية دعوة أخلاق وتكريم للنفوس ، ولذلك لا يقـاس النجـاح بعـدد ركـعـات وخـتـمـات ، وإنما بآثار تبـدو على الداعية تطبعه بطوابع الرقة والعفاف والحياء والنبل والكرم وخفض الجناح ، وتتـدخل الفراسة فى تقـدير وجود هذه الآثار تدخلاً كبيراً ، وربما ميزت ماهو من التدين الفعلى أو التكلف الذى يدل على بقية كدر فى القلب، وهذه الفراسة حق للمربين لا يمكن أن تنتزعه منهم دعوى متشبه أو مستشرف .

وكذلك الفهم العلمى المعرفى ، لا يقاس النجاح فيه بعدد كتب يطالعها المشارك أو حفظ لنصوص ، وإنما هى لمعة فكرية توجد فيه تفصح عن استعداد للاجتهاد والفهم الحر وتدل على أنه ليس بالمقلد المردد ، وهذه اللمـعة تراها الفراسة إذا لمعت ، وقد لا ينتبه البعض إلى أن جهة من الجهات ليس فيها وميض يدل على قدح ، أو قد لا يلاحظ آخـرون أن ركناً من الأركـان لم تنطلق منه شـرارة تنبى عن استعدادات ثوارة ، ولكن الإمارة بتجربتها قد تنتبه وتلاحظ وترصد علامات الخمـول هذه فتحكم بأحكامها يستغربها الظاهرين ، وحكمها هو من حقها فى الاجتهـاد ، والذهن الحى له اتقاد يبهر الأبصار سناه وله صوت يقرع الألباب صداه .

السـابع : ضـرورة تناسب كـثـافـة الواجـبـات مع ظروف كل مشـارك، فإن كل ناشط مكلف بواجبات كثيرة ، ثم تأتى خطة

التطوير فتضيف عليه مثلها ، فيكون حمله ثقيلاً ، والمفروض أن تراعى الإدارة ذلك فتأمر بما هو فى حدود الاستطاعة ، وتفسر منهج التطّوير بالحسنى ، فإن الإرهاق يولد النتائج العكسية ، وإذا أردت أن تُطاع فلتأمر بالمستطاع .

إن الصاعد الجيد المستوى الذى يعيش ظروفاً عادية يمكن أن يكلف بكثافة ، وأن نلزمه بالعزائم ونقطع عليه طريق الرخص ، ولا بأس بإتعابه ، فإن المعركة تتطلب التعب والسهر ، ولكن آخرين تتعبهم مهنهم ، وعليهم واجبات وظيفية مضاعفة ، وفى ظروفهم العائلية تعقيد ، ومن اللازم أن نخفف عنهم ، وأحيانا تكون الظروف العامة كلها فى بلد من البلدان أصعب من البلاد الأخرى ، وفى هذه الحالة يكون من السائغ التخفيف عن الجميع ، والقاعدة فى ذلك . . أن نفهم أن البذل أصل ، وأن أخذ الدعاة أنفسهم بالشدة واجب ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات ، وتقدر كل ضرورة بقدرها ، ولأولاد الداعيه وزوجه حقوق ، والنفس تشتهى الراحة أحياناً ، وفى إجابتها إلى ذلك مصالح ، وفى التنطع بأس ، والشيطان يفرح بالإفراط والمبالغة فرحه بالتفريط ، ومجازات المواعظ إنما نطلقها للحث وليست هى من المواد القانونية الصارمة ، وليس يصعب على من يتحرى الإنصاف أن يكتشف معانى التعامل النسبى ، وأن يتصلب مع هُمام ويلين مع آخر فى آن واحد ، بحسب ظروفهما واستعداداتهما ، وبين الاثنين ثالث يليق له التوسط والاعتدال .

عرفت .. فالزم ..

وبعد . . فإن هذه الرسالة قد كتبت لتكون بمثابة مقترحات حول كيفية التحضير للتطوير ، ثم لتقرأ كل هذه الوثيقة كلمة بعد كلمة ، مع الشرح على طلاب المدارس الريادية ليعرفوا غايتها ووسائلها ودورهم فى إنجاحها .

إن هذا هو مدى فهمنا لطريق الارتقاء ، وما تخلو خطة من مسحة اجتهادية وطبيعة ذوقية خاصة بمن وضعها ، وتتدخل تجربته الذاتية فى تفاصيلها ، فيفضل أموراً ويحرص عليها إذ يخالفه غيره فى جدواها ، فإذا لمس الأخوة شيئاً من هذا فليتأولوا لنا ، وليحسنوا الظن .

فليمض الجميع فى طريق التطور على بركة الله

ولنبذل وسعنا كلنا وأحسن ما نستطيع .

ولنتفاءل بالخير ، فإن المستقبل لهذا الدين ، كما ميزه السيد مبكراً، وكأن الله ـ جل ثناؤه ـ يريد أن يرحم المسلمين بعد دهر من الظلم والظلام ، ونحن الذين صدحنا بالتباشير فى كل واد فى أول الزمان ، ونظن أنها عند مواطىء أقدامنا ، حيث كان صبرنا ستنزل الرحمة فى آخره .

فلولا أسرع الصعود على سلّم التطور المقدامون ، ودعوا بالسلام لإخوانهم وبرحمة الله وبركاته .

معاً نتطور..



الملحق الأول

✧ كتب للمطالعة خلال عملية التطور ✧

إن تزكية كتاب للمطالعة لا تلزمنا بأن نكفل صواب كل سطر فيه، وإنما نرشح ما غلب صوابه وكان طريفاً في بابه ، وقد زدنا على الكتب المنهجية العرفية السائرة ما يليق للمتميزين ، ولم نكرر إلا أحياناً ، من باب التوكيد ، ونحبذ أن يصور الأساتذة الوثائق والكتب النادرة .

فنقول ـ وبالله الوفيق ـ إن الداعية الذي يدّعي الحرص على التطور يجب أن يحنى ظهوه فوق الكتب الآتية : ـ

الحقل الأول :

✧ في فقه الدعوة.. ✧

(1) مجموعة رسائل العين .

(2) مجموعة مجلة المرتقى .

(3) مجموعة رسائل شروط التوثيق ، السياسات ، القضية والحركة ، تذكرة المربى ، فقه العمل الجماعى ، وربما صدرت ضمن سلسلة العين .

(4) المسار ، وصناعة الحياة   محمد أحمد الراشد .

(5) فقه الدعوة إلى الله ، ووسائل التربية د. على عبد الحليم محمود

(6) توجيهات نبوية على الطريق د . سيد نوح

(7) آفات على الطريق . د . سيد نوح

(8) أسس الدعوة وآداب الدعاة ، والقيادة والجندية محمد السيد الوكيل

(9) فقه الدعوة في إنكار المنكر . عبد الحميد البلالي

(10) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ابن تيمية

(11) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جلال الدين العمري (لاهور)

(12) للدعاة فقط جاسم مهلهل

(13) أين الخلل د . يوسف القرضاوي

(14) مختارات من ممرات الحق .

(15) مختارات من أسس التربية الإسلامية .

(16) الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية فتحي يكن

(17) كيف ندعو إلى الإسلام فتحي يكن

(18) حسن البنا ، مواقف في الدعوة والداعية عباس السيسي

(19) الدعوة إلى الله حب عباس السيسي

(20) الطريق إلى القلوب . عباس السيسي

(21) طريق الدعوة مصطفى مشهور

(22) تساؤلات على الطريق . مصطفى مشهور

(23) الدعوة الفردية مصطفى مشهور

(24) بين القيادة والجندية مصطفى مشهور

(25) قضية الظلم فى ضوء الكتاب والسنة مصطفى مشهور

(26) المصفى من صفات الدعاة عبد الحميد البلالى

(27) مواطن مختارة من الظلال يختارها أهل التجربة وأساتذة التربية

(28) المنهج الحركى فى السيرة النبوية محمد منير الغضبان

(29) الدعوة إلى الإسلام ، مفاهيم وواجبات حسنى أدهم جرار

الحقل الثانى :

✧ فى تاريخ الدعوة ورجالها ... ✧

(30) أحداث صنعت التاريخ محمود عبد الحليم

(31) حقائق وأسرار محمد العدوى

(32) صفحات من التاريخ . صلاح شادى

(33) الشهيدان صلاح شادى

(34) الملهم الموهوب حسن البنا أستاذ الجيل عمر التلمسانى

(35) من المذبحة إلى ساحة الدعوة عباس السيسى

(36) من سجل ذكرياتى محمد محمود الصواف

(37) تاريخ الإخوان فى السودان رسالة ماجستير سودانية

(38) جبهة الميثاق الإسلامى رسالة ماجستير سودانية

(38ب) تاريخ الإخوان فى الأردن .

الحقل الثالث :

✧ الفكر الإسلامى المعاصر ... ✧

(39) خصائص التصور الإسلامى　　سيد قطب

(40) أضواء على معالم فى الطريق　　سالم البهنساوى

(41) الطريق إلى جماعة المسلمين　　حسين على جابر

(42) الجهاد　　محمد نعيم ياسين

(43) المشوق إلى الجهاد　　عدنان الرومى وعلى الهزاع

(44) الاقتصاد الإسلامى　　منذر قحف

(45) الطريق نحو حكم إسلامى　　محمد على ضناوى

(46) موقف العقل والعلم والدين من رب العالمين　　مصطفى صبرى

(47) الإسلام والوعى الحضارى .　　د. أكرم العمرى

(48) الدولة والسياسة فى فكر حسن البنا　　جابر رزق

(49) ميثاق الحركة الإسلامية فى يوغسلافيا .

نشرته دار الشعاع الكويت

الحقل الرابع:

✧ كتب تراثية فى العلوم الشرعية والعقيدة ... ✧

(50) صحيح البخارى ، المتن الكامل له

(51) الاعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار .　　الحازمى

(52) الموافقات . الشاطبى

(53) الرسالة . الشافعى

(54) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل . ابن خزيمة

(55) معيد النعم ومبيد النقم السبكى

(56)إعلام الموقعين عن رب العالمين ابن القيم

(57) الغياثى « فى الأحكام السلطانية » الجوينى (تحقيق عبد العظيم الديب)

(58) الفروق « نظرة عامة فى الكتاب » . القرافى

(59) الأشباه والنظائر . ابن نجيم أو السيوطى

(60) إيقاظ همم أولى الأبصار الفلانى

الحقل الخامس :

✧ بحوث معاصرة فى الفقه والأصول والعلوم الإسلامية ✧

(61) المدخل إلى الشريعة . د. عبد الكريم زيدان

(62)الوجيزفى أصول الفقه . د. عبد الكريم زيدان

(63) التفسير والمفسرون . د. محمد حسين الذهبى

(64) الحديث والمحدثون . د. محمد أبو زهو

(65) تاريخ الفقه الإسلامى د. عمر الأشقر

(66) أسباب اختلاف الفقهاء على الخفيف

(67)مجموعة من بحوث فقهية ، القسم د. عبد الكريم زيدان

الأول منه حول أسباب الاختلاف

(68) الوجيز فى القواعد الفقهية د. محمد البورنو

(69) مقاصد التشريعة الإسلامية . محمد الطاهر بن عاشور

(70) القواعد الفقهية . على الندوى

(71) أثر الاختلاف فى القواعد الأصولية د. مصطفى الخن
فى اختلاف الفقهاء

(72) التعارض والترجيح عند الأصوليين د. محمد الحفناوى
وأثرهما فى الفقه .

(73) سلسلة الأحاديث الضعيفة . محمد ناصر الدين الألبانى

(74) الإمامة العظمى عند أهل السنة عبد الله بن عمر الدميجى
والجماعة.

(75) تولية الإمام بين النظرية والتطبيق . على بن فهد الدغيمان
(رسالة دكتواره)

(76) عزل الإمام بين النظرية والتطبيق . على بن فهد الدغيمان
(رسالة ماجستير)

(77) مقدمة كتاب فقه العبادات . فيصل مولوى

الحقل السادس :

✧ تزكية النفس... ✧

(78) تهذيب مدارج السالكين . ابن القيم

(79) مناجاة على الطريق . مصطفى مشهور

(80) صيد الخاطر . ابن الجوزى

(81) تلبيس إبليس . ابن الجوزى

(82) نفائس الحُلة فى التآخى والخُلة . عدنان الرومى وعلى هزاع

(83) البيان فى مداخل الشيطان . عبد الحميد البلالى

(84) واحات الإيمان . عبد الحميد البلالى

(85) أيها الولد . الغزالى د/ على القره داغى

(86) ديوان أبى العتاهية .

الحقل السابع :

✧ فى معرفة البدع... ✧

(87) الاعتصام . الشاطبى

(88) فقه الإمامية الإثنى عشرية . د. على السالوس

(89) الإمامة عند الجعفرية . د. على السالوس

(90) آية التطهير . د. على السالوس

(91) الثورة الإيرانية فى ميزان الإسلام . محمد منظور النعمانى

(92) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة ابن تيمية

أصحاب الجحيم .

الحقل الثامن :

✧ التاريخ الإسلامى ... ✧

(93) مناقب الإمام أحمد بن حنبل — ابن الجوزى

(94) نور الدين محمود . — د. عماد الدين خليل

(95) عماد الدين زنكى . — د. عماد الدين خليل

(96) محمد الفاتح . — محمد الرشيدى

(97) كيف هدمت الخلافة . — عبد القديم زلوم

(98) تاريخ الدولة العلية العثمانية . — محمد فريد

(99) تاريخ الدولة العثمانية . — د. على حسون

(100) السلطان عبد الحميد الثانى . — أورخان محمد على

(101) احتلال الروس للقفقاس . — جون بادلى

(102) جهاد واستشهاد بقيادة الإمام شامل . — محمد حامد

(103) فى التفسير الإسلامى للتاريخ — د. نعمان السامرانى

(104) جمعية العلماء المسلمين الجزائزيين ودورها . — مازن صلاح مطبقانى

(105) صحوة الرجل المريض . — موفق بنى المرجه

(106) فجر الأندلس . — حسين مؤنس

الحقل التاسع :

✧ الأدب واللغة ... ✧

(107) حيازة المعجم الوسيط وإكثار الرجوع إليه . . أو مختار الصحاح

(108) البيان والتبيين . الجاحظ

(109) الإمتاع والمؤانسة . أبو حيان الوحيدى

(110) الأمالى . أبو على القالى

(111) سر الفصاحة . ابن خفاجة

(112) وحى القلم . الرافعى

(113) القوس والعذراء محمود محمد شاكر

(114) أباطيل وأسمار . محمود محمد شاكر

(115) ديوان مع الله . الأميرى

(116) ديوان ألوان الطيف الأميرى

(117) أناشيد الصحوة الإسلامية . أحمد محمد الصديق

(118) ديوان قادمون مع الفجر ، أحمد محمد الصديق

(119) نشيد طلائع النور . منوعات أبى دجانة وغيره

(120) الأدب الإسلامى ، إنسانيته وعالميته . د . عدنان النحوى

(121) من بديع لغة التنزيل . د . إبراهيم السامرائى

الحقل العاشر :

✧ فى الفكر السياسى والتاريخ السياسى ✧

(122) الاتجاهات السياسية المعاصرة فى العالم د . مجيد خدورى العربى .

(123) سيرة ذاتية . شكيب أرسلان

(124) حاضر العالم الإسلامى . د . على جريشة

(125) الحرب النفسية . د . أحمد نوفل

(126) شخصيات عربية د . مجيد خدورى

(127) الاتجاهات الوطنية فى الأدب العربى المعاصر . د . محمد محمد حسين

(128) أعمدة الحكمة السبعة . لورنس

(129) مذكرات تشرشل .

(130) مذكرات ديغول .

(131) نظرة فى الأرشيف اليومى للثورة الإيرانية ودولتها ، المستل من الصحف ، مع نظرة فى أرشيف الحرب العراقية الإيرانية ، وأرشيف احتلال الكويت وحرب الخليج

*** ويضيف الحريص عدداً من الكتب عن التاريخ السياسى فى قطره، وعن رجال السياسة والأحزاب فيه، ومذكراتهم .

الحقل الحادى عشر :

✧ منوعات..... ✧

(132) المقدمة . ابن خلدون

(133) الاستشراق . ادوارد سعيد

(134) مع المخطوطات العربية . كراجو فسكى

(135) مقدمة فى منهج الإبداع . زهير المنصور

(136) آراء فى الحرب ، الاستراتيجية وطريق القيادة . أكرم ديرى

(137) ثقـافـة الداعـيـة . د. يوسف القرضاوى

(138) الثقافة الإسلامية فى الهند . عبد الحى الحسنى

(139) الأخيضر والقصر البلورى فى رفعة الجادرجى ، فن العمارة . نشرته دار رياض الريس ، لندن

مع أى كتاب فى طرائق ومنهجية البحث العلمى .

الحقل الثانى عشـر :

✧ مشاهدة أشرطة الفيديو والسينما الآتية... ✧

عمر المختار - الرسالة - الشيخ ضارى (فيلم عراقى) - سيدى بو عمامة (فيلم جزائرى) - غاندى - الحرب والسلام لتولستوى - أرض الزولو - الحرب الأهلية الأمريكية - حرب الأفيون فى الصين - معركة نورماندى - برنامج اسألوا لبيبة العلمى - سلسلة سقوط امبراطورية - معركة فوكلاند - الثورة الإيرانية - الحرب العالمية الأولى - الحرب العالمية الثانية - فيلم وكالة ناسا عن الفضاء . . . . وأمثال ذلك .

الملحق الثاني

✧ محاضرات التطوير المفترضة خلال مدة سنتين ✧

قد تلقى محاضرتان فى ليلة واحدة أوثلاثةفى يوم كامل ويقوم بإعداد المحاضرة وإلقائها داعية مجرب قديم ، أو صاحب تخصص . .

الحقل الأول:

✧ فى فقه الدعوة والعمل التربوى ... ✧

(1) مقالة معاً نتطور . . كمقدمة لآفاق التطوير ومنهجيته ، مع شرح من أستاذ مجرب .

(2) منهجية التربية الريادية ، ويكون ذلك فى المحاضرات الثانية لتعلق المعانى بالمقدمة .

** وأما بعد هاتين المحاضرتين فيجوز التقديم والتأخير والدمج .

(3) معالم تطور الدعوة .

(4) مستقبل الدعوة بين المعاناة والطموح وعلى ضوء مناقب تاريخها

(5) ظاهرة تسرب الضعفاء .

(6) شرح توجهات المنهج وكيفية تطبيقه .

(7) قراءة وثائق دعوية هامة ، والتعقيب عليها ، مثل اللائحة العالمية ، وميثاق حماس .

(8) الخلل فى حياة الداعية وكيفية الرجوع إلى المعانى الأساسية فى الدعوة .

(9) القواعد الفقهية وأثرها فى المواقف .

(10) ببلوغرافيا فى فقه الدعوة وتاريخها ورجالها ، مع تقويم للكتب .

(11) تعقيبات على كتب مثل كتاب الأستاذ البهنساوى عن فكر سيد قطب ، وكتاب الأستاذ صلاح شادى عن الشهيدين ، وكتاب الأستاذ محمد قطب عن واقعنا المعاصر ، ودحض هذه الكتب لفرية التطرف .

(12) تعقيبات على جملة كتاب ورسائل قديمة نادرة : (نحو جيل مسلم - البرنامج - المؤتمر السادس)

(13) تعقيبات على كتاب : وسائل التربية للأستاذ على عبد الحليم محمود .

الحقل الثانى :

✧ فى التخطيط والإدارة .... ✧

(14) مقدمة فى علم الإدارة والتخطيط .

(15) مدارسة رسالة : ومضات فى التخطيط ، وستصدر ضمن العين .

(16) التخطيط الاستراتيجى وطريقة دلفى فيه وطرق أخرى .

(17)صناعة القرار فى ضوء علم الإدارة .

(18) كتابة التقارير وفنونها وأنواعها ، ورسم الكرافات ، والدراسات الميدانية والإحصاء والتوثيق ، وإمكانات الكمبيوتر فى ذلك ، وعموم تقنيات الإدارة .

الحقل الثالث:

✧ دراسات شرعية.... ✧

(19) تعريف صحيح البخارى وأهميته وموارده ، مع إلمامة بعلم رجال الحديث .

(20) دراسة نقدية سريعة لبقية كتب الحديث وشروحها .

(21) نبذة عن تاريخ الفقه الإسلامى والمذاهب وأجيال العلماء وفقهاء اليوم .

(22) التصوف القديم ، ماله وماعليه ، تراجم وأقوال ، مع مقارنة بالتصوف العالمى الجديد .

(23) ببلواغرفيا إسلامية واستعراض لأهم المصادر فى الدراسات الشرعية .

(24) منهج الاعتدال فى فهم العلوم الإسلامية ، وكلام عن السلفية والخلفية ، والاجتهاد والتقليد ، ومدرسة ابن تيمية ، والآثار الاجتماعية والسياسية ، والحضارية لكل ذلك ، مع مقارنة منهج الاعتدال بفكرة الإسلام العصرى وبمنهج أسلمة العلوم .

(25) التراث الإسلامى والمخطوطات وجهود تحقيقها وأهم مانشر مؤخراً .

(26) التشيع عقيدة وفقهاً .

الحقل الرابع :

✧ الفكر الإسلامى والفكر العام ... ✧

(27) منهجية التفكير والأداء .

(28) كيف تبنى ثقافتك الإسلامية .

(29) تفهيم لنظرات سيد فى خصائص التصور الإسلامى .

(30) الفكر الإسلامى المعاصر بعد سيد قطب .

(31) قضية الحكم عند السلف وفكر التكفير .

(32) فكر اليسار الإسلامى : محمد أحمد خلف ، محمد عمارة ، محمد جلال كشك .

(33) فكر الداخلين فى الإسلام : محمد أسد ، جارودى ، موريس بوكاى .

(34) الاستشراق كفكر وسلطة سياسية .

(35) كتب عالمية مفيدة فى المعرفة الإنسانية العامة والحضارة .

(36) مقدمة فى الفلسفة القديمة وتاريخها .

(37) مقدمة فى الفلسفة الحديثة .

الحقل الخامس :

✧ السياسة والفكر السياسى .... ✧

(38) سياستنا الخارجية بين الغاية والوسيلة . . محاولة تأصيلية .

(39) قواعد فى التحليل السياسى وفهم المتغيرات .

(40) الوضع العربى السياسى الراهن ، حقائق وتحليلات وتوقعات .

(41) القضية الفلسطينية والصلح

(42) مقدمة فى الاقتصاد السياسى .

(43) اقتصاد النفط والأوبك والأوابك .

الحقل السادس :

✧ حاضر الدعوة وطبائع المحيط... ✧

(44) تاريخ الدعوة بمصر وحاضرها ومحاولة لفهم الساحة المصرية إسلامياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً .

(45) تاريخ الدعوة فى السودان وحاضرها وفهم ساحة السودان .

(46) مشكلة جنوب السودان وأوضاع المسلمين والدعوة فى تشاد وأوغندا والحبشة والصومال .

(47) تاريخ الدعوة فى فلسطين والأردن وحاضرها ووصف الأرض المحتلة واليهود .

(48) تاريخ الدعوة فى لبنان وحاضرها والمشكلة اللبنانية وأطرافها .

(49) تاريخ الدعوة فى سوريا ووصف سوريا .

(50) تاريخ الدعوة وحاضرها فى اليمن الشمالى والجنوبى ووصف الساحة اليمانية .

(51) تاريخ الدعوة وحاضرها فى الخليج ووصف الخليط سياسياً واجتماعياً ، مع موجز عن السياسات النفطية .

(52) تاريخ الدعوة وحاضرها فى شمال إفريقيا ووصف الأحوال السياسية والاجتماعية .

(53) تاريخ الدعوة فى العراق ووصف أحوال العراق وأحزابه ، وآثار الحرب العراقية الإيرانية وحرب الخليج .

الحقل السابع :

✧ العالم الإسلامى والجاليات ... ✧

(54) الساحة التركية إسلامياً وسياسياً .

(55) الجماعة الإسلامية فى باكستان والبنغال ، وخفايا السياسة فيهما وتعريف بجماعة التبليغ .

(56) العمل الإسلامى فى ماليزيا وأندونيسيا وجنوب تايلاند وجنوب الفلبين ، ووصف لهذه البلاد وواقعها السياسى والاجتماعى والاقتصادى .

(57) إيران الشيعية وإيران السنية ، تعريف مذهبى واجتماعى .

(58) النشاط الإيرانى فى العالم خارج إيران .

(59) الثورة الإيرانية . . جذورها ، تنفيذها ، تطورها ، مع تعريف بالواقع السياسى فى إيران وتوقعات مستقبلية .

(60) وصف الهند ومناطقها وأحوال المسلمين فيها وتاريخهم .

(61) وصف إفريقيا السوداء وأحوال المسلمين فيها وتاريخهم .

(62) وصف حياة المسلمين تحت الحكم الشيوعى ومرحلة تفكك الاتحاد السوفيتى .

(63) وصف حياة الجاليات الإسلامية ومشاكلها فى أمريكا وكندا وأمريكا الجنوبية ، والمراكز الإسلامية ، والعمل الدعوي فيها .

(64) قصص عن العلماء فى العالم الإسلامى من القدماء والمعاصرين وطرائف ، وبيان أدوارهم.

الحقل الثامن :

✧ المؤسسات الإسلامية... ✧

(65) تعريف بالهيئة الخيرية العالمية فى الكويت ونشاطها والعقبات أمامها ، وبالمؤسسات السعودية ، مثل رابطة العالم الإسلامى والندوة العالمية للشباب .

(66) تعريف بلجنة إفريقيا فى الكويت ونشاطها ، ولجنة آسيا ، وتحديات مجلس الكنائس العالمى .

(67) تعريف بجمعيات الإصلاح فى الخليج وسياساتها ورجالها ومقترحات لتطوير أدوارها .

(68) البنوك الإسلامية ، مالها وماعليها ، ومقترحات لتطويرها .

الحقل التاسع :

✧ فى التاريخ.... ✧

(69) صراع السنة والبدعة خلال التاريخ الإسلامى مع تركيز على أخبار محنة الإمام أحمد .

(70) تحليل لفترة آل زنكى وصلاح الدين الأيوبى .

(71) تحليل لسيرة محمد الفاتح وخطة فتح القسطنطينية ، وفلسفة التاريخ العثمانى .

(72) تاريخ التشيع فى صدر الإسلام والزمن البويهى ، ودور الدولة الفاطمية والحكم الصفوى ، وأخبار القرامطة ، وشيعة الأحساء والبحرين واليمن والهند .

(73) سير إسلامية من العصر الحديث : شكيب أرسلان ، البشير الإبراهيمى ، الفضيل الورتلانى ، محيى الدين القليبى ، علال الفاسى ، عبد الوهاب عزام ، محمد يوسف موسى ، محمد الخضر حسين ، الطاهر بن عاشور، وأمثالهم.

الحقل العاشر:

✧ منوعات... ✧

(74) فن الإعلام الإسلامى .

(75) الانعكاسات النفسية لجماليات فن العمارة الإسلامى والعالمى (القديم والحديث) على اختلاف المدارس العمرانية

(76) فن استعمال المكتبات ، وأهم المكتبات والكتب ، وذكر مراكز البحوث العالمية ودور الوثائق .

الحقل الحادى عشر :

✧ الندوات... ✧

وتعقد بين عدد من طالبى التطور ، لتمرين أنفسهم ، أو يدعى لعقدها أصحاب التخصص وينصت لهم ثم توجه لهم الأسئلة .

(78) ندوة حول الحرب العراقية الإيرانية : الجذور والمحركات- ثوابت فى فهم العلاقة الإيرانية العراقية- سير المعارك- وأهم فصول الحرب- موقف الدول الأخرى- السلام- آثارها .

(79) ندوة حول احتلال العراق للكويت وحرب الخليج وآثارها .

(80) ندوة حول الآفاق المستقبلية للعمل الفلسطينى .

(81) ندوة حول القضية الأفغانية : المقدمات ، تضخم المشاركة الجهادية ، تعدد المنظمات ، الأخطاء والسلبيات وضعف التخطيط ، أدوار الباكستان وإيران ، خطة الانسحاب الروسى الانهيار الشيوعى والخطة الأمريكية ، فراسة فى المستقبل .

(82) ندوة حول ظاهرة الفتور ، وأسباب الجدية فى العمل الدعوى .

(83) ندوة حول لوازم المشاركة فى العمل النقابى وفوائده وسلبياته .

(84) ندوة حول الأدب ودوره فى تطوير الدعوة والداعية ، مع موازين فى فهم الساحة الأدبية وتذوق الأدب ، وإيراد نصوص مختارة.

✧ أيها القارىء الكريم ✧

إن سلسلة رسائل العين تصدرها دار المنطلق لتمنحك موازين الفقه الدعوى .

وقد صدر منها :ـ

* نحو المعالى . . . . . لمحمد أحمد الراشد

* ربانية التعليم . . . . . لعبد الله يوسف الحسن وتعقيب الراشد.

* التقويم الدعوى . . . . لعبد الله يوسف الحسن .

ـ فهل اقتنيتها لتكتمل مجموعتك ؟ .

ـ وهل أهديت أصحابك نسخاً منها ؟ .

ـ وهل بعثت نسخاً أخرى لدعاة فى بلاد بعيدة لايصلها الكتاب الإسلامى بسهولة .

بادر إلى ذلك وانتظر ضمن السلسلة :ـ

الإيجابية فى حياة الداعية . . . . لعبد الله يوسف الحسن .

فضائح الفتن . . . . لمحمد أحمد الراشد .

تقرير ميدانى . . . . لمحمد أحمد الراشد .

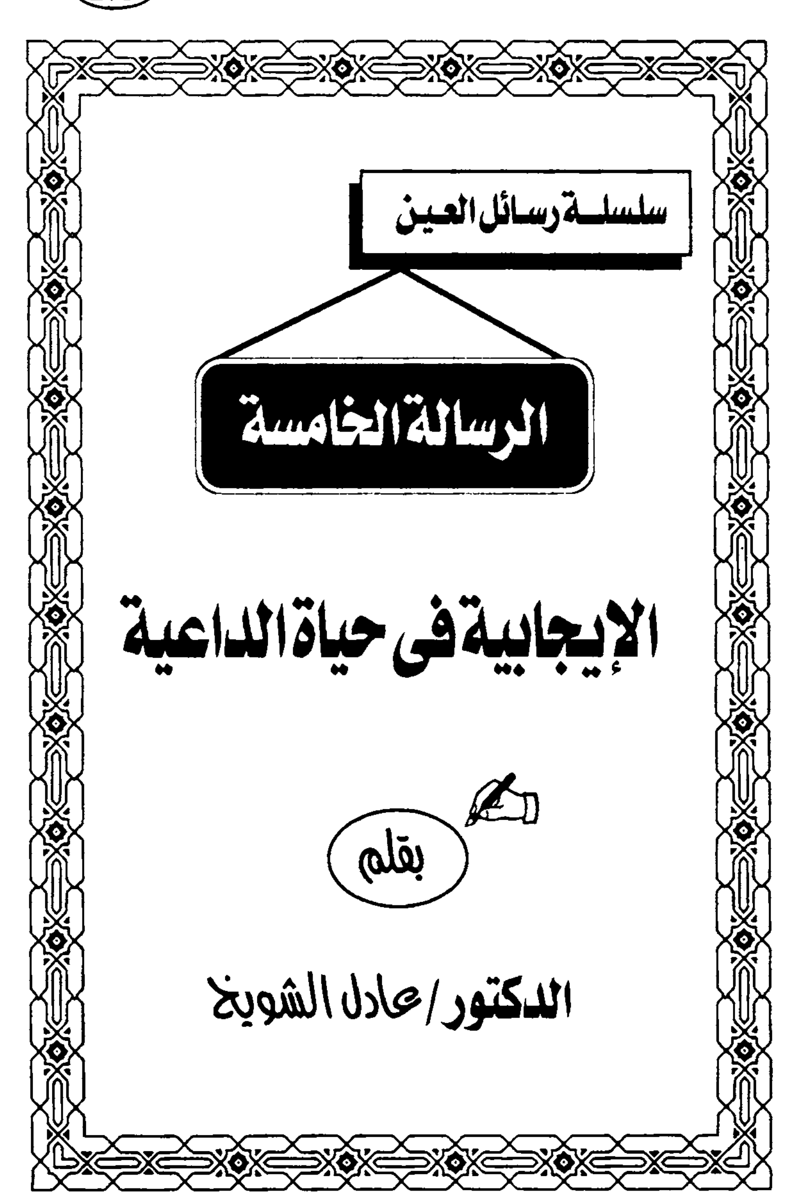
** وسارع إلى اقتناء الجديد فى إحياء فقه الدعوة :

المسار . . . . لمحمد أحمد الراشد .

صناعة الحياة . . . . لمحمد أحمد الراشد .

** واحرص على طبعة دار المنطلق لمواعظ تهذيب مدارج السالكين

** وزين جدار البيت أو المدرسة كل أسبوع بحديث ولمدة سنة كاملة من مجموعة الهدى النبوى الكريم التى اختارها لك محمد أحمد الراشد وأصدرتها دار المنطلق بألواح كبيرة .



سلسلة رسائل العين

الرسالة الخامسة

الإيجابية فى حياة الداعية

بقلم

الدكتور / عادل الشويخ

* الداعية الإيجابى . . . .

مسلم ذو قبضة حديدية .

* يقول : ينبغى أن يكون هذا . . . .

بعزمٍ . . وحزمٍ . . وإرادةٍ لامعة . . .

فيكونَ بإذن الله . . .

* إذا قال : . . . . فَعَل . . . .

وإذا نوى : . . . . . اقتحم . . . .

* وله ميراثٌ من يحيى عليه السلام لما قيل له :

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [سورة مريم :12]

* وهو كتاب الإيمان عنده . . . .

وسطر الحضارة . .

وحرف التمدن . . .

بغلاف العلم . .

* فيأخذ صُعُداً فى طريق الإبداع .

ويبتكر . .

ويبادر . . .

* ويكون إبداعُه كثير التنوع ، لايحدّه إطار ، وإنما هو واسع . . . سعة الزمان والمكان . . .

* ويضيف الطارف الجديد . . . إلى الشامخ التليد . . .

الإيجابية فى حياة الداعية

لقد قادت المناهج التربوية ـ فى بعض المجموعات الدعوية ـ ومن خلال الممارسة المستمرة ، وحسن الأداء ، والمراقبة ، إلى تثبيت وترسيخ بعض المفاهيم التربوية بشكل جيد ، ولعل أحد أكثر هذه المفاهيم شيوعاً واستقراراً وتفهماً مفهوم الطاعة فى المنشط والمكره ، وأدى ترسخ هذا المعنى إلى وحدة الصف ، ودفع بعض آثار الفتن ، وتفويت الفرص أمام الحركات الضرارية ، كما أدى الالتزام به إلى إتقان تنفيذ متطلبات الحركة ، وضمان استمرار حركتها ، رغم أن الحاجة لاتزال مستمرة لتوضيح هذا المعنى ، والتأكيد عليه من خلال الكتابات الدعوية ، ومن خلال المراجعة الدائمة لما كتب فيه .

ولكن لابد فى الوقت نفسه ، من مناقشة مسألة قد تترافق مع هذا المفهوم الجيد والواضح ، إذ أن بعض الممارسات الخاطئة والمبالغة فى فهم الطاعة بمفهومها الضيق ، دون أن تترافق بمفهوم (السمع) الذى يعنى التفهم والإدراك والوعى ، والذى غالباً ما يرد فى النصوص الشرعية مع الطاعة ، قد أدى إلى ظهور سلبية كبيرة ألا وهى اعتماد الدعاة فى عملهم وتنفيذاتهم اعتماداً كلياً على الخطط وأن تكون جميع أعمالهم مرهونة بما يصدر إليهم من توجيه ، دون الاعتماد على أنفسهم فى إيجاد منافذ العمل ، أو اتخاذ زمام المبادرة إلى الحركة والعطاء ، وإنما اتخاذ الموقف الانسحابى وانتظار تنفيذ الأوامر فحسب .

إن هذه السلبية فى الدعاة تحتاج إلى مناقشة ودراسة ، لأنها أصبحت تشكل عائقاً فى طريق العمل ، وأحد أسباب الفتور الواضحة ، ولا يمكن أن يقتصر تعليلها على رواسب التربية الخاطئة بمفهوم الطاعة المجردة ، رغم أن من المؤكد أن بعض الممارسات التربوية لها أثر فى حصول هذه السلبية ، إضافة إلى تأثير مجموعة أخرى من العوامل ، لعل منها ضعف القابليات الفطرية ، والمناهج التربوية المدرسية القاصرة فى مدارس العالم الإسلامى التى لاتساعد على تفجير الطاقات الإبداعية ، مع عدم توفر الدوافع النفسية والمادية ، وجنوح الفرد ـ فى المجتمعات الشرقية ـ إلى الانزواء والكسل ، وغير ذلك من العوامل التى تشكل بمجموعها أثراً نفسياً بالغاً فى تكوُّن النفس السلبية .

مفاهيم خاطئة

ولايخفى كذلك عامل إدراك المربين لمفهوم (التقوى) بطريقة خاطئة ، ليست على منهج السلف ، فالإيماء الذى تتركه بعض كتب التصوف ، وارتباط فكرة الخمول والانسحابية بالتقوى ، أو تصور ارتباط الورع بمقدار الابتعاد عن مظاهر الشهرة ، أو التأثر ببدعة الإرجاء ، قد انعكس بعض ذلك على بعض الدعاة بشكل بيِّن فى سلوكهم ، حتى جاء مفهوم الطاعة ليركز هذا المعنى ، فيؤدى إلى اعتماد الدعاة اعتماداً كلياً على مربيهم فى تنفيذ الواجبات الدعوية أو فى قضايا التخطيط ، وبالتالى تقلصت الجهود الفردية

إلى أقصى حد ، أو كادت تتلاشى القدرات الإبداعية فى الدعاة ، فصار لزاماً بحث هذا الأمر كظاهرة دعوية ، وإيجاد الحلول لها ، وقد يزداد نمو الظاهرة ، كما تزداد خطورة المسألة مع مرور الزمن ، وخصوصاً عند غياب العناصر القديمة ، وتوسع العمل ، والحاجة إلى أنماط جديدة من النشاط تحتاج إلى مزيد من العناصر الحية المبدعة ، وكذلك فإن توسيع قاعدة الجماعة ، وتغير ظروف العمل ، وامتداد الصحوة الإسلامية ، وتباين أنماط التحرك ، كلها تقود - بالضرورة - إلى أهمية الاعتناء بتربية الجانب الإيمانى فى نفس الداعية ، وتنمية روح الإبداع الخاص ، واستلهام زمام المبادرة إلى الأعمال المثمرة دون انتظار الأوامر والركون إلى الدعة اعتماداً على الخطط وحدها .

فردية التكليف

إن أول دوافع الإيجابية التى يجب أن يتذكرها الداعية هو أن مناط التكليف فردى ، وأن كل فرد سيحاسب يوم القيامة فرداً ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن كان المرء يحاسب عن عمله فى الجماعة ، وبعض التكاليف لا تتم إلا بجماعة ، أو من خلال تجمع جماعى ، ولكن الحساب بالثواب والعقاب لا يكون إلا فردياً ، ومن الإيمان بهذا المنطلق يجب أن ينحصر تفكير الداعية فيما يجلب له الأجر ، ويقربه إلى الطاعة ، دون أن يكون تبعاً ، وأن يمتلك زمام المبادرة إلى الطاعات دون الالتفات إلى عمل فلان أو قول فلان ،

ولا يجب أن تقعده نشوة الطاعة ، ولاتثبطه أثقال المعصية ، ولا ينتظر الإذن بالعمل من شخص ما ، إلا ما كان جزءاً من خُطة ، بل يفكر الداعية بنفسه أنه سيحاسب يوم القيامة عن أعماله ، وعمّا قدّم ، ولا يسأل عن الآخرين ، كما أن عليه أن لايرنو ببصره إلى غيره ، فقد يكون لهم من الأعذار ما يمنعهم عن شيء ما ، أو ليس لهم من الهمة والطاقة ما يمكنهم من أداء عمل ما ، ويستطيع هو أداءه ، فلا يثبطه الشيطان ، أو تقعد به ثقلة الحياة الدنيا ، والداعية ـ بنفس الوقت ـ عليه أن ينصِّب رسول الله ـ ﷺ ـ قدوة عملية أمام عينيه ، ولا يجعل الأشخاص الآخرين ـ أياً كانوا ـ مثالاً له ، فقد يفتح الله عليه من الهمة أكثر من الآخرين ، أو يوفقه الله ـ تعالى ـ إلى عمل يتفرد به ، أو إلى فضل يؤثره فيه ، فلله فى خلقه شؤون ، وهو المتفضل على عباده ، وقد يختص برحمته من يشاء وكيفما يشاء .

لا تكلف إلا نفسك

لقد توارد معنى الإيجابية ، وتكرر فى القرآن الكريم بصور شتى وأساليب متنوعة ، ليتركز مفهوم فردية التكليف ، وبالتالى ذاتية العمل ، وما ينعكس عن ذلك من تثبيت مفهوم الداعية فى العمل والمثابرة ، ومنها أوضح آية فى كتاب الله ـ تعالى ـ تحدد معنى الإيجابية ، ألا وهى قوله تعالى :

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ . . . . . ﴾ (1) .

والمعنى واضح فى أمر الله تعالى لنبيه فى عدم تكليف أحد إلا نفسه ، وأن لا ينتظر إعانة من أحد ، رغم أن المعلوم من الشريعة أن الأمة كلها مكلفة بالجهاد ، ولكن المعنى أن يفترض كل مسلم من الأمة ـ والقدوة فى ذلك نبيها ـ ﷺ ـ أنه وحده المكلف بالأداء ، وأن الله قادر على نصره ، وينحصر واجبه فى تحريض المؤمنين .

(كأنَّ هذا المعنى : لا تدع جهاد العدو ، والاستنصار عليهم للمستضعفين من المؤمنين ، ولو وحدك ، لأنه وعده بالنصر . . .

قال الزجّاج : أمَر اللهُ تعالى رسوله ـ ﷺ ـ بالجهاد ، وإن قاتل وحده ، لأنه قد ضمن له النصرة .

وقال ابن عطية : هذا ظاهر اللفظ ، إلا أنه لم يجىء فى خبر قط ، أن القتال فرض عليه دون الأمة مدة ما ، فالمعنى ـ والله أعلم ـ أنه خطاب له فى اللفظ ، وهو مثال ما يقال لكل واحد فى خاصة نفسه ، أى أنت يا محمد وكل واحد من أمتك القول له : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (2) ، ولهذا ينبغى لكل مؤمن أن يجاهد ولو وحده ، ومن ذلك قول النبى ـ ﷺ :

« والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتى » .

---

(1) سورة النساء : (84) .

(2) سورة النساء : (84) .

وقول أبى بكر ـ وقت الردة ـ : « ولو خالفتنى يمينى لجاهدتها بشمالى . . . » (1) .

فلينظر ـ بتأمل ـ لاستنباط القرطبى (رحمه الله) أن يجاهد المسلم ـ ولو وحده ـ اقتداءً برسول الله ﷺ ـ ، وما أدركه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ للإيجابية من خلال النصوص .

موقف من هدهد

ولعل كذلك إحدى الصور البليغة التى يستشهد بها من القرآن الكريم قصة الهدهد مع نبى الله سليمان ـ عليه السلام ـ ، إذ يبرز مفهوم الإيجابية واضحاً . . إذ كيف سار الهدهد بمفرده دون تكليف مسبق ، أو تنفيذ لأمر صادر ، وجَلَبَ خبراً للقيادة المؤمنة أدى إلى دخول أُمة كاملة فى الإسلام ، وبالطبع فإن تَفَقُّد الأمير للأتباع ، وأخذه الأمر بالحزم ، ثم المحاسبة ، وتبين العذر . . كل ذلك من أسس الإدارة ، وقواعد التخطيط ، ومناهج التربية ، وقد وصف القرآن الكريم عمل هذا الهدهد بقوله :

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (2) .

---

(1) تفسير القرطبى 5 / 393 .

(1) سورة النمل : (23:22) .

وبالطبع ، فلا يعنى الاستدلال : الحرص على التسيب ، وإنما المقصود الأخذ بمعنى الإيجابية الهادفة بضوابطها ، دون الخروج على أهداف الجماعة ووسائلها ، أو مبادئها العامة ، أو أن تكون على حساب الأوامر والأعمال الراجحة ، وما إلى ذلك مما هو معلوم ، بل وإن نفس القصة لتدل على ذلك حيث سمة اليقظة والدقة فى العمل وتفقد الأفراد والحرص عليهم ، وضرورة الطاعة والمحاسبة عليها ، ثم الحزم القيادى وعدم التسيب فى معالجة الأمور ، ثم الإصغاء للأتباع ومعالجة المواقف ، وغير ذلك مما هو ليس مجال الاستدلال له ، ولكن الاستدلال لطبيعة الهدهد صاحب الذكاء والوعى والإدراك والإيمان ، حيث استغل فرصة ما ليبلغ خبراً مهماً ، حرصاً منه على تبليغ الرسالة ، وطمعاً فى نشر التوحيد ، مع براعة فى حسن الأداء ، وجودة العرض ، وشجاعة الاعتذار .

وما اختيار القصة إلا للاستدلال بها ، كى يؤخذ من ثناياها ثلاثة أمور يستنبط بالأدنى منها على الأعلى :

* فالداعية أولى من الهدهد بالعمل الإيجابى ، والسعى وراء المصالح ، والبحث عن الخير ، فما من أفضلية خاصة لهذا الطائر الاعتيادى ، إذا تجاوزنا الإسرائيليات أو المبالغات التى لاتسندها النصوص ، والمؤمن الداعية أدعى أن يقوم بالعمل المثمر ، دون انتظار أوامر أو تعليمات من الأمير .

* والنظر إلى قيادات العمل الإسلامى فى عدم توقعها القيام بكل الخطط ، وتوجيه جميع الأوامر أولى ، فهذا نبى الله المؤيد بالوحى من جهة ، وسُخرت له الجن والطير ، لم يكن قادراً على

الإحاطة بجميع الأمور ، ولم يكن ملماً بجميع المعلومات ، فاحتاج إلى معلومة صغيرة ، من طائر صغير ، فكانت إيجابية التابع عوناً لعمل الأمير .

* وكذلك يستدل بالعمل الصغير ـ كنبأ ومشاهدة قوم يعبدون الشمس من دون الله ـ للاهتمام بما هو أكبر من ذلك ، وقد تقوم إيجابية الداعية بجلب منافع أكبر من الأخبار ، وأهم من الشواهد .

وهكذا يستدل على التابع والمتبوع ونوع العمل من قصة الهدهد لاستلهام ما ينبغى أن يكون عليه الواقع الدعوى ، من إيجابية الدعاة ، وعدم الاعتماد ـ فى كل أمر ـ على الأمراء ، مع تنوع الأعمال ، وعدم استصغار ما دقَّ منها .

القاعد المغبون

وعلى المسلم الكسول أن يتذكر دوماً أنه مغبون ما دام فى صحة وعافية وعنده رزقه ، وأن لايفوت شيئاً من أوقاته ، أو يضيع عمره سدى ، لأن كلاً من صحته وفراغه رأس ماله فى الحياة الدنيا ، وعليه أن ينفقهما ـ فى سبيل الله ـ طلباً لربح الآخرة ، وإلا فاته الوقت ، وأدركه المرض المانع ، أو الهَمّ القاطع ، وترك الإيجابية فى العلم ، أو زمام المبادرة ، وهو منتهى الكسل ، وتمام الفتور ، والسلبية ـ فى أحسن حالاتها ـ اكتفاء برأس المال فقط . . وفى أول كتاب الرقائق من صحيح البخارى عن ابن عباس قوله ـ ﷺ ـ :

« نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

دليل على أن احتفاظ الداعية والمؤمن عموماً بصحة وفراغ دون عمل غبن كبير ، وسلبية مفرطة . .

قال ابن بطال : معنى الحديث أن المرء لايكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يُغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومن شُكره امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فمن فرط فى ذلك فهو المغبون ، وأشار بقوله : « كثير من الناس » إلى أن الذى يُوفَّق لذلك قليل . . . .

وقال ابن الجوزى : قد يكون الإنسان صحيحاً ، ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش ، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون ، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وفيها التجارة التى يظهر ربحها فى الآخرة ، فمن استعمل فراغه وصحته فى طاعة الله فهو المغبوط ، ومن استعملها فى معصية الله فهو المغبون ، لأن الفراغ يعقبه الشغل والصحة يعقبها السقم ، ولو لم يكن إلا الهرم . . .

وقال الطيبى : ضرب النبى ـ ﷺ ـ للمكلف مثلاً بالتاجر الذى له رأس مال ، فهو يبتغى الربح مع سلامة رأس المال ، فطريقه فى ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ، ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن ، ومجاهدة النفس وعدو الدين ، ليربح خيرى الدنيا والآخرة ، وقريب منه قول الله تعالى : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ

أليم ﴾[1] الآيات ، وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ، ومعاملة الشيطان ، لئلا يضيع رأس ماله مع الربح [2] .

إيجابية الجيل الربانى

ومن خلال تربية المصطفى - ﷺ - الصحابة ، صار كل صحابى أمة لوحده ، وما من صحابى إلا وله سمة معينة ، وموقف خاص ، وإبداع متميز ، فمنهم من أشار واقترح ومنهم من أوضح وشرح ، ومنهم من أضاف واستدرك ، فيما يخدم الدعوة وحركة الإيمان ، فسلمان الفارسى يستفيد من خلفيته الحضارية ويقترح حفر الخندق ، وحباب بن المنذر يقترح الوقوف فى بدر على الماء ، وآخر ينصب المجانيق فى غزوة الطائف ، وأبو بَصير يخطط لحرب عصابات بعيداً عن بنود صلح الحديبية ، وعمر بن الخطاب يقرب سيفه فى نفس الهدنة من أبى جندل طمعاً فى أن يستله ويقتل أباه دون مؤاخذة على نقض المعاهدة ، ويستلم خالد بن الوليد الراية - يوم مؤتة - بلا تأمير ، رضى الله عنهم أجمعين .

والمتتبع لمعارك القادسية واليرموك ، والجسر والبويب ، يجد لكل صحابى فيها موقفاً مشهوداً .

وللصحابة والتابعين بطولات وجولات ، نستل منها فقط قصة

---

(1) سورة الصف : (10) .

(2) فتح البارى 11 / 230 .

ذلك المجهول فى القادسية صاحب الإبداع عند ملاقاة الفرس حيث نفرت خيل المسلمين من الفيلة . . .

(فعمد رجل منهم فصنع فيلاً من طين ، وأنّس به فرسه ، حتى ألفه ، فلما أصبح : لم ينفر فرسُه من الفيل ، فحمل على الفيل الذى كان يقدمها ، فقيل له : إنه قاتلك ، قال : لاضير أن أُقتل ، ويُفتح للمسلمين) [1] .

ولو ترك الجانب العسكرى ، لرأينا فى الجانب الاقتصادى ذلك الصحابى الذى تؤرقه كثرة أبناء المهاجرين والأنصار فينقل زراعة القمح للحجاز ، وعبد الرحمن بن عوف يختبر السوق ، فيصفق لنفسه حتى لا يكون عيالاً على غيره ، وكل ذلك كان يتم دون أوامر ، بل بمبادرات من الصحابة أنفسهم ، رغم الإيمان التام بكفاية القائد المؤيد بالوحى ، ورغم الاستعداد التام للطاعة المطلقة ، وذلك لإيمانهم الجازم بضرورة العمل الإيجابى .

وكذلك فى إطار الفكر والتربية يسارع عبد الله بن عمرو لتدوين الحديث ، وزيد بن ثابت لجمع القرآن ، إضافة إلى مسارعته لتعلم العبرانية والسريانية إذ قال عن نفسه :

(. . . . قال لى رسول الله ﷺ : « **أتحسن السريانية** » ؟ قلت : لا ، قال : « **فتعلمها** » ، فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً) [2] .

وابن عباس يجد بُغيته الدعوية فى الخروج للأسواق والسلام

---

(1) تفسير القرطبى 2 / 364 .

(2) إسناده صحيح ، أخرجه أحمد 5 / 182 ، والحاكم 3/ 422 .

على الناس ، وصحابية تطالب الرسول ـ ﷺ ـ بحق النساء فتجمعهن للسماع ، وتنقل أسماء بنت عميس بعض تجارب أهل الحبشة فى كفن المرأة . . وغير ذلك .

وفى الإطار الاجتماعى ، يسابق بعضهم بعضاً فى التزاور والضيافة ويتحاور أبو الدرداء مع سلمان ليَبُتّ الرسول ـ ﷺ ـ فى أمر المناقشة حول حقوق العيال وقيام الليل .

وللجدد .... مواقف

وفى تاريخ من أسلم من النصارى عبر التاريخ ، قصص وعبر ، ومبادرات إيجابية ، وقصص الأندلس طافحة بهذه الأمثلة ، وقبلها ما حصل عند الروم ، وبينها مبادرات فى إفريقية ، أو فى فتوحات العثمانيين فى أوربا ، كقصة البطل الألمانى ـ صانع المدافع ـ الذى استشهد فى معارك جزيرة رودس ، وكل هؤلاء الأبطال لهم سلف فى عمل النجاشى ـ رحمه الله ـ الذى أسلم ، وظل فى قومه .

ويكتفى هنا بقصة الأمير القاضى أبو محمد عبيد الله بن صليعه الذى قرر مع رعيته النصارى ، أن يخدع الفرنج ويظهر أمامهم بمظهر الخائن ، ووعدهم أن يعينهم إن هم تسللوا إلى برج سماه لهم ، فكان من قائد الفرنج أن انتدب من شجعانهم ثلاثمائة ، فطالعهم النصارى فى حبال ، وكلما طلع واحد قتله ابن صليعه ، حتى أباد

الثلاثمائة . . ثم حاصروه ودكوا برجه ، فأصبح وقد بناه فى الليل) (1) .

فانظر إلى العزيمة فى الأداء ، والإيجابية فى العمل ، دون النظر لما يقول الآخرون ، أو حباً لشهرة يراها المسلمون ، وللقصة تفصيل ـ لا مجال له هنا ـ كما أنها غيض من فيض ، ولكن يكتفى بالقليل اعتباراً بها ، ودفعاً للدعاة للبحث والنظر .

سر الحضارة الإنسانية

والمتتبع للحضارة الإنسانية ، يجد الإبداع الفردى ، والإيجابية الذاتية هما منبع الأفكار المتميزة ، وبداية الآفاق الحضارية ، فمنذ فجر التاريخ كانت الاختراعات والابتكارات فردية ، ابتداءً من صناعة العجلة ، وحتى الطباعة والتلغراف ، والمصباح ، وأشباه ذلك حتى أدى هذا الانعكاس إلى ظهور الفلسفات التى تؤكد على الذاتية ، وليس هذا المبحث بصدد تقييم هذه الفلسفات ومدى بعدها أو قربها من النظرة الإسلامية ، وإنما للاستدلال على ما ساد فى الحضارة الإنسانية من رصد صحيح للإبداع والابتكار ، وحتى عند تحول الأعمال إلى منطلقات جماعية كما يحصل فى البحوث السياسية والإدارية والاقتصادية ، بل حتى فى بحوث العلوم الطبيعية الحالية ، من نزعة جماعية ، فيظل للفرد دوره المميز فى ومضة

(1) سير أعلام النبلاء 19 / 289 .

الإبداع ، وفى إيجابية الأداء ، والفكر الإسلامى له نظرة متوازنة بين العمل الفردى والعمل الجماعى ، ويرفض التفرد والأنانية ، كما يرفض الغرور والشخصانية ، إلا أن تنفيذ الأعمال ، ومبدأ التكليف فردى بحت .

والناظر المستقرئ لمدنية اليوم ، يظن أنها نتاج حكومات ومؤسسات ، إلا أن المتتبع لها ، ولبداياتها يعلم أنه ابتدأت بمحاولات فردية ، فكثير مما نشاهده من شركات أو مؤسسات بدأت بزمام مبادرات فردية ، تطورت ـ مع الأيام ـ إلى جماعية ، وكثير من متاحف العلوم والجيولوجيا ومعاهد البحوث ، كان إنشاؤها فردياً حتى أثبتت وجودها ودعمت من قبل الحكومات ، بل حتى المعارض والحدائق العامة ، كانت ملكاً لأفراد صبوا جهود حياتهم فيها ، حتى وصلت إلى مرحلة استحقت أن يشارك المجتمع فيها .

وما تنعم المجتمعات الحديثة فيه الآن من طائرات وسيارات ، وأجهزة ، بل ومن علوم إنسانية وأفكار مدنية إلى جهود رواد الحضارة ، وبناة المدنية من أشخاص ملكوا قدرة الإبداع ـ بفضل الله وحكمته ـ وزمام المبادرة ، وتحملوا العوائق حتى وصلوا إلى الإبداع الذى قاد إلى إعمار هذه الأرض .

لذا . . صار من الضرورى إدراك مثل هذا الاستقراء ، كى يكون دافعاً للداعية ، إلى التفكير المستمر ، والعمل الدائب ، للمشاركة الإيجابية ، حتى يشارك فى مسيرة البناء ، أما فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، فيضمر هذا المعنى مع الأسف كثيراً . . . .

وعلى الطريق ... رجال

وبالرغم من وجود ملامح معنى هذه السلبية عند معظم الدعاة اليوم ، إلا أنه تبرز أمثلة فى الإيجابية يقتدى بها . . .

* ولعل أولها تجربة الأستاذ الشهيد عبد الله عزام ـ رحمه الله ـ وما أداه فى بلاد الأفغان ، ونقل الكثير من التجارب ، والفقه التربوى ، وصار قدوة للمئات من الشباب ، وأذكى روح الجهاد وهى تجربة ابتدأت فردية ، ثم اتخذت الطابع الجماعى من خلال التجربة والحوار .

* وذلك الداعية الإيجابى الذى آلمته المجاعة فى إفريقية ، فترك مهنة الطب ، والعيش الفاره ، وبدأ عمل الإغاثة بمجهود فردى ، وصب كل أفكاره فيها ، حتى تحول ـ بإذن الله تعالى ثم بمؤازرة مجاميع العمل الإسلامى ـ عمل الإغاثة من جهود فردية إلى منظمة كبيرة تخدم الكثير من الأمور فى إفريقية ، وتحولت إلى سمة بارزة فى العمل الإسنادى ، وصار مثالاً يحتذى به فى خدمة القضايا الإسلامية .

* وقس على ذلك . . . المحاولات الرائدة فى محاولة تجميع الزكاة وتوزيعها ، التى بدأت بإيجابية بعض الدعاة ، حتى تطورت مع الأيام إلى أعمال جماعية ، تخدم قضايا الأمة الإسلامية ، وتربطها مع جماهير الأمة أخذاً وعطاءً .

* وإن الكثير من الجمعيات الإسلامية ، ودور الرعاية والاتحادات الطلابية فى الغرب ، لم يخطط لها الشرق - حسب علمنا - بل كانت جميعها بجهود إيجابية لداعية التف حوله بضع دعاة فى بادئ الأمر ، ثم تطورت مع الأيام ، فأصبحت فيما بعد مؤسسات جماعية ، تؤدى أعمالاً كبيرة لها أثرها .

* وهناك المجهولون من الأوائل الذين جمعوا الأناشيد الإسلامية ، أو قاموا بتسجيلها ، أو كانت لهم محاولات التصوير والنشر ، أو الذين قاموا بتسجيل الأناشيد وأغانى الأطفال ، حتى تحولت هذه الوسائل الإعلامية إلى ظاهرة كبيرة لايخفى إسنادها للعمل الدعوى ، وانتشار الوعى الإسلامى .

* وتأتى مثل هذه المحاولات فردية - فى أمور كثيرة - لايمكن حصرها كلها تبرهن أن الأعمال الكبيرة تبدأ فردية بعمل إيجابى يتطور مع الأيام ، أو أن الأعمال الكبيرة ذاتها قد تكون مجموعة من أعمال صغيرة ، وأدوار صغيرة تتراكم مع الزمن ، ويطرح الله - تعالى - فيها البركة والنماء .

الإيجابية .... إعذار إلى الله

وقد تؤدى الإيجابية إلى الكثير من العمل الإسلامى بذاتها ، كما أن لها نتائج باهرة ، فمنها وما يتفرع عنها من علم وعمل ، ومعذرة واعتذار ، فالمعذرة إلى الله - عز وجل - من التقصير حيث

أداء الواجب جهد الإمكان والاستطاعة ، وبالتالى شعور المؤمن بالأداء وحسن النية ، إذ أنه يؤدى ما عليه ، وليس عليه النتائج ، وهذا المعنى هو المطلوب من التكليف ، ولقد عذب الله أقواماً تركوا الدعوة للخلق ، بحجة أن الموعظة لا تؤثر فى قومٍ الله مهلكهم أو معذبهم ، بينما امتدح الله آخرين اعتذروا إلى ربهم ، وقاموا بأداء الواجب المعين عليهم ، فالمعذرة إلى الله واجب عينى على المؤمن أن يؤديه بإيجابية ، دون انتظار لما يعمله الآخرون .

وكذلك الاعتذار للقائد فى أداء الواجب ، ولو أخذنا قصة الهدهد كمثال على العمل الإيجابى لرأينا فيها من المعذرة والاعتذار الشىء اللطيف ، حيث كان علمه نافعاً للقائد معتذراً به إليه ، بل كان فى العلم ، حيث النبأ اليقين ، نوع سلطان قوى ، ولا يتنافى هذا مع النية ، فإن طاعة القائد واجبة ، والإيجابية مظهر غير مباشر للطاعة .

(إن سليمان لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذاباً شديداً ، أو يذبحه ، إنما نجا منه بالعلم ، وأقدم عليه فى خطابه بقوله : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾[1] خبراً ، وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم ، وإلا فالهدهد مع ضعفه لايتمكن من خطابه لسليمان مع قوته ، بمثل هذا الخطاب ، لولا سلطان العلم)[2] .

إذ لولا إيجابية الهدهد ، لما قبل القائد اعتذاره ، لأن عموم الارتباط بجماعة المؤمنين يقتضى أداء عمل ، ضمن الأهداف

---

(1) سورة النمل : (22) .
(2) مفتاح دار السعادة 1 / 173 .

المعلومة ، وليس بالضرورة أن يكون التابع منفذاً لأوامر فقط ، وكذا الدعاة يجب أن لايقفوا عن حد الواجبات ، أو عتبة الأوامر ، فالسكون تقصير ، والوقوف ضعف ، ولكن العمل الإيجابى يدرأ عتب أو ملامة الأمير .

(وفى قوله ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (1)، دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ، ويدرأ العقوبة عنهم فى ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم ، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه ، وإنما صار صدق الهدهد عذراً ، لأنه أخبر بما يقتضى الجهاد ، وكان سليمان ـ عليه السلام ـ حُبب إليه الجهاد ، وفى الصحيح : ليس أحد أحبّ إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك أنزل الكتاب ، وأرسل الرسل . . .) (2) .

ثقة وهمم عالية

وفى الإيجابية احترام للنفس ، وثقة بها ، حتى لايستهين المؤمن بنفسه ، ويغرر به الشيطان أنه لا يصلح لأمر ما فيقعده عن العمل ، أو يزهده عن الأداء ، إذ قد يأتى الشيطان عن طريق إشعار الداعية بأنه لا أهمية له ، أو يحدثه بأن العمل ضَرْبٌ من الرياء ، وأن الحديث فيه مظاهر الغرور ، فيجب له العزلة ، ويزين له الانكماش

(1) سورة النمل : (27)

(2) تفسير القرطبى13 / 189 .

ويصور له العزلة ورعاً ، والانكماش تعففاً ، وعدم الحديث تواضعاً فيفوت عليه المصالح ، ويسد عليه طرق الخير ، وتذهب عنه الأوقات ، وتهدر فيها الطاقات ، وإذا ما عجز الشيطان عن ذلك فإنه يربك الأولويات على الداعية ، ويقوده لترك الأفضل وإتيان المفضول ، تحت نفس التبريرات ، ووفق نفس الحجج ، ولهذا كان من الضرورى تفهم الداعية العلم الشرعى الذى يسد به منافذ الشيطان ، ويغلق به أبواب إبليس ، ومن أول العلم الثقة بالنفس ، وتأييد الله تعالى .

ومن الثقة بالنفس معرفتها ، والتوجه إلى المعالى دائماً ، والرنو نحو القمم السامقة ، أما رأيت لذلك الرجل الذى قيل له : عندى لك حويجة ، فقال له : اطلب لها رُجيلاً ، فإنه يبحث عن القضايا التى يطلب لها الرجال ، وهكذا يفعل أصحاب العزائم ، حتى ولو كانوا من طلبة الدنيا ، ولعل من هؤلاء يزيد بن المهلب الذى هرب من الحبس ، فقيل فى قصته أنه مرّ برهط من أهل البرية رعاة ، فقال لغلامه : استسقنا منهم لبناً ، فسقوه ، فقال : أعطهم ألفاً ، قال : إن هؤلاء لا يعرفونك ، قال : لكنى أعرف نفسى (1) .

فانظر إلى مقدار معرفته بنفسه ، وما أراد لها أن تنزل عن مقدارها ، فكيف بهمم أهل الدين التى يجب أن تكون أعلى وأسمى وهكذا كانت مطالب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ، فكل منهم كان فى الموضع الأعلى من الرغبة فى المعالى ، فهذا ربيعة بن كعب الأسلمى أقصى أمانيه عندما سأله الرسول ـ ﷺ ـ « أسألك مرافقتك

---

(1) سير أعلام النبلاء 4/ 503 ، 1 / 375 ورجاله رجال الصحيح .

فى الجنة » ، والإمام على ـ رضي الله عنه ـ يحدد غاية ما يشتاق إلى فعله (الضرب بالسيف ، والصوم بالصيف ، وإكرام الضيف) ، وسيف الله المسلول الذى لايريد أن تقر عيون الجبناء يقول :

(ما من ليلة يهدى إلىّ فيها عروس ، أنا لها محب ، أحبّ إلىّ من ليلة شديدة البرد ، كثيرة الجليد ، فى سرية ، أصبِّح فيها العدو . .) (1) .

لاتبخل بالقليل

ومن خصائص الإيجابية عدم استصغار الأمر ، وعدم استكثار الكثير ، فربّ صغير عظَّمته النية ، وربَّ عظيم صغرته النية ، وقد تؤتى الكلمة الطيبة ثمارها ـ بإذن الله تعالى ـ ولقد سئل أحد العلماء (إلى متى تظل تكتب العلم ؟ فقال : لعل الكلمة التى فيها نجاتى لم تكتب بعد) ، وما يدرى الإنسان متى يقول الكلمة فيهدى الله بها خلقاً كثيراً . .

وقد أورد الرسول ـ ﷺ ـ أن من البر أن يُفرغ أحدكم فى دلو أخيه أو أن يبتسم الإنسان فى وجه أخيه ، أو حتى أن يلقاه بوجه طلق . . .

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (2) .

---

(1) سير أعلام النبلاء4 / 503 ، 1 / 375 ورجاله رجال الصحيح .
(2) سورة الزلزلة : (8:7) .

(. . قال ابن مسعود : هذه أحكم آية فى القرآن ، وصدق ، وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية ، القائلون بالعموم ، ومن لم يقل به . . . وأن الرسول ـ ﷺ ـ لما سئل عمًّا فى أجر الحمر ، قال : « وإن فى الحمير مثاقيل ذر كثيرة » . . . وأن أم المؤمنين قالت عن صدقة حبة العنب : كم ترى فى هذه الحبة من مثقال ذرة . . وعن سعد بن أبى وقاص عندما دفع لسائل تمرتين : ويقبل الله منا مثاقيل الذر ، وفى التمرتين مثاقيل ذر كثيرة . . .) [1] .

وفى استلهام الداعية لمثل هذه النصوص دافع كبير إلى عدم استصغار الأعمال الصغيرة ، أو الأقوال العارضة فى دعوته ، فلا يبخس فى الحديث للأهل ، أو الكلام لطفل ، أو التربيت على كتف غلام ، أو التبسم لجار فى طريق ، أو النصح لمرافق فى العمل ، أو الاستماع لكلمة أو مقالة ، أو التنصت للقرآن الكريم أثناء سياقة السيارة ، وشبه ذلك مما يكسب الأجر الكبير ، والمثوبة العظيمة ، والله يضاعف لمن يشاء .

إن من يعتدى ويكسب إثما

وزن مثقال ذرة سيراه

ويُجازى بفعله الشرّ شرا

وبفعل الجميل أيضاً جزاه

هكذا فى قوله تبارك ربى

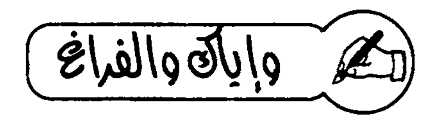
فى (إذا زلزلت) وجلّ ثناه

(1) تفسير القرطبى 20/ 152 .

وعدم الزهد فى القليل أولى من القعود ، والسكوت والقعود أولى من الحديث بالباطل ، فإن النفوس مجبولة على العمل وحب الحديث ، فإذا لم تجتمع على الحق ، فرقتها أحاديث الباطل ، والشيطان لايدع الإنسان فى عزلة من أمره ، فما أن يترك الإنسان العمل الصائب حتى يشغله الشيطان بترهات الباطل ، وكم هى التجارب الناطقة من محيط الدعاة ، فإن أحاديث الغيبة ، وعبارات التهكم والسخرية ، وأقوال النقد والتثبيط ، لاتتم إلا من القاعدين والكسالى ، ولا تنمو إلا فى أجواء الراحة والفتور ، وخصوصاً عند الشباب ، وفى هذا يقول أبو العتاهية فى حكمته التى تتردد عبر الأجيال :

إنما الفراغ والشباب والجده

مفسدة للمرء أى مفسدة



وقبله كره ابن مسعود الفراغ للمرء مهما كان ، فقال :

(إنى لأكره أن أرى الرجل فارغاً ليس فى عمل آخرة ، ولا دنيا . .) وما أكثر ما نطق الشعراء والحكماء بهذا المعنى ، حيث إدراكهم لمعنى الحياة ، وضرورة استثمارها . .

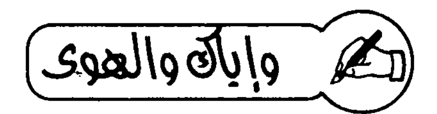
دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوانى

وإذا كان الأقدمون يستشعرون هذا المعنى من دقات القلب ، فما أحرى بداعية اليوم استشعارها من دقات الساعات فى كل مكان ومن

إشاراتها الرقمية فى كل معصم ، وهى تسجل مرور الثوانى والدقائق التى لن تعود ، ناهيك عن الأيام والليالى ، وأن يكون مع الإمام الشهيد فى حكمته الخالدة ، حيث يقول : (الوقت هو الحياة) وكان يكرر أيضاً : (الوقت كالسيف ، إن لم تقطعه قطعك) .

ولكن الرجوع إلى تتبع دقات القلب أجزل معنى وأوضح تذكيراً ، فإن ثَّم فى القلب الفهم والوعى والإدراك والإيمان .

فلولا تفقد داعية قلبه ، ثم رجع فتفقد . . ثم رجع ، لعله يقرب من الإبداع والإيجابية خطوات . . .



وهناك مجموعة من الأسباب والعوامل تؤثر فى إيجاد الإيجابية الدعوية ، أو تقويتها ، أو المنع من فتورها ، لابد من أخذها بنظر الاعتبار والتنبيه المستمر عليها من خلال الوعظ الدعوى ، والمناهج التربوية ، أو جداول المحاسبة الذاتية ، ولعل أهمها ومبتدأها : تقوية الإيمان ، والإيمان بداية الأمر ، وأس العمل ، ولاشك ، ولكن المقصود هنا الالتزام بعوامل تقوية الإيمان ، وأنشطة زيادته بالطاعات التى من شأنها أن تزداد إيجابية المؤمن بها ، وتتقوى ذاتيته بمقتضاها . والعوامل هذه كثيرة ـ لايمكن الاستطراد بها فى هذا المبحث ـ ولكن يشار إليها فحسب ، إذ أن من أهمها ، الذكر وتلاوة القرآن ، وتذكر الآخرة ، وحضور الجنائز ، وزيارة المقابر ، وكثرة

السنن ، وقيام الليل ، وصيام التطوع ، والزيادة من كل بر ، والأخذ بكل معروف .

كما أن الإيمان مرتبط بصحة النية ، وسلامة القصد ، وعدم حصول الهوى ، أو غلبة الشبهة ، لأن اتباع الهوى يضل عن السبيل ويقعد عن العمل الصائب ، وشعور المؤمن بأن عمله لله ـ تعالى ـ يدفعه للمعالى ، ويفجر مكنوناته ، ويستسهل الصعب فيه ، ويتجاوز العقبات له ، وتتكون العزيمة التى تدفع كل حواسه ، وتظهر كل طاقاته على شكل عمل مثمر وبناء ، وكما أن صحة النية مهمة ، فإن الانشغال بالعمل الصالح ، وترك الشهوة ، هو الآخر يقود إلى تفتح البصيرة ، وترك الباطل ، والتمتع بلذة الطاعة ، وينمى القوة فى طاعة الله ، ويقوى الإبصار فى الحق ، وكل من صحة النية وصواب العمل ، وإن كانا مما يقوى إيجابية المؤمن ، فهما بنفس الوقت بحاجة إلى إيجابية ، ولكنها سنة الحياة ، فالعمل يدفع إلى العمل ، والحسنة تقود إلى الحسنة ، والحركة تولد الحركة ، والطاعة تجلب الطاعات ، وهذا من فضله تعالى على العباد .

وعليك بحفظ الهمة

ويبقى العامل المهم فى حياة الدعاة ، وهو الاحتفاظ بالهمة ، وكان الجنيد البغدادى ـ رحمه الله ـ يوصى الداعية بذلك . . فيقول :

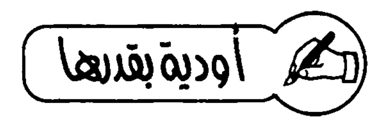
(عليك بحفظ الهمة ، فإن الهمة مقدمة الأشياء) .

والاحتفاظ بالهمة مسارعة للخير ، فاغتنام الصحة قبل المرض ، والنشاط قبل الفتور ، والحياة قبل الموت ، والغنى قبل الفقر ، مراحل حاسمة فى تاريخ الإنسان ، وبينهما مراحل أقل ومفاوز أصغر ، يعظنا المصطفى - ﷺ - بالأكبر ، ليتسدل بها على الأقل ، ولذلك يقول الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها

فإن لكل خافقة سكونا

(إذا فتح أحدكم باب خير ، فليسرع إليه ، فإنه لايدرى متى يغلق عنه) (1) .



ومما يحقق الإيجابية عند الداعية : العلم ، والعلم الصائب ، دافع للعمل الصائب . . . (إن العلم إمام العمل ، وقائد له ، والعمل تابع له ومؤتم به ، فكل عمل لايكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه ، بل مضرة عليه ، كما قال بعض السلف : مَنْ عَبَدَ الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، والأعمال تتفاوت فى القبول والرد بحسب موافقتها للعمل ومخالفتها له ، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول والمخالف له هو المردود ، فالعلم هو الميزان وهو المحك . .) (2) .

---

(1) سير أعلام النبلاء 4/ 540 .

(2) مفتاح دار السعادة 1 / 82 .

فالعلم الفاسد قد يقود إلى العمل الفاسد ، والعلم الصالح يذكر الداعية باستمرار ، بماهية الحياة وطبيعة التكليف ، وعاقبة الإنسان ، كما أنه يذكره بالآخرة ، وما أعد الله لعباده من الثواب والعقاب ، ويحرك مشاعره الخيّرة نحو السمو ، ويزيد همته نحو الفضيلة ، ويكون له من زاد العلم ماينبهه من عاقبة الكسل ومغبة الفتور ، فيدفعه إلى العمل المثمر ، والعلم يذكر بمصارع الأقوام ، ومهلك الظالمين ، والعاقبة التى كانت للمصلحين ، فيستزيد من الخير ، ويندفع نحو العمل ، وبالعلم تصفو النفوس ، ويذهب كدر المعاصى ، كما شبهه الله تعالى بالأودية التى تذهب بالزبد ، وتجعله جفاء ، وتشبيه القرآن الكريم للعلم النافع بالماء الجارى دليل على روعة العلم المتحرك وأثره فى الحياة والنفوس ، كأثر الماء المتحرك فى إزالة العوائق ، واكتساح الشوائب .

لذا . . . فلابد للعلم من أن يكون متحركاً فى قلب الداعية ، فيدفعه للعمل حتى تصفو القلوب ، ويذهب الكدر ، كما وصفه تعالى :

﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ (1) .

(وهذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط بشاشته القلوب ، فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفو على وجه القلب ، كما يستخرج السيل من الوادى زبداً يعلو فوق الماء ، وأخبر سبحانه وتعالى أنه رابٍ يطفو ويعلو على الماء لا يستقر فى أرض

(1) سورة الرعد : (17) .

الوادى زبداً ، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب ، وطفت ، فلا تستقر فيه ، بل تجفى وترمى فيستقر فى الوادى الماء الصافى ، ويذهب الزبد جفاء ، وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون) [1] .

صناعة الحياة

ويأتى بعد ذلك كله ، عامل مهم يكتسب أهمية بالغة فى الزمن المعاصر ، لتشعب مطالب الحياة ، ولتأثير بعضها ببعض ، بل وأصبح التأثير حاداً بسبب سهولة الاتصال ، وكثرة السفر ، وسهولة المواصلات ، ذلك العامل هو الإبداع الذاتى ، بالاستفادة من التخصص المهنى ، والأخذ منه كبعد دعوى ، أو استحداث الداعية تخصصاً حياتياً لنفسه ، يجتهد فيه حسب استعداداته ، وكفاياته ومقدرته ، فإن إيجاد مثل هذا التخصص ، أو تحويل مجرى التخصص إلى ماينفع الدعوة ، يفجر الإبداع عند الداعية ، ويدفعه إلى المزيد من العمل الإيجابى ، ويصعد عنده الهمة ، فيجعل وقته مثمراً ، وحياته دافقة .

ولو عدنا إلى ما استدل به من إيجابية الهدهد ، لشوهد أنه يمكن أن يؤخذ من القصة ، تميزه بشىء من الإبداع ، إذ كانت له معرفة بالماء تحت الأرض ، فكان بعض المفاهيم الدعوية بما يدركه

(1) مفتاح دار السعادة 1 / 61 .

فنوّه بقدرته تعالى بإخراج الخبء فى السموات والأرض ، ولذا كان لابد لكل داعية ، أن ينظر بنور الله تعالى ، حتى يظهر الفن والعلم والإبداع فى منطقه ورواءه ، ويكون فى خدمة الدعوة ، وثمرته تصب فى مجال الحركة ، بل إن القدرة العلمية والفنية تنعكس فى الأداء الدعوى ، ففى المجال الأول ، استنبط الزمخشرى نفس المعنى من قصة الهدهد ، فقال :

(. . . . وفى إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد ، لهندسته ، ومعرفته الماء تحت الأرض ، وذلك بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض ـ جلت قدرته ، ولطف علمه ـ ولا يكاد يخفى على ذى الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم ، فى رواءه ومنطقه وشمائله ، فما عمل آدمى عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله . . . .) (1) .

وفى المعنى الثانى ، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ شارحاً للآية الكريمة :

(. . والنبأ هو الخبر الذى له شأن ، والنفوس متطلعة إلى معرفته ، ثم وصفه بأنه نبأ يقين ، لاشك فيه ولاريب ، فهذه مقدمة بين يدى إخباره لنبى الله بذلك النبأ ، استفرغت قلب المخبر ، لتلقى الخبر ، وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ، ومعرفته ، وهذا نوع من براعة الاستهلال ، وخطاب التهييج ، ثم الكشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التوكيد . . .) (2) .

---

(1) الكشاف 3/ 145 .

(2) شفاء العليل / 71 .

والله سبحانه وتعالى قصّ أحسن القصص للاعتبار ، وللقياس عليها ، وفى هذه القصة نعم العبرة ، وأفضل الاستدلال للدعاة ، كى يضعوا فن التخصص ، وموهبة العلم ، فى خدمة الدعوة ، وصلاح النفوس ، ولقد تكفل كتاب الراشد (صناعة الحياة) بتوضيح المعنى للدعاة .

ضرورة الاستيعاب

ومن الضرورى بمكان معرفة الداعية ، إن ما قد يعرفه ، أو يتقنه قد لاتتقنه قيادات ، ولايكد يمر على ذهن الأمراء ، فكل أمر قد استأثر لله به بعض الخلق ، ألا يلاحظ الداعية ، أن الله استأثر بعض مخلوقاته بما يعجز عنه الإنسان ، حتى يستدل به على عظمة الخالق من جهة ، وضعف المخلوق من جهة أخرى ، وأن كل مخلوق محتاج إلى غيره من جهة ثالثة ، ورابعة أخرى أن كل فضل من الله وإليه ، وفى كل أمر عبادة ، وإدراكها عبادة ، والسعى بمقتضاها عبادة ، وفضل الله أوسع بعد ذلك كله .

ولعل هذا المعنى ـ يعود لنا ـ مرة أخرى من قصة الهدهد ، فهذا النبى الذى أوتى من كل شىء تقريباً ، وسخر له الجن والإنس ، ظهر ضعفه أمام الهدهد ، ورد عليه ، وتصاغرت عنده نفسه ، وهو يشعر باحتياجه للطير الضعيف ، بل ودافع الهدهد عن نفسه ، ونافح عن تغيبه بحجة بليغة . . .

(ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة ، والعلوم الجمّة ، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له فى علمه ، وتنبيهاً على أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفاً له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء ، وأعظم بها فتنة ، والإحاطة بالشىء علماً أن يعلم من جميع جهاته لايخفى منه معلوم . . .)(1) .

وبالمناسبة ، يشار هنا إلى معنى ملازم ، وهو ضرورة استيعاب المربين لهذا المعنى ، واحترام ما يصل إليهم من إبداع الأفراد ، وأفكار الأتباع ، وإيجابيات الدعاة ، ويدعموا ذلك بالإعانة ، ويتمنوا لهم التوفيق ، ويباركوا ذلك بالتشجيع ، مادام ضمن مسيرة العمل الصالح ، اقتداءً بالأنبياء والمرسلين ، وعدم الوقوع بفتنة العجب ، أو الاعتزاز بالرأى ، أو الحرص على رأى معين ، فالحكمة ضالة المؤمن ، وهو أولى بها ، أنّى وجدها . . . .

اقتراحات على الطريق

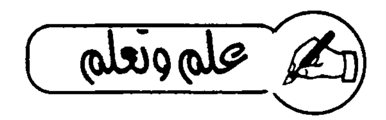
ولايمكن - أخيراً - فى هذه العجالة تسجيل الخطط والأعمال ، التى يمكن أن يقوم بها الداعية ، وإنما هو التذكير وحسب ، بما ينبغى له من حصر ذهنه ، والبحث عن مجالات الأداء ، ولكن

(1) الزمخشرى فى الكشاف 3 / 143 .

يمكن ذكر ما يمكن أن يقيس عليه ، مما يغنيه عن انتظار الخطط ، أو توقع الأوامر :

* ففى مجال تقوية الإيمان ، عمل كل ما يؤدى إليه ، من زيارة القبور ، وحضور المساجد ، أو الاعتكاف فيها ، وقبل ذلك تلاوة القرآن وحفظه ، بل وفى الدرجات الدنيا ، التفكر فى خلق الله ، والتأمل فى مصالح الدعوة ، ولقد روى عن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ أنه كان يقول :

(تفكر ساعة ، خير من قيام ليلة) (1) .



* وفى مجال العلم بجانبيه : التعليم والتعلم ، ماضر الداعية بدلاً من صرف الوقت بما لاينفع ، تناول كتاب لقراءته وتلخيصه ، أو الاستماع إلى محاضرة إسلامية ، أو حضارية نافعة ، أو المطالعة فى كتب الصحابة وأثارهم ، والعيش مع أنفاسهم . . .

(قيل لعبد الله بن المبارك : إذا أنت صليت ، لم لاتجلس معنا ؟ قال : أجلس مع الصحابة والتابعين ، أنظر فى كتبهم وآثارهم ، فما أصنع معكم ؟ إنكم تغتابون الناس) (2) .

وعلى الداعية أن لايتكبر أن يسمع غيره ، فلا يدرى الكلمة التى

---

(1) (2) سير أعلام النبلاء 2/ 348، 8/ 389، 5 / 18 .

ينتفع منها ، وما من خطيب أو واعظ إلا وتستفيد منه فكرة ، أو خبراً ، أو تذكيراً بعلم قديم قد نسى ، أو ربطاً بحادثة واقعية ، أو على الأقل لايخلو الواعظ من عرض جديد لمعلومة معروفة ، أو نبرة تبلغ إلى أعماق القلب ، ولقد كان الرسول ـ ﷺ ـ يستمع إلى قراءة أُبى بن كعب ، وأبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ للقرآن ، وعليه أنزل ، كما أن الداعية قد يسمع الكلمة من شخص آخر ، فيبنى عليها من المعانى ، ، وتزدحم عليه الأفكار فيصل إلى مجموعة من الحقائق ، ويربط بين مجموعة من القضايا لم تكن فى ذهن المتحدث ، ومما قيل فى ذلك ما قاله التابعى الجليل عكرمة تلميذ ابن عباس : (إنى لأخرج إلى السوق ، فأسمع الرجل يتكلم بالكلمة ، فيفتح لى خمسون باباً من العلم . . .) .

أما المتخصص فى مسألة ما ، أو فن معين فله المجال الأرحب ، كتصنيف كتاب ، أو كتابة مقالة ، أو تحقيق مخطوط ، وما أسهل ما يمكن للداعية من إتعاب نفسه ، بتجميع المعلومات ، وشحذ الذهن لكتابة مقال لأحد المجلات الإسلامية ، أو تحضير درس لإلقائه فى مسجد ، وليس ـ فى مجال العلم ـ بأقل من السؤال والاستفادة ، وإلا فهو الإفلاس المحض ، والخسارة القاتلة ، فقد قال أبو سلمة سعيد ابن زيد :

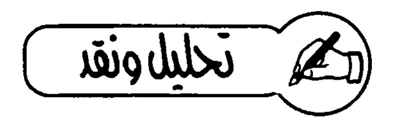
(سمعت عكرمة يقول : مالكم لاتسألونى ، أأفلستم . .)[1] .

---

(1) سير أعلام النبلاء 2/ 348، 8/ 389، 5/ 18 .

زيارات ودروس

* وما أكثر الأعمال الممكنة فى الإطار الاجتماعى ، كزيارة تكسب فيها صديقاً ، أو أمراً بالمعروف ، أو تجلب فيه خبراً لجماعة المؤمنين ، أو تتعرف فيها على تاجر أو متبرع يعين الأنشطة بماله ، أو على شيخ ووجيه يؤثر فى أتباعه ومحبيه ، ولايقتصر العمل الإسلامى على المجتمع ، فالبيت أحوج إلى الداعية ، فعليه تجاوز الفتور وقصور الهمة ، وأن يقوم بدرس للزوجة وإرشادها ، وللأطفال والأقرباء ، حتى ولو بالتلاوة من كتاب .



تحليل ونقد

* وفى إطار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بالشكل الإيجابى ، مجال واسع ، وآفاق ممتدة ، حيث الملاحظة اليومية لأمور المنكر التى ينبعى إزالتها من المجتمع ، فيسهم بكتابة موضوع نقدى فى الصحافة ، أو يقوم بإرسال رسالة ترد على موضوع ، أو تؤيد موقفاً ، أو تستنكر مقالة ، أو أن يقوم بإرسال برقية إلى جهة ، أو يرفع سماعة الهاتف مستنكراً برنامجاً سيئاً ، أو مؤيداً لمحاضرة موفقة ، أو أن يقوم بالكتابة إلى وزير أو مسؤول يدعم رأيه الجيد فى موقف ، ويستنكر منه الموقف السيئ . . وهكذا يحاول أن يكون

الداعية ، ولو عمل كل الدعاة بهذا المنهج ، وأدى كل واحد واجبه . . لأدى هذا الأمر إلى الكثير من الخير ، إذ سوف يستلم الصحفى والإعلامى والمدير والوزير ، مئات بل ربما الآلاف من الردود أو المعارضة لموقف الشر ، فيقود إلى الامتناع ؟ ، أو على الأقل للتوقف عن المزيد ، ولا يستغرب هذا الموقف ، فحتى الفاسق من الناس ـ مهما كان سيئاً ـ فهو بشر ، إذا لم تمنعه الاعتراضات خشية من الله ، فإنه سيمتنع خوفاً على مركزه ، أو حرصاً على سمعته . . أما سكوت الجميع عن الشر ، فسيقود إلى شر أكبر ، وعدم تشجيع المعروف ، يقود إلى الزهد فى إتيانه .

أشواق إلى الآهات

* وفى إطار الجهاد والأداء الحضارى ، قد تذكر هنا عبارة الإمام الجنيد :

(هب أنك لاتخاف ، ويحك . . . ألا تشتاق . .)

ونستعير اللفظ للمعنى الذى يراد ، فيقال للداعية : هبْ أنك لاتريد العمل ، ويحك ألا تشتاق ، فأين أشواق المؤمن للجهاد ، أفلا تكتفى منه بشىء من المرابطة ، وحضور الساحات الساخنة ، أى آهات المؤمن على آلام المسلمين ، أفلا يكتفى بمشاهدة بعضها ، أين التشبه بما حكاه الله لنا عن الهدهد ؟ ألا يقود ذلك إلى نقل خبر ، أو ترجمة مقال ، بل أين الحرص على تحديث النفس بالغزو ؟ ، ألا

يقتضى تعلم فن من الفنون كالجودو أو السباحة ؟ ، وأخيراً أين اللهو المباح الذى يستجم به حتى تقوى النفس على الحق ، أليس منها تعلم رياضة ، أو إتيان هواية . . . ، وفى عالم الكمبيوتر اليوم الشىء الكثير .

إبداع وتجميع

ثم أليس ـ فوق ذلك كله ـ يمكن للداعية أن يجمع ما يقرأ فقط ، ويتخصص فى موضوع ما ، فى عالم السياسة أو التاريخ ، أو الإدارة والجغرافية ، أو حتى فى الرحلات والمغامرة ، فيجمع أرشيفاً ويكون مختصاً دعوياً فى أحد أبواب المعرفة ، بل أليس من السهل أن يجمع الإنسان خواطره فى إطار معين لتكون تجربة دعوية ، كما فعل الأستاذ عباس السيسى ـ جزاه الله خيراً ـ بتجميع قصصه الدعوية الجميلة ، فأنتج ثروة جميلة فى معانى الاتصال الفردى ، والتجميع ، كانت مثالاً ينسج عليه .

فإذا فرغت فانصب

ثم ليحذر الداعية من الفتور ، ويجب عليه أن يلحق العمل بالعمل ، والتعب بالنصب ، والجهد بالمشقة ، فتيار الحياة صغير ، وفرصة العيش محدودة ، وإياك وضياع الوقت ، وذهاب الفرصة ، فهذا النبى ـ ﷺ ـ وقد غُفر ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، يخاطبه ربه بضرورة النصب بعد الفراغ ، بل :

(لما عد نعمه السالفة ووعوده الآنفة ، يحثّه على الشكر والاجتهاد فى العبادة والنصب فيها ، وأن يواصل بين بعضها وبعض ، ويتابع ويحرص على أن لايخلى وقتاً من أوقاته منها ، فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى .

وعن ابن عباس : فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد فى الدعاء . .

وعن الحسن : فإذا فرغت من الغزو فاجتهد فى العبادة . . .

وعن مجاهد : فإذا فرغت من دنياك فانصب فى صلاتك . .) (1) .

ولابد من التذكرة دوماً بضرورة المداومة ، فكم من داعية تحمس لعمل ، ثم فتر عنه ، وإنما البركة فى المداومة بعد حسن القصد ، وصدق النية ، بل إن المداومة على العمل أحد مظاهر صدق النية ، وسلامة القصد ، والتذكر أن النجاة إنما تتم بذلك ، وليس بكثرة العمل الذى لانية معه ، أولا فائدة منه . . . فعن عائشة أم المؤمنين ، قالت : إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال :

(سدّدوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وإن أحب الأعمال أدومها إلى الله ، وإن قل . . .) (2) .

(. . . قوله : (سددوا) وفى رواية . . عن مسلم (ولكن سددوا) : . . . .

ومعناه : اقصدوا السداد ، أى الصواب ، ومعنى هذا

---

(1) الكشاف 4 / 267 .

(2) متفق عليه .

الاستدراك أنه قد يفهم من النفى المذكور نفى فائدة العمل ، فكأنه قيل بل له فائدة ، وهو أن العمل علامة على وجود الرحمة التى تدخل العامل الجنة ، فاعملوا واقصدوا بعملكم الصواب ، أى اتباع السنة ، من الإخلاص وغيره ، ليقبل عملكم ، فينزل عليكم الرحمة ، قوله (وقاربوا) أى لاتفرطوا فتجهدوا أنفسكم فى العبادة لئلا يفضى بكم ذلك إلى الملال ، فتتركوا العمل فتفرطوا . .) [1] .

الكلمة المعطاء

الكلمة الطيبة كحبة القمح المفردة ، قد تُهمل وتذهب أدراج الحياة ، وقد تكون مباركة فتنبت وتثمر ، بل وقد تكون الثمرة خصبة تتضاعف وتتضاعف ، وتنتشر هنا ، أو تنتقل إلى هناك ، فتناسب أرضاً صالحة ومورداً عذباً ، فتتضاعف إلى سبع مائة ضعف ، بل إلى ما شاء الله وتؤتى أكلها بإذن ربها ، والكلمة الطيبة فى أول مبتداها (صدقة) كما أخبر عن وصفها الصادق المصدوق ، والصدقة تتضاعف بالنية ، وتتضاعف بالأثر منها ، فكذلك الكلمة قد تحتفظ بذاتها ، وقد تنمو وتنمو حتى تكون كالشجرة الباسقة ، ويتحقق فى ذلك قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ

---

(1) فتح البارى 11 / 298 .

وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (1) .

وللبحث عن خصائص هذه الكلمة المعطاء لابد من البحث عن صفات الشجرة التى شُبهت بها ، والتى تظهر من الآية أنها أربعة خصائص :

(. . . . . فالصفة الأولى لتلك الشجرة كونها طيبة ، وذلك يحتمل أموراً :

أحدها : كونها طيبة المنظر والصورة والشكل .

وثانيها : كونها طيبة الرائحة .

وثالثها : كونها طيبة الثمرة . . .

ورابعها : كونها طيبة بحسب المنفعة . . .

والصفة الثانية قوله : ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾(2) أى : راسخ باق آمن الانقلاع والزوال والفناء . . .

والصفة الثالثة قوله : ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾(3) وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين :

الأول : أن ارتفاع الأغصان وقوتها فى التصاعد يدل على ثبات الأصل .

والثانى : أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض . . .

---

(1) سورة إبراهيم : (24 : 25) .

(2) ، (3) سورة إبراهيم : (24 : 25) .

والصفة الرابعة قوله ﴿تُؤْتِي أُكُلها كُلَّ حينٍ بإذْن ربهَا ﴾[1] . . . وهى أن ثمراتها لابد أن تكون حاضرة دائمة فى كل الأوقات . . .

ومن المعلوم بالضرورة أن الرغبة فى تحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة [2] .

وهذا يقود إلى بعض ملامح الكلمة الطيبة إذ أنها جميلة رقيقة لاتؤذى المشاعر ، ولاتخدش النفوس ، جميلة فى اللفظ والمعنى ، يشتاق إليها السامع ويطرب لها القلب ، كما أنها طيبة الثمر ، نتائجها مفيدة ، وغايتها بنَّاءة ، ومنفعتها واضحة ، وفوق ذلك فإن أصلها ثابت مستمدة من المنبع الصافى كتاب الله وسنة نبيه ـ ﷺ ـ ، وتمتد إلى السماء بفرعها لأنها نقية صادرة عن نية صادقة ، وتؤتى أُكُلها باستمرار ، يسمع السامع فينتفع بها ، وينقلها لغيره فينتفع ، حتى لينتفع بها الخلق الكثير ، بل ويستمر الانتفاع بها إلى ماشاء الله ، وليس ألصق بهذه الخصائص وأكثر قرباً من كلمات الدعاة المؤدية للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والداعية إلى العمل الإسلامى ، وبناء مقوماته ، والهادية الناس إلى الخير ومستلزماته ، والتى تعلم الدعاة البناء وطرقه ، وتهديهم إلى الجهاد ومعرفة قواعده الشرعية ، وما قد يقود ذلك إلى تخطيط لدولة الإسلام ، أو من مناهج لنشر الحق بين الأنام .

وتشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة ، لأن الشجرة تثمر الثمر النافع كالكلمة التى تؤدى إلى العمل الصالح ، وقد قال بعض السلف : إن

---

(1) سورة إبراهيم : (24 : 25) .

(2) تفسير الرازى 19 / 116 .

الشجرة الطيبة هى النخلة لحديث عبد الله بن عمر فى الصحيح ، ولا فرق بين خصوص النخلة أو عموم الشجر الطيب ، ففى كليهما يتأدى المعنى ، والأصل التشبيه بالشجرة والمشبه بها شجرة الإيمان ليحصل التطابق .

(فعروقها العلم والمعرفة واليقين ، وساقها الإخلاص ، وفروعها الأعمال ، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة ، والصفات الممدوحة ، والأخلاق الزكية ، والسمت الصالح ، والهدى والدّل المرضى ، فيستدل على غرس هذه الشجرة فى القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور . . .)[1] .

وقد قال بعض السلف عن الكلمة الطيبة أنها كلمة التوحيد ، وعموم اللفظ أنها كل كلمة طيبة ، ولا منافاة بين القولين ، فإن الكلمة لاتطيب إلا أن تكون مبنية على أصل التوحيد ، وكلمة التوحيد لاتثمر إلا الكلمات الطيبة ، والأصل فى الكلام الطيب المثمر ما كان مبنياً على أُسس الشريعة ، وقواعد العقيدة ، ولهذا فإنّ أصلها ثابت .

(الكلمة الطيبة هى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة ، فكل عمل صالح مُرض لله ثمرة هذه الكلمة . . . فلاريب أن هذه الكلمة من هذا القلب عَلى هذا اللسان لاتزال تؤتى ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى ، وهذه الكلمة الطيبة هى التى رفعت هذا العمل الصالح إلى

---

(1) إعلام الموقعين 1 / 189 .

الرب تعالى ، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلماً كثيراً طيباً يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب ، كما قال تعالى :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [1]، فأخبر سبحانه وتعالى أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملاً صالحاً كل وقت . . .) [2] .

وهكذا تثمر الكلمة الطيبة ـ بحسن نية قائلها ـ أو بحسنها ذاتها ، أو لمحض رحمة الله عز وجل بما جعله من بركة العلم مما قد يكون أضعافاً مضاعفة عن أجر العمل ذاته ، وما قد تؤديه لصلاح الخلق ، وما أخصب تاريخنا الإسلامي بكثرة الخلق الذى انتفعوا بالمواعظ ، ثم صاروا من قادة الأمة ، وكتب الله لقائل الكلمة مثل أجور أعمالهم من غير أن ينقص منها شيئاً .

* فهذا التابعى أبو محمد حبيب يقبل على الآجلة ، وينتقل عن العاجلة بسبب موعظة البصرى حيث وقعت موعظته فى قلبه ، وأقبل على العلم والعمل بعد الموعظة .

* وهذا التابعى الكوفى الثقة أبو عبد الله زاذان الكندى الذى كان يضرب ويغنى بالدف ، وكان له صوت حسن فمر عليه عبد الله ابن مسعود فقال (ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله) فتاب من ضرب العود وكسره ، ولازم ابن مسعود حتى صار إماماً فى العلم .

---

(1) سورة فاطر :(10)
(2) إعلام الموقعين 1/ 189 .

* وانظر ما حصل لسرى السقطى وبشر الحافى . . وأمثالهما . .

والكلمة الطيبة ، قد ينتفع بها سامعها المباشر ، وقد ينتفع بها ـ فيما بعد ـ بل قد يكون نفعه أشد وأكبر ، وقد تلاقى الكلمة قلباً صافياً ، ونية صادقة ، فتتمكن من القلب ، وتثمر الكلمة بالنية ، كما تصادف البذرة الماء الصالح ، والتربية الصالحة ، فتؤتى الشجرة أكلها بإذن ربها ، وهكذا (فرب مبلغ أوعى من سامع) ، وأجر الكلمة المعطاء ، وما يكتبه الله عز وجل للسامع وللمبلغ ، بل ولسلسلة المبلغين ، فلقائل الكلمة كفل منها من غير أن ينقص من أُجورهم شيئاً ، وهذا من فضل الله عى عباده ، ومما فضل به المتكلمين بالعلم عن غيره ، إذا تبقى ثمرتهم منتجة وعملهم مستمراً ، وفضلهم دائماً إلى مايشاء الله ، والناس فى استقبال الكلمة أنواع فمنهم من يسمعها ويعمل بها ، ومنهم من لاينتفع بها إطلاقاً ، ومنهم من يقوم بنقلها للغير ، وما ضر المتحدث أن يتحدث بما يعلم ، ويبلغ الرسالة للناس ، وينقل الكلمة الطيبة ، فسوف يظل الناس على هذه النماذج ، ويجب أن لا يقف الصنف الثالث مانعاً من تبليغ العلم ، ولا حاجزاً فى بث الكلمة الطيبة ، وقد شبّه الرسول ـ ﷺ ـ هذه الأصناف الثلاثة فى استقبال الكلمة الطيبة بأنواع من الأرض فقال ـ ﷺ ـ :

« مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها ثغبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لاتمسك ماءً ، ولاتنبت كلأ ،

فذلك مثل من فقه دين الله ، ونفعه مابعثنى الله به فعلم وعمل ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »

حديث متفق عليه . . . .

(فالنبى ـ ﷺ ـ جعل العالم كمثل المطر ، ومثل قلوب الناس فيه ، كمثل الأرض فى قبول الماء ، فشبه من تحمل العلم والحديث وتفقه فيه بالأرض الطيبة ، أصابها المطر فتنبت وانتفع بها الناس ، وشبه من تحلمه ولم يتفقه بالأرض الصلبة التى لاتنبت ، ولكنها تمسك الماء فيأخذه الناس ، وينتفعون به ، وشبه من لايفهم ، ولم يحمل بالقيعان التى لاتنبت ولاتمسك الماء ، فهو الذى لاخير فيه . . .) [1] .

وهكذا ، ما على الداعية سوى أن يقول كلمته المعطاء الطيبة ، ولايهتم بكثرة الخاسرين الذين هم كالقيعان ، فهنالك من الناس من هم كالأرض الصلبة سينقلون الكلمة الطيبة وتنتفع بها خلائق وبشر كثير ، وقد تثمر فى مكان آخر ، أو تؤتى أُكلها فى زمن آخر ، وقد يستمع للكلمة أُناس كالأرض الطيبة لاتلبث أن تسمع مع صدى الكلمة تكبيرات مدوية ، ولاتمكث حتى ترى لنور الكلمة بريقاً يأخذ بالأنظار ، فتحيا بالتكبير نفوس ، وبالبروق تبصر عيون ، والأجر من بعد ذلك مكتوب لصاحب الكلمة .

وأخيراً . . فلعل هذه الكلمة الطيبة هى من أنواع ما عناه سيد الخلق ـ ﷺ ـ بقوله فيما رواه البخارى :

(إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لايلقى لها بالاً يرفعه الله بها

---

(1) شرح السنة للبغوى 1 / 289 .

درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لايلقى لها بالاْ يهوى بها فى جهنم » .

وقد ركز العلماء السابقون على الشطر الثانى من الحديث لكثرة المتحدثين فى المجتمع الإسلامى ، ولم يُتحدث عن شطره الأول إلا القليل ، ومما قيل :

(والكلمة التى ترفع بها الدرجات ، ويكتب بها الرضوان هى التى يدفع بها عن المسلم مظلمة ، أو يفرج عنه كربة ، أو ينصر بها مظلوماً . . . .) (1) .

فكيف بالكلمة التى تدفع عن مجموع المسلمين المظالم ، وتدفع عنهم الكرب بدعوتهم لإقامة شرع الله ؟ وكيف بالكلمة التى تقلع الظلم من جذوره بتطبيق حكم الله ؟ وكيف بعبارات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ وإذا كانت الدرجات ترفع بما يحقق المصالح الدنيوية فكيف بما يحقق المصالح الأخروية ؟ ، وعلى الأدنى يقاس الأعلى .

إن الأجر عظيم ، والثواب جزيل ـ إذا صحت النية ـ فى الكلمات التى تقيم خيراً ، وتدفع باطلاً ، وتحيى سنة ، وتميت بدعة ، بل ويزداد الأجر ، ويرتفع الثواب فيما يدفع العمل الإسلامى وينميه ، ويدعو جمهور المسلمين لتبنيه ، أو يدفع عنه السوء وما قد يعتريه ، فكيف إذن بما ينشئ العمل ابتداءً ويغذيه ؟ ويعلم الدعاة النظام وفنونه ، وقواعد العمل وأُصوله ؟ مما يؤدى إلى

(1) فتح البارى 11 / 311 .

هداية الخلق الكثير ، وانضمامهم لركب الدعوة وإتمام المسير ، ومع هذا يقال أيضاً : ما هو فضل الكلمات التى تقود - فوق ذلك كله - إلى قيام مجتمع إسلامى ، أو بناء حكومة إسلامية ؟ وكيف بما يخرج الناس من الظلمات إلى النور ؟ أو تحويل المجتمع من الجاهلية إلى الإسلام ؟ وإقامة شرع الله بدلاً عن شرع الطاغوت ؟ .

ومن هنا ينبغى للداعية أن لايزهد أبداً بما عنده من العلم ، أو يبتعد - بحجة الزهد - عن تبليغ الأمانة ، فما يدرى أين يكون الخير ؟ ومتى تؤتى كلمته عطاءها ، بل ومتى تثمر ؟ .

فالكلمة الواحدة قد تنشئ دعوة ، وقد تبنى مؤسسة ، وقد ينقذ الله تعالى بها قلوباً ، أو يعمر بها نفوساً ، بل وقد يحيى الله بها أقواماً من السبات ، أو يخرج بها الله عز وجل أُمماً من عالم الأموات ، وما على الداعية إلا تبليغ الرسالة ، ونقل الأمانة ، والله تعالى يختار الأرض الصالحة لها ولو بعد حين ، وينبتها نباتاً حسناً ولو بعد سنين ، وقد تؤتى الكلمة ثمارها فى المكان البعيد حتى يكتب الأجر للداعية دون أن يشعر ولعل الله تعالى يكتب له أجر النية ، ويبعده - بحكمته - عن سيئة الرياء . . .

وما على الداعية إلا التبليغ ولا يترك الفرصة تفوت من يديه لعل الله تعالى يكتب له أجر الكلمة المعطاء التى لايلقى لها بالاً وترفعه الدرجات ، فلايفوت عليه فرصة رفيق السفر فى القطار أو الطائرة ، ولا فرصة اللقاء العابر على وليمة أو مناسبة ، ولاجلسة الاستراحة فى ناد أو مقهى ، ولا جلسة المرافقة فى الدائرة أو الدراسة ولايفوت مجال الارتباط فى تجارة أو معاملة ، ولايزهد فى الكلمة

الطيبة الصغيرة فى السوق وعند الشراء ، أو فى الحدائق عند الاسترخاء ، أو فى المسجد بعد الصلوات ، أو عند التعارف مع الغير فى السفرات والخلوات ، وأشباه ذلك مما قد ييسره الله ، والموفق السعيد من وفقه الله لكلمة الخير التى تنتشر فى الآفاق فيكتب الله له أجرها وأجر من يعمل بها إلى ما يشاء الله ، والله على كل شىء قدير .

إن قول الكلمة بهذه النيات ظاهره من ظواهر الإيجابية فى حياة الداعية .

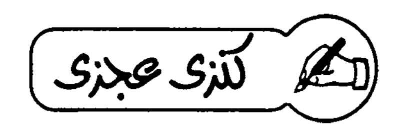
كنز العجز، وثروة الافتقار إلى الله

ويظل شعور المؤمن بالعجز وافتقاره إلى توفيق الله تعالى وعونه وتسديده هو العامل المحرك والمولد لكل أسباب هذه الإيجابية ، وبمقدار تذلُّله لربه تعالى واستمداده منه تكون إلهامات تنويع العمل لديه والمبادرة والابتكار ، حتى ليسن سُنناً فى الخير لم يسبقه إليها أحد ، ثم يصبر على لأواء مرافقة وطول طريق ، فيكون النصر .

إن عجز الداعية عن وصوله إلى هدفه ـ أياً كان ذلك الهدف ـ بعد أن يستفرغ وسعه ، ويبذل جهده ، ويفنى طاقته ، هو الكنز الحقيقى الموصل إلى الله ، لأنه قد وصل بهذا العجز إلى مرحلة الافتقار إلى الله ، واستشعر أن لا ملجأ إلا إليه ، فقطع العلائق مع الأسباب ، وترك بعد ذلك الاختيار ، واسترسل فى مجارى

الأقدار ، فزاد يقينه بقدر الله ، وعلم قلبه بكفاية الله ، ورضى بالمقدور ، وصحَّ منه التوكل ، وقد يدرك المؤمن التوكل بعمومه ، ولكن معنى (العجز) أدق وأخص ، وفيه لايبقى اضطراب من تشويش الأسباب ، ولا سكون إليها ، بل اللجوء لله الواحد القهار .

فاسمع ـ أيها الداعية ـ صرخة النورسى رحمه الله فى (المثنوى العربى) :



ومن هذا المنطلق فإن النصر معلق بالله عز وجل ، حتى تبذل النفوس كل طاقاتها ، وما معنى الجهاد اللفظى إلا استفراغ الوسع كله ، فإذا فرغت النفوس من حظ النفوس ، انطبقت عليها القاعدة ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[1] ، وما عمل الداعية إلا ستاراً للقدرة ، فما عليه إلا أن يعمل حتى يصل إلى الكنز المخبوء تحت ظلال العجز .

(نحن فى هذه الحياة الدنيا نتحرك ، تحركنا أشواق وهواتف ، ومطامح ومطامع ، وآلام وآمال ، وإن هى إلا الأسباب الظاهرة للغاية المضمرة ، والستار الذى تراه العيون لليد التى لاتراها الأنظار ، ولاتدركها الأبصار ، يد المدبر المهيمن القهار . . . .)[2] .

---

(1) سورة محمد : (7) .

(2) فى ظلال القرآن 4 / 2330 .

ولعل من أسرار ذلك ، ومما أراده الله أن نعلمه ، أن العمل قد لايؤدى إلى النجاح وإن كان الداعية يتقن عمله ليصل إليه ، إذ أن النجاح خير يسوقه الله لعباده ، والنصر موهبة من الله تعالى على العمل لانتيجة له ، لأن الله تعالى وهو خالق النفوس ، عرف محبتها للنصر ، فوعدها به .

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1)

وإلا فهنالك من الأنبياء ، والقدرة تحوطهم ، ومع هذا قد يأتى أحدهم - يوم القيامة - وليس معه أحد ، وفى هذا عزاء أيما عزاء لكل العاملين الذين يستبطؤون النصر .

(عن ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله - ﷺ - يوماً ، فقال : **«عرضت على الأمم ، فجعل يمر النبى معه الرجل ، والنبىُّ معه الرجلان ، والنبى معه الرهط ، والنبى ليس معه أحد »** . . .) (2) .

وإدراك (التوكل) ليس بالأمر السهل لأنه من مقتضيات الإيمان ، والإيمان يزيد وينقص ، وكذلك شُعَبُهُ تزيد بالطاعات وتنقص بالمعاصى ، فالمؤمن يدرك القدر وسريانه ، والقضاء وجريانه بحدهما الأدنى ، ولكن التوكل بمعناه الأعلى وإدراك (كنز العجز) مرحلة من التوفيق لايوصل لها إلا بالطاعات ، وترك الهوى ، واجتناب الشهوات ، وقد قال الفضيل بن عياض :

---

(1) سورة الصف : (13) .

(2) حديث متفق عليه .

(من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق) [1] .

وكان الأنبياء السابقون على هذا المنهج تنال منهم (البأساء) بالشدة والفقر والمسكنة ، وتضييق جهات الخير ، (والضراء) بالآلام والأوجاع وضروب الخوف ، وانفتاح جهات الشر ، وينال منهم (الزلزال) بأنواع البلايا والرزايا ، ثم مع هذا ينتظرون النصر ، ويتساءلون عنه ــ دون شك أو ارتياب ـ لأنهم بذلوا من الجهد أقصاه ، ومن العمل نهايته ، فيأتيهم النصر إذ وصلوا إلى مرحلة العجز إلا من فضل الله وقوته .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [2] .

(فبين سبحانه وتعالى : أنه أرسل رسله ، والناس رجلان : رجل يقول أنا مؤمن به مطيعه ، فهذا لابد أن يمتحن حتى يعلم صدقه من كذبه . . .) .

ثم يقول شيخ الإسلام لجماعته عن اللذة التى يحصل عليها المرء عند معرفته الله بعد الامتحان والبلاء ، واكتشافه الكنز الذى سماه اللذة والسرور ، فيقول متحدثاً عن سجنه :

(. . . . فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما

---

(1) روضة المحبين / 479 .

(2)سورة البقرة : (214) .

تقر به أعينهم ، وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته ، والجهاد فى سبيله مايصلون به إلى أعلى الدرجات ، وأُعَرِّف أكثر الناس قَدْرَ ذلك ، فإنه لايُعْرَف إلا بالذوق والوجد ، لكن ما من مؤمن إلا له نصيب من ذلك ، ويستدل منه بالقليل على الكثير ، وإن كان لايُقدر قدرهُ الكبير . . . .) (2) .

وقال الإمام الرازى فى تفسير الآية السابقة بما يشهد لنفس المعنى من وصول الرسل لمرحلة العجز :

(لأن الرسل عليهم السلام يكونون فى غاية الثبات والصبر وضبط النفس عند نزول البلاء ، فإذا لم يبق صبر حتى ضجوا ، كان ذلك هو الغاية القصوى فى الشدة ، فلما بلغت بهم الشدة إلى هذه الدرجة العظيمة قيل لهم : ﴿ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾(2) . . . وأنتم يامعشر المسلمين كونوا على ذلك وتحملوا الأذى والمشقة فى طلب الحق ، فإن نصر الله قريب ، لأنه آتٍ ، وكل ما هو آتٍ قريب . . . .) (3) .

ومن هذا كله ونظائره لابد من استنفاد الجهد ، واستفراغ الطاقة حتى مرحلة العجز ، وحصاد الكنز ، وعلى مستوى الجماعة ، وطلب النصر الدعوى ، فليعلم ـ الداعية ـ أن نصر الله قريب إذا وصل الغاية .

(إنه مدخر لمن يستحقونه ، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى

---

(1) فتاوى ابن تيمية 28 / 41 .
(2) سورة البقرة : (214) .
(3) تفسير الرازى 6 / 20 .

النهاية ، الذين يثبتون على البأساء والضراء ، الذين يصمدون للزلزلة الذين لايحنون رؤوسهم للعاصفة ، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله ، وعندما يشاء الله ، وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها ، فهم يتطلعون فحسب إلى (نَصْرُ اللَّهِ) ، لا إلى أى حل آخر ولا إلى أى نصر لا يجىء من عند الله ، ولا نصر إلا من عند الله . .) [1] .

وليس (كنز العجز) على مستوى الجماعة فقط ، بل ولَكَ ـ أيها الداعية ـ ، وفى كل إطار عمل أنت فيه . . . ففى الخطط المرحلية ، وفى طلبك للنجاح دون النصر النهائى ، إذا ما ادلهمت عليك الخطوب ، وسدت عليك المنافذ فاركن إلى الكنز الذى لايضيع ولاينفذ ، واستمع إلى قول أحد الزهاد فى دعائه :

(اللهم أغننى بالافتقار إليك ، ولاتفقرنى بالاستغناء عنك) [2] .

(وإذا عظم المطلوب ، وأعوزك الرفيق الصالح ، فارحل بهمتك بين الأموات ، وعليك بمُعَلّم إبراهيم . . ومن الله سبحانه الاستمداد ، وعليه التوكل ، وإليه الاستناد ، فإنه لايخيب من توكل عليه ، ولايضيع من لاذ به ، وفوض أمره إليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل) [3] .

(1) فى ظلال القرآن 2 / 219 .
(2) البيان والتبين للجاحظ 3/ 220 .
(3) مفتاح دار السعادة / 32 .

سلسلة رسائل العين

الرسالة السادسة

تقرير ميداني

بقلم

محمد أحمد الراشد

تقرير ميداني

حين يبلغ الداعية أشده ، ويبلغ أربعين سنة : يبدأ يفهم الحياة حقاً ، ليس قبل ، ويرى قسمة الله تعالى العقشولَ والهممَ والقلوب والنفوسَ والأخلاقَ على الناس والدعاة كقسمته الأرزاق ، ويبدأ وعى بعض سر الحكمة الربانية وجريانها واسترسالها ، ورؤية قرائن الخير والشر فى الأقدار ، وتكون له عين نافذة تمنحه موازينَ بصائر وفكَراً حرائر .

إنه طول الأيام ، وتوسّع المراقبة ، وتكرر الأشخاص ، وتنوع التجريب : ينقل الداعية إلى نظر جديد ليس يملكه الشاب المبتدئ ، بل ولا الذى توغل إلى المنتصف ، ويقتنع حينذاك بوجوب ترك الحدّيات الجازمة ، والعاطفيات الحالمة ، والقانونيات الجامدة ، ليستبدلهن بقلب كبير رحب الأرجاء يستوعب كل من هنالك ، فيمد كف المصافحة ، ليس إصبع الاتهام ، ويتبع سد الذريعة ، لا السنّ بالسن ، ويعرف نُبل سبق الرحمة الغضب .

هى الحياة ، لا يحياها حق حياتها إلا مَن يفهمها . .

أهلها : شجاع ومنسحب ، وكريم ومحاسب ، وذكي وبطيء ، ومبتكر ومقلد ، وطموح ومتئد ، وصبور وَجزع ، فهُم : متعَب وسعيد ، ولاهث ونائل ، فهُم ثانية : مُعين ومستعين .

وواجب قلب (العَين) أن يسع كل هؤلاء ، وأن يعين أهل

الإعانة على إتمام إحسانهم ، وأن يرفق بالمحصَر المحدود ، والمهموم الحائر ، يعينهما على اجتياز الحدود الآسرة ، والاقتباس ممن فضله الله بالعلم والمكارم تفضيلاً .

الصواب يقال له : صواب ، والخطأ : خطأ . .

يقالان تربية وتعليماً وإرشاداً ، ليكون الموفق اللاحق - إذ يصل - قرة عين للأعيان ، وسبب سرور للسابقين ، به يأنسون ، وبوصوله يبرهنون على أن سُنة السير ماضية ، ولئن أحجم فاتر فتوقف فإن لغيره الوثبات .

ميزهم عبد القادر الكيلانى رحمه الله ، ورأى كيف :

(يُصطفَون على أهاليهم وأهل زمانهم . تتميز معانيهم ، وتتنور مبانيهم ، ولهذا فارقوا الخلق ، وزهدوا فى المألوفات . ساروا إلى قُدّام)[1] .

وهم الذين يحبهم الله تعالى ، ويأمر ملائكته أن ينادوا فى الناس أنى أحببتهم فأحبوهم .

نَبضٌ ووَمضٌ .... يحددان هويتنا

وعلى طرف آخر : ثَمّ نقيض ، لا يتحمس له المقابل ، لأن شخصية الداعية إنما هى هبة من الله تعالى ، يهب من يشاء الشخصية

(1) الفتح الربانى / 45 .

المحبوبة ، ويجعل الناس والدعاة في فتور وصدود عن آخرين .
ورب داعية نعاشره فنجد أبعاد تصرفاته وأخلاقه وأذواقه دقيقة حتى السنتيمتر ، بل حتى الملي سنتيمتر ، لكنه ثقيل الظل لا تألفه النفوس ، وكأن النية هي التي تميز عمل هذا عن هذا في روع المقابل الناظر المعامل ، بعد إذ استويا في الظاهر ، ثم يزداد التمييز دقة ، فيشهد قلبك أن شخصاً ينتصب أمامك فجأة هو من الدعاة ، ولربما تكلم بكلمة واحدة أو لم يتكلم ، وآخر يحفظ رسائل الإمام وتجزم بأنه غريب دخيل .

وطلب قاصد لإحدى المدن مرة عنوان عَين من أهلها يأنس به ، فلم يعط ، حَذَراً ، فوصلها بسيارته مساء يتلفت ، ووقف عند شاب ينتظر سيارة ، يسأله عن مركز المدينة ، فقال الشاب : أركبُ معك أدلك وأصل إلى بغيتي ، فركب فقال : سبحان الذي سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين ، فقال له القادم : يسلم عليك أبو فلان ، فقال ، وعليك السلام وعليه ، فتفرسا ، فالتقت الومضتان ، فكانتا أقوى من ليزر . . . !

هو كذلك أمرنا : طابع لا يقلد ، ونمط لا يُحَاكَى ، وهو أشبه بظاهرة المروءة لما سأل عنها سائل ، فقيل له : تؤخذ معاملة ولا تؤخذ نطقاً .

فمعنى « الدعاة » لا يوصف ، ولا تفصح عنه الكتب ، مع أن ألفاظ المعرّفين قاربت ، وإنما حقيقتهم الدقيقة أنهم : (روح يسرى في هذه الأمة) كما وصفهم الإمام ، وللروح نبضات ، أو : هم سمتٌ ونَفَس ، وذوق ونَسَب ، وتعرف هذه الروح من التجارب

والمخالطة وقصص الأعيان أكثر مما تعرفها من المدونات والأسطر ، ولذلك كانت كتب الأستاذ عباس السيسى أصدق كتب فى وصف الدعوة ومعناها ، وأقربها إلى الدقة ، وأعلاها عاطفة، لأنها تتحدث عن يوميات وأمور صغيرة من سيرة الدعاة تكشف عن الحقيقة الكبيرة والهوية الفذة المستقلة ، وتجدها هىَ هىَ بمصر أو العراق ، وبالخليج أو الجزائر ، ولذلك فإن اندساس الغريب داخل الجماعة صعب غاية الصعوبة ، وتشكل مسحة الدعاة الخاصة ، وأسارير وجوههم ، ونبرات أصواتهم : علامة مسجلة هى فى الحقيقة أهم صمام أمنى واحتياط وقائى ، وصدقهم الفريد هو كلمة سرهم ، وومضة عيونهم هى جواز مرورهم ، حتى لو أن شاباً آخاهم أول شبابه شهوراً ، ثم غلبته شهوته فانغمس ، فإن بقيةً من طُهرهم تبقى تحكم حركاته ولو بعد عشرين سنة من بُعده عنهم ، رغم فجوره، ويكون الفاجر التقى ، ولربما رده الحليب الحر ، فيعقله الحياء عن إعلان العودة ، فيبعث أولاده ، يستعيد تاريخه بهم ، ويتذكر الأنفاس .

الأرزاق الصافية ... لقلوب عالية ..

والله يجزى كلاً بنيته ، وجزاء الإحسان ـ عنده ـ الإحسان ، والرزق ، والتيسير ، وراحة البال ، وسكينة النفس ، وما بذل أحد بذلاً إلا عوضه الله تعالى فى الدنيا قبل الآخرة ، ولقد رأينا دعاةً نكلفهم ، ونطلب منهم التفرغ للدعوة ، أو القناعة بوظيفة دون

أخـرى أقـرب لسـاحة العـمل ، أو يصـبـرون أنـفسـهـم ـ هم من تلقـاء أنفسـهـم ـ على ثغـرة يرابطون عليـهـا ، فـيـعلـم الله منهم التـجـرد ، فيعوضهم خيراً مما لوكانوا استجابوا للحساب الدنيوى الظاهر .

منهم داعية نال الدكتوراه فى الهندسة من جامعة أمريكية راقية ، وأمـامـه منفذ لتـدريس جـامـعى فى الخليج براتب ضـخـم ، فيُـرشح للتفرغ لنشر الدعوة فى منطقة محرومة من داعـيـة ، وبراتب مقداره دون رواتب الجامعـات بكثير ، فيفـهم ، فيلبى ، فيعوضه الله بوظيفة فى ساحة عمله لا تشغله غير يومين ، وبضعف ما رضى به أولاً .

وآخـر تُحجز له وظيـفـة فى المنامة ، وهو من حـمـلة الماجسـتير ، ويشجعه أصحاب له ، وينتظرونه ، فنقول له : المنامة تُنيم القلوب ، وبيشاور توقظها . وهى تهبط بالهـمم ، وبيشـاور تُعليهـا ، فيزيد إلى خطوته خطوة أخرى فقط ، فإذا هو بأجـواء الجـهـاد يسـرح ، وبقـرب المجاهدين يمرح ، وراتبه النقى ليس أقل من الراتب المكدر .

ومتـجـردان على حـدود خـراسان ، يبيـعـان الأمشـاط على منضدة فى مـدخـل سـوق ، ليس غـيـر ، فـيـكـون رزق كل منهـمـا ثلاثة أمـثـال راتب الموظف الجامعى هناك ، فمن الله نعمة ، وممن خلفـهم دعاء ، ومن الرافعى تحليل لمثل حالهم ، حِين اكتشف :

(إن الأشيـاء الكثيرة لا تكثر فى النفس المطمئنة . وبذلك تعيش النفس هادئة مستريحة كـأن ليس فى الدنيـا إلا أشيـاؤها الميسرة . أما النفوس المضطربة بأطماعـها وشـهـواتها فـهى التى تبتلى بهموم الكثرة

الخيالية . ومثلها فى الهم مثل طفيلى مغفل ، يحزن لأنه لا يأكل فى بطنين) [1] .

إن هذه القصص تنهض برهاناً وافياً على خطأ ما يعتقده البعض من أن أرضاً ما هى مكان المال والترف من دون أرض الله الواسعة ، ولم يفطن هؤلاء إلى تبديل المعادلة ، لهبوط أسعار النفط ، أو البورصات ، أو الاحتيال على البنوك ، كما لم يعلموا خبر تعب من يسكن أرض الأموال ، وأنها معسكر عمل ضخم فحسب يستهلك العواطف ، ويمتص رطوبة القلوب حتى يتركها أليافاً ذابلة ، حتى ليكاد المرء يذهل عن أصله ، وينسى الحنين إلى فصله .

ثم هى برهان على وهم من يظن الغرب بديلاً ، حيث جيرانك النصارى ، وحيث لا تلتذ الأذن بأذان ، ولا يتقن أولادك العربية ، وتخاف عليهم الانحراف .

أما إن بعض الدعاة سكن الغرب أو أرض الأموال فتلك توزيعات القدر لا نمنعها ، إنما نعيب الحرص على سكناهما والاستقتال فى ذلك وجعلهما منتهى الأمانى ، فوق أن من سكنهما بين مرتبط بعلاقات إسلامية نافعة ليس من مصلحة الدعوة انفكاكه عنها ، أو تشابكت حياته بقضايا قانونية واجتماعية ليس من السهل الإنسلال منها ، ثم هى مصدر تمويل خيرى ، ومن التكلف المصطنع أن تفتعل نقل داعية مسترسل فى حياته ووظيفته ورزقه بحجة قسوة المحيط ، ولكن نصيحة غير المتورط بعدُ : أمر آخر .

---

(1) وحى القلم 1 / 33 .

وما نظن نصيحتنا هذه بدعة ، بل الوقاية من آثار المال النفسية هي سبيل قديم للمؤمنين ، وسُنة من سننهم نحاول أن نحييها ، وكان الحسن البصري - رحمه الله - يقسم ويقول :

(والله لقد أدركت أقواماً لو شاء أحدهم أن يأخذ هذا المال من حلّه : أخذه ، فيقال لهم : ألا تأتون نصيبكم من هذا المال فتأخذونه حلالاً ؟ فيقولون : لا ، إنا نخشى أن يكون أخذه فساداً لقلوبنا .)[1].

وجعل ابن الجوزي ذلك رأس القواعد الإيمانية ، فقال :

(القناعة بما يكفي ، وترك التشوّف إلى الفضول : أصل الأصول)

ثم قال :

(والعز ألذ من كل لذة ، والخروج عن ربقة المنن ولو بسفّ التراب أفضل)[2] .

أساتذة الزهد الجديد

ومن المصطفين الذين رآهم الكيلاني يمشون إلى قدام : نفر من رهطنا نبلاء أمناء ، يكاد الأمير يخلي مكانه لهم لولا الشروط ، وبهم نفخر .

(1) الزهد للإمام أحمد / 37 .
(2) صيد الخاطر / 304.

منهم داعية من بيت جاه ومال ، ورباه الدلال ، وكان يحصل كل شهر على ألف دينار من الحلال ، ثم هاجر ، وتشرد وافتقر ، ووجد نفسه فجأة ولى أمر عدد من المهاجرين ، يرعاهم ويقتسم معهم رغيفه ويشرب من بعدهم وَشَلَهم ، فيقْلق حاله الفضلاء ، فيشفعون له لدى رجال الأعمال ، ثم يدعونه إلى رحيل حيث تنتظره وظيفة جيدة، فيأبى ، ويختار المرابطة مع إخوانه ، يربيهم ، صابراً على الابتلاء ، والنجيبة معه محتسبة .

فكذلك الإيثار يكون ، وهو طريق الآخرة صفاء كله ، وإنما يذوق حلاوته حُرٌ مثل هذا جعل دنياه وراء ظهره .

وكان جعفر الخُلدى ـ رحمه الله ـ يقول :

(سعى الأحرار فى الدنيا يكون لإخوانهم لا لأنفسهم .) .

ولله در شَهْم آخر ، يخرج من الموصل ، فيقطع جبالاً ثلاثين ، وقفاراً سبعة ونصف طريقه خطو على قدميه ، حتى يستقر مع المجاهدين فى الميدان وراء كابل ، ويتزوج فيهم ، ويلقنهم مبادئ الدعوة وفكرها ، ويرسل يطلب من إخوانه كتباً دعوية مع السلاح والذخيرة ، ليتقن تربية من معه ، وليكون الجهاد محروساً بوعى ، وتبلغ مشاركته أن يغزو الروس داخل الحدود الحمراء ويقفل ظافراً .

إن هذين الأستاذين فى الزهد الشرعى يعلمان الدعاة أن الرهبانية المبتدعة إن كانت موتاً ، فإن ماهم عليه من القناعة هى الحياة النابضة التى تعين على الحركة والجهاد والإنكار على أهل المنكر ، وماكان إخلاد المسلمين إلى الأرض وذهاب عزهم وعز دولتهم إلا

حين توقفوا عن ضرب مثل هذه الأمثلة الرفيعة فى العصامية والتجرد ، التى ميزها إقبال ـ رحمه الله ـ حين رأى أنْ :

شتّان بين خلوة راهبٍ
وشراع فقرٍ فى عباب يمخرُ
لما أضاع المسلمون على المدى
ذا الفقر ، لما ضاع هذا الجوهر
لم يبق فيهم من سليمان ولا
سلمان دولة عزة لا تقهر [1] .

فزهد الداعية هو شراعه الواسع المتين الذى يشق به بحار العمل والجهاد حقاً ، وترهق جامع المال حراسته ، فهو عن درب الهجرة قصى ، وعن نسمات كابل أقصى .

صور من تنافس النبلاء ...

وكما يكون إبداع الشاعر معنى لم يُسبق إليه ، أو اجتهاد الفقيه فتوى يتجاوز فيها التقليد : يكون نبل النبلاء أحياناً بدعة فى جيل متمرد على خصال الإحسان ، لا يتجاوز عن حق ، ولا يغض الطرف عن خطأ .

(1) ديوان ضرب الكليم / 34 .

منهم شاب عراقى فى أزهى سنوات شبابه ، يتمرد على الأعراف ، ويتجرد فيتزوج أرملة شهيد من شهداء الجهاد السورى ، وضم تحت جناحه أربع بنات لها ، يربيهن ويُحيى مذهب المروءة .

ومتورط بزوجة فيها طبيعة ينكرها عرف الأحرار ، وآخر تعجل واسحييا فورطوه بامرأة لا تناسبه ، فيصبران ، ويستران .

ورئيس جمعية فى مؤتمرها السنوى ، يركض بين يدى الضيوف، يحمل متاعهم ، ويوصلهم إلى غرفهم ، ويسألهم عن طلباتهم ، ويركض معه إخوان آخرون ، حتى ينهكهم التعب ، وينهكوا الشيطان بالتواضع ، وتذكّر وقفتهم بقصص رجل صالح : ينفق عشرات الملايين فى وجوه الخير ، لكنه مازال فى بيته القديم ، وإذا أتاه ضيف : نحّى الخدم ، وحمل الصينية فيها الطعام على رأسه، إكراماً للضيف .

وداعية جُهل عليه ، فكان أعقل ، وكظم وصفح .

فهؤلاء مظهر قدر الله تعالى فى استمرار سند المكارم ، ووقفاتهم برهان على نزعة الأصالة .

لكن بالمقابل .... نفر يجزعون .. !

ولو اطردت هذه المناقب لجميع السالكين لوصلوا منذ وقت بعيد، ولكن شاء الله وحكم أن يكون مع الراكض قصير الخطو ، ومع حديد النظر من يفرك عينه .

منهم قوم يجزعون ، وليس يليق للدعاة أن تستولى عليهم الحساسية التى تتركهم فى تبرم لو فحصت سببه لما ألفيت ثمّ غير صغائر .

فالجزع عند المعاتبة - مثلاً - ينحت نحتاً ضاراً من قابلية استدراك الخطأ ومعالجة العيب ، وكل داعية لابد خطّاء ، ولا مفر من طبيعته الإنسانية ، وليس يصح لأحد أن يألم لكلمتين خفيفتين تقالان له ، بل حتى ولا لثقيلتين .

والحياة المعاشية اليوم يسودها تنافس شديد ، وكل مدير دائرة أو متمكن نزّاع إلى بنى جلدته ومعارفه يقدمهم ويدخر الفرص لهم ، وخير لكل عين يتخرج أو يهاجر أن يطيل صبره وأن يدع التأفف ، فإن الأرزاق مكتوبة ، والوسطاء من إخوانه يأخذون بالأسباب ما استطاعوا ، وليحسن بهم الظن ، فإن لم ينل الوظيفة وزهدت الجامعات فى طاقات فكره فليس أجمل من أن يتواضع ، وينزل إلى ميدان المهن وأعمال الخدمات المدنية ويأكل من عمل يده ، وليتحمل الشمس والبرد ، وله أن يفخر بقطرات عرق ترى على جبينه ، أو رعشة فى يده من إرهاق ، فإن العمل شرف ، ومن التعسف أن يشترط لوظيفته أو مهنته أن تجلسه خلف مكتب وتحت مكيف هواء ، وسيأتى الوقت الذى يدلف فيه إلى وظيفة مريحة أو تجارة رابحة .

وهجرة من هاجر إنما هى لله تعالى ، ولذلك لا يعيب المهاجر أن يفهم وضعه كما هو ، وأن يتكيف لحقائق الحياة الصعبة فى دار الهجرة ، ويعرف أنه محروم من كثير مما يتمتع به الناس ، بل مما يتمتع به بعض أصحابه المهاجرين ، وبخاصة فى كماليات الحياة وزينتها ، وليس له أن يرهق إخوانه بطلب جواز سفر مثلاً للحج أو العمرة أو

الاصطياف إذا كان آمناً في سربه ولا تثير السلطات في محل إقامته قضية الجواز ، وليتذكر خروجه يوم هجرته خائفاً يترقب وليس بينه وبين الموت غير إصبع إذ الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، فأمنه الله ونجاه وتربّع في أرض المرابع .

وأيما رجل منا شارك إخواناً له في تجارة فليعلم أنها تجارة كاسمها، فيها احتمال الخسارة وضياع المال ، والتوفيق من الله تعالى، وليس كون ماله (تحويشة العمر) بمعط له ميزة في رفع الصوت على أخيه تولى الصفقة فعوكس ، ولا له حق التذمر الصاخب ، وفي الشكوى الهادئة شيء من البأس كذلك وإن كانت أخف غلطاً .

ونكره لداعية وجد في امرأته نقصاً أن يجزع ، فإن صويحبات أصحابه ربما هن كذلك أيضاً ولسن بصحابيات ، وأقرب للمروءة أن يصبر ، بلا إذاعة للشكوى ، وليعمل عملاً صالحاً يدخله الجنة ، فهنالك الحور العين يتخير منهن ما يشاء .

حتى في الأمر التعاوني نجد للجزع روّادا ، فمنهم من يستسلم للهموم المعاشية أو العائلية ويترك العمل والمشاركة في وجوه النشاط ومن يُضرب عن حضور اجتماع أجله المدير أكثر من مرة ، احتجاجاً على التأجيل ، ولا يدرك الضرورات أو المصالح التي تنهض عذراً ، وآخر له نفس صافية ، يتولى قطاعاً أو منطقة أو لجنة وتحت إمرته فضولي ملحاح ، فيقبل تدخلاته ، وينزل عند إلحاحه ، ضجراً فحسب ، ولا يكون حازما . أو آخر مثله ، لكنه لا يصبر على أذى إخوانه له أو يكظم ، بل يكيل لهم الصاع بصاعين ، وتكون الدقة

بدقتين ، لا يعرف التربية بطول الأناة واستيعاب الجافي .

إن مثل هذه الأحوال ، ومثل ذلك الانهيار أمام شدائد المعيشة ، هي شواهد على أن حاجيات الناس في الحياة :

(لا تتعقد بطبيعتها ، ولكن بطبائعهم فيها ، ولا تستمر بقوتها، ولكن بإمداد قواهم لها ، ولا تغلب بصولتها ، ولكن بجزعهم منها ، ولا تعضل من ذات أنفسها ، ولكن من سوء أثرهم عليها ، وسوء نظرهم لأنفسهم ولها .)[1] .

وهؤلاء إخواننا يأخذون حرفية المجاز الذي في قول عمر - رضي الله عنه - وترتيب المسؤولية على نفسه لو عثرت بغلة بأرض العراق ، وينزلون ذلك تنزيل الحقيقة ، ويحسبون أن كل من تعثر بغلته اليوم بأرض بيشاور ، أو جبال الأناضول ، أو أرصفة شيكاغو ، فإن الإمارة مسؤولة عنها مسؤولية تكليف قانوني تام بحق جازم ، وليست هي مسؤولية أخلاقية بحدود التكافل الأخوي الذي يحرص عليه الأمير ما استطاع ويحاسَب عليه بالحسنى .

إن مصارحتنا هذه إنما هي محاولات لفهم أسرار النفس الإنسانية، ومن باب طلب إتقان التعامل معها ، ونبرأ من تعيير لأحد أو قصد سوء أو تشهير ، والمحرك لنا هو طلب الكمال والمراتب السامية ، ونحن ندرك أن أضعف داعية هو أرقى أضعافاً مضاعفة في أخلاقه من أقوى السائبين .

(1) وحي القلم 2 / 57 .

ولأسواق المرجوحات زبائنها ..!

ومن الدعاة قوم يختارون الخطأ اختياراً ، ولا يجفلون منه إذا دهمهم ، ولا ينفضون أذيال أثوابهم ليبرأوا من العوالق .

فلا يليق لداعية لم يجرب التجارة من قبل بخالص ماله أن يغرى الآخرين بالصفق بأموالهم ، فإنها تحتاج الخبرة واليقظة ، وإذا كتب الله الخسارة فسيكون أول ضحية وتخسره الدعوة وإن بقى شبحه معها بما يكون من التلاوم وتكدر النفس وأفكار الوساوس .

وأعقد عقد الحياة : الزواج ، لما فيه من رابطة دائمة تجعل الصبر عند عدم الرضا مشحوناً بمضض ، أو مافيه من احتمال الطلاق وسوء السمعة التى تعقبه واللغط والتجنى على أحد الطرفين . ولذلك يجب على كل منا أن لا يستسهل أمر التزويج والتوسط فيه ، ولا المبالغة فى الحماسة للجمع بين اثنين، وإنما يكون هذا الأمر وفق دراسة متأنية وتشاور سرى بلا ضجيج ، فيحرص على التكافؤ العائلى والثقافى والبيئى ، ويسأل عن الطباع والعادات، وليست الصلاة وحدها والعفاف والحجاب دلائل الصلاح والتوافق ، ولرُبّ بخيل يقلب حياة كريمة إلى جحيم ، أو فوضوى ربيب بيئة عامية يحيل أيامَ معتادة على ذوقيات رفيعة إلى حرج متواصل ، أو لَجُوج تستفزه الصغائرَ ينكد على حرّة ساعاتها ، وما ثمّ إلا مومن .

* ومتحمس لخدمة إخوانه ، يزكيهم مهنياً لدى التجار وأصحاب الأعمال من المصلين ، ويرشحهم لأعمال تقتضى الإتقان والإجادة ، وهو أول من يعلم ضعف خبرتهم واحتمال تضييعهم لمصالح من سيأتمنهم على مصنعه أو مقاولاته .

* وآخر يتزوج من غير تشاور مع إخوانه ، وربما يُبعد فى الاختيار ويلجأ إلى غير بنات بلده ، فيتعبه اختلاف الأعراف ، وحرص الغريبة ، وبُعد الأخوال ، وضعف الانسجام مع زوجات إخوانه .

* ومن له تفريط فى أمر أولاده ، فلا يربيهم على النظافة والهدوء وخفض الصوت واحترام الكبير والحياء من الضيف ، ولا يعلمهم السلام على إخوانه وجواب التحية ، ولا تستفزه الألفاظ المعيبة التى ترد على لسانهم تقليداً لابن جار أو زميل مدرسة ، حتى لكأنهم أولاد رجل عامى وليسوا أولاد مؤمن ، وربما تطيش أياديهم فى صحون المائدة إذ هم ضيوف ولا ينهاهم ، أو يخربون الأثاث فيبتسم ويقول : هو حرك ما شاء الله ، ولو أراد التأديب لوفق له ، ولكن تليّفت عنده بؤرة الذوقيات ، أو عند زوجته التى وكلها إذ هو فى مصالح الإسلام والمسلمين منشغل .

* وعلى عكسه صاحب جد لا يعرف طريق الموازنة ، فيخرج إلى إفراط ، ويشدد على أولاده الصغار فى العبادات والاستيقاظ للفجر وقراءة القرآن ، وربما جعل الضرب عادة ، ويُلزم بناته بالحجاب ومازلن صغيرات ، فيؤسس كراهية الصلاة والحجاب لدى ذريته ، ويكون التمرد عند المراهقة ، ويحسب أنه قد أحسن صنعاً .

* والله ستّار يحب الستر ، ويحب من عباده أن إذا اطلع أحد منهم على سر أخيه وعيبه وهفوته أن يستره ويغطيه ، ويتأكد هذا الخُلُق بين الدعاة ، لأنهم هم الذين يلقنون المروءة للناس ، وإلى دارهم أرزت بقية النبل الذى يتوالى انقراضه فى المجتمع . وليعلم الداعية أن الشيطان قد أوهم أخاه فزل ، ليس يتعمد ، وتقوم سوابقه الفاضلة شوافع له ، فليُشفّعها ، إذ ليس شوقه لنشر خبر العثرات والتلذذ بالإيماء لها فى حديثه أقل شذوذاً منها عن خلق الكرام ، ولو أن هاتك الأسرار حين ينشرها من جعبته أمامنا يقابَل منا بصدود وإعراض عنه لثاب وتاب ، ولكن أُذن السامع تغرى لسان الفاضح أحياناً .

* وكل امرىء فقيه نفسه ، والمفروض أن لا يأذن لطموحه فى أن يلغى معرفته بحقيقة ظروفه الصعبة ، ولكن بعض الدعاة يأذنون ، فيتورطون بدراسة عُليا ماهم لها أهل استعداد وإن كانوا أذكياء ، ويورطون معهم عيالهم، ويتأخرون عن الأعمال الإسلامية الكبيرة دهراً بسبب ذلك ، ولوأرادوا معرفة الإيجاب والسلب فى خطواتهم لانْبَغَى لهم ذلك قبل الخطو ، لكن الفرصة دهمتهم فأنستهم الحساب، وهيهات الجبر ، إذ تشعر النفس عند وجوب التراجع بمعنى الهزيمة ، فتكون المغالبة ، والمعاندة ، وتكون الدائرة المفرغة ، وتضيع ساعات عمر شبوبيته وطاقات عنفوان عقله بين حنى الظهر على المراجع وانتظار أستاذه المشرف .

* ونعم العون للداعية التجارة ، والرزق عين تتفجر تحت أقدام رجال الإسلام ، وهى وصية الإمام فينا أن نسعى للأعمال الحرة دون

التقيد بسلبيات الوظائف الحكومية ، مالم تكن وظيفة لها أثر تربوى أو سياسى أو إصلاحى ، وقد وعى الإمام ذلك فى وقت مبكر - رحمه الله - ولكن الداعية مدعو إلى الرفق فى الإيغال فى هذا الدرب ، وأن لا ينسى نفسه فيغرق ويتلف أوقاته بين مكتبه والتلفون والتلكس وإعلانات الصحف والسوق والبنوك والمعارض

التجارية إلى الدرجة التى تضعف مشاركاته الإسلامية واجتماعاته ومطالعاته وعلاقاته الاجتماعية ، فإن أصل توجهه أن يتخذ من المال وسيلة ، ولطالما ذكر لأصحابه أنه قد نوى هبة بعض أرباحه للدعوة ، لكنه يغفل فيلهيه التكاثر ، ولو أنه أنصف نفسه لاتعظ بقصص مَن غفل قبله من جيرانه فى السوق قبل أن يتعظ بحروف الزهاد ، لكنه يفتأ - رحمه الله - يزداد ، وماذا عليه لو جعل له وكيلاً يذهب ويرتاد ، ولا يكلفه شيئاً غير راتب يسير أو نسبة أو سرقة قليلة فى أقصى الأحوال يمكن له أن يتحملها وغض النظر عنها طالما أن هذا الوكيل يجمع له بين دينه ودنياه !! وعلى الوكيل وزر السرقة وله أصل رأس المال ، ومعظم الربح والنشاط الإسلامى الفعّال ، خوالص صوافى كالزلال !!

* ووصّى النبى - ﷺ - نفراً من أصحابه أن إذا سقط سوط أحدهم وهو على فرسه أن ينزل ليلتقطه ولا يكلف راجلاً بالتقاطه له ، وهى عزيمة لا نبلغها ولا نكلف أنفسنا أو أحداً بمثلها ، ولكن ترخُّصنا لا ينبغى له أن يتوسع حتى نستعمل حقوق الأخوة فى غير محلها ، فنثقل على إخوان لنا من أهل الحمية والنجدة وحب خدمة الكبار والأقران فنجعلهم ضحية مروءتهم وتتلف أوقاتهم بين

التسوق لإخوانهم والإشراف على بنيانهم وإنجاز المعاملات الحكومية لهم ، فإن الإنصاف خير ، ولأهلهم حقوق ، ولأنفسهم مصالح ، وللدعـوة تكاليف ، ومن العـدل أن نعطيـهم فـرصـة تنفس ، ولعضلاتهم ساعة راحة .

* وطريقة فيها بأس أن يتم استنفار عدد من الوسطاء للسعى فى الشفاعة فى قضية ما حرصاً على زخم التأثير من دون أن يقال لكل منهم أن غيره قد كلف بذلك أيضاً ، ويأبى الذوق السليم ذلك ، وقد يتوافد الوسطاء على صاحب القرار فى ساعة واحدة فيتكلمون بكلام واحد من دون أن يشعروا ، فيتولد إحباط وإرباك ، وليس للمهوف أن يحرج أصحابه وأشراف الناس فى سبيل مصلحته .

* وهُمام يتصل برجال رؤساء وأعيان ، من وزراء ومدراء وتجار ، ثم يرى من خلال صحبتهم استفادة الناس منهم ومن كرمهم ، فيغفل لحظة عن معانى العزيمة ، فيطلب مثل الذى يطلب الناس ، فيصغر فى أعينهم بعد إذ كان كبيراً . وتنهار صلته وإن بقى شبحها ورسمها .

* وقضايا الإسلام أوفر جداً وأثقل هموماً من أن تدع عصبة من الدعاة تطيل الضحك ، وتستجيز المزاح وتتخذ لها من صاحب خير فيها محور تندّر وتروى قصصه وغرائبه ، والابتسامة علامة المؤمن ولسنا ننكرها ، والنكتة فى ساعتها سائغة ، والأريحية أصل فى سلوكنا ، والألفة ، والبشاشة ، ليس العبوس ، والقهقهة الأولى لك ، والثانية نهبها لك أيضاً ، فإنا كرماء ، ولكن الثالثة عليك ، وتشفع حسناتك لها عندنا ، وأما الرابعة فيلزمها حدّ لا

شفاعة فيه ، وشعار : الضحك للضحك : باطل ، والهزل الهزيل مرفوض في أوساط العمل الإسلامى ، وإنما الداعية مفوض بالجد والتجديد .

* ووقّاف عند صغائر إخوانه ، يدقق فيها ، ويحصى ويعاتب ويستشهد ، حتى يضجر المعامل له ، وكأنه شرطى ، إذ الأمر أهون ويجرى مجرى المروءة والتجاوز ومراعاة الحقائق البشرية وإطراح المقاييس الملائكية .

* وشجاع على النقيض من هذا ، أستاذ فى المروءة ، وقد ذابت نفسه فى معانى الأخوة ، ويكاد يتلف بدنه فى خدمة إخوانه ، حتى ليركب المخاطر فى ذلك ، ويرحل بعيداً لتحقيق مصالحهم ، وله لذة مع كل خطوة فى سبيل الله ، لكنه فوضوى فى ذلك لا ينضبط ، ولا ينصت لإشارة أمير أو خبير ، ولا يعرف الأولويات ، ولا مقادير استحقاق أهل الحاجات ، ولا الكتمان ، ولا الآثار التربوية لطريقة سعيه ، وقد يفسد أخاه بتعويده الاتكالية إذ هو يريد له الإحسان .



حين تكون النظرية الجماعية مشجباً لتعليق الأهواء

* وشعار الدعوة : أن الطاعة بالمعروف ، وأنها باب من العبادة وطلب الأجر ، وما هى بتبعية ولا إلغاء لأدوار أهل الفضل من الدعاة ، ولذلك فإنه ليس من الأخلاق الدعوية ولا من منهجية التربية القيادية أن نبالغ فى الطاعة إلى الحد الذى نعطل فيه تفكيرنا

ثقة بتفكير الرائد ، ونشيد بوعيه الفريد وعلمه المزيد ، حتى لكأنه المعصوم ووارث الخاتم السحرى ، أو نقول : لو لم يكن قوله صواباً لما قاله ، أو نقول : من المستبعد أن يفوته رأى . بل من فقة الدعوة أن نحاور بالحسنى ، وأن نعتقد عجزه عن العصمة ، وأن نعرض ماعندنا من رأى بأدب ، ثم تكون بعد ذلك طاعتنا الواعية المعتمدة على القرار الشورى .

وهذا القدر من الفهم الدعوى الصحيح لحدود الطاعة ومعنى الإمارة أصبح من العلم الشائع الذى لا يجهله الدعاة ، ولكن تجاهله يكون حين يستقر فى القلب شىء يحمل صاحبه على التماس تمرير معنى من المعانى وإنفاذه ، فيتوسل لذلك بوسيلة المبالغة هذه ، يظن أنها ثمن واجب لتوفير غطاء لإشاعة ما يذهب إليه ، وهيهات ، إذ كان مقلداً فى الوقت الذى يريد له قائده الاجتهاد ، والأمير التقى يحزن إذا رأى سيطرة البداوة الإمعية العاتية اللاغية لآثار المناهج التربوية ، ويبرأ من ذلك ، وكل أمير يفهم أن المقلد أعجز من أن يشارك فى استئناف النهضة الحضارية الإسلامية ، وأن أقدار المقلدين المفوضين لن تعدو تأسيس مشيخة صحراوية ، وفى أحسن نتائج التأول لهم أنهم فى مثل حالة هيام الصوفية بشيخهم حين ينسبون له الكرامات .

* ومن البدائل فى إنفاذ المعانى : أن يقوم صاحبها باستنطاق أقرانه وأخذ رأيهم فيها ، لإضفاء صفة شبه جماعية عليها إذا وافقوه ، فإن وجد سكوتاً أو مغايرة : كان منه إلحاح ربما يضجر منه المقابل فيوافقه للتخلص من حصار الإلحاح ، وماثمّ غيره الإكراه أو

شبهه ، فإذا كان نطقهم : نَسَبَ الرأى لهم وعزاه ، والسوى يربأ بنفسه عن هذا الاختباء ، ويبارز وجاها ، فإنها أخلاق الفروسية وطباع الفرسان حين يثبتون في مواقعهم فى قلب المعارك ، ولكن قد ترى فى أقاصى ساحتها من يُحْمل على حمار أعرج ، ربما ، ولكل مسلم حظه ورزقه من الفكر والعقل والمنطق والوضوح ، أو ترى آخر يعرف الحقيقة الفيزياوية فى وجود فراغ خلف المندفع المسرع تتضاءل فيه مقاومة الهواء ، فيرتضى لنفسه أن يحتل ذاك الفراغ ، لضعف طاقته ، وليعينه التيار المنتقل إلى فراغ الاندفاع ، فيظل راضياً بالمنزلة الخلفية ، والوجهات التبعية .

* وداعية صالح من الذاكرين ، رقّت نفسه وصفت حتى ملأته عاطفة ، ونقلته إلى حالة من الرحمة والشفقة على جميع إخوانه ، بحيث أصبح لا يستسيغ أن نعظ المخطئ بلسان صارم ، ولا يرى جواز توجيه عقوبة لمسيء ، ويفهم حل كل الأمور على مبدأ : تصافحا تعانقا ، غير ناظر إلى عواقب الفتن ، وضرورة الحزم ، وقبح خلع الطاعة ، وعدم تساوى منزلتى الكفّين ، ولو جرت الأمور على قياسه لكنا فى زفة عرس لا موكب دعوة تريد أن تهدم الطواغيت .

* وعلى عكسه صالح آخر ، إدارى فى تعامله مع إخوانه ، وليس فى قاموسه لفظ العاطفة ، يابس ناشف ، يدير قطاعه بأعراف الشركات ، فهو ثابت عند قناعاته لا يتزحزح ، مطرق لا يبتسم ، حَرفى لا يتأول ، نصّى لا يجتهد ، لا يقبل عذراً ، ولا استثناءً ، ولا وصفاً مقارباً ، أو حلاً بديلاً ، وإنما ديدنه الجداول والاصطلاحات والإلزامات والنسبة المئوية ، بل الألفية .

* وآخر لا يعجبه العجب ، ولا يرضى عن صحبه ، إذ هم فى هجرة أو وضع صعب ، وفى تقسيم نعرف نقصانه عن الحدود النموذجية بتأثير الضرورات ، وصاحبنا يقيس بموازين أيام العافية والاستقرار ، ويشتهى على رسله ، ويتمنى مربياً رفيع الصفات ، وأصحاباً أشكالاً ، وهيهات ، ولو قنع بالقسمة وعاون لكان خيراً له وأبرد لقلبه ، ولو وَزَرَ لمربيه لتكاملَ الأمر واستقر .

أنماط دون مستوى الاستنباط

ومن إخواننا أصحاب أنماط نفسية فيها غرابة ، بعضهم يحوم حول أهداف صغيرة مفضولة ، لهم ببلوغها شبع ، وبعضهم يعجز عن استخراج فوائد قريبة منه ، وبعضهم يسلك مضائق جانبية تؤخره إذ القافلة مسرعة فى طريقها الواسع المستقيم .

* منهم المتردد ، الذى لا يعزم عزمة واحدة على فعل شىء ، ويتأخر فى اتخاذ قرار فى شأنه الحياتى المعاشى المحض ، فيتلف أوقاته بكثرة التفكير ، ويبدد أوقات إخوانه بتكرار الاستشارة ، فلا هو بالمقتحم الفاعل ، ولا هو بالتارك الناسى ، وله مع كل مجالسة لإخوانه بحث لما هو مقبل عليه ، كأنه يريد منهم أن يتحملوا مسؤولية قراره .

* وداعية يعلن حرصه على نيل العلم وأن تروى له التجارب ، ونرى فى ذكائه قرينة على صدقه ، فنمكّنه ، فيلبث طول المدة

صامتاً ، يسمع الدرس ولا يتكلم ، ونود أن نعرف مدى استيعابه فلا نستطيع ، ونحب أن نعلم رأيه فيما يقال إن كان مؤيداً أو معارضاً فنعجز ، ونحاول تحريكه بسؤال نطرحه عليه ، فيجيب بحروف قليلة .

* ومع ذلك فهو أحسن من آخر يبالغ فى كل كلامه ، فيتحدث عن وجود ظاهرة يدّعى أنها أقرب أن تكون من علامات الساعة ، فتفحص الأمر فتجدها حادثة فردية ، ويؤذن فى الساحات أنه هو النذير العريان ، فتفزع ، ثم تكتشف أن ليس ثمّ غيروَهْم بلا برهان ، ووسوسة أشبه بالعدوان .

* وآخر يكثر النقد ، ولا يكاد يرضيه شىء ، وينظر إلى الركب السائر نظرة تضعيف ، لما يرى من نقصان الأصحاب عن بلوغ أوصاف النموذج العالى ، وكأنه لا يدرك مغازى لغة الرمز والمجاز والوعظ والحث ، وينزل حروفها منزلة متون القانون وحرفية الدلالة .

* وقريب منه : الكثير التشكّى ، المتأفف ، الضجر ، الذى يدّعى مع كل شمس تطلع على العباد تبشرهم برزق واستئناف عمل أنه غير محظوظ ولا موفق ، وأن الرياح عكست شراعه ، وأنه ممتحن بمحن ، ومريض بأمراض ، وقد يكون ذلك صحيحاً ، إما لذنوب يرتكبها هو أعرف بها ، تليق لها التوبة ، ليتوسع رزقه وأمره ، أو لتمحيص يليق له الصبر لا التوجع .

* وآخر أعطل ، لا تهمه الموعظة التى فى مثل هذه المصارحات ، بقدر ما يهمه أن يعرف من هو المقصود بكل ملاحظة ،

ولربما استدرج إخواناً له إلى شبه مؤتمر ليعينوه في التعرف على الهمَّاس والحسَّاس والمتردد والصامت ، وهذا انحراف بمقصد الرسائل ، واهتمام هابط . .

الفكر والأخلاق .... والذوق الحسن

وكل هذه الملاحظات إنما وردت في محاولة التوصل إلى الصياغة النفسية السوية للداعية ، أو لضبط السلوك الإداري والتربوي ، وهي أمور تضاف إلى ما يوجبه الشرع من التزام أحكام الحلال والحرام ، وإلى ما تفرضه الأخلاق الإيمانية الأساسية .

ولكن قصة صياغة الشخصية الدعوية لا تنتهي عند مثل هذه الحدود ، وإنما تلزمها أيضاً آداب يمليها الذوق الرفيع الحسن لابد منها لتجميل مشاركة الداعية في حياة الناس اليومية وللارتفاع بمستوى تعامله الاجتماعي ، ولابد أن يتميز بأفعاله وعاداته وكلامه وحركاته ومخالطاته عن أعراف العامة وما يعكرها من خشونة وسماجة وعنف وهدر لمقاييس الجمال .

وهذه الحاسة الذوقية ميراث نرثه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعن أئمة الدين رحمهم الله .

(فقبيح بالعاقل إهمال نفسه ، وقد نبه الشرع على الكل بالبعض ، فأمر بقص الأظافر . . . ونهى عن أكل الثوم والبصل النيء لأجل الرائحة . وينبغي له أن يقيس على ذلك ويطلب غاية

النظافة ونهاية الزينة ، وقد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُعرف مجيؤه بريح الطيب، فكان الغاية في النظافة والنزاهة .)[1]

وقال الشافعي لابنه وهو يعظه :

(يابني : والله لو علمت أنّ الماء البارد يثلم من مروءتي ما شربت إلا حاراً .)[2] .

وتجب على الداعية المسلم في هذا السياق سلسلة طويلة من الذوقيات ينبغي أن يضعها في حسابه ، وأن يكون بالغ الحساسية إذ هو يتصرف ويخالط ويشافه ويأكل ويشرب ويزور ويستعمل الآلات، فيحرص على أن يظهر بمظهر الرقة والنظام والنظافة والحفاظ على حقوق الآخرين .

* ففي نظافة البدن والملبس : نحب للداعية أن يكون كثير الاغتسال ، وخاصة أيام الحر حيث يعرق البدن ، بحيث لا نشم منه رائحة العرق ولا من قميصه ولا من جوربه حين ينزع حذاءه في المساجد والمجالس .

وأن ينظف أسنانه بالسواك أو الفرشاة أو بهما معاً عدة مرات في اليوم ، وخاصة عند التوجه إلى المسجد أو النوم ، وأن يقص شعره عند الحلاق ولا يتركه ليكون جُمّة ، وأن يُحجّر أسفل كعب قدمه كل أسبوع .

* وفي مجالسة الآخرين والحضور الاجتماعي : نكره للداعية

---

(1) صيد الخاطر / 159 .

(2) طبقات الشافعية 2 / 72 .

أن يقص أظافره في مجلس ، أو يضع رجلاً على رجل أمام من هو أكبر منه سناً أو مقاماً ، إلا أن يكون بين أقران . وهذه العادة مازالت تعتبر عند الأتراك أشبه بالكبائر ، ولو فعلها داعية لترك مجلسه الناس، وأنكر من ذلك أن يرفع قدمه ويضعها على ركبته الأخرى بحيث تكون أفقية ويتوجه أسفل كعب حذائه إلى وجه أحد الجلساء

وفرقعة الأصابع أو عظام الرقبة في المساجد والمجالس قبيحة ، وكذا كثرة التنخم والنحنحة ، أو التمخط بصوت عال ، ولو استطاع أن يقوم ليتمخط في بيت الخلاء أو الحمام لكان أجمل ، وليكن المنديل معه دائماً ، ومناديل الورق ، وليكتم التجشؤ قدر استطاعته ، فإن تساهله فيه إنما هو من العيب الشديد .

* وفي آداب الضيافة والأكل وإعداد الطعام : نكره للداعية أن يفرش قطعة من المشمع أو النايلون ليضع عليها الطعام والخبز ثم يدوسها بقدمه ، فإن باطن القدم لا يخلو من جراثيم ، وقد يلامس الطعام موطن القدم . ونكره أن يصنع لضيفه طعاماً بالثوم ، خاصة إذا كان الضيف زائراً من بلدة أخرى ، فإن الآخرين سيعانقونه ربما عند التحية ، فيكون في حرج ، ومن الخطأ الظن بأن أكل شيء بعد الثوم يذهب برائحته ، لأن الرائحة لا تنبعث من المعدة بل من خلال تصفية الدم في الرئة أثناء التنفس ، وتظل تسع ساعات بعد الأكل .

ونكره أن يقدم للضيف لحماً غريباً ولا يخبره ، كالأرانب ، أو يقصر مائدته على نوع واحد فقط غير مألوف في ديار الضيف .

وليحذر الداعية أن يشفط الحساء أو غيره بصوت عال ، فإنه

عيب ، أو أن يصدر صوتاً من شفتيه بعد بلع اللقمة ، أو أن يبالغ فى مصّ أصابعه .

ونكره للداعية زيادة إكرام الضيف بتنويع الطعام ، حتى يتعب زوجه فى خدمة الضيوف ، ويصطادهم ويلح عليهم بأدنى مناسبة ، والمسكينة هى الضحية ، وقد تكون مرضعاً ، والتكلف للضيف قد يجعله محرجاً ولا يكرر الزيارة ويلح فى الاعتزار إذا دعى مرة أخرى، ولو جرت الأمور على البساطة لكانت خيراً . ومن التكلف أيضاً : جعل العشاء المتخلل للاجتماعات عشاء تاماً ، فإنه يرهق ويتلف الوقت ، والاكتفاء بالطعام الخفيف أولى وأبرك .

وإذا كان الداعية ضيفاً فليأكل أكله الاعتيادى الذى يأكله فى بيته أو أكثر، لتطيب نفس من دعاه ، ومن العيب أن يأكل بضع لقيمات فقط ، حياء أو لسبب آخر ، فإن ذلك يؤذى الكريم ، ويؤذى نساء البيت اللواتى أعددن الطعام ، وسرورهن يكون بمقدار أكل الضيف .

* وفى الزيارة : نكره للداعية صاحب الأولاد الكثيرين زيارة بيوت إخوانه والبيات بعائلته عندهم الليالى ذوات العدد ، إلا لضرورة ، وقد تتحول المودة التى قصد تأسيسها إلى خصام بين النساء تبعاً لخصام الأولاد . ونكره للداعية أن يأتى إلى لقاء ومعه امرأته وأولاده ، فيكون لبثهم فى بيت أخيه إلى منتصف الليل ، وإنما الزيارة ساعة . ولا يَزُر وقت القيلولة والراحة، ولا أول الصباح وعند منتصف الليل ، وليستأذن بالهاتف ما استطاع مالم تمنع الظروف من ذلك . .

وليكن طرق الباب برفق ، ولمسة الجرس قصيرة ، ليست

متصلة مجفلة . ويكون الوقوف بعد الطرق جانباً لا أمام الباب ، إذ ربما فتحته امرأة ، أو وقع النظر إلى الداخل .

ومن الظلم أن يستهين زائر بأوقات الناس فيتأخر كثيراً عن الموعد ولا يأبه، وأظلم منه من يتشبه بالغربيين فيحاسب على تأخر دقائق قليلة .

وبيوت الدعاة مساجد ، ولذلك نكره أن يدخل االزائر بحذائه إلى الغرف ، بل يخلعه عند الباب ، وليعلّم امرأته وأولاده ذلك أيضاً .

* وفي السلام والتحية : نكره أن يصافح بيد مرتخية ، ولا يد ضاغطة حديدية . والسلام الجاف بكلمة واحدة بدعة وجفاء ، وأشد ابتداعاً منه تكرار السلام حتى يضجر المقابل . ونكره القُبلة بين الرجال ، مع أنها عرف قوي ، ونتمنى أن يسود عُرف بديل عنها فيه مجرد التعانق أو الاكتفاء بوضع اليد اليسرى على كتف المقابل كما يفعل أهل السودان .

ونكره أن يقبّل الداعية يد أميره أو العالِم ، إلا أن يكونا من كبار السن وليس في رأسهما شعرة سوداء .

* وفي الخطبة والتزويج : نكره أن يأخذ الداعية بظاهر حديث : (إذا جاءكم منَ ترضون دينه وخلقه فزوجوه) ، فيزوج بنته أو أخته ممن لا يناسبها ثقافة أو ذوقاً وطباعاً أو سناً ، والحياة المدنية الحاضرة معقدة ، وتأثيراتها نافذة، ولابد من مراعاه الإنسجام وعوامل المكافأة ، إلا أن تكون أرملة أو مطلقة يصعب تزويجها .

ومن المروءة أن يُخبر احدنا بعيب بنته أو أخته أو ابنه ، ثم يكون المقابل بالخيار ، وكذلك العيب الذى فى العائلة مما يمكن أن يورث ، كالجنون أو أمراض الدم المستعصية .

ومن الظلم أن يسرع الخاطب إلى إعلان خطبته لفلانة قبل أن يراها ، ثم يراها ولا تعجبه فينسحب ، ولتكن التمهيدات سرية .

وليس من المروءة أن يستشير الخاطب ، فيخبرونه بشىء من طباع المخطوبة أو أهلها ، فيمتنع ويشير أن فلاناً قد نهاه ، فتثور ثائرة الأهل، وأنكر من ذلك أن يجعل ما اؤتمن عليه من سر العائلة أو حال البنت خبراً مشاعاً يبثه، ويقول : رفضت لكذا ، ووجدتها قبيحة ، وأمثال ذلك .

ومن العدل أن من فشل زواجه وطلق وأراد ثانية : أن يخبرها وأهلها بما سلف منه ، فإنه أبرك وأبعد عن التلاوم . .

ونكره للداعية أن يكون حجاب أهل بيته على نمط غريب ، كأنه التاج فوق الرأس بما فيه من تطريز وتفنن ، فإنه يثير الفضول ويجلب النظر ويؤدى إلى عكس مقصد الحجاب .

وليس من المروءة أن يكثر الداعية تهديد زوجه بالزواج من أخرى، ولا المزاح معها بحديث مثل هذا ، فإنه ثقيل عندها ، وإذا كرهها فليصبر أو يطلق، ولا يشعرها بأنه يكرهها ، وليجتنب الألفاظ العامية القاسية فى الرد عليها .

وليس من المروءة أن يستسهل الداعية إغاظة زوجه لأسباب تافهة وهى صاحبته وخادمة ضيوفه دهراً ، ونحب له أن يحترمها

ويحسن إليها ويقول لها حسناً . .

ونكره أن يُغرب الداعية فى أسماء أولاده بحيث تكون ثقيلة المعنى والجرس ، لا لشيء إلا ليكون الاسم لا ثانى له .

* وفى استعمال السيارة : نلتزم نحن دعاة الإسلام بقواعد المرور ، فإنها من الطاعة الشرعية لأولى الأمر ولو لم يحكموا بالإسلام ، ونحب أن تكون سيارة الداعية نظيفة مثل داره وثوبه .

ولا يليق أن تقف أمام بيت صاحبك وتنادى عليه بمزمار السيارة فى وقت ظهيرة أو نصف ليل ، لئلا تزعج جيرانه ، وإنما ذلك فعل الشباب الطائش .

وإذا سقت سيارتك فى طريق ترابى وقاربت أحداً يمشى فاخفض السرعة إلى أدنى ماتستطيع ، لئلا تؤذيه بالغبار ، ولربما يكون قد لبس قميصه لتوه ، وهذا من أبشع الظلم واللا إبالية التى يقلد فيها بعض الدعاة عامة الناس .

وإذا سبقك سائق بجهل منه وأخذ دورك فى المرور أو فى احتلال موقف فلا تسابقه ، بل اصبر وكن أرفع منه .

ولا تحرص على إيقاف سيارتك فى ظل بيتك أو بيت جارك بحيث تمنع مرور السابلة قرب الحائط ، فترتضى لسيارتك الظل ، وللناس الحر .

وقم فى السيارة الحافلة للمرأة وأعطها مكانك ، ولو كانت سافرة ، ولا تزاحم عند الركوب ، ولا تضايق قارئ الجريدة الجالس إلى جنبك بالنظر فى جريدته .

* وفى استعمال الهاتف : لا تطل الكلام ، ولا ترفع صوتك تظن أن المكالمة يقتضيها ذلك ، مالم يكن الجهاز رديئاً . ودع صاحبك ينام إذا انتصف الليل أو قارب ، لا تزعجه بمكالمة ، ولا بعد الفجر .

ونربأ بأنفسنا أن نستعمل هاتفاً عاماً تشغله النقود بإدخال سلك مثلاً بدلاً منها ، فإن ذلك من سماجة العامة .

واذكر اسمك لمن تكلمه إن لم يعرفك ، لا تتشبه بمن يطلب من المجيب أن يعرف من هو .

وإذا اتصلت ببيت أخ لك ولم تجده وأردت إخبار أهله باسمك فلا تذكر كنيتك فقط إذا شاركك آخرون بها ، فيلتبس الأمر عليه .

ونكره إذا نمت للقيلولة أو فى الليل أن ترفع سماعة الهاتف لساعات عديدة ، تريد أن لا يتصل بك أحد ، إذ ربما كان الأمر جاداً ومهماً ، وخير من ذلك أن لا تفتعل الحياء ، وأن ترجو إخوانك أن لا يتصلوا بك فى وقت الراحة .

* وفى المساجد : نكره للداعية أن يصحب الصغار جداً من أولاده ، وأن يلبس قميصاً يكشف عن أسفل ظهره إذا ركع .

وإذا خرجت من الصلاة بيدك نعلك فلا ترمه على الأرض وأنت واقف ، لأنه سيحدث ضوضاء ، ويثير وسخاً فى وجه من انحنى للبس حذائه ، ولكن اقترب بيدك من الأرض بالانحناء وضعه برفق .

وفى المشى والتنقل : نكره أن لا يدخل الماشى جميع قدمه فى النعال ، فتصفق بالأرض مع كل خطوة . أو أن يضيف قطع حديد إلى أسفل الحذاء كما يفعل الفقراء الذين يمنعون سرعة استهلاكه

بذلك ، فإن الحديد يصدر صوتاً مزعجاً ، وبخاصة فى الممرات الطويلة فى أبنية المستشفيات والجامعات والدوائر .

وإذا سرت عند جدار وقاربت نهايته عند زاوية ينعطف فيها الطريق فابتعد عن الجدار ، إذ ربما فاجأتك عند الانعطاف امرأة ، بل أى سائر ، وقد يكون ما تكره ، من وسخ أو غيره .

والدعاة أجلّ من أن يبصقوا فى الشارع ، إلا فى ناحية فيها تراب عند الضرورة ، واستعمال المناديل واجب ، ولا نلقى زجاجة فارغة فى الشارع أو علبة أو منديلاً مستعملاً .

ونعبر من عند الأماكن المخططة ما استطعنا . .

ولا نضغط أزرار جميع مصاعد العمارة استعجالاً ، فإن ذلك يؤذى المستعملين الآخرين ، بل لنا صبر وتؤدة .

ولا نشارك امرأة فى مصعد عمارة سكنية وبخاصة من نساء الجيران ، فإنها تستحى .

* وفى اللغة والتعبير وعموم الكلام : لسنا نكثر أن نقول : يعنى، يعنى . أو نقول : ها ، ها . بل نجزم ونعوّد ألسنتنا الاسترسال والطلاقة .

ولسنا مثل رجال يقلدون نساءهم فيقولون : بيت أم فلان ، بل نقول بيت أبى فلان .

وليتكلم أحدنا أمام أبناء غير بلده بالفصحى ، ليفهموه ، لا بلغاتنا العامية . . ونكره أن يأتى المتكلم باصطلاحات أجنبية ضمن كلامه لغير ما ضرورة أو توضيح زائد ،فإن العربية جزء من شخصية المسلم .

ونكره أن يحرص الرجل على لقب عائلته إذا كان قبيحاً .

ولنحذرأن نستعمل فى كلماتنا لفظة لا ريب فيها فى بلدنا ، وهى فى بلاد أخرى شتيمة أو عيب أو تدل على قلة احترام ، كقول السورى للمخاطب : ولك ، أو : لك ، وهى عند العراقى وغيره أقرب إلى الشتم الذى يلزمه الحد .

وقوم من الدعاة أخطاؤهم النحوية لا تغتفر ، ولا يعرف حتى رفع الفاعل أو المبتدأ ، وفى مقدورهم أن يتعلموا ويخففوا لحن لسانهم ، لكنهم لا يفعلون ، وهذا من أقبح الكسل .

ولا يجرى على شفاهنا لفظ مكروه مستقبح أو تشبيه فيه لمز ، ونبتعد عن تعابير العامة . والبعض يظن أن ورود هذه الألفاظ فى الأمثال الدارجة التى يستعملها الناس يرفع عنها الكراهة ، وليس كذلك الأمر ، بل أمثالنا عفيفة أيضاً مثل سائر كلامنا .

وإذا شرحت واقعة فلا تطنب فى ذكر التفاصيل التى لا نفع فيها ، فإن روح المقابل قد تزهق قبل وصولك إلى رواية جوهر المسألة .

وتجنب كثرة التعليق على الحوادث اليومية الصغيرة التى تراها ويراها أهل مجلسك ، مما يحدث فى الدوائر الحكومية والمقاهى والأسواق ، كشجار بين موظف ومراجع ، واختلاف رواد المسجد مع المؤذن فى دخول الوقت ، وأمثال ذلك ، فإن التعليق على هذه الحوادث شغل الفارغين ، وعليك أن تمر بهذه المناظر مروراً سريعاً حتى كأن عينك لم تر ، وأذنك لم تسمع ، واشغل أهل مجلسك بعلم نافع وكلام مفيد .

* وفى المطعم والسوق : نحب للداعية أن يمنح شيئاً من المال لفتيـان المطعم والمقهى إذا انتهى وأراد القيـام ، وأن يجزل أجرة الحمال والسائق .

ونحب أن لا يكون الداعية ملحاحاً فى مساومة الباعة ، ولا أن يضع نفسه فى زحمة العامة من الناس إذا تقاتلوا فى البلاد الفقيرة على طعام يباع بتخفيض ، وليحمل أولاده على القناعة بأكل الميسور ، فإنه أحفظ لمكانة الداعية .

* وفى استعمال الكتب : لا تضع خطوطا تحت الجمل المهمة إذا كان الكتاب ليس لك ، ولا تجعله بين يدى أولادك ليمزقوا غلافه ويشوهوا صفحاته ، وأرجع ما استعرت فى وقت مناسب ، فإنها حسرة دائمة يتحدث بها أصحاب المكتبات الشخصية الجيدة : أن إخوانهم أضاعوا كتاباً نادراً لهم ، أو أتلفوا بعض أجزاء كتاب متعدد الأجزاء .

* وفى سلوكنا فى بلاد الغرب : نكره أن يتوضأ المسلم فى بريطانيا مثلاً فيغسل رجله فى مغسلة مكان عام ، كمستشفى أو قسم داخلى ، لأنهم يحبسون الماء بها ويغسلون وجوههم ، ويستقذرون أن تغسل القدم بها .

ونكره لمن شارك فى مؤتمر إسلامى فى أوروبا وأمريكا أن يحضر المحاضرات ويتجول بالملابس العربية والطاقية أو عصابة الرأس ، فإنها فى عرف أهل تلك البلاد ملابس نوم ، ولكن ليلبس البدلة مثلاً ، أو ليلبس الملابس العربية الرسمية ، أى بعباءة وعقال ، أو بعمامة .

ونرى أن تأشيرة الدخول إلى بلاد النصارى تعني عقد أمان يوجب على المسلم الزائر لها احترام قوانينها ، وبها تكون أموالهم عليه حراماً ، ويجب أن يصون ولا يؤذى الممتلكات العامة ، من محطات ووسائل نقل وهواتف وحدائق ، وأن يعاملهم بالصدق والحسنى ، ويعامل موظفيهم وشرطتهم باحترام ، وكان بعض من لا فقه له يتوهم جواز إلحاق الأذى بهم والتحايل على حقوقهم ، وذلك منكر لا يجوز ، واتباع هوى ، وجهل وضلال .

ونكره للداعية أن يتكلف في العفاف ويصل إلى حد الوسوسة فيه ، بأن يشيح بوجهه عن الموظفات المتبرجات إذا حادثنه ، أو أن يسكت لا يجيب أسئلتهن ترفعاً ، فإن حالهن هو مقدار مبلغهن من العلم ، وليكن رفيقاً فإنهن في بلادهن أو شركات أهل بلادهن وهو الزائر ، وليجلس من أراد مثل هذا التعفف الصارم في بيته ولا يكلف أنفس أهل الملل الأخرى ما ليس في وسعها .

* وهناك متفرقات ذوقية أخرى يحسن بالداعية مراعاتها ، وقد تكون متعلقة بحقوق دقيقة يغفل عنها أول وهلة .

فنحن نرى وجوب التزام الداعية بالتسلسل ومراعاة الدور في الأماكن المزدحمة ، الأسبق أولاً ، مثل شراء التذاكر ومراجعة الدوائر والمستشفيات والشراء من الأسواق وركوب الحافلات والقطارات وما أشبه ، وإذا كان مستعجلاً فليرجو الذين قبله أن يعطوه دورهم .

وفي البلاد التي يسكن فيها الناس الشقق المجموعة في عمارة واحدة : نرى أن يحرص الداعية على شقة أمامها بحر أو حديقة أو

أرض فضاء ، بحيث لا توازيه عمارة قريبة . لأن احتياطات أهل بيته قد لاتمنع النظر مهما بالغوا ، وقد يرى من تساهل مَن يسكن الشقق الموازية مناظر مكروهة لا يحسن أن يراها أهل بيته وولده .

ولا نرى الذهاب إلى مكان فيه فرح أو أنس بعد زيارة تعزية لآخرين فى ساعة واحدة ، فإن الحزين الذى عزيته سيشعر بأن زيارتك له إنما هى محض دبلوماسية لا مشاركة لقلبك فيها .

ولا تبادر إلى تعزية من كان مسافراً بموت قريب له أو بمصيبة ، فقد يكون على غير علم بما أصابه ، فتأخذه المفاجأة .

ونكره لمن يستمع درساً أو ينصت لحديث أن يسبق المتكلم بذكر نهاية قصة يسردها ، أو تسمية كتب يذكرها ، كأنه يبرهن على أنه يعرف مثل معرفة المتكلم .

ونكره أن يقلد الدعاة بعضهم بعضاً فى انتقاد أخ لهم من أصحاب الشهامة والخلق النبيل إذا أخطأ ، وبخاصة الأخطاء التى سببها قلة خبرته الحياتية ، والستر على الساذج خير من التلذذ بتوجيه الكلام المر البعيد عن الرحمة إليه . . . .

* فهذه وأمثالها من القضايا الذوقية تعتبر من مكملات الشخصية الإسلامية ، ومن زينة الدعاة ، ويجب أن يحافظ الداعية على سمو منزلته التى وفقه الله تعالى لها ، وعلى احترام عقلاء الناس له ، وأن يتصف كنبيل وسيد وعين ومفكر وفقيه وزاهد ومرجع ، وأن يحمد الله على أن ميّزه عن أهل السوء والغوغاء .

وكان السلف ينكرون الذوق النابى ، كعطاء بن أبى رباح التابعى ـ رحمه الله ، فقد :

(حدَّث رجل بحديث ، فاعترضه رجل ، فغضب عطاء ، فقال : ما هذه الأخلاق ، ما هذه الطباع ؟ والله إن الرجل ليحدث بالحديث لأنا أعلم به منه ، ولعسى أن يكون سمعه منى ، فأنصت إليه وأريه كأنى لم أسمعه قبل ذلك) [1] .

بل كانوا يعاقبون تلامذتهم على ذلك ، مثل محدث :

(أعنفوا عليه فى دق الباب فلم يحدثهم) [2] .

عطاء الغدوّ ووسائل السمو ..

فيا ترى : أنحصل على هذا النموذج الكامل الفريد ؟

وهل يسع الداعية بعد حصاره بدوائر الحلال والحرام ، والمكروهات والمندوبات ، والفكر والأخلاق ، والانضباط والالتزام ، أن يكون على تسعين صفة أخرى من المروءة يفعلها ، وتاركاً لألف صفة من خوارمها ، تعففاً وسمواً ، إذ الناس ـ أكثر الناس ـ لها يفعلون ؟

قد يستصعب البعض ذلك ، وتأخذهم رأفة بالدعاة ، وإشفاق

---

(1) طبقات ابن سعد 5 / 169 .

(2) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم جـ 1 / ق 1 / 267 .

ورحمة ، لما فى المثالية من عناء ورهق ، ولكننا نظل نصر على هذا النمط من التحليق العالى ، وهى صفات وأنماط لابد أن تظهر فينا ، ولابد أن نحييها .

ويستعين الداعية بعد التوكل على الله بوسائل ثلاث لترويض نفسه :

* بالمطالعة فى كتب الأخلاق الإيمانية والطرق الإحسانية ، مثل : مدارج السالكين ، وتهذيب إحياء علوم الدين ، إذ أن الكثير من هذه الأذواق تشهد لها السنة وسيرة الأجيال الراشدة المهدية الأولى .

* وبالمطالعة الأدبية والنظر فى دواوين الشعر ، فإن أكثر الشعراء لهم أحاسيس رقيقة مكنتهم من اكتشاف الأذواق الرفيعة .

* وبالمخالطة الاجتماعية لأهل الفضل وأبناء العوائل الأصيلة والعلماء والكتاب وأبطال الحروب وقدماء المعلمين ، والخروج من مجتمع الدعاة إلى المجتمع الواسع ، فإن فى أشراف الناس بقية خير وافر وإن قصروا عن إدراك معنى الدعوة ووجوب الانضمام إلى رهط الدعاة .

ولكن مع كل ذلك ، ومع إمكان هذه الاقتباسات الخيرية ، فإن الدعوة تبقى ذات ميزة فريدة ، إذ أنها تأبى أن يذوب فى معانيها كل الذوبان وأتمه من لم ينخرط فى سلوكها أول شبابه ، فتطبعه بطابعها الخاص الذى لا يمكن أن يحوز مثله من يأتيها بعد تجاوز سن الشباب الأول ، من التواضع والبساطة والسماحة ، وكمال العفاف وعمق

التآخي ، ووفرة البذل ، والمبالغة في صدق اللهجة ، وتبقى في المتأخر بقية مهما حاول ومهما بلغ في العلم ، وهذه الظاهرة يصعب وصفها والتدليل عليها ، وإنما تحس بالمعاملة والتجريب، ومن ذاق : عَرَف .

نحن صُنّاع الحياة ....

إن معترضاً قد يعترض على هذا التشدد ، وعلى طلب هذه المنزلة العالية من الأخلاق والأذواق والبراءة من العيوب ، ويقول : يصح أن نطلبها من الأعيان ، لكن ماشأن عامة الدعاة ؟

وليس ذلك بصواب ، فإن الضرورة إن جعلت الدعاة طبقات ، فإن واجب الدعوة جعل كل داعية قائداً لجموع من الناس في مدينته أو من أهل مهنته أو من قبيلته وقرابته وجيرانه .

* نحن دعاة الإسلام قادة الحياة ، ونريد أن نبدل التيار ونعاكس الهدم ببناء ، ولن يكون ذلك إلا بمقارعة فكرية وإصلاح اجتماعي وتهذيب أخلاقي ومصادمة سياسية ومسابقة اقتصادية ، ولن يقوم بذلك غير نفر على هذا النمط من النبل والتعفف ، وعلى هذا الطراز من الذوق الرفيع ، وهذا التنزه عن المكدرات والمكروهات ، ومهمة بناء الحياة لا تنتظر إذناً ولا تحتكرها طبقة ولا تلزمها صفة زعامة ، بل هي مهمة كل من آمن ووعى وانتمى . . . . أن يعمل صالحاً .



الرسالة السابعة

تقويم الذات

بقلم

الدكتور/ عادل الشويخ

** إنه خيط من ضوء ، يمثل عينة مقتبسة من أعماق الروح ، ترسله رغبة التقويم ، لتجرى عليه عملية التحليل . .

** فيشق الضوء طريقة فى ظلمات الخفاء والأسرار الدفينة . .

** فليتقطه موشور الصراحة القلبية قبل وصوله إلى مرآة آراء الناس ، ويرى أنه أولى منهم ، وبالمهمة أجدر ، وعليها أقدر ، فيعكس الومضة المتبعثة ، فيحللها إلى ألوان الطيف النفسى ، ويكشف عن المكنون . .

** فتعكسها ثانية عدسة النقد الذاتى المقعرة ، ولا تسمح بتبديدها فى تيه اللانهاية . . .

** فتنتصب الصورة الفردية قائمة . . .

** فإن كانت لثقة : فستكون شامخة . . .

** وتلك هى صورة الغلاف التى صممها وجمع إشاراتها : محمد أحمد الراشد . . .

* * *



تقويم الذات

قد يضطر الداعية فرداً كان أو مسؤولاً للحديث عن نفسه جرحاً أو تعديلاً ، ويتباين حجم هذا الحديث من شخص لآخر ، كما يختلف خفة وجنوباً ، وتختلف الدوافع له ، فقد يتحول من التواضع الملازم لنقد الشخص نفسه إلى التكلف ، ومن المدح التعريفى إلى الغرور المذموم ، وتتباين استجابة الآخرين كذلك لكل من الذم والمدح معاً ، ما بين مصدق ومكذب ، أو بين راض مشارك أو رافض مناكف ، وما بين مستمع معجب، أو ساكت على مضض ، وبالتالى فإن عملية التقويم قد تكون نافعة فى بعض الأحيان ، ولكنها مضرة فى معظم الأحاييت ، وقد يلجأ إليها الداعية أحياناً ، ـ دونما شعور بالضرر ـ مما يؤدى إلى تصاغره فى أعين إخوانه ، وقد يبرر البعض لأنفسهم عذراً، بينما تكون قاصمة لظهره عند غيره .

ومن جهه أخرى ، قد يلجأ الداعية الأمير أو المربى لتبيان نفسه بالحق ، بالخير الذى عنده ، ووفق موازين شرعية صحيحة ، ولكن قصور الفهم عند غيره ، وعدم إدراكهم لأدلة المدح الشرعية أو الموازنة بين المصالح يسبب إعابة لقوله الصحيح ، وقد يودى إلى أن يلجأ البعض إلى النقد والتجريح ، والبعض إلى الثناء والمديح ، ولما بينهما من بون فى التقويم تحصل القالة ، وقد تتطور إلى فتنة بعد غيبة ونجوى . أن حصول هذه الظاهرة وسط الجماعة المؤمنة ، تقود إلى

ضرورة بيانها كمفهوم تربوى ، يحتاجه القدماء كحاجة الجدد ، ولابد من إيضاح أدلته الشرعية ، ووضع الموازين الضابطة له ، التى تخدم الأهداف ، وتقى مواطن الزلل ، ومكامن الخلل .

الواثق ... اللوّام

يتميّز تقويم الداعية لنفسه بأحد أمرين ، أولهما : نقد ذاته ، وتجريح نفسه ، ولومها أمام الناس ، بل والحديث عن نقائصه ، وذنوبه ، ومحاولة إبداء التواضع باتهام نفسه بالعبارات القاسية ، وإضافة خصائص النقص لذاته ، وهذا مما لا يجوز شرعاً فقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل : لقِسَت نفسي»[1]

مما يدل على كراهية مثل هذه الأقوال ، وهى ليست من التواضع ـ وإن كان صاحبها صادقاً ـ لما فى ذلك من أثر تربوى على النفس فى إضافتها للصفات القبيحة ، وفى هذا الحديث :

(أن المرء يطلب الخير حتى بالفأل الحسن ، ويضيف الخير إلى نفسه ولو بنسبة ما ، ويدافع الشر عن نفسه ما أمكن ، ويقطع الوصلة بينه وبين أهل الشر حتى فى الألفاظ المشتركة . . . ويلتحق بهذا أن الضعيف إذ سئل عن حاله ، لا يقول : لست بطبيب ، بل يقول : ضعيف)[2] .

(1) رواه البخارى ومسلم .

(2) فتح البارى 1/ 564.

أما إذا كان نقد النفس يحمل بين طياته نيّه فاسدة كمحاولة إظهار فضل النفس وتواضعها ، وابتعادها عن المدح والثناء ، أولاستجلاب المدح بطريقة ملتوية ، فالأمر أقبح وأسوأ ، وهو من الرياء المبطن ، والتكلف المذموم ، والتفاخر المغلف .

ومما ورد فى ذلك :

قول الحسن : (ذم الرجل نفسه فى العلانية ، مدح لها فى السر) .

وكان يقال : (من أظهر عيب نفسه فقد زكاها) [1] .

* وقد يحصل أحياناً أن ينقد المرء نفسه حتى ينسحب من تكليف ، أو نتيجة ضعف ثقة بالنفس ، أو أن الشيطان يزين له الأمر ويأتى له عن طريق التقوى والإيمان ليبعده عن فعل الخير ، كما قد ينقد نفر آخر أنفسهم من أجل أن ينكر عليهم المقابل هذا النقد ، فيأخذ الذام لنفسه بالمفهوم المضاد فيفرح طرباً حيث استجلب لنفسه المدح المبطن عن طريق ملتو ، أما إذا أراد الإنسان معاتبة نفسه ، ورد كيد الشيطان ، ومحاسبة ذاته فهذا كله شىء حسن ، ولابد للمؤمن منه ، ولكن بشرط أن يفعله ما بينه وبين الله تعالى ، وإلا تحول إلى نوع من الغرور حين يقع فى تلبيس الشيطان ، ويتحول من غرور إلى آخر ، بل هذه المحاسبة الحقة ، وفيها رد يكيد الشيطان ، ومجانبة للرياء الخفى ، والمحاسبة لابد منها لصدق المراقبة ومن حاسب نفسه فى الدنيا ، خف يوم القيامة حسابه ،وحسن منقلبه، ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته ، وهذه المحاسبة تكون بعد العمل ومع النفس.

---

(1) عيون الأخبار / 275 .

قال تعالى : ﴿ يا أيُها الَّذين آمنُوا اتَّقُوا اللَّه ولْتنظُرْ نفْسٌ مَّا قدَّمتْ لغَدٍ﴾ (1)

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) .

وقال الحسن ـ رضي الله عنه ـ : (المؤمن قوّام على نفسه ، يحاسب نفسه) (2) .

* ومن مقتضيات المحاسبة الشرعية توبيخ النفس ومعاتبتها وذمها ، لتقويمها وقودا لعبادة ربها ، ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها ، فقد خلقت النفس أمارة بالسوء . فهذا النقد للنفس والمعاتبة فى الخلوات هو المطلوب ، ويزداد عز المؤمن ، وتطمئن نفسه بزيادة المعاتبة لها س، واستصغار عمله أمام البارى عز وجل ، فالنفس :

(إن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة ، كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل بوعظ نفسك . . . . .) (3)

---

(1) سورة الحشر : (18) .

(2) إحياء علوم الدين 404/4 .

(3) إحياء علوم الدين 416/4 .

مفصل التزكية يشعب طرق التردية

* لقد سبق الحديث عن ذم الإنسان لنفسه فى خلوته وأمام غيره، والحكم فيها . . أما مدح الإنسان لنفسه فالأصل فيه عدم الجواز ، وعليه مدار ذم أمراض القلوب ، وعلى ذلك جرت سنة الخلفاء الراشدين العامة والصحابة ، وعلى هذا المنوال سار السلف الصالح ، استناداً إلى قوله تعالى :

قوله : ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (1)

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (2) .

سواءً كان المدح مع نفسه ، وهو ما يسمى بالعجب أو الغرور ، أو أمام غيره من الناس ، وهو المقصود هنا ، وعلة الكراهية فيه أو عدم الجواز أنه مظهر من مظاهر عيوب القلب غالباً ، ويعكس مدح النفس والمبالغة بإطرائها مجموعة من أمراض القلوب ، بل وقد يقود إليها ومنها :

✧ 1- الرياء وحب الجاه والرئاسة ✧

إذ يغلب ذلك على قلب الضعيف ، فيقصر همّه على طلب

---

(1) سورة النجم : (32) .

(2)سورة النساء : (49) .

المديح ، فإذا افتقده : طلب ذلك بنفسه مراعاة للخلق ، ولشغفه بإبراز ذاته ، وإظهار حاله ، كى تعظم منزلته فى عيون الآخرين ، وفى ذلك مظهر من مظاهر النفاق ، والشهوة الخفية ، وقد يضطر إلى المماراة ، واقتحام المحظور حتى يتوصل إلى اقتناص القلوب .

✧ 2 - الكِبْر ✧

إذ هو خلق باطن تظهر ثمرته على الجوارح ، وفيه يرى المرء نفسه أعلى من غيره بصفات الكمال ، ولا يقدر على التواضع ، ويقوده إلى الغضب لنفسه ، ولا يكظم الغيظ ، ولا يقبل النصح ، فتظهر هذه الخصائص بأشكال متعددة ، منها : أن يظهر الكبر على لسانه بالدعاوى والمفاخر والمديح ، وتزكية النفس ، وحكايات الأحوال فى معرض المفاخرة لغيره ، ومدح النفس بالعلم والعبادة ، أو بالذكاء والتجربة ، أو بالأخلاق والنسب .

✧ 3 - العُجْب ✧

وهو أحد أسباب الكبر وقائد إليه ، فقد لا يصل الإنسان إلى مرحلة التكبر على غيره ، ولكنه معجب بنفسه ، ينظر إليها بعين الرضا ، يركز على محاسنه ، وينسى المساوىء ، ويظن أن ما عنده من نعم كبيرة إنما أوتيها على علم منه ، إلى الحد الذى ينسى أنها من فضل الله تعالى ، وذلك هو ظن قارون الذى أرداه ، بل يظن أنه يظفر أنه ظفر بكل ما يريد ، حتى يرى الصغير فى نفسه كبيراً ، بل قد يستعظم طاعته وكأنه يمن على الله تعالى وعلى الإسلام بعمله أو قوله .

المديح ، فإذا افتقده : طلب ذلك بنفسه مراعاة للخلق ، ولشغفه بإبراز ذاته ، وإظهار حاله ، كى تعظم منزلته فى عيون الآخرين ، وفى ذلك مظهر من مظاهر النفاق ، والشهوة الخفية ، وقد يضطر إلى المماراة ، واقتحام المحظور حتى يتوصل إلى اقتناص القلوب .

✧ 2 - الكِبْر ✧

إذ هو خلق باطن تظهر ثمرته على الجوارح ، وفيه يرى المرء نفسه أعلى من غيره بصفات الكمال ، ولا يقدر على التواضع ، ويقوده إلى الغضب لنفسه ، ولا يكظم الغيظ ، ولا يقبل النصح ، فتظهر هذه الخصائص بأشكال متعددة ، منها : أن يظهر الكبر على لسانه بالدعاوى والمفاخر والمديح ، وتزكية النفس ، وحكايات الأحوال فى معرض المفاخرة لغيره ، ومدح النفس بالعلم والعبادة ، أو بالذكاء والتجربة ، أو بالأخلاق والنسب .

✧ 3 - العُجْب ✧

وهو أحد أسباب الكبر وقائد إليه ، فقد لا يصل الإنسان إلى مرحلة التكبر على غيره ، ولكنه معجب بنفسه ، ينظر إليها بعين الرضا ، يركز على محاسنه ، وينسى المساوىء ، ويظن أن ما عنده من نعم كبيرة إنما أوتيها على علم منه ، إلى الحد الذى ينسى أنها من فضل الله تعالى ، وذلك هو ظن قارون الذى أرداه ، بل يظن أنه يظفر أنه ظفر بكل ما يريد ، حتى يرى الصغير فى نفسه كبيراً ، بل قد يستعظم طاعته وكأنه يمن على الله تعالى وعلى الإسلام بعمله أو قوله .

الأحيان - إلى درجة الوجوب ، وهذا الاستثناء محدد بضوابط وحدود يجمعها عامل المصلحة الشرعية ، وبعض العلماء لم يأذن بمبدأ الاستثناء من الأصل ، وإنما اعتبر مدح الذات على نوعين محمود ومذموم ، ومنهم الإمام النووى حيث قال :

(اعلم أن ذكر محاسن نفسه ضربان : مذموم ، ومحبوب . . .

فالمذموم : أن يذكره للافتخار وإظهار الارتفاع ، والتميز على الأقران، وشبه ذلك .

والمحبوب : أن يكون فيه مصلحة دينية ، . . .)[1] .

ولا مشاحة فى التقسيم فالنتيجة واحدة .

ومن أجل تبيان جواز المدح نذكر بعض الأدلة والشواهد التى تدل على الجواز ابتداءً ، كما أنها توضح المواطن التى يجوز فيها المدح .

* منها : قول النبى - ﷺ - يوم حنين :

« أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب » [2] .

(وفيه جواز الانتساب إلى الآباء ولو ماتوا فى الجاهلية ، والنهى عن ذلك محمول على ما هو خارج الحرب ، ومثله الرخصة فى الخيلاء فى الحرب دون غيرها . . . وفى شهرة الرئيس نفسه فى الحرب مبالغة فى الشجاعة ، وعدم المبالاة بالعدو) [3] .

---

(1) الأذكار / 238 .

(1) رواه البخارى ومسلم .

(2) فتح البارى 32/8 .

ورغم وضوح الاستدلال ، وتخصيص هذا الأمر بالحرب ، ففي غيره من من الأحاديث سعة ، فلقد جاء في هذا المعنى أحاديث كثيرة منها :

« أنا سيد ولد آدم » ، « أناأعلمكم بالله وأتقاكم » ، «أنا أحق من وفّى بذمته » ، « أنا أفصح العرب » ، « أنا أكثر الأنبياء تبيعاً يوم القيامة » « أنا حبيب الله ولا فخر » .

وجميعها تدل على جواز المدح في الحرب وغيره .

* وأقوال الصحابة كثيرة جداً . . منها :

مدح عثمان رضي الله عنه ـ لنفسه حيث قال محاججاً من ثار عليه وتربص به :

(. . ألستم تعلمون أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : **«من حفر بئر رومة فله الجنة»** ، فحفرتها ؟ ألستم تعلمون أنه قال : **« من جهز جيش العسرة فله الجنة »** فجهزتها ؟)فصدّقوه بما قال . . . .

وهو جزء من حديث طويل ، قال في شرحه ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

(وفيها جواز تحدث الرجل بما فيه عند الاحتياج إلى ذلك لدفع مضرة أو تحصيل منفعة ، وإنما يكره ذلك عند المفاخرة والمكاثرة والعجب)(1) .

ـ ومدح ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ نفسه فقال :

---

(1) فتح الباري 408/5 .

(. . . والله لقد علم أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أنى من أعلمهم بكتاب الله تعالى ، وما أنا بخيرهم . . .)

وقال : (والله الذى لا إله إلا غيره ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن نزلت ، لو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)(1) .

وواضح أن مدحه لنفسه كان لرد اعتراضات عليه .

ومنها ما قالته عائشة بنت سعد ـ رضى الله عنها ـ :

(أنا ابنة المهاجر الذى فداه رسول الله ـ ﷺ ـ بأبويه يوم أحد)(2) .

وغير ذلك ، مما هو كثير فى أقوال الصحابة فى مناسبات شتى ، وكذلك فى أقوال التابعين مما لا يترك مجالاً للاعتراض على جواز المدح .

وبقى بعد ذلك أبرز دليل : ما كان من القرآن الكريم ، وهو قول يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾(3) .

وهذا من مدح نفسه .

قال الرازى :

---

(1) رواه البخارى .

(2) شرح السنة للبغوى 124/14 .

(3) سورة يوسف : (54) .

(إن مدح النفس إنما يكون مذموماً إذ قصد به الرجل التطاول والتفاخر ، والتوصل إلى غير ما يحل ، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم)[1] .

وقال القرطبى : (ودلت الآية أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل) .

قال الماوردى : (وليس هذا على الإطلاق فى عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بمصلحة ، أو تعلّق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تزكية ومراءاة) (فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله) [2] .

وفى كتب التفسير الأخرى مزيد من ذلك ، وكذلك فى شروح متون الحديث ، ومظان وجودها فى كتب التفسير عند تفسير سورة يوسف ، أمّا فى الشروح الحديثية ففى أبواب المناقب السِّيَرَ . . .

وسوف يأتى المزيد من الشواهد عند الاستدلال بها للأحوال الخاصة التى يجوز فيها مدح النفس .



(1) تفسير الرازى 161/18 .

(2) تفسير القرطبى 217/9 .

تواتر التقعيد

* من خلال استقراء النصوص السابقة وغيرها ، يتبين جواز مدح النفس عند المصلحة والحاجة ، وهو مما يحتاجه الدعاة أيضاً فى مناسبات شتى وظروف مختلفة ، فلا بد من فهم هذه الظروف والملابسات التى تجوز مثل هذا الأمر حتى لا يمتنع عنها الداعية تورعاً أو حياءً ، أو ينتقد عليها القائد أو الأمير جهلاً أو تنقيصاً ، وبذلك تفوّت مصالح راجحة على الدعوة .

وسوف نقتصر هنا على ثلاثة نصوص تشمل أكثر هذه الظروف والأحوال التى يجوز فيها مدح النفس ، ثم نذكر بعدها الحالات بشكلها التفصيلى :

الأول : ما ذكر الإمام النووى فى كتابه (الأذكار) :

(. . . والمحبوب أن يكون فيه مصلحة دينية ، ذلك بأن يكون آمراً بمعروف ، أو ناهياً عن منكر ، أو ناصحاً ، أو مشيراً بمصلحة ، أو معلماً أو مؤدباً ، أو واعظاً ، أو مذكراً ، أو مصلحاً بين اثنين ، أو يدفع عن نفسه شراً ، أو نحو ذلك فيذكر محاسنه ناوياً بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله ، واعتماد ما يذكره ، أو أن هذا الكلام الذى أقوله لا تجدونه عند غيرى فاحتفظوا به ، أو نحو ذلك . . .) [1] .

الثانى : ما ذكره سلطان العلماء العز بن عبد السلام فى (قواعد الأحكام فى مصالح الأنام) :

---

(1) الأذكار / 238 .

(ولا يمدح المرء نفسه إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، مثل أن يكون خاطباً إلى قوم فيرغبهم في نكاحه ، أو ليعرف أهليته للولايات الشرعية والمناصب الدينية ، ليقوم بما فرض الله عليه عيناً أو كفاية ، كقول يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[1] . وقد يمدح نفسه ليقتدى فيما مدح به نفسه كقول عثمان ـ رضي الله عنه ـ : « ما تعنيت مذ أسلمت ولا تمنيت، . . . . منذ بايعت رسول الله ـ ﷺ ـ » ، وهذا مختص بالأقوياء الذين يأمنون التسميع ويُقتدى بأمثالهم ، وعلى الجملة فالأولى بالمرء أن لا يأتي من أقواله وأعماله الظاهرة والباطنة إلا بما فيه جلب مصلحة عاجلة أو آجلة ، أو درء مفسدة عاجلة أو آجلة ، مع الاقتصاد المتوسط بين الغلو والقصير . . .)[2] .

الثالث : ما قاله ابن القيم بعد حديثه عن العلم ، واستدلاله لجواز إخبار المرء بما عنده منه : (. . . ومنه قول يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[3] فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود، وهذا غير ما أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظم ، وهذا ما يجازيه الله بمقت الناس له وصغره في عيونهم ، والأول يكثره في قلوبهم وعيونهم ، وإنما الأعمال بالنيات ، وكذلك إذ أثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر ، أو ليستوفي بذلك

---

(1) سورة يوسف :(55) .

(2) قواعد الأحكام 178/2 .

(3) سورة يوسف :(55) .

حقاً له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله ، أو ليقطع عنه أصماع السفلة فيه ، أو عند خِطبته إلى من لا يعرف حاله . . .) [1] .



الأبواب العشرة فى سور مدينة الذات

* الأحوال التى يجوز فيها مدح النفس فى الجماعة المسلمة ما يلى :

✧ 1- الترشيح الذاتى لمهمة دعوية ، ولمصلحة شرعية أو ولاية دينية ✧

ويتم ذلك دون إلزام الإمام أو الرئيس بالاقتراح ، وإنما يكون غرض المسلم فى ذلك إحقاق الحق ، ويفعله لمصلحة المسلمين ، وعزة الإسلام ، لذلك اعتبر الرازى مقولة يوسف - عليه السلام - من مبررات المدح المشروع ، فقال : (إن السعى فى إيصال النفع إلى المستحقين ، ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول) [2]

(. . . فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإن لم يكن هناك غيره ، وهذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أن يقوم بالحق فى القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك ، ويخبر بصفاته التى يستحقها بها من العلم والكفاية وغير ذلك) [3] .

(1) مفتاح دار السعادة /139 .

(2) تفسير الرازى 161/18 .

(3) تفسير القرطبى 216/9 .

ويتضح من هذه النصوص ترجيح مدح النفس عندما يرى الإنسان نفسه صالحاً لولاية دينية لا يجد غيره أصلح منه لها ، وهذا دليل الإيجابية ، وعلى هذا فعلى الداعية أن لا يبرر سلبيته أحياناً بالتقوى أو التواضع ، وعليه بالتصدى لإظهار نفسه للمهمات الإسلامية ، أو الانتداب لعمل أو الاتصال بشخص ، وكذلك فى أى ولاية مؤقتة كرئاسة مؤتمر ، أو مسؤولية تفاوض ، وغير ذلك مما يقاس عليه ، على أن يتحدد المدح وأن يكون أمام من لا يعرفوه ، إما لحداثتهم أو مجيئهم من منطقة أخرى ، وغنى عن التذكير أن وصف الداعية لذاته لا يلزم الأمير بشىء .

✧ 2- إظهار الحق وشكر نعمة الله تعالى ✧

وهذا مظهر من تطبيق قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1] والداعية باعتباره مؤمناً عليه شكر المنعم بالتحديث بنعمته ـ عز وجل ـ .

✧ 3- الدفاع عن النفس ✧

ومثله الاضطرار لذكر الفضل إذا خلا من البغى والاستطالة ، وخصوصاً عند تعرض المسلم لنوع من الحسد والمماراة ، ومحاولة النيل منه ، وتحطيم جهوده ، كما قال سعد ـ رضي الله عنه ـ :

(إنى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل الله ، ورأيتنا نغزو ، وما لنا من طعام إلا ورق الحَبلة ، وهذا السَّمُر ، وإن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ، ماله خلط ، ثم أصبحت بنو أسد تعزرنى على الإسلام . .)[2] .

---

(1) سورة الضحى : (11)

(2) رواه البخارى .

ويستشهد بهذا الأثر فى جواز المدح عند وجود المصلحتين السابقتين ، كما سبق نظير ذلك فى دفاع عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بمدح نفسه أمام جمع من الصحابة ، قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ نقلاً عن ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ قوله :

(إن قيل : كيف ساغ لسعد أن يمدح نفسه ، ومن شأن المؤمن ترك ذلك لثبوت النهى عنه ؟ ، فالجواب : أن ذلك مساغ له لما عيّره الجهال بأنه لا يحسن الصلاة ، فاضطر إلى ذكر فضله ، والمدحة إذا خلت من البغى والاستطالة وكان مقصود قائلها إظهار الحق وشكر نعمة الله لم يكره ، كما قال القائل : إنى لحافظ لكتاب الله عالم بتفسيره وبالفقه بالدين ، قاصداً إظهار الشكر ، أو تعريف ما عنده ليستفاد ، ولو لم يقل ذلك لم يعلم حاله)[1] .

وقد سار السلف على هذا المنوال فى دفع التهم عن أنفسهم ، وفى مجال الدعوة والعمل فى سبيل الله ، ورد الشبه والأقاريل لما فيه مصلحة العمل الإسلامى ، فقد يقود تجريح الشخص إلى ظلمه وحربه ، وبالتالى إلى إهمال أفكاره وأقواله ، وقد حصل لابن تيمية ـ رحمه الله ـ ذلك ، فاجتمع بالناس وقال للأمير والحاضرين ، بعدما سمع مقالة السوء والفتنة عليه :

(أنا أعلم أن أقواماً كذبوا علىّ ، وقالوا للسلطان أشياء ، وتكلمت بكلام احتجت إليه ، مثل أن قلت : من قام بالإسلام أوقات الحاجة غيرى؟ ومن الذى أوضح دلائله وبينّه ؟ وجاهد أعداءه، وأقامه لما مال ؟ حين تخلى عنه كل أحد ، ولا أحد ينطق

(1) فتح البارى 291/11.

بحجته عنه ، وقمت مظهراً لحجته مجاهداً عنه مرغباً فيه ؟ فإذا كان هؤلاء يطمعون فى الكلام فىّ فكيف يصنعون بغيرى ؟ . . .) [1] .

وبعض النقد والتجريح يجرى فى وسط الجماعة المسلمة ، وإنكار حصوله نوع من التكليف والمثالية ، فقد يحصل النقد بين مجاميع مختلفة أو بين بضع أفراد ، ومثل هذه الأمور بعضها ناتج عن ضرورات النفس البشرية ، وبعضها ينتج عن بعض الظروف والملابسات الوقتية ، وبعضها بسبب حدة الطبع أو متاعب العمل الدعوى ، وبعضها الآخر يكون ناتجاً عن عدم فهم البعض أو معرفتهم للبعض الآخر ، ولا ننكر أن بعض هذه الأمور تنتج عن حسد الأقران ، أو قلة التقوى ، أو عن الهوى والتسرع ، وأياً كان الأمر فإن المتعدى عليه بباطل ظاهر ، أو تجريح واضح ، يجوز له الرد بالمعروف وإظهار محاسن نفسه ، وكذلك إذا تعرض بعض القادةأو المربين لتجريح الضعاف فى الصف ، والمتطلعين إلى المراكز ، أو من بعض المرجفين ، أو أصحاب الحماسة المتهورة ، فقد يضطر هؤلاء أمام ضغط النقد الحاد ، وحرصاً على وحدة الجماعة وتماسك الصف ، إلى إبراز صفاتهم ، وذكر مميزاتهم ، كى يظهر فضلهم ، وتبدو محاسنهم أمام بقية أفراد الجماعة .

✧ 4-التعريف ✧

وهو أن يضطر المسلم إلى التعريف بنفسه ، وذكر بعض خصائصه التى تؤهله لمهمة ما ، وذلك عند من لا يعرفه ، أو عند من

---

(1) فتاوى ابن تيمية 163/3 .

ليس له علم سابق ، ومن أمثلة ذلك ، ما قد يعرف به الإنسان فضله في تبيان علم ، أو تأليف كتاب ، وفي ذلك من روائع البيان ما كتبه السيوطي في التعريف بفن الأشباه والنظائر ، وجهده في جمعه ، فكتب له مقدمة رائعة ، نقتبس منهاما يلي :

(إن هذا الفن لا يُدرك بالتمني ، ولا يُنال بسوف ولعلّ ولو أني ، ولا يبلغه إلا من كشف عن ساعد الجد وشمّر ، واعتزل أهله وشدّ المئزر ، وخاض البحار وخالط العجاج ، ولازم الترداد إلى الأبواب في الليل الداج ، يدأب في التكرار والمطالعة بكرة وأصيلاً ، وينصب نفسه للتأليف بياتاً ومقيلاً ، ليس له همة إلا معضلة يحلها ، أو مستعصية عزت على القاصرين فيرتقي إليها ويحلها ، يُردُّ عليه ويَردُّ ، وإذا عنله جاهل لا يصد ، قد ضرب مع الأقدمين بسهم ، والغَمْرُ يضرب في حديد بارد ، وحلق على الفضائل واقتنص الشوارد .

وليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم في واحد

يقتحم المهامة المهولة الشاقة ، ويفتح الأبواب المرتجة إذا قال الغبي لا طاقة ، إن بدت له شاردة ردهاً إلى جوف الفرا ، أو شردت عنه نادرة اقتنصها ولو أنها في جوف السما ، له نقد يميز بين الهباب والهباء ، ونظر يحكم إذا اختلف لآراء بفصل القضاء ، لا يأتي عليه تمويه الأغبياء ، وفهم ثاقب لو أن المسألة من خلف جبل قاف لخرقه حتى يصل إليها من وراء ، على أن ذلك ليس منه كسب العبد ، وإنما هو فضل الله يأتيه من يشاء) .

وهذا الأمر من أجل التعريف بفن جديد ، قد أبدع فيه .

ثم يعرج على كتابه فيقول :

(وأنت إذا تأملت كتابى هذا علمت أنه نخبة عمر ، وزبدة دهر ، حوى على المباحث المهمات ، وأعان على نزول الملمات ، وأنار مشكلات المسائل المدلهمات ، فإنى عمدت فيه إلى مقفلات ففتحتها، ومعضلات فنقحتها ، ومطولات فلخصتها ، وغرائب قلّ أن توجد منصوصة فنصصتها) .

ونرى أنه قد أثنى على نفسه مرتين أولهما لأجل الفن ، والأخرى لأجل كتابه نفسه ، ومثل السيوطى ما فعله قبله الإمام تاج الدين ابن السبكى (المتوفى ٧٧١هـ) ، حيث قال عن فن (الأشباه والنظائر) أيضاً :

(اعلم أن أهم ما عنى به الفقيه . . . القيام بالقواعد واختلاف المآخذ واجتماع الشوارد ، وذلك أمر شديد لا ينال بالهوينى ، ولا يدرك شأوه إلا من تصدى بأعمال قلب وقالب . . .) .

ثم يستطرد بالحديث عن كتابه الذى حرره من كتاب ابن الوكيل فيقول

(. . . فعمدت إلى هذا الكتاب فاحتلبت زُبَدَهُ ، وقذفت من بحر فوائده زَبَدَه ، وجمعت عليه من الأشباه نظائر ، فالأرواح جنود مجندة ، حرته فى الدجى بشهادة النجوم ،ولاقيت عسره بهمة نبذت سهيلاً بالعراء وهو مذموم ، وجلوت من الأشباه عروس شاب لا شبيه لها مظنون ولا معلوم . . . .)[1] .

---

(1) مقدمة الأشباه والنظائر لابن السبكى ، ولا يزال الكتاب مخطوطاً لم يطبع بعد .

وقال إمام الحرمين يصف كتابه (النظامى) بقوله :

(قد تقدم الكتاب ، محتوياً على العجب العجاب ، ومنطويا على لب الألباب ، أحدوثة على مر العصر ، وغرة على جبهة الدهر ، يعشو إلى منارها المرتبك فى الشبهات ، ويلوذ بآثارها المنسلك فى مثار المتاهات ، ويقتدى بنجومها المترقى فى مهاوى الورطات ، وينخنس برجومها المتعثر فى أذيال الضلالات . . . .)[1] .

والدليل على صحة هذا المنهج عند المؤلفين ما قاله القرطبى استناداً إلى مقولة يوسف ـ عليه السلام ـ :

(إنما قال ذلك عند من لا يعرفه ، فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى : ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾[2] . . .)[3] .

وهناك العشرات من هذه الأمثلة نراها فى مقدمات كتب بعض السلف والتابعين ، وإن كان التواضع أولى ، ولكن يستحسن الثناء على الفن إذا كان فريداً فى بابه ، ويقود المدح إلى اطلاع الناس عليه ، وكذلك الحكم بالنسبة للثناء على الكتب أو المحاضرات والدروس ، مع ضرورة مراعاة الكاتب أو المربى ضوابط المدح التى سيأتى ذكرها ـ فيما بعد ـ .

---

(1) مقدمة كتاب (الغياثى) / 7 .

(2) سورة النجم : (32) .

(3) تفسير القرطبى 9 / 216 .

ومن التعريف الذى لابد منه للداعية أمام إخوانه أن يذكر قابليته فى أمرٍ ما ، كأن يقول العبارات التالية التى يمكن القياس عليها :

** أنا أعلم الناس بالفن الفلانى ، لأننى درسته كثيراً أو أعددت رسالة جامعية فيه .

** أنا أعلم الناس بظروف البلد الفلانى لأننى عشت فيه سنوات ، وزرته مرات عديدة ، واختلطت بأهله وعشائره ، ورجاله وساسته .

** أنا أعلم الناس بما يجرى بالمنطقة الفلانية لأننى من أهلها ، أو تزوجت منها ، أو خالطت أهلها بكثرة .

** أنا أعلم الأخوة بفلان من الناس ، لأنى خالطته بكثرة ، أو أنه من أقاربى وأهل بلدى .

** أنا أعلم الأخوة بالحدث الفلانى لأننى شاركت فيه ، أو راقبته ودرسته عن قرب .

** أنا خير من يستشار فى أمر الجماعة الفلانية ، لأننى كنت عضواً فيها .

وهكذا أمور الدعوة المختلفة ، سواءً كانت فكرية ، أو تربوية ، أو سياسية أو اجتماعية ، مما يستحسن للأخ الداعية أن يبين كفاءته فيها ومعرفته بأمورها . .

✧ 5- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ✧

وهذا الأمر وإن تحدد فى استثناءات العلماء ، إلا أنه أمر عام

يشمل كل الأمور الأخرى ، ولا بأس بذكر بعض المسائل التى قد تحصل ـ على وجه الخصوص ـ وسط الجماعة المسلمة ، ومنها :

** أن يذكر الداعية معرفته وخبرته ، من أجل التحذير من جماعة مشبوهة أو فرد ، يظهر صلاحه ودينه .

** تعريف الداعية بنفسه ومدحها لأجل القيام بعملية التوجيه والتربية والإعداد والتعليم .

** ما يذكره الداعية فى أثر تصرفاته الحكيمة ، أو طريقته الجيدة فى الدعوة ، وأثرها فى الناس والدعاة ، وغيرهم .

** ما يذكره الداعية من تجاربه الناجحة ، وممارساته ، سواءً فى المدارس أو القبائل ، وقدراته السياسية وحنكته فى التعامل مع رجال الأحزاب والهيئات ، وذكر دهائه وذكائه فى التخلص من المآزق والظروف .

** إبراز الداعية لشهادته وكفاءته أمام عموم الناس الذين يتأثرون بأصحاب الشهادات والألقاب ، من أجل التوطئة للسماع الجيد والتأثر بالحديث .

ويقاس على كل ما ذكر كل أمر يساعد على إتمام الأمر بالمعروف وفق مصالح الشريعة . .

✧ 6 - الانتصاب كقدوة ✧

قد يرى المربى فتوراً من الأعضاء ، أو كسلاً عند الأفراد ، أو بعض مظاهر قصور الهمة ، فيضطر إلى إظهار بعض محاسنه ، وكشف بعض تصرفاته حتى يظهر كقدوة للآخرين فى البذل والعمل

والتضحية وقد يحتاج لمثل هذا الأمر فى صفوف الجماعة ، فعند تشكى الإخوان من قلة الوقت مثلاً ، يضطر مسؤولهم إلى الحديث عن نفسه وكشف جدول أوقاته وأعماله ، كى ينتصب لهم قدوة فى بذل الوقت ، أو قد يرى تقصيراً فى البذل المادى فيضطر إلى ذكر بعض تبرعاته واشتراكاته ومصاريفه ، كى ينتصب قدوة فى البذل المادى ، وقد يلجأ إلى ذكر بعض قراءاته تشجيعاً لإخوانه على القراءة والمطالعة ، وقد يلجأ إلى ذكر مواقفه وثباته فى المحن أو صبره تثبيتاً لإخوانه ، وهكذا ، مما يقاس عليه ، ومداره على المصلحة العامة ، والأمر مقيد بضوابطه ، وقمة الضوابط أن تكون النية خالصة لوجهه تعالى .



✧ 7-الإصلاح بين الناس ✧

وكذلك فض المنازعات ، وإصلاح ذات البين ، وأشباه ذلك وما قد يكون أخص من ذلك وسط الجماعة المسلمة كالإصلاح بين مجموعتين إسلاميتين أو رصلاح ذات البين بين داعيتين ، وكل ذلك يحتاج فيه الداعية المصلح إلى مدح نفسه بالمعروف ، بل قد يستحسن له ذلك ، كذكر مناقبه ، وقدمه فى الدعوة ، وأنه فوق مصالح الأفراد، ولم يجرب عليه أحد كذباً، وحسن بلائه فى الدعوة ، وقد يطنب فى ذكر عدله السابق فى المواقف ، وعدم اشتراكه فى الفتن ، أو عدم تطاوله فى النقد والتجريح ، وعفة لسانه، وكل الخصائص التى تؤهله للإصلاح بين المتنازعين ، وفض خصوماتهم .

✧ 8- الوعظ والتذكير ✧

فى حالة وعظ الإنسان لغيره فى أمر من أمور الخير ، يحتاج إلى رواية بعض الحكايات والقصص التى تبين عواقب الأمور الحسنة ، كعاقبة الزهد والتوكل والصبر والعبادة ، وكل التزام بمعروف ، كما قد يحتاج ـ من جهه أخرى ـ ذكر نتائج الأعمال السيئة ، ومآلها .

وفى أثناء ذكر عاقبة أعمال الخير قد يعرج على ذكر قصص حصلت له، وروايات لأخبار خاصة ، وحكايات كان من ممارسيها ، ولا يخفى ما قد يجره الحديث إلى مدح نفسه وذكر بعض فضائله ، إذ أن الحكاية التى يرويها صاحبها أبلغ بالموعظة ممن تروى عن الغير ولذلك فإن مثل هذا المدح ، والتعريج على ذكر فضائل النفس لا بأس فيه إذا أمن صاحبه على نفسه العجب والغرور .

✧ 9-مدح النفس أمام الأعداء ✧

قياساً على ما ورد فى النصوص ، من إشهار القائد نفسه والتفاخر ، وإظهار الشجاعة ، ويظهر من هذا الدليل إمكانية القياس عليه فى مدح الداعية لنفسه فى المجالات العامة ، كالاشتراك فى مجالس نيابية ، أو جمعيات عامة ، أو شركات ، فيضطر الداعية لإظهار نفسه والفوز بمركز لمصلحة الدعوة ، فيبين ما يملكه من تجربة ، وما حصل عليه من شهادات ، وما يتمتع به من حنكة وخبره وكفاءة فى ذلك المجال ، مما يمكن أن يكون عبر دعاية انتخابية ، لمجلس نيابى أو جمعية أو ناد ، وكل ما يتعلق بالممارسات السياسية ، خصوصاً وأن العلمانيين يتخذون من مسألة الدعاية الانتخابية أقوى الوسائل الإعلامية لترويج الباطل ، وبالتالى يشكل اتخاذ الوسائل المكافئة تعضيداً لهذا الغرض الذى ذكرناه والمتضمن بالضرورة مدح الداعية لشخصه ، وإبراز مواطن قوتها بالحق والإنصاف ، وقد ورد فى الصحيح ثناء الرسول ـ ﷺ ـ على نفسه فى الحروب إخافة للعدو ، وتثبيتاً للمسلمين ، وقد ذكر هذا الاستنباط فى نص للإمام النووى سبق ذكره

✧ 10- التأديب ✧

وهذا الغرض ظاهره المدح لأغراض تأديب الشخص لأولاده ، أو المعلم لتلاميذه ، ولكن مثل هذا المعنى لا يستعمل فى الإطار الدعوى ، ويمكن الاستعاضة عنه بمدلول التوجية مع بقاء المعنى الأصلى كتأديب الداعية لأولاده ، ولطلابه إن كان معلماً أو مدرساً ، ومفهوم لتوجيه بتضمن كلام المربى لإخوانه ، كقوله لغيره : (أنا

أعلم منك بخطورة المسألة الفلانية ، فلا تتوجه نحوها) أو (إن خبرتى بالقضية كذا ، وأنصحك فيها بكذا) أو قوله : (رغم شجاعتى أو عقلى ، فقد فشلت فى تحقيق المسألة الفلانية) وأمثال ذلك ، مع ضرورة الحذر الشديد فى هذا الباب ، وضرورة الأخذ الحازم بالضوابط الأخرى ، كتقدير المصلحة ، ودفع المفسدة ، ومراعاة ظروف الأفراد واستعداداتهم لسماع مثل هذا الكلام .

ضوابط مدح الذات

ومن خلال النصوص يستطيع الإنسان استخلاص الضوابط الشرعية لمدح الذات ، والتى يجمعها كلها ضابط المصلحة الشرعية ، والمصلحة (هى المنفعة التى قصدها الشارع لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ، ونسلهم وأموالهم ، طبق ترتيب معين فيما بينها) والمنفعة : هى اللذة وما كان وسيلة إليها ، أو دفع الألم وما كان وسيلة إليه ورغم أن مبحث المصلحة كبير ـ وليس مجال بحثه هنا ـ إلا أنه يمكن استلال بعض الضوابط التى تصلح أن تكون محددة لمجال مدح الذات :

✧ 1- أن تدعو الحاجة لذلك، وكذلك الضرورة ✧

إذ أن الأخذ بالضروريات والحاجيات من مقاصد الشريعة ، ولما كان المدح الخاص استثناءً من أصل ، فلا يلجأ إليه إلا عند الضرورة ، أو لوجود الحاجة ، وكل من الحاجة والضرورة تقدر بقدرها ، ويجب

أن تخدم مصالح الشريعة فى حفظ الدين والنفس والمال باعتبارها من مقاصد الشريعة العامة ، والقول بمدح الذات عند الحاجة أو الضرورة يجب أن لا تقود الشخص إلى استغلال أى موقف بهذه الحجة ، أو تبرير المدح بتلك الحاجة أو هذه الضرورة ، فإذا ما دعى إلى أمر فلا يبادر لمدح نفسه حتى يستفرغ جهده فى النظر إلى قابلية الآخرين ، وإذا سئل عن أحد جوانب الخير فلا يبادر إلى وصف نفسه به قبل أن ينصف غيره ، وإذا ما سئل عن الأفضل أو الأحسن فى مسألة فلا يسارع إلى المدح دون أن يجول خاطره فى تمثل صور الغير ، ولا يعتبر السؤال عن صفة ما يقوم مقام الضرورة فيبادر إلى ادعاء الصفة إلى نفسه ـ حتى ولو كانت صحيحة ـ إذا ما كانت تندفع بإجابة غيره ، وهكذا ردَّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ صفة السيادة للقوم على من ادّعاها .

(قال معاوية ـ رضي الله عنه ـ لرجل : مَنْ سيد قومك ؟ قال : أنا ، قال لو كنت كذلك لم تقل) [1] .

ومن متممات هذا الشرط أن لا يغفل مادح نفسه عن رد كل الفضل فيما حازه من خير إلى الله تعالى ، وأنه سبحانه هو المنعم عليه بذلك ، ولا حول ولا قوة إلا به ، وأنه كان جاهلاً فعلمه الله ، وعاجزاً فمكنه الله ، وهو ـ عز وجل ـ الواهب والمتفضل والميسِّر ، ومنه الهداية وله المنة ، ويظل لسان المادح نفسه رطباً بمثل هذه المعانى والألفاظ .

---

(1) عيون الأخبار 275/1 .

✧ 2-أن لا يكون فى الأمر تجاوزاً للحدود الشرعية ✧

كأن يكون فى المدح الشخصى عبارات كاذبة ، أو تدليس ، أو شتم ، أو نوع من العبارات الغليظة التى يمجُّها العرف ، وكذلك أن لا يختلط فيها شىء من الغلظة والغضب ، أو أن يمتزج معها عبارات غير شرعية كادعاء الغيب ، والاطلاع على القلوب ، أو أن يكون الفخر بما لا يحبه الله عز وجل.

✧ 3- أن يخلو المدح من البغى والاستطالة ✧

أى أن يمتزج مع مدح الشخص لنفسه شىء من الانتقاص من الآخرين، أو الاستعلاء عليهم ، وأن يكون مع المدح تجريح وتضعيف لغيره وكذلك يجب أن يخلو المدح من اختلاطه ـ ولو بالإيماء ـ بنوع من الغيبة والنميمة ، وكل ما يشابه ذلك من افات اللسان المعروفة .

✧ 4 - أن لا يكون المدح مبالغاً فيه ✧

أى يكون وسطاً بين الاختصار المخل الذى يظهر المدح ولا يؤدى المصلحة منه ، وقد يكون مثل هذا الاختصار بسبب خوفه الملامة أو الحياء ، وكذلك لا يكون مبالغاً فيه ، إذ أن من قواعد الشريعة أن الضرورة تقدر بقدرها ، ومدح الذات من الضرورة فلا يتعدى بالمدح الحد المطلوب لأداء المصلحة ، وفى نص العز بن عبد السلام التوضيح لهذ الأمر .

✧ 5-أن لا يقود المدح إلى مفسدة ✧

وذلك عند جهل الآخرين بالمصلحة ، وعندما يكون مدح

النفس مثاراً للسخرية والتندر ، أو لا يضعه الناس موضعه الملائم ، فيكون سكوت الداعية خطيباً كان أو متحدثاً ، محاضراً كان أو كاتباً ، أولى من الحديث عن نفسه حتى ولو رأى مصلحة فى ذلك ، لأن من قواعد الشريعة الغراء أن (دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح) .

ويقع ضمن هذا الأمر أيضاً عدم تفويت مصلحة أكبر ، فقد يكون فى مدح النفس مصلحة ، ولكنه قد يفوت مصلحة أكبر من ذلك ، ويقع ضمن الأمر كذلك اختيار الظروف المناسبة لمدح الذات كالزمان والمكان والأشخاص ، فالمدح فى مكان معين قد يجلب مصلحة ، ولكنه يقود إلى مفسدة فى كل مكان آخر ، فمدح القائد لنفسه أمام جنوده وأقرانه ممن يعرفون بعض فضائله ليس كمدح نفسه أمام أتباع ممن يضمرون له البغضاء ، والمدح فى وقت معين يكون مصلحة ، وفى وقت آخر يقود إلى مفسدة ، فالمدح عند تفاخر الناس فيما بينهم وأوقات الفتن ، ليس كالمدح عند صفاء القلوب ، وتجاوب النفوس ، وكذلك يراعى الداعية ظروف الأشخاص والملابسات ، فالتجمعات التى فيها حماسة للجهاد والقتال لا يمدح الشخص نفسه بحسن المقالات وتأليف الكتب ، وظروف التشاور لانتخاب شخص لمهمة ، لا يمدح المرء نفسه فى مجالات أخرى ، وهكذا مما يقدره صاحب العقل الواعى ، والقلب اليقظ .

✧ 6 - أن يكون بالأسلوب المتواضع ✧

حيث يرافقه اللين والمحبة ، فقد يكون مدح النفس مقبولاً من الآخرين ، ويقدرون المصلحة فى قوله ، ولكن قد يرافقه شيء من الشدة ما يجعله أقرب إلى الغضب والتهور ، وقد يخالطه من نقد

الآخرين ما يحوله إلى نوع من الغرور والعجب ، وقد يمتزج به من الألفاظ ما ينتقل به إلى احتقار الآخرين ، وبخس الناس أشياءهم ، بل قد يكون التقعر فى الكلام، والتكلف فى الجلسة والهيئة ما يوحى به كنوع من التكبر والاستعلاء ، بل مجرد النبرة تجعل المقابل يقبل أو يرفض .

✧ 7-أن لا ينزعج من رد المدح ✧

إذ أن الداعية ـ أو المسلم عموماً ـ قد يمدح نفسه بما يظنه وفق الضوابط الشرعية المذكورة ، ويبرر له الشيطان تصرفه هذا ، والإنسان ـ فى العادة ـ لا يستطيع أن يرى كل عيوبه ، فقد يُرد المدح على صاحبه ، فإذا كان الداعية متحرياً الصدق والنية الصالحة فى مدحه ، فلا يضيره رد المدح عليه ، بل عليه أن يفرح بذلك ، إذ أنه نوع من إهداء العيوب ، وإنزعاج لرد المدح ، أو غضبه لنفسه قرينة قوية على عدم صدقه فى دعواه فى توخيه المصلحة من المدح .

✧ 8- أن يكون مادحاً من أصحاب الفضل المكافىء ✧

إذ أن المسلم الصادق ـ والمفروض بالداعية ذلك ـ توخى النية الصالحة وصواب العمل فى مدحه لذاته ، مما يوجب عليه أن يمدح أيضاً توخياً للإنصاف ، من يشاركه فى الفضل المكافىء من إخوانه ، فهذا أدعى إلى العدل والإحسان ، ودليل الأخوة والمروءة ، وقرينة على صدق التوجه ، وخلوص النية .

** فإذا مدح نفسه لرد تهمة ، فعليه مدح نظرائه ممن وقعت عليهم نفس التهمة .

** وإذا مدح نفسه لمصلحة دعوته فى علم أو عمل ، فعليه مدح من يوازيه فى ذلك .

** وإذا مدح لتعريف أو أمر بمعروف ، فالإنصاف يقتضى مدح من شاكله فى الأمر .

** وإذا رشح نفسه لمهمة أو ولاية ، فما يضيره ذكره غيره من إخوانه من أشباهه .

. . وهكذا يُقاس على الأمر بقية الوجوه ومقاصد المدح .

✧ 9 - الموازنة ✧

ونعنى هنا الموازنة بين المدح الجائز ، وبين التواضع الممدوح ، وهذا ما يحدده الداعية لنفسه ، وعليه أن يراقب قلبه دائماً ، ولا يقع تحت طائلة التبرير ، ويستغل جواز المدح للاستمرار والمبالغة فيه ، حتى يخضع لتلبيس الشيطان عليه ، فيتحول المدح - بمرور الأيام واستسهالة - إلى الغرور والعجب .

وقد وقع للعلماء والسلف أمثال ذلك فى قصص كثيرة ، نكتفى منها ما وقع للماوردى - شيخ الشافعية وقاضى القضاة فى زمانه - حيث صنف فى البيوع كتاباً أجهد فيه نفسه ، وكدّ خاطره ، فأعجب به واغتر ، فجاءه أعرابيان من البادية روى قصتهم :

(فسألانى عن بيع عقداه فى البادية ، على شروط تضمنت أربعة مسائل ، لم أعرف لواحدة منهن جواباً ، فأطرقت مفكراً وبحالى وحالها معتبراً . . . فكان ذلك زاجر نصيحة ، ونذير عظة ، تذلل بهما قياد النفس ، وانخفض لهما جناح العجب توفيقاً منحته

ورشـداً أوتيتُـه ، وحقّ على من ترك العـجب بما يحـسن ، أن يدع التكلف لما لا يحسن . . .) [1] .

فلينظر الأخ الداعية قصة الماوردى ، وكيف استفاد من شعوره ، وما حصل له ، فاعتبره زاجر نصيحة ، وموعظة من الله له ، ودرس وفّقه الله إليه ، حتى يترك العجب والتكلف ، وأن لا يغتر بنفسه ، ويبالغ فى الثناء عليها ، فرب موهبة أعطاها الله لعبد تنسل منه فى فضل الله تنقلب عليه وبالاً ، وتخلف فيه ذلة . . بل قد تنقلب إلى عكسها ، وقانا الله شر مصارع النفس ، ومساقط الهوى ، وآفات القلوب .

✧ 10- أن يأمن الإنسان على نفسه ✧

وهذا مما يخص المادح نفسه ، فلكل شخص على نفسه بصيره ، ولهذا يجوز المدح لمن يرى من نفسه قوة ، ولا يخشى التسميع ، أو لا يغتر بتأييد آخرين لمدحه ، أما من يخشى على نفسه فيكره له ذلك ، بل قد يصل إلى مرحلة التحريم .

وقياساً على هذا ، يفضل أن يكون المدح عند الحاجة إليه فى أضيق الظروف ، وأقل الأعداد ، وأمام الأقران والأفاضل ، أما مدح النفس أمام جماهير الدعاة وعموم الأفراد ، وفى المجالات العامة ، وما قد يجره ذلك إلى المزيد من المديح ، والتطاول فى الثناء ، وتعاقب الأشخاص فرداً بعد فرد ، بتدبيج العبارات ، وترتيب الثناء ، فمفسدته ظاهرة ، ونتائجه بارزة ، إذ يسقط فى ذلك أقوياء الرجال والبعد عن مواطن التهم أولى ، وعن أجواء الفتنة وقصم الظهور أجدر .

---

(1) أدب الدنيا والدين للماوردى / 82 .

احترازيقيك الاستدراج

وبعد معرفة كراهية مدح النفس، والضوابط التى تستثنى فيها بعض الحالات فما موقف الممدوح عندما يمدح ؟ وخصوصاً أنَّ قابل المدح ومن يظهر الفرح به يكون كمادح نفسه ، وذلك معلوم بالفطرة، ويدركه العقلاء، إذ قيل :

(إن قابل المدح كمادح نفسه ، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده ، فإن الراد له ممدوح ، والقابل له معيب)[1] .

والجواب : إن قبول المدح ـ وخصوصاً إذا كان متكلفاً ـ كمدح النفس المذموم ، وقد أثبتت تجارب الحياة الدعوية أن المكثر من مدح داعية قديم بتكلف مبالغ فيه غالباً ما ينقلب إلى الضد فى العداوة ، لأن مدحه لم يكن خالصاً لله تعالى ، بل وقد نشاهد أحياناً اثنين يكثر أحدهما من مدح الآخر ، ولا يلبث أن يتحول جميل المدح بينهماإلى ذميم القول ، ويكشف أحدهما عيوب الآخر ، ويكشف أستاره ، ولقد أدرك السلف ذلك ، فعبر عن هذ الحقيقة على بن الحسين ـ رضي الله عنه ـ قائلاً :

(لا يقول رجل فى رجل من الخير ما لا يعلم ، ألا أوشك أن

---

(1) عيون الأخبار 276/1 .

يقول فيه من الشر ما لا يعلم ، ولا يصطحب اثنان على غير طاعة الله إلا أوشكا أن يفترقا على غير طاعة الله) .

* ولهذا فليحذر الدعاة من المدح الكاذب ، والثناء الزائف ، فإنه كمدح النفس سواء بسواء .

(وإذا سمعت الرجل يقول فيك من الخير ما ليس فيك ، فلا تأمن أن يقول فيك من شر ما ليس فيك) (1) .

(من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راض عنك ، ذمك بما ليس فيك من القبيح ، وهو ساخط عليك) (2) .

وعلى الممدوح أن لا يقبل مدح المادح إلا وفق نفس الضوابط ، وعند وجود نفس الظروف السابقة والمحققة للمصلحة .

والمسألةسواء إذا كان الممدوح يستحق المدح أو أنه يمدح بما ليس فيه . .

* إن قبول المدح والالتذاذ به ، وميل الطبع إليه دليل شعور النفس بالكمال ، وابتعادها عن النقص ، أو أن قلب المادح مملوك للممدوح ، وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ ، أو أنها سبب لاصطياد القلوب ، أو أن المدح دليل حشمة الممدوح وقدرته ، وكل ذلك يؤدى بدرجة تنقص أو تزيد إلى قطع عنق الممدوح ، وشعوره بالعجب والفخر إلا من عصم الله تعالى .

وعلى الداعية والمربى ـ والأمير خصوصاً ـ أن يسد أفواه المدّاحين ، وأقل درجاته أن يستوى عنده المدح والذم ، ويمتعض من

---

(1) عيون الأخبار 275/3 .

(2) لباب الآداب ، لأسامة بن منقذ / 452 .

المدح المتكلف ، ولا يصيبه الغم من الذم ، ولا يجد فى نفسه نشاطاً لإعانة أو توثيق المادح ، أو تضعيفاً للناقد والناصح ، كما على المربى أن يستعلى عن كون زلة المادح أقل فى ميزان الجرح والتعديل من زلة الذام ، وغير ذلك ، ومما يدرك بالعقل الراجح والفطرة السليمة أن مدح المادح قد رجع شيئاً فى نفس الممدوح لم يكن لولا النطق بهذا المدح .

(وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب، وآفة الفتور ، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما فى خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه مالا يعرفه المادح ، ولو انكشفت له جميع أسراره وما يجرى على خواطره لكف المادح . . وعليه أن يظهر كراهية المدح بإذلال المادح . . .)[1]

وإضافة إلى ما ذكر من عيوب مدح الذات ، فإن المعروف من فطر النفوس أن المدح يفتر الممدوح عن العمل ، مما يضيف سبباً جديداً فى كراهيته .

(فإن لا يأمن أن يحدث فيه المدح كبراً أو إعجاباً أو يكله على ما شهره به المادح فيفتر عن العمل ، لأن لذى يستمر فى العمل غالباً هو الذى يعد نفسه مقصراً)[2] .

وتزداد الكراهية فى تقبل المدح إذا كان موجهاً للممدوح بذاته ، أو دون حضور غيره ، أما عند استماع الآخرين فيظل الأمر على

(1) إحياء علوم الدين 161/3 .
(2) فتح البارى 478/10 .

أصل الكراهية مع استثناء ما ذكر من الظروف المصلحية ، كالمدح لغرض التولية الشرعية ، أو إسناد المهمة الدعوية ، أو الدفاع عن عرض الشخص الممدوح ، أو ما قد يتعلق بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما يتعلق بذلك من شهادات وحقوق ، وكذلك فى الأمور المترتبة على الجرح والتعديل ، وفى ظروف المصلحة المترتبة على المديح من أجل الاقتداء بالممدوح فى أعمال البر والخير والجهاد ، وفى مسائل الإصلاح بين الناس ، وما قد يستشهد به لأغراض الوعظ والتذكير ، وكذلك يستحب المدح أمام الأعداء لإبداء قوة الممدوح وكفاءته ، مما فيه مصلحة ، وكذلك عند الاضطرار للتعريف فتعريف الغير خير من أن يعرف الإنسان بنفسه ، لأن لسان المرء عن ثناء نفسه قصير ، وتكليف غيره عند الحاجة إلى ذلك أدعى لدفع تهمة التفاخر والتعاظم عنه ، وغير ذلك من الأمور التى تقاس بما ورد ذكره .

* وعلى الداعية والمربى ، وهو يتخلص من آفات المدح لنفسه أو من غيره ، أن يتذكر معاتبة النفس دوماً .

واعلم ـ أيها الداعية ـ أن ألدّ أعدائك : نفسك التى بين جنبيك وقد أمرت بتزكيتها وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، والبعد الحق من عرف حقيقة نفسه ، وترك مدحها إلا لمصلحة ، ولم يستمع ثناء غيره .

(ولله در الشيخ أبى مدين حيث يقول : من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء ، وأحواله بعين الدعوى ، وأقواله بعين الافتراء ،

وكلما عظم المطلوب فى قلبك ، صغرت نفسك عندك ، وتضاءلت القيمة التى تبذلها في تحصيلة ، وكما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية ، وعرفت الله ، وعرفت النفس : تبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق ولو جئت بعمل الثقلين . . . وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله . . .) [1]

النية والفراسة تغربلان الجُزاف

* تبين مما سبق أن خلاصة الأمر فى مدح الذات وتقويمها ، منصبّة فى جملة قواعد تبنى على النصوص وتتناسب مع مقاصد الشريعة العامة ، وتدخل ضمن قاعدة : (**إنما الأعمال بالنيات**) .

1 ـ لا يجوز ذم النفس أمام الغير لأنه ليس من التواضع ، والأصل محاسبة النفس فى السر .

2 ـ الأصل عدم جواز مدح النفس إلا لضرورة أو حاجة تقود إلى مصلحة راجحة أو تدفع مفسدة .

3 ـ يتناسب جواز المدح مع مقدار المصلحة أو الحاجة مما قد يرتفع به إلى حد الواجب أو ينخفض إلى قدر المباح .

4 ـ عند الاحتياج لمدح الذات لابد من الالتزام بالضوابط الشرعية المحققة للأهداف الشرعية .

---

(1) تهذيب مدارج السالكين / 119 .

5 ـ ما ينطبق على مدح الذات ينطبق على حب الاستماع للإطراء والمديح من الغير .

وعند استعمال هذه القواعد ـ بإدراك ووعى ـ تحقق المصالح داخل الجماعة المسلمة باستعمال الأساليب الشرعية الصحيحة ، وكذلك يظل الدعاة على المنهج الأصيل السامى فى الأقوال والتصرفات والسلوك ، كما يتعود الدعاة على فهم المنهج الإسلامى فى النقد والتقويم وعدم المسارعة فى الاتهام والتجريح على ظواهر التصرفات ، وتظل مقاييس التحسين والتقبيح ، أو المدح والتجريح على ظواهر التصرفات ، وتظل مقاييس التحسين والتقبيح، أو المدح والتجريح ، وفق المقاييس الشرعية ، لا الاعتبارات العرفية ، فتظل الأجواء صافية ، والنفوس سليمة ، ويدرأ عنها الكدر ، وتبتعد عنها الفتنة ، وكذلك تتحقق المصالح المبنية على الأساليب التى قد يكرهها الدعاة نتيجة عرف خاطئ ، أو خوفاً من الملامة والنقد ، وعند إدراكها من عموم الدعاة نتيجة عرف خاطئ، أو خوفاً من الملامة والنقد ، وعند إدراكها من عموم الدعاة قادة وجنوداً يصحح العرف الخاطئ ، ويقل الخوف من النقد والملامة ، فتشاع الأساليب الصحيحة ، وتقدر المصالح بأقدارها .

* ولابد من التنويه كذلك أن السماح بمدح الذات وفق ضوابطها لا يعنى أنه الأسلوب الوحيد ، أو الطريق المتفرد فى تقويم الأمراء للأتباع من خلاله ، فجواز الأخذ به من جانب لا يقود بالضرورة إلى وجود إلزام المستمع به ، فإن للقادة والدعاة من البصيرة الإيمانية ، والفراسة الإلهامية ، ومن رصيد الخبرة

والتجارب ، ومن حنكة العقل والفطرة ما يجعلهم على قدر كبير من التمييز بين الصادق من المدح والمتكلف ، وبين إيضاح الحق والإطراء المتعسف ، وبين سكينة المنصف والتواضع المغلف ، وإذا كانت بعض الأمور يدركها أذكياء البشر بالفطرة والحس ، والذكاء والموهبة ، فكيف إذا ما أضيفت إليها الفراسة ، فإن لحن القول غالباً ما يبدو ظاهراً لمن رزق التمييز . . .

وفوق هذا فحتى لو كان القادة من الدعاة يصدقون كل ما يقال ، وكانت آذانهم (أُذُنُ خير) ، فإن شهادة الناس لأنفسهم ليست المصدر الوحيد لتقويم الأشخاص ، بل هو آخر المصادر ، إذ تسبقه عمليات الجرح والتعديل ، وشهادات العدول من الثقات ، وأقوال الاستفاضة، وقيام قرائن الأحوال ، وما تفرزه الحياة الاجتماعية مع الناس والجماعية مع الدعاة من بروز خصائص الأفراد ومميزاتهم مما يجعل الخبرة والممارسة مورداً ضخماً للمعلومات عن الشخص ، واستكشاف حاله .

* ولقد أثبتت التجارب الدعوية أن مادح نفسه ، أو الذين يحبون أن يُمدحوا بما لم يفعلوا ، غالباً ما تكشف أوراقهم بسرعة ، ويتحول مديحهم إلى نوع من الهجنة المذمومة ، وتكون ألفاظهم ثقيلة الوطء على السامع إذ أن لحسن النيّة جمالاً في اللفظ ، وبهاءً في النطق ، وتأثيراً على قلب السامع كما أن فساد النية يورث سوءاً في اللفظ ، ولا ينفعها التزويق في إختراق شغاف القلوب . ، وإذا كسب مديح الذات جولة ، فإنه لن يستمر فترة طويلة ، فسرعان ما يظهر لحن القول ، فتنسد دونه الآذان ، وتمجه النفوس ، ولا يظل

عالقاً فى القلوب إلا ما كان خالصاً لله تعالى وحده .

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ (1)

وعلى أية حال ، فإن أصل كراهية مدح الذات أو جوازه كاستثناء ، يخضعان لقاعدة (إنما الأعمال بالنيات) ، ومردهما إلى إخلاص المرء ، ومقدار ما يستشعره من مصلحة دينية أو دنيوية من المدح وضده ضمن الضوابط الشرعية ، والتوازن فى هذا الأمر مطلوب ، كأى أمر آخر فى الشريعة ، وعلى كل داعية أن يستوعب وصية الفقهاء . . . أنه :

(لا ينبغى أن يجهل من نفسه مبلغ علمها ، ولا أن يتجاوز بها قدر حقها ، ولأن يكون بها مقصراً ، فيذعن بالانقياد ، أولى من أن يكون بها مجازاً ، فكيف عن الازدياد ، لأن من جهل حال نفسه كان لغيرها أجهل . . (2)) .

أما الأمراء والعلماء ، فإن أحدهم يوصى ـ أيضاً ـ بأن :

(يجتنب أن يقول ما لا يفعل ، وأن يأمر بما لا يأتمر ، وأن يُسر غير ما يظهر . . فإن إصرار النفس يغريها ، ويحسن لها مساويها ، فإن من قال ما لا يفعل فقد مكر ، ومن أمر بما لا يأتمر فقد خدع ، ومن أسرَّ غير ما يظهر فقد نافق . . . (3)) .

ولما كان أصل كراهية مدح الذات والزهد فيها الإخلاص ، فإن

---

(1) سورة الرعد : (17) .

(2) ، (3) أدب الدنيا والدين ، للماوردى / 84/86 .

الزهد فى المدح وكراهيته يقودان إلى الإخلاص من جهة أخرى ، فإنه :

(لا يجتمع الإخلاص فى القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس ، إلا كما يجتمع الماء والنار . . فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس ، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا فى الآخرة ، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد فى الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص . .) [1] .

ويليق لك فى الآخر أن تعجب مع ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ حيث تعجّب :

(عجبت لمن يعجب بصورته ، ويختال فى مشيته ، وينسى مبدأ أمره ، إنما أوله لقمة ضمت إليها جرعة ماء . . وأما آخره فإنه يلقى فى التراب ، فيأكله الدود ، ويصير رفاتاً تسفيه السوافى . . . هذا خبر البدن ، إنما الروح عليها العمل ، فإن تجوهرت بالأدب ، وتقومتْ بالعلم ، وعرفت الصانع ، وقامت بحقه ، فما يضرها نقص المركب ، وإن هى بقيت على صفتها من الجهالة شابهت الطين ، بل صارت أخسَّ حالة منه . . .) [2] .

ثم أن تنصت لو صيته :

إخوانى شمروا عن سوق الدأب فى سوق الأدب ، واعتبروا

---

(1) الفوائد لابن القيم / 168 .

(2) صيد الخاطر لابن لجوزى / 307 .

بالراحلين فكأنكم بمبسوط الأمل قد انقبض ، وبمشيد المنى قد انتفض .

يا ساكن الدنيا تأهب ... وانتظر يوم الفراق
وأعد زاداً بالرحيل ... فسوف يحدى بالرفاق

أين عزائم الرجال ؟ ، أين صرائم الأبطال ؟ ، تّدعى وتتوانى ، هذا محال .

اشتاقكم ويحول العزم دونكمُ ... فادعى بُعدكم عنى وأعتذ
وأشتكى خطراً بينى وبينكمُ ... وآية الشوق أن يُتستصغر الخطر

هذا محال .

إن هممت فبادر ، وإن عزمت فثابر ، واعلم أنه لا يدرك المفاخر من رضى بالصف الآخر ، قال عمر بن عبد العزيز : خلقت لى نفسى طواقة لم تزل تتوق إلى الإمارة ، فلما نلتها تاقت إلى الخلافة ، فلما نلتها تاقت إلى الجنة [1] .

والله وحده الهادى إلى سواء السبيل ، والموفق للخير والعاصم من الزلات .



(1) المدهش لابن الجوزى / 228 .

سلسلة رسائل العين

الرسالة الثامنة

فضائح الفتن

بقلم

محمد أحمد الراشد

المعلقة الحادية عشر

1

هذه مقالة لم تكتب ليقرأها الداعية المسلم قراءة مجردة فحسب ، بل ليحفظها حفظاً ، أو لينقشها على كفه إمعاناً فى التذكر .

إنها قصيدة شعر ، بل المعلقة الحادية عشر ، ولو فطن لها زهير لعلقها على أستار الكعبة مع معلقته .

إن جُملها وحروفها شواهد لك تحتج بها كما يستشهد الناس بالأبيات، ومن أجل ذلك جاءت على طريقة الرمز والتمثيل .

ولئن لم توزن كلماتها بعروض فإن معانيها قد أحكمها الوزن ، وأشربت حروفها بزخم من العاطفة جيّاش رفع ضرورة القافية .

إنها معان بالغة الأهمية فى التحذير من الفتن ، وموازين عاصمة من الخلاف ، نستغل وقت العافية اليوم .

لترويجها بعد أن عانى من أثقال القيل والقال إخوان لنا بالأمس القريب والأمس البعيد .

إن التحذير من الفتن اليوم أدعى أن يستقر فى القلوب إذ هى هادئة ساكنة، فيكون عندنا من الاحتياط ما يغنى عن مضاعفة الوعظ إذا غزتنا الخلافات ، وما نخال الصف المسلم يبرأ منها تماماً مهما ارتقى حالنا ، لأن الشيطان حيٌّ وله إغراء .

إن هذه المعلقة لم يكتبها فرد ، وإنما جُمعت نصف معانيها من أفواه فقهاء الدعوة خلال جلسات بحث عن طريق وحدة صف الموحدين.

فاستقبل الخير بقلب حر ، ولا تقرب لهو السائبين . .

* * * *

أوراقى مبعثرة . . . يتناهبها الأطفال

وأقطف الأزهار . . . وأدعى الجمال

خلعت ردائى . . . إذ أشكو البرد

ونصبتُ خيمتى فى وادى العواصف . . . فى ليلةٍ شهباء . . . ثم أعجب من أين يأتينى السعال ؟

* * * *

مفارقات النفس ذات السر

أبيع بلا ثمن . . . وأشترى بلا خيار

آه منى ، آه . . . منى السبب

كيف أربى الآخرين . . . وأنا أحتاج التربية ؟

من لا يستطيع تصحيح أخطاء نفسه فلا يصح له أن يكون قيّماً على أخطاء الآخرين يصحّح لهم وينقدَ.

* * * *

سبحان من خلق هذه النفوس . . .

أى سر هو سر هذه النفوس ؟

حساسة . . . متنوعة . . . متقلبة .

بينا تظنها فى غاية الصفاء : تهزها مفاجأة فتطفو الشوائب .

وبينا تعاملها فتلمس نهاية السهولة : تدهمها قسوة فتدعها صلدة على أعنف ما تكون القسوة .

رضاها يُغلفه غَنَج ودلال . . .

وغضبها يحب الاسترسال . . .

بين سلمها وحَربها يوم ، وبين حلفها وهجمتها ساعة ، وبين سكينتها وصَخبها دقيقة ، وبين ظَنيها الأول والثانى ثانية .

لا تُخفى سيفَها فى قُراب . . . بل هو جاهز .

ولا تلجأ سهامها إلى جُعبة . . . بل وتَر قوسها مشدود .

من أهلها مَن تستفزّه كلمة ينسى معها قاموس التآخى ، فيخرج إلى عدَوان ، ويجرّد أصحابَه من كل فضل ، كأنْ لم تكن بينه وبينهم مودة وخبز وملح .

ومن أهلها من إذا جُهل عليه لا يحلم ، ولا يعفو ، ولا يصبر ، ولا يرجو ما عند الله ، بل يجهل فوق جهل الجاهلينا .

ومن أهلها من لا يعاتب عتاباً مُنَجّماً أو مُعجلاً مضارعاً إذا ساءه أمر ، بل يصبر ظاهراً، من غير عفو فى الباطن ، ولا يحاول أن يقسرها على النسيان والتغاضى ، وإنما يكتم فى قلبه ثم يكتم ، ويظهر الابتسام ، وفى الداخل يتعاظم الرُكام حتى إذا بلغ أطناناً ثقيلة : انهار السد ، فيفجأ المساكين سيلُ العَرِم ، ويتكرر ذلك منه سنوياً ، فيحاسب إخوانه على ما سلف منهم معه ، وتكون كبيرة كمية الإتهام ، لتراكمها ، ويعين ذاكرته بدفتر التقويم ، الذى أحصى فيه ما نسوه وأرّخه وضبطَ ألفاظَهم ، وقد يحتفظ برسائل منهم ووثائق فيها هفوات لفظية ليستعملها أدلة فى التجريم ، فتكون ثَم الآلام ، وأصداء الآلام ، وما هو أعتى من الآلام .

أساسيات

وخطبنا فضيلة الأستاذ المرشد عمر التلمسانى ـ رحمه الله ـ فقال :

إن أمرنا يفهم من خلال قضيتين .

رؤية الحق ، وأن يرزقنا الله اتباع الحق .

وذلك دعاء النبى ـ ﷺ ـ : « **اللهم أرنا الحق حقاً ،وارزقنا اتباعه** ». وصدق ـ رحمه الله ـ .

إن دارنا أيها الإخوان دار عمل وعبادة ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، وتهذيب وتعليم ، وما هى دار فلاسفة يتجادلون ، ولا منتدى شعراء بضاعتهم اللسان ، ولذلك فإنّ عُرفنا يقول بتأكيد أساسيات العمل ، من الطاعة التامة ، والتزام النظام والخُطة والمنهج ، وعدم الالتفات على التسلسل المرجعى ، وترك التقدم بين يدى المقدّمين ، وإن تربيتنا تقوم على تعميق أساسيات الإيمان ، من ترسيخ العلاقات الأخوية وتعمير القلوب ، وصون اللسان .

نطرح الحسد . . . ونقيم التكافل .

ونخرج من ضيق القبلية والإقليمية والشعوبية ، إلى سعة التعارف ورحاب العمل المنتشر فى الآفاق .

نضع مشاعر الجاهلية تحت أقدامنا ، ونلبى أمر الزنجى الأسود إن كان هو الأعلم الأكفأ .

توجهنا إيمانى ، وشرطنا إسلامى ، وشعورنا أخوى .

لا نعرف الضغينة . . ولا نسمح بالغيبة .

* * * *

يا ترى كم موسوعة يمكن أن يؤلفها فضول القول الذى قيل أثناء الخلافات ؟

وكم ساعة عمل ضائعة هدرها الوقت المستهلك فى استنباط الظنون ؟

ومن غرائب التربية : أن الجديد والشاب الناشئ تستطيع أن تعظهما وتدعوهما إلى ترك الرياء والتكبر والمراء ، يعدّان ذلك منك إرشاداً وتربية وتوجيهاً ، أمَّا القديم المخضرم فإنك إن وعظتَه بمثل ذلك اعتبرها تهمة له ، ورفض نصحك وزمجر ، كأن لم تكن توبة رسول الله - ﷺ - فى اليوم سبعين مرة آخر حياته .

أمنية الراشد الإخلاصُ

وخطبنا الأستاذ عمر ثانياً فتساءل :

ما الذى تغير بين الأمس واليوم فى دار الدعوة؟

يجب أن نعترف بأم الأحداث حرفت بعضنا وأنشأت بينهم المرارات . . . ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾[1] .

---

(1) سورة القيامة : (15:14) .

لم تكن فى أيام الدعوة الأولى ماجستيرات ودكتورهات ، لكن النفوس كانت أصفى ، أخى الذى أعَدّته الجماعةُ ليختلط دمُه بدمى فى ساحة الجهاد : أصبحت أطعن فيه ، كلنا علماء تنقصنا زيادة حب .

ليس يخفينا أننا قلة ، أو أننا بدون عُدة ، إنما الذى يخيف أن ننسى أنفسنا فلا نكون على صلح مع الله .

لو آمنا حق الإيمان لا نتصرنا بإشارة إصبع ، لا نطمع أن نعيش طول عمرنا مخلصين حق الإخلاص ، إنما يكفينا أن نتوغل فى الإخلاص الحق لحظة بمقدار ركعة .

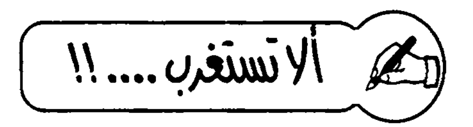
ليس الدهاء يوصلنا ، بل التوكل ، وأن ندعو ونقول :

« اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً » .

وتناصر المؤمنين بينهم أساس ، وبهم يظهر قدر الله فى النصر .

﴿ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾[1] .

رحمه الله ، وعجباً له من مرشد راشد أرشد فوفى .



ومن محاسن جماعة التبليغ : أن أحداً منهم إذا وقف ليعظ الناس : رفع أصحابه أكفّهم يدعون له أن يصيب القول وأن يهبه الله البلاغة .

وليت كل دعاة الإسلام يفعلون ذلك إذا تكلم إخوانهم ، لكن إغراء الشيطان فى ظروف الفتن ربما يجعل اللجوج الممارى يتمنى إذ ا

(1) سورة الأنفال : (62) .

تكلم أخوه المخالف له فى اجتهاده أن يتلعثم ويطيش ، وينسى النحو والفصاحة ، وأن يقض مضاجع سيبويه .

فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الشافعى يقول : ما ناظرت أحداً إلا وددت أن يظهر الحق على لسانه .

أما أخى فيريدنى أن أخفض معه المرفوع .

إن مراقبة تواريخ الفتن توضح أن كل من فجر فى الخصومة كان من الذين لم يحصلوا على التربية الكافية فى أول أمره ، وشرف النسب وبيوت المروءة والكرم تميل بالمخالف إلى العفة والسمو فى أدب الخلاف .

إن الحساسية تبلغ مداها لدى الداعية السوى ، ونفسه تعاف كل جو خانق غير نقى ، إن روحه لا تطيق الأجواء المغبرة وانعدام الأوكسجين ، ومؤلمة هى لفحات التراب .

أسلوب فى القتل هو الخنق ،ونمط فى الإرهاب الطائش هو العصف .

وحقوق الدماء أين ؟

الجنة هدف ، طريقها الإيمان ، والوسيلة الحب ، والحارس النظام .

فى بادئ الأمر قد نميل إلى الحلم مع المسئ ، ولكن عند اللجاجة تكون العقوبة هى الحكمة .

أمور الخلاف المرير قد ترفع الرقة بين المختلفين ، ويكون البأس بينهم عنيفاً ، إذ الأسباب تافهة .

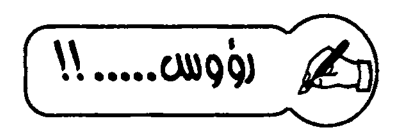
إن المخالف إذا ارتكب إثماً بحق الجماعة ولم يعاقب : تلفت وانتظر ، لعل عقوبته تأخرت ، فإذا مر زمن كاف ولم يعاقب : ظن أن الجماعة تجله أو تخافه ، فيرتكب إثماً ثانياً أكبر من الأول ، حتى يكون الشقاق له عادة .

مثلما تجب مكافأة المحسن : تجب معاقبة المسىء ، وإلا تجرأ آخرون على الإساءة ، لما يرون من عدم محاسبة المسىء الأول .

إن دماء الشهداء إذ تسيل : تكتب واجباً على الأحياء أن يسيروا بلا خلاف فى إتمام الشوط الذى بدأوه .

ذلك أول الحقوق الشخصية التى تثبت للشهداء ، فمن ذا الذى يطالب بحق الدم الضريج ؟

وأسفا على يوسف ، باعه إخوانه بثمن بخس ، وطغى عصر الضجيج .



ذهب المترفون يطالبون بحقوقهم ، وأقسموا أن لا حلم ولا مسامحة بينهم ، لكن حمزة لا بواكى له . . .

إفساد الأعداء الخارجين وكيدهم لنا يزدنا تماسكاً ، لكن النخر الداخلى يوهى ويدهى ، ويلهى ويسهى .

وأثناء الفتن تتسرب أخبار الدعوة إلى العدو ، فإن عاتبت : أنكر عليك أن تتهمه بالإفشاء ، وقد صدق ، لكنها اللامبلاة ، وأشنع ما فى الفتن : أن أصحابها جميعاً يرون أنفسهم رؤوساً ، فيضع الحساب عليك ولا تدرى كيف التفاهم ومع من يكون ؟

لا يرون أنفسهم عشرين مخالفاً ، بل يرون أنفسهم عشرين زعيم قائد فقيه مجتهد فيلسوف . . .

وبعض الدعاة يكون الواحد منهم على أحسن حال وأجمله ، لكنه إذا اجتمع فى عمل واحد مع أمثاله : اختلفواوتناحروا ، ومثل هؤلاء يستفاد منهم أتباعاً ، ولا يصح أن نجعلهم فى المقدمة .

يريدون تصفية العدو ، ونفوسهم أحق بالتصفية .

وأصدق ماقاله الأستاذ مصطفى مشهور فى هذا الباب : تمييزه بين اثنين ، فقال : هناك داعية عامل . وهناك عامل نفسه داعية !!

شفقة .. لكنها مهلكة ..

ويفكر مشفق على وحدة الصف وعدم خسارة الجماعة للنفر الذين عشقوا الرياسة بأن يمنحهم ما يبغون ، ويسترضيهم ، جمعاً

للجهود، وحرصاً على كل الطاقات أن تظل فى خدمة القضية ، ويقول : يريدون الأبهة والمكانة ، فلنعطها لهم ، لعلهم يتدربون ، وتعركهم الأيام فيفيقون . وترهقهم المسؤولية فيزهدون ، ولنشركهم فى الشورى لعلهم يرشدون ، وإنه خلاف بين الأقران ، ويستحسن أن نرضى كل الأطراف ، ثم ينادى يحث : هيّا هيّا ، ليحتضن كل منكم إخوانه ، ثم يرجع وقد ظن أنه قضى بحله العاطفى هذا على فتنة .

إن مثل هذا الاقتراح هو مذهب فى سياسة الجماعات خطأ ، واجتهاد فى التربية غريب ، فإن إتاحة الفرصة لغير ذوى الأهلية والكفاية مهلكة لهم، والاستشراف للمسؤولية علامة خلل فى التركيب النفسى للداعية ، وإنما تنبثق العناصر الريادية من خلال السير انبثاقاً تلقائيا ، وتتم تنمية المواهب من خلال منهجية تربوية شاملة ، لا من خلال الجرى مع تطلعات الفضول ، وتلك الطريقة هى من سياسة الحكومات الائتلافية ، بحيث ترضى كل الأطراف بمقاعد الوزارات ، وتستحدث لرجال الائتلاف عشرين وزارة دولة ومائة وظيفة استشارية لا تدعو لها ضرورة ، بل على حساب حقوق الشعب وعلى حساب النظريات الإدارية ، وأما سياسة الدعوة الإسلامية فأنبل وأسمى وأعف ، ولا يتقدم فيها إلا القوى الأمين المتجرد .

أصول اصطناع الرواد

إن التربية الريادية تتطلب تعويد ذوى القابليات والذكاء من المؤمنين على التفكير الحر ، والقياس ، والاستقراء ، والتحليل ، والتعليل ، وتمرينهم على استعمال القواعد المنهجية والمنطقية ، وهذا يتطلب تنمية قابلية الوصف الدقيق لديهم ، واكتشاف العلاقات وفهم الواقع ، وكل ذلك من أسس الاجتهاد وطرائقه .

لكن هذا التعويد والتمرين لا يصح الاستطراد فيهما بشكل متصل بل لابد من أن يتدخل الأمراء فى اتخاذ القرارات الواضحة الجازمة ، شفقة على المتدربين الصاعدين ، وتخفيفاً عنهم ،لئلا ترهبهم لحظات التردد عندمنعطفات الطريق المهمة وفى اللحظات الحاسمة .

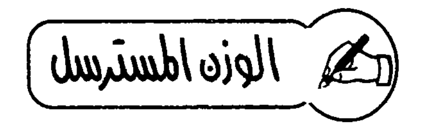
بمعنى : أن تدربنا لا يكون فى فراغ ، بحيث نجعله مقدمة لتنفيذ وممارسة لم يحن أوانهما بعد ، بل هو تدريب فى ظل إمارة متصدية وعمل سائر ، وأن التنفيذ مختلط بإنماء الفكر وبالتخطيط اختلاطاً دائماً وجزء من التدريب أن يلحظ المتدرب اتخاذ الإمارة للقرار الفعلى ، ليس أن يلحظ مجرد التمثيل الافتراضى .

إن الحرية اللازمة للمتدربين لا يمكن أن تكون تامة وليس من مصلحتهم ذلك ، وبالتالى فإن حدود دار الشورى لا يمكن أن تكون واسعة مترامية الأطراف ، لأن القرار يصعب عندئذ ، لكثرة

المتناظرين، أو يكون الوصول إلى القرار ببعض تكلّف ، فيكون ثم الطيش لا الاجتهاد ، وتكون نزعة النفس فى المشاركة الشورية قد لُبيت وأُشبعت ، على حساب الصواب .

قد يقول قائل : إن الرهبة التى تعترى الصاعد فى اللحظات الحاسمة هى جزء من المعاناة التى يجعلها فقه الدعوة نقطة ارتكاز التربية الريادية ، وبالتالى فإن سعة الممارسة الشورية مطلوبة .

فنقول : نعم هى جزء ، وهى مطلوبة ، ولكن كمشاهدة ومتابعة، بحيث يرى الصاعد عملية نضوج القرار ، ويتاح له أن يجرب مقادير استيعابه لدلالات الظرف ، فيقول قوله متمكناً ، مشيراً ، ولكن بنية التدريب على القول ، وأما صناعة القرار فى أصل الأمر فملك من خرجته من قبل هذه المعاناة بنجاح ، إذ ليس كل متدرب متخرج ، ولا كل ذكى مؤهل للقول ، ولا كل من عانى من ضغطين وصل ، لأن حق صناعة القرار نتاج معادلة صعبة نادرة التحقق ، أولها النية الخالصة وحسن التوجه، وآخرها المعاناة والتدرب ، وبين البداية والنهاية ذكاء وعلم ونفس سوية ، ومعرفة أفقية بالساحة العريضة ، وتأمل عمودى فى التاريخ الممتد.



إن الديك الفصيح إذ هو لا يزال فى البيضة يصيح .

قول للعامة يجب أن لا تغفل عنه منهجية التربية الريادية ، وكم للعامة من أقوال حكمية ، وإحساسات سليمة .

إنك لا تستطيع أن تفتعل الرائد افتعالاً وتصطنعه اصطناعاً إذا لم ينهض به قدره وترشحه فطرته .

لن تخطىء عينك الرائد أبداً ، ولعلك تصادف فتى من ناشئة الدعوة لم يبلغ مبلغ الرجال ، فتدرك أنه لها ، وليس هو بالذى يميز مقدمات الدعوة بعد .

أول ما تقع عليه عينك ، ومن النظرة الأولى تقول : هذا مبتغاى

ولمثل هذا نفتش عن منهجية التربية ، ونحاول تلمس المدارج التى تأخذ به صعدا .

لو كانت مجرد صيحة لتركنا كل فصيح يصيح ، لكنه علم الدعوة يقول : لا ، ليس هو الصياح ، ولا مجرد العواطف ، ولا قفزات المستعجل ، إنما هى أنغام الحداء التى تقود القوافل فتوصلها ، ولابد أن نُعلّم كل فصيح هذه الصنعة .

وفى الأنغام تجانس وتوافق ، وجمال وتناسب ، وتدرج واستمرار ، من الصفات المتماثلات ، ولكن فيها أيضاً من النقائض السرعة والسكون ، والرتابة والتجديد ، والعلو والهبوط ، وكل هذا التماثل والتناقض لازم لتربية الرائد ، فمتماثلاته تؤدى به إلى استهواء النفس ، ووحدة الفكر واتساقه ، ومنهجية السير ، والثبات على الارتباط بالمنطلقات الإيمانية الأساسية ، وتناقضاته تمكنه من التكيف مع الظرف ، والمرونة إزاء المفاجأة ، وإتقان التملص والإفلات والفر إذا لم يُتَح له الاقتحام ومواصلة الكر .

أضرار التقليد الجزاف

إن الإسراف فى إشراك كل طبقات الدعاة فى الشورى ، وكثرة تعليق الأمور على اتخاذ قرار شورى ولو كانت صغيرة ، وكشف الحيثيات التى تؤدى إلى القرارات ، وإطالة مناقشة الخطط مع منفذيها قبل إقرارها ، كل ذلك أدّى وما يزال يؤدى إلى إنتاج دعاة فضوليين ، يكثر لغطهم ويقل عملهم ، وبالتدريج تنصبغ مجالسهم بصبغة الغيبة، وخشونة الألفاظ ، حتى تكون تهورات اللسان أمراً مستساغاً، وتُغتال فضائل المجالس التى شهدت بها قواعد التربية الإيمانية اغتيالاً ، ويصبح الداعية المشارك فيها قليل الاحترام لعناصر الرعيل الأول ، كثير الجرأة عليها ، وأقرب إلى سوء الظن والغمز ، طويل النقاش، عريض التحدى .

وليس ذلك عرف المؤمنين أبداً ، ولا سَمتهم الذى ورثناه ، إنما ورثنا الحياء وعفاف اللسان واحترام الكبير وتبجيل السابق ، والتأول الحسن وترجيح العذر ، وجمال اللفظ ، والاستغفار للذين سبقونا بالإيمان ، وتكرار الدعاء للمربى والحادى .

الشورى حق ، وتطييب خواطر الصاعدين حق ، وإشراك المنفذ فى صناعة القرار حق ، لكن ذلك كله إنما يكون فى الحدود الوسطى ، وبالإنصاف لا بالهوى ، وبالمعروف ولمصلحة الدعوة لا لمجرد التطلع، وإذا لم نتقيد بالضوابط فى الممارسات الشورية فإن الأذواق

ستفسد ، ويكثر الصخب الذى يرهق الثقة المؤهل للتقدم ، فينزوى ، حفاظاً على عرضه وسمعته ، ولئلا يقسو قلبه عبر قيل وقال .

نقول ومع الأسف : أن الغوغائية التى صنعتها الديمقراطية الحديثة في الشعوب يمكن أن تظهر بصورة أخرى فى أوساط دعاة الإسلام إذا أسرفنا فى الشورى ، ونحن قبل الداعية المشاكس : نعيب الاستبداد الفردية ولكن الشىء إذا تجاوز حده آذى .

إن الاجتماعات الشورية ميدان يستطيع خلاله العقلاء ، أن يبدوا حكمتهم ، أو أن ينصتوا لحكمة غيرهم ، وليس فى الحياة ألذ ولا أطيب ولا أهنأ من أن يُجرى الله على فيك حكمة تقر بحروفها عينك ، أو أن تصغى بأذنك وقلبك لصواب حكيم يهديك ثمار عقله مجاناً ، أما أن تتحول رحاب التشاور إلى تلاوم جاف ، وتحديات باردة ، وجدل مستطيل ، فهنالك يجد الهوى ثغرته ليلج ، وهناك تنعصر القلوب وتنزف الجراح .

ويصف البعض تضييق الشورى بأنه توجه من أولى الأمر خاص يستجلبون به مداهنة إخوانهم ، وهذه تهمة باردة ، فإن المداهنة خلق ضعيف يدل على اختلاط فى النية ، وعندنا أن الذى يحاول تقليد مربيه فى كل اجتهاداته ، ويسارع إلى إقرار ما يذهب إليه بلا مناقشة ، إن هو إلا داعية قليل الموهبة ، ضعيف التفكير ، أو هو متزلف تنكر طريقته قلوب المؤمنين ، والفؤاد الحر يؤذيه التعكير .

إن الطاعة الواعية هى أصل تفسيرنا للجندية ، كما أن الحوار وتقليب وجوه النظر هو أصل مذهبنا فى صنعة الريادة ، لكن الأدب ، والرفق ، واللفظ الجميل من الصدر السليم أصل ثالث قرين .

الإبداع يحتاج الحرية

البعض يريد القائد آلة ميكانيكية بيد الجماعة ، تشغله بأزرار ، وهى التى تُنطقه وتخرسه ، وتحركه وتوقفه ، وذلك فهم يابس لنمط من العلاقة أشد يبوسة ، ليس يأتى بخير .

بل القائد كتلة مشاعر ، ومجموعة عواطف ، وذهن يتأمل ، وقلب يتجول .

يجب أن ندع له مجال الاجتهاد حتى وإن قيدناه بخُطة ، وعلينا أن نترك لفراسته دوراً ، ولذوقه مجالاً .

أحياناً نقيد القائد ، ونجرده من أى حرية فى اختيار الأعوان ، ثم نطلب منه أن ينجزا لمعجزات ، أليس ذلك من العجب ؟

ما كان علىّ ـ رضى الله عنه ـ عاجزاً ، بل هو قمة فى التقوى والعلم والشجاعة ، ولكن خذله أصحابه .

ولئن قبلنا للقائد أن تقيده شورى النُخبة ، والقدماء ، وأهل الحل والعقد من العاملين ، فهل نستطرد لتقيده ارتجالات الجدد ، ورغبات المستعجلين ، وظنون المتهجسين ، وأهواء العاطلين ؟

إن أقراناً يتنافسون دهراً ربما يكون شرط صلحهم : نحر الأمير فهنالك الظلم .

ولربما استجاز اللاحقون التشويش على بوصلة الجيل الرائد ،

فهنالك المتاهة . . هنالك يكون انقلاب الموازين :

ساقة ترتاد . . . . وقادة تنقاد . . .

تلك هى الفهاهة

من أساليبهم : اسندنى وأسندك ، يتواصون بذلك ، فى عقد ، لكن لا تشهد له أخلاق الإيمان ، فهو غير مبارك .

ومن طرقهم : المحاصرة المتقنة ، فينفر الثقة .

ويبلغ دين المرء أحياناً أن تكون فيه مخادعة .

كم من فتنة يبرع أصحابها فى تغليفها بغلاف ، فلا تُرى ، ويظن الواعظون أن ليس ثم شيء ، فيشكرونهم .

ويبلغ الأسلوب الهجومى الصدامى عند أحدهم أسلوب الأعرابى القاسى الذى قال : لتجدنّى ذا منكِب مزحِم ، وركن مِدعم، ورأس مصدم ، ولسان مِرجم . . .

ثم يهز الأمير الفقيه قلبه هزة الإيمان ..

وبسط لنا الأستاذ المرشد عمر التلمسانى ـ رحمه الله ـ أصول فقه القضاء فى الفتن فقال :

من الموازين فى قضاء المحاكم الدعوية فى الفتن ، أو معالجة القيادات واللجان لها : تعجل البت ، فإن تأجيل الحكم أو تأجيل السعى للإصلاح إنما هو فتح لباب الشيطان ، يغرى بالتمرد ،

والتسيب ليس صحيحاً ، وقد تكون هناك مماطلة غير مقصودة تأتى بضرر ، وإنما يصح التأجيل لحين ، لضرورة التحقيق ، أو إلى فترة نقدر فيها ميل النفوس إلى السكون ، أو لترك فرصة للمخالف للتأمل فى معانى التوبة ، وهذه فسحة لا مماطلة ، وإرخاء حبل وليس تركه على غاربه .

وكذلك من الموازين هنا : أن لا نطلب العدل والحق فقط ، بل نطلب الرحمة أيضاً ، والرحمة فوق العدل ، والمخطئ محتاج للرحمة ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يُشتم ويؤذَى فيحلم ، والذين فصلهم الأستاذ الهضيبى ـ رحمه الله ـ مثلاً لم يفصلوا من أول خطأ ولا ثانى خطأ ، بل لما تكرر الخطأ كثيراً ، والمسألة خاضعة لتقدير المصالح والمفاسد لا الحكم بجنة أو نار ، وإنما نجتهد اجتهاداً .

لكن لا يصح تحميل قائد أوضاعاً مهترئة ، والفصل اضطرار نضطر له ، وهناك أصحاب نزعة انفرادية طبيعتهم عدم التقيد بالأوامر ، وإذا وضع فى الصف يُفتن رغماً عنه ، وهناك تكون الرحمة بأن نعفيه من العمل والمسؤولية لنحفظ إيمانه ، فضلاً عن أن وجوده يسبب الحرج .

وهذه المعانى هى تربية لنا جميعاً ، ثم هى مسألة تنظيمية ثانياً ، فتجميد أحد أو نقله من مركزه : أمر اختبار له من باب ، ويفسر بموجب القواعد الجماعية من باب آخر ، أى القواعد القائلة بأن كل داعية هو جندى يعمل فى الموطن الذى يوضع فيه ، ومن الافتيات على مصالح الدعوة العليا أن نعتبر الأوامر بإجراء بعض التغييرات انعكاساً لموقف شخصى أو حقد أو تنافس ، لأن الانسجام

مطلوب ، وكل له أجره ، وقد يكون أحد صاحب كفاية لكن إخوانه لا ينسجمون معه .

ومن الموازين : اجتماع عدة مفاسد وأضرار فى آن واحد ، من العدو أو من بعض الدعاة الساذجين ، بحيث يكون وضعنا مرهقاً ، كثير الإتعاب ، ولا يحتمل مزيداً من المتاعب باختلاف المختلفين ، ويصبح الحزم فى البت من باب الرحمة بالدعوة ، وهى أرجح من الرحمة بالأفراد .

كذلك لا ننكر أن الأخ قد يُحترم لسبب آخر غير مكانته الإدارية ، كعلمه الشرعى مثلاً ، أو سابقة له ، والعفو عن العالم المخطئ أسبابه مضاعفة ، ومع ذلك فالتفريق واجب بين العفو عن حقوقنا الشخصية والعفو عن الحقوق الدعوية العامة ، فتتسع هناك ، مع شدتها على النفس وتضيق فى الأخرى .

ومن القواعد أيضاً : كثرة التداول فى أمر الاختلاف لإنضاج الرأى ومعالجته ، دون التسرع أو شبه الانفراد ، لكن الاستطراد فى ذلك فى وقت الفتنة : زيادة فى الفتنة ، وإعنات وسوء الظن أحياناً حزم من المسؤول ، كما ينسب لعمر ـ رضى الله عنه ـ .

وهكذا فإن الحكم والموقف فى قضايا الاختلاف هو شد وجذب بين عدة موازين ، يميل بك ميزان إلى الرحمة ، ويشدك آخر إلى الحزم ولكل حادثة ظروفها الخاصة التى ترجح أحد الموقفين ، ولكل حادث حديث ، ولكن يجب أن يكون من القضاة والقادة خلوة إلى أنفسهم لاستذكار هذه المعانى والموازين ،

ويتركون قلوبهم تتأرجح مدة بين يمينها وشمالها ، ثم يهزونها هزة الإيمان لتستقر بعدئذ على قرار .

رحمة الله عليه ، كم كانت هزاته هذه منصفة . . .

* * * *

ويلاحظ فى أمر الخلاف أنه كلما كان فكرنا واضحاً وقواعدنا الإدارية واضحة : قل الخلاف جداً ، وكلما كان التعميم : كثر التأويل ، ويدعى كل واحد أن شرحه وتفسيره هو الصحيح .

فالوضوح وتخصيص الدلالات هو ضمانة ضد الفتن أكيدة .

ما أحلى النصوص المرنة الفضفاضة فى أيام التحابب ، لكن الخلاف إذا اشتد فإنها تكون مصدر متاعب ، وتكثر التفسيرات .

لك تأويل لها ، ولى تأويل ، وأشد فتشد ، فيكون التعطيل .

ويصح أن نقول : إن الأوضاع الاستثنائية ووجود الفتن تجعل اتّباع حرفية نصوص الأنظمة أحياناً مرجوحاً ، والخروج عنها جائز لتحقيق مصلحة ، لكن لا يخرج عنها أحد باجتهاده ، ولا تخرج عنها المجموعة الصغيرة ، وإنما تخرج عنها الجماعة بإجماع أو بقرار شورى .

وتعصر القلب مرارة حين لا يجد المخلص أمامه لتجنيب الدعوة أضرار الفتنة سوى اللجوء إلى قضاء سليمان ـ عليه السلام ـ بين الوالدتين ، الحقيقية والمزيفة ، ضحت به الأم الحقيقية رأفة أن يشق إلى نصفين ، فيكون تحمل أسواء السيىء شفقة على الدعوة أن

تنشطر شطرين ، وفيمن يظاهر السيىء أبرياء يأخذون بالظاهر ، والسر يلجم المخلص أن يبوح به ، ولو صرح به لاقتنعت نفوس ، وهدأت قلوب، لكنه السر .

وتتضاعف المرارة حين يتوهم المقضى لهم أنهم على حق ، وأنهم كسبوا جولة ، فتكون لهم صولة ، لا يدرون أن سد الذريعة أنجاهم .

إن الجدد لا يلغطون إلا إذا لغط بعض القدماء ، ومن طبائع النفوس التقليد ، ومن سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

✧ وخطبنا الثقة فقال ✧

إن حزن القلب إزاءالإساءة فطرة ، وفي تعزية الله تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ عبرة ، إذ قال: ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾(1) .

فكيف بمن هو أقل مثلنا ؟

وكيف إذا كانت الإساءة لا من كافر طبيعته الإساءة بل من مسلم، بل من أخ لك فى الصف ؟

إن التقوى تدعونا إلى أن نتحكم بألسنتنا ، ثم ندعو الله أن ينسينا ويمحو من ذاكرتنا حوادث الإساءة لنا كى تبرد قلوبنا ولا يستمر غليانها .

لا نقول إلا ما يسدد ويقارب ، وما يرضى الرب ، أما ما يفرق

---

(1) سورة الأنعام : (33) .

وينبت الضغائن فلا ، بل نصمت ، ولا تتحرك ألسنتنا إلا بخير ، وتلزمنا تقوى مضاعفة عندما تفور قلوبنا .

إساءة الكافر لنا تقوينا ، وإساءة المسلم تؤذينا .

الطغاة خدمونا ، لأنهم ظلموا ، فَملَكَ الناسُ الشوق للحرية . . . من معاناة الظلم والمحن : يتعلم الشعب الحرية، لكن الفتن : تكسر النفوس ، وتخذل الهمم .

إن المحن مقادير من الله يليق لها الصبر لتتحول إلى صالحنا ، بإذن الله، وهى تجارب مربية ، وسينهار كل ظلم يوم تتحد قلوبنا .

أما الأسباب الداخلية فتؤذينا ، والأبنية الجماعية لا تنهار بأسباب من خارجها ، لكنه النخر الباطن .

الابتسار طريق الاندثار

يجب الرجوع إلى القاعدة الأساسية فى الاهتمام بالكيف لا بالكم ، نهتم بالعمق وبخط رأسى أكثر من الخط الأفقى .

تربيتنا يجب أن لاتعتمد التلقين فقط .

نحتاج إعادة الصياغة وإطالة الركوع .

كم من تهور سببته الحسابات العاطفية والنزعات التكاثرية ، كان منه الإحباط والتدمير المعنوى ؟ .

لذلك فإن الحلول التوفيقية لقضايا الفتن لن تفعل شيئاً سوى أنها تؤخر انفجار الموقف .

إنها كمثل قربة مخرمة كثيرة الثقوب ، لا تدرى بعدترقيعها متى تفتق عليك وترش ماءها ؟ .

إن لغة الشعر لا تصلح لدار القضاء .

إذا خالفت مجموعة بقية الجماعة فإن صيغة الموازنات والإرضاء قد تكون فاشلة أحياناً ، ومن الخطأ أن يُحل الإشكال بتأمير رجال من هؤلاء يزاحمون البقية ، ففى ذلك تكريس للخلاف ، وفيه إغراء لا للمخالف فقط فى أن يسخر كل طاقاته الإبداعية لمعاندة الآخرين وإظهار خطأ مذهب الأكثرية ، بل حتى الإمارة التى انشق عنها المنشقون ستلتهى بقضايا مفضولة ، وستسير مع المخالفين بسيرة مداراة دبلوماسية ، أو ستبذل من طاقتها مقداراً كبيراً لتنفيذ أقوال المقابل ورصده ورد ما قد يستجد على لسانه بعد الصلح .

إنها معادلة صعبة ، والفصل مع قسوته قد يكون أفضل وأكثر تحقيقاً لمصالح الجماعة .

المعالجة الظاهرية لا تجدى ، لأن محاولات الباطن ستظل تعمل، تحفر وتنخر بعيداً عن أنظار المراقبين .

* * * *

إذا قضى القاضى بدينار مختلف فيه وهو غضبان متوتر منفعل : كان حكمه مخالفاً لسنة القضاء ، فكيف نحكم الدعوة ونسوس أمورها فى مجالس يسودها الغضب وتسيرها التحديات ؟

وميل القاضى إلى أحد الطرفين فى حكم بدرهم يفتح باب الطعن فى الحكم ، فكيف بعصبية الشللية التى تعطى للانحياز بعده الجماعى العميق ؟

قل أعوذ برب الناس

ووصف لنا الثقة حيصة فى ساحة إخوانه فقال :

ليس هو الانشقاق فقط بل تقاعد ، بل انسحاب ، بل تمزق .

لذلك لا تفيد إلا المعالجات الحاسمة ، أما المداواة السطحية فلن تجدى شيئاً .

من الخطورة بمكان تسوية أرض المعركة قبل أن تنزع منها الألغام أولاً .

بعض الناس يلوّح لهم براية من بعيد ، فيقصدونها من غير تمحيص

يريد البعض أحياناً تحطيم أحد يضيقون به ذرعاً ، لحسد أو غيره، فتشار حوله التهم ، لكن العملية تُفلسف فى صورة دعوة لمذهب فى العمل جديد واجتهاد مبتكر ، وهى زخم شخصى ليست أكثر .

إن أشنع الظلم أن تتخذ من أخ لك هدفاً وتجمع الناس والجموع ليرجموه معك .

المحورية أخت الحزبية .

والتنازع على المواقع بالوقيعة باطل .

وأول تلقين الشيطان لصريعه أن يعلمه أن يقول . . . « أنا» .

نحن دعاة ، لم نجتمع ، ليكره بعضنا بعضاً ، وإنما اجتمعنا لنتعاون على مشقة الطريق .

وهل يدرى المفتتن كم يلهى معه من الدعاة عن قصودهم ، وكم

يهدر من أوقاتهم إذا انصرفوا له ناصحين ودخلوا بينه وبين إخوانه مصلحين ومحكمين ؟

إنها جهود وأوقات تذهب هدراً .

إن الممارسة السياسية تكون أحياناً قليلة الجدوى ، لاهتزاز بناء الجماعة بالخلاف ، وتكون الأولوية عندئذ لإعادة البناء ودرء الفتنة ، وتكون التربية هى القضية الرئيسية .

إن الزمان لا يُسلم إلى عاطفى متسرع ، إنما يعطى للعقلاء أصحاب التقوى والعلم .

وقد صدق الثقة . . . ثم صدق ، فإن تجاربنا تنطق بأنه لا يجوز النظر إلى ظاهر الفتن ، وعزوها إلى السبب الأخير ، ليظن ظان أن تلافى ذلك السبب البسيط أمر سهل ممكن ، فيعدل عن الحزم إلى مجرد الوعظ ، بل الواجب أن نغوص بعيداً لنرى الأسباب الحقيقية للفتنة ، وحيثياتها الكثيرة ، وجذورها القديمة ، لا نكتفى بمجرد الحلول العاطفية للمشاكل ، بل ننزل إلى أصول البلاء .

إنها ليست القشة تقصم ظهر البعير ، لكن الطارىء الذى لا خبرة له يظن ذلك .

وقد يخالط باطل المبطل بعض الحق ، ولكن ابتداء أمر كل فتنة هو انحراف فى النفس ليس لباحث أن يغفل عنه .

إما أن يكون تأسيس واستمرار الدعوة على مبادىء ، أو على رجال ، فإن كانت المبادىء فهنالك ظن الخير ، وإن كان الاجتماع على رجال ففى ذلك نظر ، واقرأ الفاتحة على هذه الدعوة أو بالأحرى . . . اقرأ الخاتمة . .

طفحت فأشغلت !

2

أصعب حالات الدعاة الذين يرابطون مع أمير على أمر جامع : أن تنقلب عند بعضهم الموازين ، فيغدو الإيجاب سلباً .

وإنما تؤسَّس الجماعة الإسلامية على قاعدة الولاء لله تعالى ولرسوله - ﷺ - وللمؤمنين ، فيكون الحب والبغض فى الله تعالى، ويكون عَرض أعمال الرجال على الحق ، فنقبل منهم وندع .

ولكن يغفل البعض عن هذا المعيار أحياناً ، ويؤدى اختلاط الأصوات فى أيّام الصخب إلى ذهول عنه ، ويظهر نوع من ولاء الداعية لأساتذته ومربيه بالحق والباطل ، بأن يلتزم موقفهم وتأويلهم على طول الخط ، منتصراً لهم ، فتكون بداية الإنتكاس ، إذ لا معصوم ، ولا يؤذ ن لبشر يزيد إيمانه وينقص ، ، ويصيب رأيه ويخطىء ، أن يحتكر الولاء .

فهو يودهم ويواليهم لا لسبب شرعى يوجبه الفقه، من نصر مظلوم أو تعاون على بر أو طاعة أمير ، وإنما بسبب العلاقة الخاصة ، حتى لو كانت الأسباب الشرعية ترشد إلى قطع ما هو فيه من ولاء ، من وجود ظلم عند أصحابه الذين والاهم ، أو الانتحاء جانباً عن الجماعة ، أو الخروج عن خُطة الأكثرين ، أو الانحراف والشذوذ والتفرد فى الاجتهاد .

حروف خارج الأبجدية

ويتضاعف السلب المتولد من هذه المودات الشخصية عندما لا يقنع الواهم بإظهار الولاء فقط ، وإنما يتعداه إلى الدفاع والذبِّ عن صاحبه ، ويُسخر لسانه لنقد الآخرين ، فتكون وخزات القول الجارح الحديد التي تؤلم قلوب النبلاء ، فإنه :

لذى الحجا : وخزة اللسان   أوجع من وخزة السنان [1]

وما كان السلف ـ رضى الله عنهم ـ على مثل هذا ، بل كانوا يُقلون الكلام حتى فى المباح ، وحيث لا أذى ، إبعاداً لاحتمالات الزلل عند الإكثار ، وقد وصفهم إمام المحدثين بالبصرة عبد الرحمن بن مهدى فقال : «أدركت الناس وهم على الجُمَل» .

قال الإمام أحمد بن حنبل معقّباً :

« يعنى لا يتكلمون أى : ولا يخاصمون » [2]

فإنما هى جُمل يسيرة من الكلام بحروف معدودة ، ليس وراءها إيذاء أو تخذيل أو تعكير قلوب .

وهكذا كانت الحياة الإسلامية تمضى حين يقودها الصالحون ،

(1) عيون الأخبار لابن قتيبة 3 / 184 .
(2) كتاب العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد 1 / 218 .

بل الحياة الإنسانية حين تصفو فتحكمها سنن الفطرة ، فيتوارى المهذارون ، ولو استقرأت التاريخَ وأوصاف المجتمعات فإنك :

(تجد الوحدان والجماعات أقربها إلى الصدق والجد : أقلها كلاماً ، يشغلها الفعل عن القول ، ويغلب فيها الفكر واليد على اللسان وأقرب الناس إلى البطالة والهزل : أكثرها كلاماً ، وأذربهم لساناً ، إلا قليلاً .

لو اتصل اللسان بالفكر لقيده الفكر ، ولو صحب القولُ العملَ لو قَرَه العمل ، ولكن اللسان يتقلب فى هراء لا ينفذ ، ويصرّب ألفاظاً لا تحد ، قولُ بغير حساب ، وقشر ليس فيه لُباب .

وكم قال الناس قديماً فى كثرة الكلام وقلّته ، وفى ثقله وخفته وما يتأمل متأمل فى أحوالنا إلا يجد تصديق ما قيل ، فحركة ألسنتنا تربو كثيراً على حركات القول والأيدى ، وابتكارنا أكثره فى الكلام لا فىْ النظام ، وفى القول لا فى الفعل .

رحم الله مَن جعل عقله على لسانه رقيباً ، وعمله على قوله حسيباً) (1) .

فهو اللسان وراء الحالتين .

وذلك سبب الوصية بسجن اللسان ، لما قال :

تَحَفّظ من لسانك ليس شىء

أحق بطول سجن من لسان

(1) الشوارد لعبد الوهاب عزام / 99 .

أما إذا أطلقته حراً ، فهنالك تكون المتاعب . . .

إن اللســـــان إذا حللــت عقــالــه

ألقـــــاك فى شنعــاء ليــس تُقــالُ

فالعاقل والقيد أليقُ لكل لسان ، وأحوط ، وأبرأ ، لأنه ليس من أحد يقيلك ويعفيك من سقطاته ، إلا الأقل ، فانتبه .

وإياك أن تُستدرج إلى وادى الأذى متوهماً القيام بمهمة وعظ الآخرين ، فإن التشهير يزيل نُبل الموعظة .

(قال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ : مَن وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه .

وقيل لمسعر : أتحب مَن يخبرك بعيوبك؟ فقال : إن نصحنى فيما بينى وبينه فنعم ، وإن قَرَّعنى بين الملأ فلا [1]

هذا الإيذاء إذا كان مجرداللسان يرسل الكلمات هذراً ، فكيف به إذا حسنَّت زيفه فنونُ البلاغة والنَظْم ، وجُندت الأقلام واستجاشت العواطف نبراتُ الخطابَة ؟

الخَطْبُ أدهى عند ذاك بلا شك ، وأشد إذا ساعد المحيط خلال الفتن .

فكم من خطيب قام فيها مثــرثراً

فطرّى لنا من يابس القول ما طرى

---

(1) إحياء علوم الدين 2 / 182 .

وكم شاعر قد أرخص الشعر دونها

وكم قلمٍ فوق الطروس بها صرّا[1]

ثم تتحدر الحالة إلى سوء أكثر حين لا يكون ثَمَّ طرف واحد يمنح لسانه الحرية ، بل أطراف أخرى تدافع عن نفسها ، وتفنّد المزاعم ، فيثور الجدل ، فيعم الصخَب ، كأنك فى سوق الصفّارين حين يزدحم الطَرْقُ ، فيخفت صوت هتاف الإسلام ، فتضمحل الحماسة .

ملأنا الجَو بالجدل اصطخابا

وكنا قبلُ نَملؤه هتُافا

ومازلنا نهيم بكل واد

من الأقوال نرسلها جُزافا[2] .

وهذا لأن الشر له قابلية التسلسل ، وهو ولود ، سريع النسل ، كثيره ، وليس الحزم إذا رأى المخلصون أوائله إلا فى أن يتحاملوا ، ليسدوا الطريق أمام استطراده ، فإنه . . .

إذا دُفع الشر القبيح بمثله

تحصل شرٌ ثالث وتولدا

وأمست دواعى الشر ذات تسلسل

مديدٍ وصار الشر فى الناس سرمدا

---

(1) ، (2) للرصافى فى ديوانه 2 / 298 / 280 .

إذا أيقظتني للعدا اعتداءة

شربت لها من خالص العفو مُرفدا

وأضرب عن جهل الجهول ولم أكنْ

لأضرب في الأيام للغدر موعدا [1]

وكان التحالمُ صفة النبى ـ ﷺ ـ ، فكان يغضب ويحمرّ وجهه الشريف، ثم لا يعاقب .

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : قَسَمَ النبى ـ ﷺ ـ قسماً ، فقال رجل : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله !

فأتيت النبى ـ ﷺ ـ فأخبرته .

فغضب حتى رأيت الغضب فى وجهه ، ثم قال :

« يرحم الله موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر . » [2]

فصاحة الجمال الصامت

لكن السلب يتعدى أن يكون كلاماً معيباً يتناول الآخرين بأذى ويظل قائل القول الحسن المفيد ناقصاً أيضاً إذا لم تسعف الأعمال دعواه العريضة ، وهى صورة من الصور المرجوحة رصدها المربون فأنكروها ، وبينوا كيف أن قوماً :

---

(1) للرصافى فى ديوانه 2 / 220 .

(2) صحيح البخارى 4 / 230 طبعة صبيح .

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا

ولكنّ حُسْنَ القول خالفه الفعلُ

ورصدوا حالة معاكسة طرأت كان الأقدمون ضدها ، يوم أظهروا الدأبَ الصامت .

وكان البرُّ فعلاً دون قول

فصار البرُّ نُطقاً بالكلام

وساد عُرف التفاصح ، فاسترخت أيادى التصافح ، حتى :

« نطقنا بالعربية فما نكاد نُلحن ، ولحنا بالعمل فما نكاد نُعرب» .

كما عبّر إبراهيم بن أدهم .

أو أنك « قد قنعت بفصاحة اللسان مع عُجمة الجنان ، وعذا لا ينفعك الفصاحةللقلب لا للسان » .

فى تعبير عبد القادر الكيلانى .

وسبب ذلك : خلل فى ركن الإخلاص والعياذ بالله ، وقد بينه الجُنيد البغدادى فى معادلة واضحة ، أنه :

(يخلص إلى القلوب من بره : على حسب ما تُخلص القلوبُ عند ذكره) .

ثم قال : « فانظر ماذا خالط قلبك » ؟ .

فالعمل الصالح ، بر ، وإنما يأذن به الإخلاص ، فإن لم يوفَّق القلبُ إلى مزيد بر : فالواجب أن تفحص كفحص الأطباء عن أخلاط ومكدرات وشوائب تعيق .

بل لا يحتاج صاحب الإخلاص إلى تذكير الآخرين بما عنده ، وما هو بحاجة إلى دعاية أو دفاع عن النفس ، إنما هو مثل زهرة ينتشر ريحها ويجبر المار بجوارها على الالتفات والاستمتاع بشذاها الزكى حتى لو لم يرها أول مرة .

« فمن أصلح سريرته : فاح عبير فضله ، وعبقت القلوب بنشر طيبه . فاللهَ اللهَ فى السرائر ، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر »[1] .

وكلما وعى الدعاة هذه الحقائق أكثر : تقلصت احتمالات الفتن فى دارهم ، واضمحل ما يلازمها من تكبر وحسد وجدال ، وكان عمرو بن قيس الملائى يرى رؤوس التواضع ثلاثة ، أحدها : « أن لا تحب الرياء والسمعة والمدحة فى عمل الله » ، وكانت وصية يحيى بن أبى كثير أن : «تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل » .

فخذ برأس الأمر أيها الأخ الداعية ، ولا تستغرب كثرة التوصية بهذه المعانى التى مرت عليك عند الابتداء ، فإنها تلزمك عند التوسط أيضاً ، وعند الانتهاء فإن « أقرب الناس من الرياء : آمنهم له » كما يقول التابعى عَبدة بن أبى لُبابة .

(1) صيد الخاطر لابن الجوزى / 207 .

حين تغوص في الأوحال القدم

وخبر هذه الاختلاطات القلبية وازدواج النية خبر عجيب غريب حتى أنها قد تستدرج العالم أو الداعية إلى أرض الحسد وهو يظن أنه يحسن صنعا ، ويتوهم أنه يسعى إلى حق أقره الشرع عليه ، وقد ضرب الإمام الغزالى فى الإحياء مثالاً لورود هذا الالتباس فى الحياة العلمية ، يمكننا أن نقيس عليه شيئاً يحدث فى الميادين الدعوية ، وفى المثال كشف لأسرار النفس الإنسانية يحتاج الدعاة تعلمه ، وفيه وصف لنوع خفى من الفتن حرى بهم أن يفقهوه .

ويبدأ الغزالى بالتذكير بـ « أن الباعث للأكثرين على نشر العلم : لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء ، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله ـ ﷺ ـ وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه ، وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه : ساءه ذلك وغمه ، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ، ويقول : إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك ، إذ لو اتعظوا بقولك لكنتَ أنت المثاب ، واغتمامك لفوات الثواب محمود ، ولا يدرى المسكين

أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً وأعود عليه فى الآخرة من انفراده ، وليت شعرى لو اغتم عمر - رضى الله عنه - بتصدى أبى بكر - رضى الله عنه - للإمامة : أكان غمه محموداً أم مذموماً ؟ ولا يستريب ذو دين أنْ لو كان ذلك مذموماً ، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى مَن هو أصلح منه : أعود عليه فى الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل ، بل فرح عمر - رضى الله عنه - باستقلال مَن هو أولى منه بالأمر ، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك ؟

وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر مَن هو أولى منه بالأمر لفرح به ، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور ، فإن النفس سهلة القياد فى الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر : تغير ورجع ولم يف بالوعد ، وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها ، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به : بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾(1) ، فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق ، وإلا التحق باتباع الشياطين وهو لا يشعر »(2) .

فأعد التأمل فى هذا النمط من السلوك النفسى : ينفتح لك باب عريض من فقه القلوب ينجيك بإذن الله من ضيق الفتن التى قد تغرى

(1) سورة الحجر : (40) .
(2) إحياء علوم الدين 4/ 318 .

داعية بالتنافس مع داعية آخر ، فيتبرم من وجوده وكلامه ودروسه ، وما ثَمَّ غير الحسد ، والعياذ بالله ، فيأخذ بالوشاية عليه لدى الأمراء .

وكان من الممكن لهذا النوع من الحسد أن يكون محدود الأثر ، لكنّ طبيعته تترك قلب الحاسد يغلى ، فيستهلك نفسه ، ويطمع الشيطان أن ينال أكثر ، فيغرى الحاسد بالنميمة والوقيعة بين المحسود وإخوان له ، فيتعدى الأثر ، وتعم البلوى .

هذه الحالة هى التى شكاها الكثير من فقهاء المسلمين ونبلائهم ، جيلا بعد جيل ، وما يزال يشكوها بعض الدعاة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وتنطق بها تقارير وشهادات ومحاكمات .

وإنك لتسمع توجع محسود يقول :

أفشى علىَّ مقالَةً ما قلتُها

وسعى بأمر كان غير سديد

فينعصر قلبُك : تألم لألمه ، وتأسف لهذا التردّى الأخلاقى .

ثم تلتفت ، فتصادف مُصلياً يدعو ربَّه أن يعصمه من « الغواية فى الرواية » ، فتتخيل كم آذت هذا المسلم غواية التلاعب بالألفاظ والحقائق .

وتستنبىء التاريخَ عن أشد ما أرهق عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهما ـ فإذا هو ما تابع فيه الأفوه الأودى فى قوله :

ولم أرَ فى الخطوب أشد وقعاً

وأصعب من معاداة الرجال [1]

---

(1) تاريخ الخلفاء للسيوطى / 203 .

فترى آهته هذه مجرد مفْصل فى السلسة التى أدت به أن يُعَلّق أمام الكعبة . . . . . . فارساً لا يترجل . . . . . ! !

وتستطرد القصص . . تترى .

وعلاج هذه النميمة لا يكون بوعظ مقترفيها ، فإن للشيطان عشيرة حكَمَ بنمائها القَدَرُ ، وهُم بنسبهم فى سرهم يفرحون ويفخرون ، لكن العلاج الحاسم إنما يكون فى صدود الثقة عن صاحب الإفساد الواشى ، وتحسين الظن بالمؤمنين ، وتقديم ما تعلم من خبر أخيك على خبر الهامس بأذنك ، واستحضار سابقاته الخيرية ، واستشهاد أيامه الماضية .

وهذا الطمع فى وعى الثقة ونباهة الأمير هو الذى عوّل عليه المظلومون دوماً ، فيهز أحدهم ضمير أخيه هزاً ، وينطلق .

أليس من العدل أن تسْمعا
فأشكو إليك نَموماً سعى ؟

فأبدعَ ما شاءَ فى فرية
تأنّق فى صنعها وادّعى

وما كان لولا خلاجُ الظنون
ليرغبَ فى القول أو يطمعا

وليس ملامى على من وشى
ولكن ملامى على مَن وعَى

أيجمل بالعهد أن يُستباح

لواشٍ وللودِّ أن يُقطعا ؟

ومن أشرك الناس فى أمره

دعته الضرورة أن يُخدعا

وهذا هو البارودى [1] . . عاشق الحرية . . . ذو القلب الكبير ، وقد ظن قلب صغير أنه هزمه ، لكن الأيام طمرته ، وبقى الحر شامخاً .

وكان آخر قد تصدى من قبل ، فجهر جَهْرَ الواثق من صحيفته ورصيده وماضيه وحاضره ، متعجباً من تغير أميره . . . .

أما جربتنى فخبرتَ منّى

نصائح لم يُمازجها خِداعُ ؟

ونُطْتَ بى المصاعب فاستقادت

مُطاوعةً وكان بها امتناعُ

ولم تعثر بحمد الله منى

على عيب يكتّمُ أو يُذاعُ

هو الحريرى صاحب المقامات [2]

فليس ملامهما على من وشى ، لكن على من مَنَحَ الأذن الصاغية .

(1) ديوان البارودى / 325 .

(2) المقامات / 297 .

فالنصائح التى أضمرت أو أبديت لم تُحفظ . . !!

والدأب الذى ذلل الصعاب لم يشفع . . !!

وغلبت فرية ما هنالك . . !!

وفى التفويض إلى الله تعالى مندوحة .

وهو الحكم ـ عز وجل ـ ، يرفع ويخفض ، وعنده سنجتمع .

لكن الناس يستعجلون . . !!

وليست المنزلة أن تنال لقباً أو أن توضع فى الصدارة ، ولكنّ المنزلة أن تحتل حيزاً فى قلوب المؤمنين ، وأن تنادى ملائكة السماء أهل الأرض أن الله تعالى أحب فلاناً فأحبوه .

« إن قيادتنا للحياة هى القيادة ، وليست مراكز المسؤولية التى تضعنا فيها التوزعات الدعوية ويمنحنا إياها أمير الدعوة .

صانع الحياة يدوس الألقاب برجله ويحطمها ، ويمضى يصنع الحياة من موطن التخصص والفن والإبداع .

هو مليء النفس ولا يحتاج أحداً لملئها .

الذى يُطالب بالمسئوليات والألقاب الدعوية والنقابة والإمارة على المؤمنين إنما هو العاجز الذى لا يحسن عملاً ولا تخصصاً ولا فناً ، فيطلب التعويض بإنعام الألقاب عليه ، ويعارك ، ويختلف ، ويناضل دون مكتسباته السابقة ، ويملأ الكواليس همساً وسعياً ، وأما المقتدر فيتقدم تقدم الواثق »(1) .

---

(1) صناعة الحياة / 64 .

لما أطاع الهوى ... هوى ...!

إنّ قصص الخلاف و « الظُّلم الأخوى» تكشف الحاجة القصوى إلى عملية إعادة التربية وتزكية النفوس ، فإن الأهواء وجدت لها مسرحاً .

والنفس إن صَلحتْ زكت ، وإذا خَلَتْ
من فطنةٍ لعبتْ بها الأهواء
لولا النميمةُ لم يقع بينَ امرىء
وأخيه من بعد الودادِ عداءُ

« وإن ما تسمع وترى من، خصام وافتراق ، وبغض وشقاق ، وجدال ومراء ، وتنافر وعداء ، كل أولئك مما آثر الناس الباطل ، ومالوا مع الهوى .

ودواء هذا الداء أن يُعرَّف الناسُ الحق ويبصّروا به ويُرغبوا فيه حتى يحبوه فيؤثروه ، وأن يُعلموا العدل ويمرنوا عليه حتى يطيعوه ، وأن يُكشف لهم الباطل فى شناعاته ، والجور فى سيئاته ، ويبين لهم كيف شقى بهما الناس [1] .

فإذا ظفرت بذى الوفاء فحُطَّ رحلك فى رحابه

(1) الشوارد لعبد الوهاب عزام / 3 .

فأخوك من إن غاب عنك رعى ودادك فى غيابه

وإذا أصابك ما يسوء رأى مصابك من مصابه

وتراه يَيْجَعُ إن شكوت كأنّ ما بك بعض ما به

ليس أقل من ذلك، ونرفض الدبلوماسيا الباردة، والابتسامات المصطنعة والمواساة الهامشية .

وإن مهمة التربية الدعوية فى كل حين أن تنتج نموذجاً مسلماً :

واضح المنهج يسعى دون غش أو نفاق

راضى النفس ، كبير القلب ، يدعو للوفاق

قلبه المؤمن بالخالق مشدود الوثاق

نبضه الذاكر يمتد إلى السبع الطباق

وواجب الداعية المتلقى أن يتجاوب مع مربيه فى الخضوع لهذه الخُطط التربوية النفسية ، ليس تلهيه عنها ممارسة سياسية أو طموحات تخطيطية أو مهمات تخصصية ، بل ذلك أوجب وآكد له ، لما فى الأداء الإدارى والسياسى من جفاف يضع القلب على حافة الخطر ، وعلى كل تلميذ « أن يستعين بطبيب ماهر ، فإنه ليس كل أحد يستطيع أن يرى الأشواك التى تصيب القلوب ، وليس كل من يراها يستطيع أن يقتلعها »

وهو يحتاج فى هذا إلى نية وعزم على تحمل المرارة ، مرارة المكاشفة الصريحة ، والإشارة إلى العيب ، فإن أكثر النفوس فطرت على الجفلة من النقد ، والتعالى على النصيحة ، وقد :

ضحكت وجوه التُرّهات ولم يزل

وجه الحقيقة فى الأنام عبوساً[1]

والناس تسترسل مع الأخلاق الخفيفة ، والرياء ، والمداهنة ، وتبادل المدح ، ولكل أحد حساب من « المقاصة »فى ذلك ، يوفى إلى الناس ويستوفى ، ويصدّر ويستورد ، ويُقرض ويستقرض ، ولكن الحقائق كاسدة فى الأسواق ، وهى على أرصفة الموانىء مطروحة ، لا يشتريها مستهلك ، فقد حكم الدلالون أن « موديلاتها » قديمة ، وأنه قد تغيرت الأذواق ، وأن الراغب بها يكره أن يدفع مُعَجّلاً ، نقداً، بينما تلك الترهات يؤخَّر ثمنها إلى أجل ، وتقايض ببضاعة من جنسها « مقايضةً » .

* فانتفض أخى على المألوف السائد ، ولا تتبع المتساهل .
* فإنه « لا يغنى عنك ندمك إذا زلت قدمك » .
* واعلم أن « أكثر الناس مع ظاهر النقود ، ليس لهم نقد النقاد ، ولا خبرة الصيارفة » .
* وانظر إلى مراتب الناس وأحوالهم وأقوالهم ، « واعط كل ذى حق حقه ، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً » .
* واصعد ربوة الإنصاف « فإن من رقى إلى هذه الربوة بعين لا قذى بها : أبصر الحق عيانا بلا مرية ، وأخبر عنه بلا فرية» .

(1) الرصافى فى ديوانه 2 / 395 .

* وابرأ من صاحب « إذا أقدمت أحجم ، وإذا أعربت أعجم» .

* فإنه ليس وراء الربوة غير السراب .

* وإنك فى متوالية لا تنتهى .

أرقامها . . .

دهرٌ . . . يَغُرُّ . . .

وآمالٌ . . . تَسُرُّ

وأعمارٌ . . . تَمرُّ

وأيام . . . لها خُدَعُ . . .



ركوب الأسنة

3

وفى الصحراء هائم آخر ، بيده الملف الضخم ، ملف الهفوات يُحصيها على أصحابه ، وما من هفوة إلاّ ولها تأويل يصرف صاحبها عن السوء والعمد ويجعله فى دائرة الاجتهاد الذى يؤجر عليه ، ولكن النفس المنحرفة تتبرم .

وأعجب منه ظالم لا يحصى على أصحابه فقط بل على جماعة بأكملها ، وقد رأيت فى بعض البلاد ملفاً من نحو ألف صفحة سماه جامعه : « ألف خطأ وخطأ لجماعة كذا » ، يستخرج فيه من الكتب أقوالاً ، ومن التصريحات ومن هفوات أعضاء الجماعة ، ويفند ويتوتر ، ويرعد ويزيد ، ويدعو إلى الاستئصال وهدم هذه الجماعة المحتكرة للساحة ، لتخلو الأرض ، ليبنى ـ فى زعمه ـ بناءه الجديد مكانها ، ولم ير المسكين مناقب الجماعة وإنجازاتها بمقابل ذلك ، ولم يشفع أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، ولم يسمع أنات مسجونيها وراء حديد الظالمين ، ولا دماء شهداءها المراقة ، ولم يفتش عن تأويل يزيل وهمه ، ولا عن عذر توجبه الموازنات بين درجات المصالح ونوايا درء المفاسد التى أذن بها الفقهاء ، وما درى أن الشيطان يؤزه للهدم ، فإذا خلت الأرض : صرف همته عن البناء البديل ، ورجع بوزر الصدّ عن سبيل الله . . . !! .

وفى هذه الصحراء ، تائه آخر يستبد به القلق ، ويغلو فى الأسلوب ، فيتورط بمدح مبالغ فيه ، ثم يتورط فى أخرى بذم كثيف ، فميزانه متأرجح، وعياره حصاة التقطها جزافاً ، ليست سبيكة قد ختمها ولى السوق ورقيب الحسبة بختمه .

حقائق .. وإنْ أنكرتها الأهواء

القضية ليست خاصة لنسكت ، وإنما هى حق عام ، لذلك يجب الحزم، وتليق العقوبة .

إن الجماعات إنْ لم تحترم قوانينها ولوائح الحقوق والواجبات فإن المأزق يكون وشيكاً ، وفى كل عَرَصَة آذان لا يطربها ترجيع ولا حداء، إنما تستروح لدقات المعاول .

والمنفرد لا يستطيع وحده أن يبنى نادياً ضراراً مهما تزعّم وزعم أنه رأس ، ولكنه بالأعوان يستطيع ، ولذلك يكون محشر الأتباع مع الرأس الذى علمهم الظلم .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾(1) .

وكما شرع الله المكافأة : شرع العقوبة .

بل العقوبة بلا رأفة إذا كان السوء بالغاً .

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم

---

(1) سورة القصص : (8)

بهما رأفةٌ في دين الله إن كُنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنين﴾(1) .

وكما نحب البعض فى الله : نكره آخرين فى الله .

وإنما علا الإسلام زمن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لأنه كان حازماً .

وهناك جماعة . . . ليس دكان بقّال .

فمن يشعر بشعور باطل نقول له : اجعل نفسك وراء ظهرك .

وعلى المحاسبة تُبنى حياة الجماعات .

والحلول العاطفية تذهب . . . مع الريح .

والالتزامات الطيارة . . . ستطير ، ولبثها قليل .

فمن يقيم أبنية الضرار ، ويهتك الأسرار ، ويحدث ثغرة فى الأسوار :

ندعوه إلى التوبة ، فإن تاب وإلا فالإقصاء حق .

﴿ ولكم في القصاص حياةٌ ﴾(2) .

أى ليست مجرد فائدة ومصلحة ، بل حياة .

إذا لم يكن إلا الأسنّة مركباً

فما حيلة المضطر إلا ركوبها ؟

---

(1) سورة النور : (2) .

(2) سورة البقرة : (179) .

وصاحب الزلل نبين له طريق التبرؤ من الهوى ، فإن حالفه التوفيق وندم على ما كان طولب ببيعة .

وبعض أهل الإصرار يرون فى البيعة مذلة ، فيحجمون .

وهذا انقلاب فى الموازين : أن تكون السُّنّة بدعة . . . !!

لا نطلب طاعة بالإكراه ، ولكن إن رغب أحد بنيل شرف وأجر العمل الجماعى فعليه الالتزام .

الباب مفتوح بهذا الشرط ، ثم يحار المتردد . . . ويظمأ . . . !!

توبة الصالح .. فريدة ..!

وقد ضرب الأستاذ صالح عشماوى ـ رحمه الله ـ مثلاً لهؤلاء ، لعلهم بقصته وتوبته يقتدون .

كان الأستاذ ـ رحمه الله ورفع درجته ـ من قدماء الدعاة ورجال الرعيل الأول ، ولبث مع الإمام المؤسس دهراً كأحسن ما يكون الداعية عملاً ، وأصبح عضو المكتب ، فلما قُتل الإمام ـ رحمه الله ـ والمحنة جاثمة اختلطت أوراق ، واشتبهت أمور ، وتحركت وساوس ، فاتتن نفرٌ وجعلوا الأستاذ رأساً عليهم ، ثم مرت السنوات الحالكة ، وطالت المحنة فندم على ما كان منه ، وطلب أبلغ صور التوبة النصوح .

وقد زرتُ دار مجلة الدعوة يوماً فوجدت شيخاًوقوراً يجلس

بتواضع على كرسى خيزران قديم خارج باب الشقة كأنه بوَّاب ، ولكنه مهيب ، وله طلعة نورانية .

فسلمت عليه واستأذنته ، فأذن ، فدخلت ، فقال لى أخٌ من هناك : هل عرفتَ ذاك الرجل المحترم الذى كأنه بواب ؟ .

قلت : لا ، لكنه استرعى اهتمامى .

قال : ذاك صالح عشماوى ، يرى أن نفسه استروحت يوم جَعَله المشاكسون رأساً ونادوا به أميراً ، وعزم على أن يرجع جندياً فى آخر الصف ، ويصر على أن ذلك من تمام توبته ، فاختار أن يكون بواباً ، ولو يعلم أن هناك منزلة أدنى من منزلة البواب لسارع إليها ، يلغى بذلك ما سَلَف منه من تطلع للصدارة .

فعجبتُ ودهشت لهذه الروح الصافية والقلب الكبير .

ثم قال لنا الأستاذ عمر التلمسانى ـ رحمه الله ـ: دعونا له ، ودعوناه أن يكون أخاً لنا يشارك كالآخرين ، ويتوب الله على من تاب، ولكنه أبى ورفض ، وأصررنا وبلغنا غاية الجُهد فى إقناعه ، لكنه أصر إصراراً على أن يعاقب نفسه بالتأخير .

ثم خطبنا الأستاذ عمر ـ رحمه الله ـ بعد سنوات فقال :

لقد تاب الأستاذ صالح عشماوى توبة أحسبها لو وزعت على دعاة الإسلام فى القاهرة جميعاً لو سعتهم .

ـ رحمهم الله جميعاً ، وعصمنا من الفتن بعدهم ـ.

ميثاق الأمن الدعوى

وخَطب فينا هُمام أحزنه جدلٌ قعد بدعاة الإيمان ، فنطق بحروف حرى أن تخط بقلم كوفى عريض ، معلناً فينا دستور حقوق العمل الإسلامى .

قال جزاه الله خيراً وزاده فصاحة :

إن تَشخيص أخلاقِ الرجالِ واجب

لأن السلوكيات تتكرر فى الأجيال

وتتجددُ الأنماط النفسية حتى لكأن نَسباً واحداً يجمعها

وقد يلجأ الأمير إلى حماية الجماعة بسياسة الحزم

فيرفض التمييع والتردد والمواقف القلقة

وفقهُ الضرورات و منهج الإحتياط رديف لفقه الموازنات المصلحية

وإن شرعية الاختلاف لا تلغى أفضلية الإتفاق والآمال

العريضة لابد لها من نفوس عالية

والتأصيل أساس فى درء الفتن

والنص الشرعي حُجة

وأما التحليل فلكلٍ مورده

ولا يكون الاجتهاد حجة على اجتهاد آخر

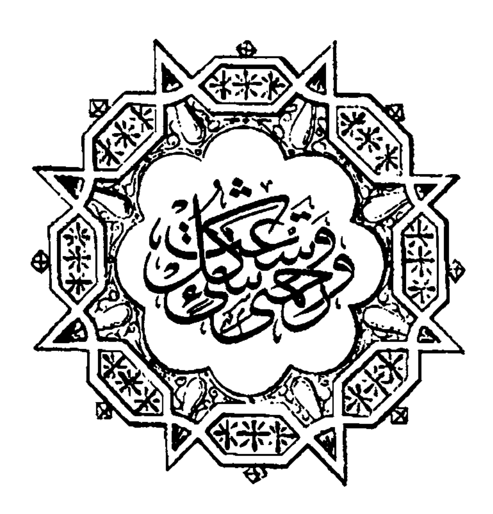
إنما اجتهاد الأمير مُقَدّم

وينبغي أن يغلب العقل العاطف

وليست الجماعة حشد أسماء

وإنما كتلة قلوبٍ

تقودها قيم .



أحاديث شريفة

4

ونصوص القرآن والحديث الشريف تشهد للأمراء وتمنحهم حق الطاعة، لكن بعض من يُحاور فى قضايا الفتن يظن أن هذه الآيات والأحاديث لا تنطبق على علاقات الإمارة والجندية فى الساحة الدعوية، ويذهب إلى أنها غير صالحة للاستشهاد بها، لأنها إنما وردت فى الأمير الذى يحكم كل أو بعض بلاد المسلمين حكماً سياسياً من خلال دولة ونظام.

ولسنا نجادل فى أنها وردت فى ولاة الحكم، ولكن معناها يتعدى ليسرى على الإمارة الدعوية من خلال القياس الأصولى، وعبر استحضار الروح العامة للشريعة فى باب الإمارة، وهى الروح التى احتكم لها ابن تيمية فى بعض إفتائه، وعنصر القوة فى قبول هذا القياس: أن البيعة لأمراء الدعوة انعقدت بعقد رضائى تام، وألزم الدعاة أنفسهم بهذه الطاعة اختياراً، لما قام فى قلوبهم من معنى لزومها لإيجاد حقيقة العمل الجماعى الكفيل بوضع الدعوة فى موضع المكافأة لخصوم الإسلام فى ساحة التنافس، ولم يقل أحد من الدعاة بلزوم طاعة عامة المسلمين لأمراء الدعوة، وإنما مضى مذهبهم بوجوبها على من بايع عن قناعة واختار هدر حقوقه فى الاجتهاد والتصرف إذا خالفتهما توجهات وأوامر أمراء الدعوة. ويزداد رجحان صحة هذا القياس إذا كان الدعاة فى زمان أو مكان ليس

فيهما حاكم شرعى أتت به بيعة شرعية شورية ، فتكون مسارعة الدعاة إلى مبايعة أمير دعوى نوعاً من التعويض المستند إلى منطق فقهى صحيح ، لما تؤدى إليه هذه البيعة الناقصة الحالية من احتمال إحلال البيعة السياسية الحكمية فى عالم الواقع مستقبلاً ، وما لا يدرك كله لا يترك جُله ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وسيأتى من كلام ابن حجر ما يؤيد هذا القياس .

فاترك تساهل من يعفيك من صرامة الأحاديث النبوية الشريفة الواردة فى الأمراء بحجة عدم انطباقها على الواقع الدعوى ، وعظ نفسك بها ، وتأمل معانيها جيداً ، فإن لك فيها بإذن الله عصمة من شطط وقع فيه نفر ممن مرَّ قبلك .

أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : « **مَن كره من أميره شيئاً فليصبر ، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية** » ، وفى لفظ « **مَن رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه ، فإن من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية** » (1) .

« وقال ابن أبى جمرة : المراد بالمفارقة : السعى فى حَلِّ البيعة التى حصلت لذلك الأمير ولو بأدنى شىء ، فكنى عنها بمقدار الشبر (2) .

« والمراد بالميتة الجاهلية - وهى بكسر الميم - : حالة الموت كموت

(1) صحيح البخارى 9 / 59 طبعة صبيح .
(2) فتح البارى لابن حجر 13 / 9 طبعة الخطيب .

أهل الجاهلية على ضلال وليس لهم إمام مطاوع ، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك ، وليس المراد أنه يموت كافراً ، بل يموت عاصياً » (1) .

* وأخرج البخارى عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال : «**دعانا النبى ـ ﷺ ـ فبايعناه ، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا ، وعُسرنا ويُسرنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان** » (2) .

* وذكر ابن حجر أن فى رواية عند ابن حبان وأحمد : « إلا أن يكون معصية لله بواحا » .

ثم قال : « قال النووى : المراد بالكفر هنا : المعصية، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاة الأمور فى ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام ، فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم وقولوا الحق حيثما كنتم . انتهى . وقال غيره : المراد بالإثم هنا والمعصية : الكفر ، فلا يعترض على السلطان إلا إذا وقع فى الكفر الظاهر .

والذى يظهر : حمل رواية الكفر على ما إذا كانت المنازعة فى الولاية، فلا ينازعه بما يقدح فى الولاية إلا إذا ارتكب الكفر ، وحمل رواية المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية ، فإذا لم يقدح فى الولاية : نازعه فى المعصية ، بأن ينكر عليه برفق ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف ، ومحل ذلك إذا كان قادراً ،

---

(1) فتح البارى لابن حجر 13/ 9 طبعة الخطيب .
(2) صحيح البخارى 9 / 59 .

والله أعلم . ونقل ابن التين عن الداودى قال : الذى عليه العلماء فى أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب ، وإلا فالواجب الصبر ، وعن بعضهم : لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً فاختلفوا فى جواز الخروج عليه ، والصحيح المنع ، إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه »[1] .

وفى هذا الكلام قاعدة دعوية مهمة جداً ، فقد توهم بعض من يجرى مع الظاهر بلا فقه أن المسلم عليه أن يقف صامتاً إذا لم ير الكفر وليس كذلك الأمر ، بل عليه أن يأمر وينهى وينكر على الحكام أصحاب المعاصى ، فإنما اختلفوا فى جواز منازعتهم فى الولاية ، ولم يختلف الفقهاء فى وجوب الإنكار عليهم والصدع بالحق ، فتأمل .

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **سباب المسلم فسوق وقتاله كفر** »[2] .

وقد تكلم ابن حجر فى توجيه إطلاق الكفر على قتال المؤمن فقال : «إن أقوى ما قيل فى ذلك أنه أطلق عليه مبالغة فى التحذير من ذلك لينزجر السامع عن الإقدام عليه ، أو أنه على سبيل التشبيه لأن ذلك فعل الكافر»[3] .

وعن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **من أطاعنى**

(1) فتح البارى 13/ 9 .
(2) صحيح البخارى / 63٩ .
(3) فتح البارى 31 / 30 .

فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصى أميرى فقد عصانى » (1) .

قال ابن حجر : « فى رواية همام والأعرج عند مسلم : ومن أطاع الأمير ، ويمكن رد اللفظين لمعنى واحد ، فإن كل من يأمر بحق وكان عادلاً فهو أمير الشارع ، لأنه تولى بأمره وبشريعته ، ويؤيده توحيد الجواب فى الأمرين ، وهو قوله : فقد أطاعنى ، أى عمل بما شرعته ، وكأن الحكمة فى تخصيص أميره بالذكر أنه المراد وقت الخطاب ، ولأنه السبب ووقع فى رواية همام أيضاً : ومن يُطع الأمير فقد أطاعنى بصيغة المضارعة ، كذا : ومن يعص الأمير فقد عصانى ، وهو أدخل فى إرادة تعميم من خوطب ومن جاء بعد ذلك » (2) .

وهذا الكلام من ابن حجر فى غاية الأهمية ، لما فيه من تأييد ما ذهبنا إليه من القياس الأصولى لأمور أمراء الدعوة الذين يأمرون بالحق على أمراء الحكم ، مما ذكرناه آنفا .

* وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : **«السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »** (3) .

* وقال النبى - ﷺ - لعبد الرحمن بن سُمْرَة - رضي الله عنه - : **« يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة : وكلْت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة : أعنتَ عليها »** (4) .

---

(1) صحيح البخارى 9 / 77 .

(2) فتح البارى 31/ 120

(3) ، (4) صحيح البخارى 9 / 78 /79.

قال لى ... وقلت

5

لما صدرت مقالة المعلقة أول مرة : ظن داعية أنها انحياز لجانب الأمراء، فجرى بينه وبين داعية من أهل الفضل والفقه هذا الحوار النافع ، ونشره آنذاك ، وقد رأيت إلحاقه برسالة فضائح الفتن تعميماً للفائدة ...

قال لى : يا أخى لا تشددوا على الداعية ، إنه صادق النية ، وقد مارس حقه فى الاجتهاد ، وأنه مأجور بأجرين إن أصاب ، وأجر واحد إن أخطأ . . فلماذا هذا الرد العنيف عليه ، ألا يترتب على هذا كبت طاقات الداعية ، وتعويده على الطاعة العمياء ، وبالتالى ينشز جيل من «الموافقين . . » ويسيّر فيهم أمر الآمر بدون نقاش ولا ردّ ، ثم ينشأ جيل تُقتل فيه روح الإبداع ؟ .

** قلت : صدقت يا أخى ، إن التشديد ليس مطلوباً إلا فى حالاته الضرورية ـ وجزاك الله خيراً ـ ولكنى رأيت أن هذه الحالة

شيء آخر ، وقبل كل شيء يجب أن نعتقد أن صدق النية وعكسها لا نتحكم فيهما الآن ، وهما من الأمور المتعلقة بقلب الفرد ، ومدى تربيته ، ودرجة تقواه . . وإن كانت هناك دلالات وقرائن على ماهيتها، وقد يشعر بها صاحب البصيرة والفطنة والفراسة ولا ننكر هذا ، ولكن الذى هو خاضع للموازين هو ظاهر الأمر ، بل هو الذى سميته « اجتهاداً » . . فالاجتهاد ليس عملية غيبية خفية، أو أهوائية ميلية ، إنما هى محكومة بضوابط شرعية ، وموازين ثابتة . لا يمكن تجاوزها أو العدول عنها . . فالمنكر لا يصبح معروفاً إلا إذا كان الاجتهاد اشتهاء ، يعدل وشتان بين الاجتهاد والاشتهاء . . فالمنكر يظل منكراً ، والمعروف يظل معروفاً ، ولا يتحول إلى منكر بالاجتهاد .

بل يا أخى : ومتى صار تحكيم الضوابط وسد باب الأهواء كبتاً للطاقات ، وإنشاء لجيل من الغافلين الموافقين . . ؟ فكما أن الدعوة لا تريد الغافلين النائمين ، فكذلك لا تريد الجماعة الغوغائيين الأهوائيين، بل نريد بناء جيل واع للواقع ومدرك للأوضاع ، ومطيع للأوامر بالمعروف بعد أن عرفناه به ، وصابر على ولى أمره ، مقدر لظروف الآخرين ، ويضع الاجتهاد فى مواضعه الصحيحة ، ويوضح آراءه وفق القواعد والموازين الشرعية ، وخلال القنوات الرسمية .

* قال لى : إذا كنت تشير إلى الصبر على زلة الأمير ، فلماذا لا تشير إلى تحمل الأمير لزلات أتباعه ، وسعة صدره تجاههم حيث إنه ولى أمرهم وأخوهم الكبير ، وأنهم خطاؤون وليسوا معصومين عن الزلل والخطأ .

** قلت صدقت ـ جزاك الله خيراً ـ ولكن اعلم يا أخى أن

المسؤوليات متوزعة ، وأن كل نفس بما كسبت رهينة ، وأن خطأ الطرف الثانى ـ مهما كان كبيراً ـ لا يغطى خطأ الطرف الأول ولا يمسحه فالأصل أن يتخذ كل شخص موقفه ، ولا ينشغل بعيوب غيره عن عيوب نفسه . . . ولتشفع حسنات الأخ عندنا لسيئاته . . ولنتأكد جيداً أن انقيادنا لفلان من الناس ليس لنفسه ، وإنما لأمر الجماعة ، وانضمامنا للجماعة ليس لمصلحة دنيوية وإنما لحسن أداء واجبنا الدينى ، والقيام بالتعاون جماعياً على البر والتقوى . . إذاً فالسمع والطاعة فى المنشط والمكره ، والصبر على الأمير وغيرهما من الأحكام المستمدة من النصوص والأحداث التاريخية فى السيرة المطهرة ، بل وإن تأكيد الآية على الطاعة فى بيعة النساء ﴿ **ولا يَعْصِينَكَ فِي معْروفٍ** ﴾[1] فيها دلائل واضحة على أن هناك حالات تحتاج إلى صبر من المأمور ، وأن الطاعة لا تكون في المنشط دائماً ، وإنما تكون فى لمكره ، وسواء أكان هذا الكرهُ ذوقياً أم عن اجتهاد واشتهاء ، ففى كل الحالات تلزم هذه الطاعه . . أما الشطر الثانى منَ القضية أن يكون الأمر فى معروف ، ولا طاعة فى المعصية ، فهذا واضح بملاحظة كلا الجانبين حيث يجب :

* **أولاً** : التأكد من تحقيق معروفية المعروف ، وما هية المنكر ، وأن يكون حكمهما متحققاً لدى المأمور ، فمتى ما تأكد من معروفية الأمر بمعناها الواضح بنص أو إجماع أو قياس أو اجتهاد منضبط ، فليس له غير الطاعة آنذاك ، وإذا ما تأكد بتحقق أن الأمر ليس بالمعروف ، أو أنه أمر بمعصية فليس له الطاعة عندئذ .

* **وثانياً** : أن اعتبار الأمر معروفاً أو منكراً خاضع لقواعد وموازين شرعية كما أشرنا ، ولا يتجرأ المؤمن أن يتهم أميره الذى هو

---

(1) سورة الممتحنة : (12) .

ولى أمره بالخطأ فى تشخيصه ، ويصوب رأى نفسه ، فليس اجتهاده أولى من اجتهاد غيره ، بل يصعب على المؤمن أن يميز بين المنكر الشرعى ، وبين المعروف المستكره. . فسمعه وطاعته لأميره فيما أمر به من « معروف » مكروه لديه ، أسلم لدينه من أن يَحسبه معصية ، وما يتجنبه من منكر احتمالى أولى من أن يقع فى منكر يقينى ألا وهو العصيان ، وعدم الالتزام ، وشق الصف ، وفتنة الابتعاد عن الجماعة، ومآله إلى الهلاك ، أو الوقوع فى الفتنة .

أما مسألة العصمة والخطأ فكلنا نردد هذه العبارات : أن الكل خطاؤون ، وأن الكل ليسوا معصومين ، ولكننا مع الأسف فى التطبيق العملى لا نلتزم به ، وكأنه شعار للرفع فقط . . فندعى العصمة لأنفسنا جينما ندافع عنها ، ولا نلجأ إلى كوننا من الخاطئين إلا عند الحاجة أو التبرير . . . ونطالب الناس بالعصمة ، ولا نغفر الخطأ الصادر عنهم ، ولو أخذنا بمبدأ أن : « كل ابن آدم خطاء » وعدنا إلى الصواب والرشد ، لما دافعنا عن أنفسنا بكل هذه القوة ، ولما حاسبنا غيرنا بهذه الصرامة .

* قال لى : يا أخى أنت كأنك وزير إعلام « للكبار » ، ألا تلتفت إلى وضع « الصغار » وما يعانونه من مآسى الغربة والفقر ، والإهمال التكافلى، وإلى ظروفهم النفسية ، وما يحيط بهم من إحباط .

** قلت يا أخى لست وزيراً ، ولا إعلامياً كاذباً ، وإنما أجتهد أن أبين ما أرى فيه الالتباس ، . . وليس فى الدعوة ـ فى تصورى ـ كبار ولا صغار، وإنما همّنا « الأخوة » بمعناها الواسع« حقوقاً وواجبات » وهنا يتحقق معنى التكليف الشرعى ، فالكل عليه أن يحمل مقداراً منه بالقدر الذى يقدر على أدائه ، ويتمكن من حسن أدائه . . فالكبار ـ بتعبيرك ـ تحملوا العبء الأكبر ، والمقدار الأكثر

من المسؤولية الشرعية وعلينا أن نعينهم بدعواتنا ونصائحنا ، وجهدنا التنفيذى المكثف ، وما به تتحقق مصالح الجماعة من العمل المشترك والكبير هو الذى يؤدى دوره الكبير ، ويتحمل المشاق والصعاب ، ويسهر على مصالح الدعوة ، ولايدخر جهداً لإعلاء كلمه الله تعالى مهما يكن موقعه ، فهذا هو الكبير فى ميزان الله تعالى ، والصغير هو غير ذلك ، مهما كان مركزه ، أو مهما قال عنه الآخرون .

أما ما يعانيه الصغار - بتعبيرك - من المآسى ، فليست هى ميزتهم وحصتهم وحدهم ، فدنيا المسلمين اليوم والميدان الإسلامى عموماً ، يتوج بهذه الحالة ، والأفضل لنا أن نبذل جميعاً الجهد العملى بأنفسنا، وأن نبدأ برفع هذا الكابوس النفسى والمادى ولا ننتظر أحداً . . وكل يقوم بدوره الإيجابى ، وكل يقوم بما يستطيع أن يؤديه وأمثل لك بمثال بسيط الدعوة كمركبة « سيارة » وقيادة الدعوة سائقها والعاملون فى الدعوة ركابها . . والناس هم الجهة التى يتوجه الركاب إليها ، فترى السائق يتمتع بوضعية خاصة من الحقوق ؛ يتميز فى كرسيه ، ويقدم له الشاى والمأكولات قبل باقى الركاب ، وله حظوة خاصة عند المطاعم والمقاهى وغير ذلك . . أما واجباته فواضحة ، فهو يسهر الليل والنهار ولا يغمض له جفن فى الوقت الذى ترى فيه بقية الركاب، وليس أحدٌ من الركاب مسؤولاً حتى عن حياة كل الركاب أحراراً فى نومهم وتصرفاتهم . . لأنه مسوول عن حياة نفسه . . فليس من الإنصاف نسيان الواجب الصعب ، والمنصب الحساس هذا، ومحاجحته فى كرسيه المنفرد الشاى المقدم له ، وما إلى ذلك من الجزئيات التى لا يقارنها العاقل الورع المنصف مع تلك الواجبات الخطرة والمتاعب الشديدة التى يعتمد عليها مصير المركبة وركابها ، وهكذا يقاس الأمر الدعوى والداعية اللبيب يفهم مغزى المقارنة .

فطوبى لمن شغلته عيوبه عن ذكر عيوب الناس ، وقدّر ظروف كل داعية في موقعه المناسب والمستحق له ، ووازن بين حقوقه وواجباته

* قال لي : نعم ، طوبى له ولكن الأمور ليست هكذا هينة . . فالحديث متعلق بنفسيات البشر وخصائصهم .

** قلت : يا أخي إن الأمر لا يستدعي هذا التفاقم والتضاخم . . فإن الإنسان بهمته يقلع الجبال . . فاصرف همتك على الانشغال بنفسك والقيام بما هو تكليف عليك ، ولا تفكر فيما يجري حولك ، ومن يُجريه ، وخلص نفسك من هذه الهموم الزائدة . . ولا تهتم بأقوال الناس ، وأد ما استطعت عليه من واجب وتوكل على الله وحده .

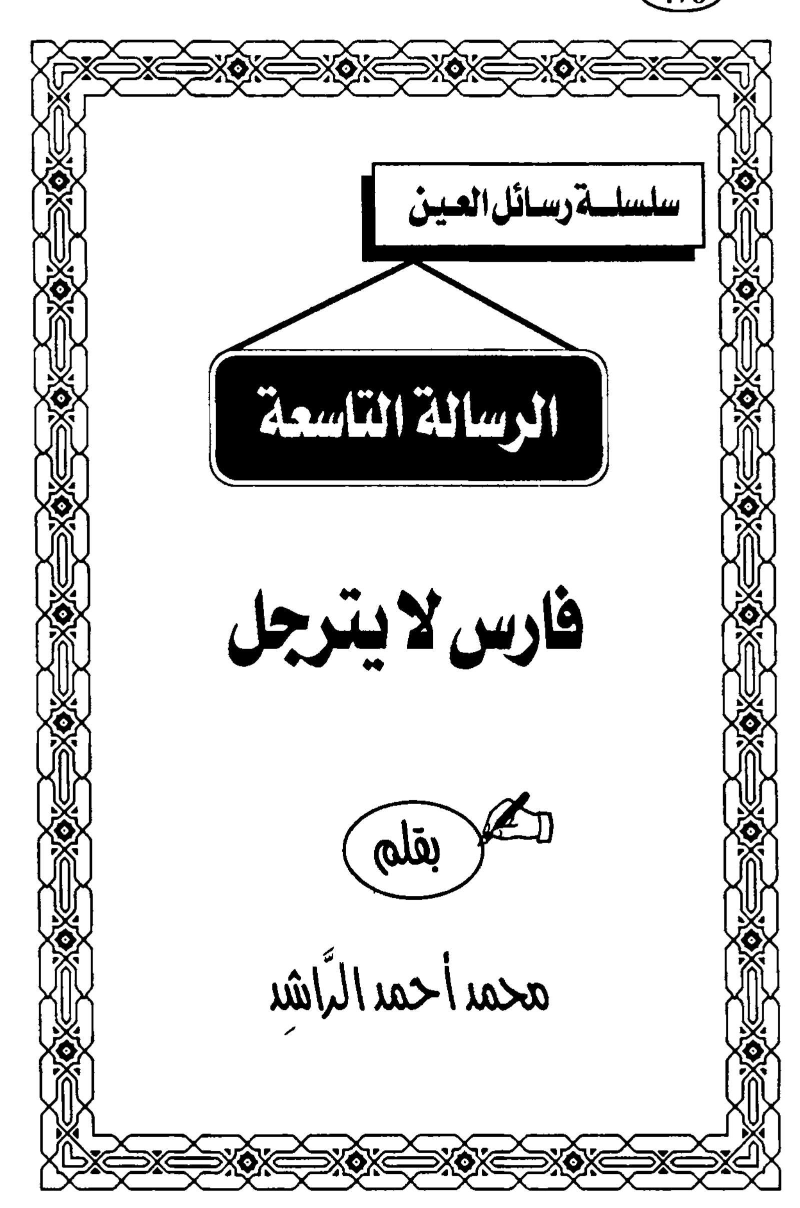
* قال لي : سأفعل ، ولكن هذا يحتاج إلى صبر ، ومصابرة .

** قلت : وهل يقوم قيام العبد إلا بالصبر . . استعانة به وتواصياً ، واتصافاً ، وتخلقاً . . ولا تنس أن الصبر قد أمر به رسول الله ـ ﷺ ـ وركبُ المؤمنين الذين معه ، أن يصبروا مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي . . بل هو من الأمور المقارنة لعملية التواصي بالحق ، كما في سورة العصر ، ولابد من الصبر على التكاليف الدعوية ، كما ينبغي الصبر على الأمراء والقادة ، كما تقتضي الدعوة الصبر على الجنود والأتباع ، وفوق ذلك كله ، الأجر الجزيل والمثوبة عند الله تعالى .

* فقال لي : جزاك الله خيراً كثيراً ، فلقد وعظت ووفيت .

** فقلت له : وجزاك خيراً على حسن الاستماع ، والمؤمن مرآة أخيه ، ووفقنا الله جميعاً لما يحبه ويرضاه .

* * * *


سلسلة رسائل العين
الرسالة التاسعة
فارس لا يترجل
بقلم
محمد أحمد الرَّاشِد

فارس لا يترجل

لابد للدعوة من داعية لا يستريح وفارس لا يترجل ، فهو آخذ بزمام فرسه ، طائر على جناح السرعة ينبئك عن حاله المشبوب المهموم ، حديث رسول الله - ﷺ - الذى أخرجه البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة - رضي الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (.. **طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع**) .

أو ما يفصله لك النبى - ﷺ - فى الرواية الأخرى أكثر فيقول : (**من خير معاش الناس رجل آخذ بعنان فرسه ، يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعه طار إليها يبتغى الموت مظانه**) .

ذلك الفارس والداعية همه متميز متفرد عن هموم الناس ، فإذا سارت هموم الناس فى أفلاك شهواتهم سار نجم همه فى أفلاك دعوته ، ويصدق فيه وفى الناس قول الشاعر :

سارت مشرقة وسرت مغربا   شتان بين مشرق ومغرب

فهو فى ليله قائم ، وفى نهاره هاجم ، وفى سره عامل ، وفى جهره داع ، يقضى الليل والنهار فى هم واحد ، ويقلب كل أنواع الوسائل يتردد بها إلى الناس ، يخطب إلى قلوبهم ود الدعوة ، ويعطيهم المهر مقدماً ، عروساً تتلألأ فى الجنة . . كما قال رسول الله - ﷺ - لأصحابه فى بيعة العقبة : (**لكم الجنة**) . وعداً واحداً

ليس هو من أعطيات الأرض . وذلك هو نصيب الدعاة إذ ليس من أعطيات الأرض إلا التعب والنصب ويتقدم إليك نموذجاً شامخاً تجذب أنوار جدة القلوب ، وهى تلوح من خلال آيات كتاب الله .

إنه فى ذلك الداعية الذى لا يعرف الراحة ، ولا يلذ له النزول من على صهوة الدعوة ، ذلكم هو نوح ـ عليه السلام ـ إذ يقول الله عنه : **﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾** [نوح : 5ـ13].

انظر إليه وتأمل حاله ، واسأل نفسك : أين أنت منه ؟ . . فهو فى قيام لا يهدأ معه ، وفى ركوب لا نزول معه ، يصل ليله بنهاره . وليس هذا فحسب ، بل إن القوم معه فى غاية الجحود والصدود والسخرية ، ومع ذلك فهو لا تلين له قناة ، ولا تفلُّ له عزيمة مسرج خيل همته ، ممتط ظهر عزمه ، وقومه نبصرهم وهم يصمون آذانهم ويغطون رؤوسهم بثيابهم حتى لا يسمعونه ولا يرونه ، زيادة فى النكاية به . . يخبرك عن عمق ذلك العناد ما يردده ابن كثير فى تفسيره عن قوله تعالى : **﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾** قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ (تنكروا له لئلا يعرفهم) وقال السُّدى : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول) مختصر ابن كثير : 3 / 553 .

تأمل أكثر فى الآيات ، ففى التأمل عظات . . إنه يبدو من

خلال الكلمات يتجول فى أحيائهم ، ويطرق عليهم بيوتهم ، بل ها هو ذا يبدو يعمل لهم احصاءاً بلغتنا الحاضرة وهو يمر عليهم واحداً واحداً : ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ [نوح : 9] ، أى كلاماً ظاهراً بصوت عال : ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ ،[نوح : 10ـ12]. هذا مقام الدعوة بالترغيب فلما لم يفلح معهم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح : 12] ، أى عظمة وخوفاً .

مختصر ابن كثير : 3 / 553 .

ثم جاءهم فى السر يتدسس إلى بيوتهم فى ظلمات الليل وهمس الكلام حتى لا يخرج الكبرياء منهم ، فقال لهم ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح : 9] ، أى فيما بينى وبينهم ، فنوع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم .

أى صدود يواجه هذا النبى ـ ﷺ ـ وأية عزيمة تجابه هذا الصدود منه ، فهو يتوسل بشتى الوسائل : فى الليل والنهار ، فى السر والعلانية ، فى الجهر وفى الترغيب والترهيب .

ويدركك ابن الجوزى سريعاً ليذكرك بنوح ويسن لك سنة النوح على الدعوة إذ قل بواكيها بين الناس اليوم ، فيقول فى لطف مواعظه ينفخ فيك العزيمة ، ويعلمك سنة الركوب بلا ترجل ، والقيام بلا استراحة . . فيقول لك :

(أين أنت والطريق ـ طريق الدعوة ـ طريق نصب فيه آدم ،

وناح لأجله نوح ، وألقى فى النار إبراهيم . . . . وبيع يوسف بدراهم بخس ، ونشر بالمناشير زكريا ، وذبح الحصور يحيى . . وضنى بالبلاء أيوب ، وعالج الفقر محمد ـ ﷺ ـ . . .) .

اللطف فى الوعظ / 47 .

وأنت نائم قد سبقتك قافلة الخير ، فإذا أردت اللحاق بها ، فتوسَّد درع الهمهم وإن قمت فعلى أقدام القلق كأن النوم حلف على جفا أجفانك .

وأنشد معى بنشيد الشاعر :

أرقى قد رنَّ لى من أرقى ورثى لى قلقى من قلقى

لتكون أنت النائحة الثكلى على هذه الدعوة ، فلا يرقأ لك دمع حتى تراها قد استوت على سوقها وآتت أكلها ، فيكون لك مع سفيان الثورى نصيب إذ يسأله ولده فيقول له : يا أبت لماذا إذا تكلمت أبكيت الناس ؟ فأجابه إجابة القلب الذى لذعته الحرقة على هذه الدعوة فقال : (يا بنى إن النائحة الثكلى ليست كالنائحة الأجير) .

تأمل واعمل لتكون ذلك الداعية الذى أسرج جيل همته ، وامتطى صهوة عزائمه يدفعه إلى زيادة بذل وإسراع حديث رسول الله ـ ﷺ ـ الذى أورده البخارى ومسلم فى صحيحيهما كأنوار تطلع فتزيح ظلمة القعود والكسل ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (**تجدون الناس كإبل مائة ، لا يجد الرجل فيها راحلة**) .

رواه مسلم

إن الزاهد فى الدنيا ، الكامل الزهد فيها والرغبة فى الآخرة قليل جداً كقلَّة الراحلة فى الإبل .

وقال آخرون : (إن مرضى الأحوال من الناس ، الكامل الأوصاف قليل منهم جداً) .

وما استثنى رسول الله ـ ﷺ ـ الراحلة إلا لكونها سريعة الخطى تحمل أثقالاً تساقطت من إبل الطريق ، كذلك الداعية هو الراحله المسرعة التى تحمل أثقال الدعوة التى عجز عن حملها ضعاف الناس فألقوها عجزاً وتكاسلاً فيبادر هو ليتصدى لحملها لتصل إلى قلوب لم تكن بالغتها إلا بشق الأنفس ، وفى نفسه مع كل هذا ضرام يشتعل ـ وهَمٌّ يتقد . . وهو ينشد بلسان الحال والمقال :

فإذا نطقت فأنت أول منطقى ... وإذا سكت فأنت فى إضمارى

أخفى من البرحا ، ناراً مثلما ... يخفى من النار الزياذ الوارى

واخفض الزفرات وهى صواعدُ ... واكْفُف العبرات وهى جوارى

وهكذا الداعية نار فى قلبه على الدعوة ، وزفرات تتصاعد . وعبرات تتجمد تأجج ما فى داخله ، فإن لم تسعفك الهمة لأن تكون راحلة الدعوة وحاملها ، فعلى أن تكون طائر الدعوة الذى يحملها إلى أصقاع بعيدة ليكشف عما هنالك ويأتى بجدتك بالأخبار فيقول لك ، ولنبى الله سليمان عليه السلام : **﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾** ، [النمل : 22] . . . **﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾** [النمل : 25، 26] .

فانظر ماذا فعل تحليق هذا الطائر فى سماء الدعوة ؟ لقد أوقف ذبح سليمان وتهديده له ، وزوده بعلم لم يعلمه سليمان وصار داعية يعيب على المتقاعسين العابدين لغير الله تفريطهم ذاك ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ [النمل : 25] ، وجاء بشعب يقوده من زمامه إلى الله بعد أن كان عابداً للشمس والأصنام ، وكافأه النبى - ﷺ - إكراماً له من الله ، فنهى عن قتله ، وسل ابن كثير يخبرك عن خبره فى تفسيره إذ يقول معلقاً :

(ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير ، وعبادة الله وحده ، نهى عن قتله ، كما روى عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : نهى النبى - ﷺ - عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد) . أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه

فإن لم تُمكَّن من تحليقه هكذا ، فليكن ترفعك عندك خبرها من همة ابن الجوزى إذ قال :

(لى همة أتعبتنى أو خلقت لى همة عالية تطلب الغايات ، بلغت السنَّ وما بلغت ما أملت فأخذت أسأل تطويل العمر ، وتقوية البدن ، وبلوغ الآمال ، فأنكرت علىّ العادات وقالت : ما جرت عادة بما تطلب ، فقلت : إنما أطلب من رب قادر على تجاوز العادات .

وقد سألته هذا السؤال فى ربيع الآخر من سنة خمس وسبعين - أى من عمره - فإن مُدَّ لى أجل وبلغت ما أملته نقلت هذا الفصل إلى ما بعد وبيضته وأخبرت ببلوغ آمالى ، وإن لم يتفق ذلك فسيدى أعلم بالمصالح فإنه لا يمنع بخلاً ولا حول إلا به) صيد الخاطر / 299 .

قال الطنطاوي(محقق كتاب صيد الخاطر): لقد عاش ابن الجوزي بعد هذا السؤال اثنتين وعشرين عاماً فصار عمره سبعاً وتسعين عاماً .

وهمك يكمل همتك ، لكن مصدره هذه المرة يأتيك من خبر رسول الله - ﷺ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (**من جعل الهموم همّاً واحداً (يعني همّ آخرته) كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه ، ومن شغلته هموم أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أودية النار أهلكه وأي أودية النار عذبه**) .

فإن استعصى عليك الهم والهمة ، فاقترب من نبي الله موسى - عليه السلام - وشاركه في دموع سأخنة ذرفها ، واسمع إلى البخاري يحدثك عن دموعه في حديث الإسراء الطويل :

(**... فأتيت على موسى ، فسلمت فقال : مرحباً بك من أخ ونبي ، فلما جاوزت بكى ، فقيل : ما أبكاك ؟ قال : يارب هذا الغلام الذي بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل الجنة من أمتي**) .

رواه البخاري

أتراه بكى لخسارة صفقة تجارية ، أو لانخفاض عملة نقدية أنزلت وصيده إلى الأرض ، أو لأن نومة طويلة قد فاتته فما أدركها .

لا . . . إنما بكى لأن تابعه من الرجال في ساحة الدعوة أقل من تابع رسول الله - ﷺ - وأنت حري بك أن تبكي إذ ترى تابعك من الرجال قليل . . . وزرعك في حديقة الدعوة ضئيل . وإن أردت أن يرتفع عنك الرصيد فتزود بقولة عمر بن الخطاب :

(الراحة للرجال غفلة) أدب الدنيا والآخرة للماوردى / 82 .

وأنَّى للداعية أن يستطيب الراحة ، وفى التعب فى سبيل الله كل اللذة . . .

(وقيل لعلقمة : كم تعذب هذا الجسد الضعيف ؟ قال : لا تنال الراحة إلا بالتعب .

وقيل لآخر : لو رفقت بنفسك . قال : الخير كله فيما أكرهت عليه نفوسنا .

وقيل لمسروق بن الأجدع : لقد أضررت ببدنك ؟ قال : كرامته أريد) العقد الفريد (3 / 113) .

فإن لم تكن هذا ولا ذاك فتقدم مع ابن قيم الجوزية لتأكل معه من زاد فى زاده ، (فى قدوم وقد تجيب) .

(فقال : ثم جاءوا إلى رسول الله - ﷺ - يودعونه ، فأرسل إليهم بلالاً . . . قال : (هل بقى منكم أحد) قالوا : نعم ، غلام خلفناه على رحالنا هو أحدثنا سناً . قال : (أرسلوه إلينا) فلما رجعوا إلى رحالهم ، قالوا للغلام : انطلق إلى رسول الله - ﷺ - فاقض حاجتك منه . . فأقبل الغلام حتى أتى النبى - ﷺ - فقال : يا رسول الله إنى امرؤ من بنى أبزى ، يقول : من الرهط الذين أتوك آنفاً . . . فاقض حاجتى يا رسول الله قال : (وما حاجتك) ؟ قال : إن حاجتى ليست كحاجة أصحابى . . . وإنى والله ما أعملنى (أقدمنى) من بلادى إلا أن تسأل الله - عَزَّ وجل - أن يغفر لى ويرحمنى ، وأن يجعل غناى فى قلبى ، فقال رسول الله - ﷺ -

واقبل على الغلام : **(اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه)** . . .

فانطلقوا راجعين إلى أهليهم ، ثم وافوا رسول الله - ﷺ - في الموسم بمنى سنة عشر ، فقالوا : نحن بنو أبزى ، فقال رسول الله - ﷺ -: **(ما فعل الغلام الذى أتانى معكم)** ؟ . . . قالوا : يا رسول الله : ما رأينا مثله قط ، وما حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله ، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها، فقال رسول الله - ﷺ - : **(الحمد لله ، إنى لأرجو أن يموت جميعًا)** . . فقال رجل منهم : أو ليس يموت الرجلُ جميعاً يا رسول الله ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : **(تشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا ، فلعل أجله أن يدركه في بعض تلك الأودية فلا يبالى الله - عزَّ وجل - في أيها هلك)** زاد المعاد : 3/ 651 .

دقِّق النظر في هذه القصة ، وأعد التأمل في قول رسول الله - ﷺ - **(الحمد لله إنى لأرجو أن يموت جميعاً)** . . إنه يرجو أن يكون همه هماً واحداً ، وشغله شغلاً واحداً ، هو هذه الدعوة : فدعوته كل حياته ، ودعوته رصيده المالى ، ودعوته عقاراته وبساتينه ، فهو يعيش لها ويأكل لها ، وينام لها ويستيقظ لها ، ويبذل لها ويخاصم لها ، ويحب لها ، ونشيده ، وهو سائر نشيد الداعية الذى لا يستريح والفارس الذى لا يترجل :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الطعـــام وتلهيها عن الزاد

ولا تكتفى بهذا وحسب ، وإنما ترقى إلى همة أعلى ، تلك هى همة فرى العبقرى الذى حدثك النبى - ﷺ - عن عبقريته حيث قال رسول الله - ﷺ - : (بينما أنا على بئر أنزع منها ، جاءنى أبو بكر وعمر فأخذ أبوبكر الدلو فنزع ذنوباً أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له ، ثم أخذها ابن الخطاب من يد أبى بكر فاستمالت فى يده غرماً - دلوا عظيماً - فلم أر عبقرياً من الناس يفرى فرية فنزع حتى ضرب الناس بعطن)

رواه البخارى .

فأين أنت من أنوار هذه العبقرية التى فرت فرياً سقى ظمأ الناس بماء الإسلام وفاض السقى حتى نالت الإبل نصيبها من تلك العبقرية التى تتجاوز النزع الضعيف وتربأ بنفسها عنه ؟!! وأنت أولى بأن تكون عبقرى الدعوة الذى لا ينام طويلاً ، وإن غلبه النوم ولابد ففى ساحة الجهد والتعب . . . وهو النوم الخفيف الذى قال عنه ابن القيم - رحمه الله - : (لابد من سنة النوم ورقاد الغفلة ، ولكن كن خفيف النوم) الرقائق / 57

فاحذر يا داعية الإسلام أن تنطلى عليك وعلى الوساوس التى تريد لنا أن نجلس وننعزل لكتبنا ومكتباتنا وأهلينا وأولادنا ، ونترك

الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ ، واصعد إلى أعلى من ذلك أو تصبح تفكر الدعوة فى صلاتك كما بَوَّبَ البخارى فقال : باب (يفكُرُ الرجل الشيء فى الصلاة) وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : (إنى لأجهز جيشى وأنا فى الصلاة) البخارى 1 / 48 .

فهل تجهز أنت خططاً فى صلاتك تساهم فى دفع الدعوة وإيصالها إلى غايتها ، أم نصك لك سمعك بقول ذلك الملحد الذى يقول : إن عليهم فهم الماركسية ، حتى تكون بالنسبة لهم كالماء والهواء ورغيف الخبز اليومى .

أفيغوص عن الماء شيء ، أم ينوب عن الهواء أمر ، أم يغنى عن رغيف الخبز طعام . . مع أن هذا إنسان لا نصيب له من نعيم الجنة ، ولكنه يركب جياداً للهمة ، فماذا يقول الذى قال الله تعالى له : ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه : 75، 76]، الرقائق ، نقلاً عن طبقات ابن سعد 5 / 397 .

(فاركب يا أخى ولا تترجّل ، وقم ولا تقعد ، فقد ذهب عهد الفراغ ، واسمع لعمر وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ إذ جاءوا إليه فقالوا له : لوتفرغت لنا قليلاً ؟ فقال لهم : وأين الفراغ ؟ لقد ذهب وقت

الفراغ ، ولا فراغ إلا عند الله) .

هيا اركب أخى هيا ، وليكن زادك الإخلاص فهو خير لزاد . . وهل يتأتى لفارس قد أخذ بعنان فرسه واغبرَّت قدماه ولا يرى أفى الساقة هو أم فى المقدمة ؟ . . أيؤذن له أم لا ؟ إلا بالإخلاص . . ركن البيعة كما يراه أستاذ الجيل

فبالإخلاص يكتمل البناء .. وبالإخلاص يكون الصبر على اللأواء . . نعم فهو جذر الإيمان .

* * * *

الإخلاص جذر الإيمان

الحمد لله الذى جَعَلنا من أمة الإسلام خير أمة أخرجت لناس بشهادة كتابه القرآن الكريم . . والحمد لله أن جعل لنا الفهمَ والوعى بـ (كيف نكون خير أمة أخرجت للناس) فهمًا مدركاً لتوجيهه الكريم : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، خير أمة لا بعرقها ولا لونها، وخيرُ أمة أخرجت للناس هى أمة جمعها الإيمان بأنّ الجماعةَ رحمة والفرقة عذاب ، وهى أمة تعتزّ بكلّ فرد فيها لأنه على ثغرة من ثغورها يسدّ ثغراً ويؤدّى دوراً . . هى أمة هذا المسلم الذى لازال يدبُّ على الأرض استجابةً من الله القوى العزيز لنبيه المصطفى الذى دعاه : «**اللهم إنَ تُهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد فى الأرض**» رواه مسلم، فكان أن انتصر محمد ﷺ فى بدر ، وبعده استلم الراية أبو بكر وانتصر فى اليمامة ، ثم استلم الراية آخرون، ثم استلم الراية صلاحُ الدين وانتصر على الصليبيين فى حطّين، ثم استلم الراية آخرون، ثم استلم الرايةَ محمد الفاتح وفتح القسطنطينية ، ولاتزال رايةُ الحقّ المباركةُ تنتقل من يد كريمة إلى يد كريمة تحمل الراية حَملَ.

ولستُ أبالَى حين أَقتل مَسلماً ... على أىِ جنبٍ كان فى الله مصرعى

حتى حمل الراية حسن البنا وسقط شهيداً، ولازال العالم بانتظار انتصار خلفائه . .

إخوتى :

هل تعلمون لماذا كان أصحاب بدر أفضل المسلمين؟ نعم (أنتم تعلمون) : لأنهم دخلوا المعركة إيماناً بالله إيماناً مخلصاً وتصديقاً لرسوله تصديقاً صافياً وثقة نقيّةً بالنصر من عند الله ، وهم لم يكونوا قد دخلوا معركة قبل هذا وجرّبوا نصر الله . . وها أنتم قد دخلتم وجرّبتم النصر مراراً . . فلم يتأخر نصرُكم اليوم؟ .

إنكم تقولون أنّ حسن البنا كان مجدّدَ العصر الحديث ، فماذا جدّد لكم حسنُ البنا؟ لقد وضع لكم معالم خطة العمل الإسلامى فى كلمة واحدة مفهومة : البيعة . . تبيعون أنفسكم وأموالكم وعلاقاتكم الاجتماعية وأوقاتكم بل وحتى طريقة موتكم ، أى بالاستشهاد .

وعلام يخشى المرءُ فرقةَ روحِه ... أوليس عاقبةَ الحيـاة فراقُ

تبيعون كل ذلك لمن؟ للذى أعطاكم هذه الأشياء ، أعطاكم إياها مؤقتة . . بيعوها له . . فيثيبكم عليها جنة خالدة ، ونعيما سعيداً ، ومالا رأت عين ، ولا خطر على قلب بشر من لذةٍ غامرة .

حسن البنا لم يقل كلمة ويمشى . . حسن البنا المجدد . . أنطقه الله تعالى فجعل الكلمة المباركة (بيعة) حسنة . . وجعل الحسنة بعشرة أمثالها . . فجعل البيعة أركاناً عشرة : فهمًا ، وإخلاصًا ، وعملاً ، وجهاداً ، وتضحيةً ، وطاعةً ، وثباتاً ، وتجرداً ، وأخوةً ، وثقة . . وقال لكم : احفظوها . وإن شاء الله تعالى أنتم لها

حافظون . . لا حافظون بمعنى مستظهرون وحسب، وإنما حافظون بمعنى محافظون عليها .

إخوتي :

وقد وقفنا في ركن الفهم ما شاء الله لنا . . وإذا كان المرشد الأول (حسن البنا) قد فصّل ركن الفهم عشرين تفصيلا ، فهذا الركن حقيق بذلك التفصيل ، ولقد أنتجنا في ذلك الركن ما شهد بفضله الأعداء ، قبل الأصدقاء ، ومع كل ذلك يبقى ذلك الركن ركناً واحداً . . تتلوه تسعة أركان ، علينا إتقانها كما أتقنا الركن الأول ، لـ «أن الله كتب الاحسان على كل شيء » رواه مسلم . والإحسان إتقان العمل ، وهذا يدفع عنا شبهة أننا لم نتجاوز الركن الأول ، بلى قد تجاوزناه ، فكان منّا المخلصون ، وكان منا العاملون ما يحقُّ لنا الفخر بهم ، وكان منا المجاهدون من أزالوا أقدام الطغاة ولم يزولوا بإذن ربهم ، وكان منا المضحون من دخلوا باب الموت رصاصاً ومشنقة إلى جنات ربهم ، وكان منا ، وكان وكان . . . . ولكن .

إخوتي :

يبقى نداء الله الخالد : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء : 136] ، إنه يوجه النداء إلى أناس قد آمنوا ، إليكم أيها المؤمنون ، فيقول ﴿آمِنُوا﴾ أي اتقوا وأخلصوا ، عند ذلك تنظرون بنور الله ، فترون طواغيت الأرض والقوتين العظميين نموراً من ورق ، وعند ذلك تبطشون بيد الله فيتهاوى هُبَل وتتناثر اللات والعُزى ويستسلم الكرملين وينهزم البنتاجون ، ولا تتعجبوا ، كما تعجب

سُراقة المطارد عندما بشّره رسول الله ﷺ المطارَد بسوارى كسرى جبروت الأرض أيامها، فـ ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21].

إخوتى:

وإن كان الركن الأول من بيعتكم هو الفهم، فالركن الثانى والتالى فى الأهمية والترتيب هو: الإخلاص.. ولقد قسم الفقهاء المسلمون جزاهم الله تعالى خيراً الدين تقسيماً اصطلاحياً، فقالوا: أن الدين ثلاثة أجزاء: نيّة وعلم وعمل.. أما دليل النية فهو الحديث المتفق عليه: «**إنما الأعمال بالنيات**». وأما دليل العلم، فهو حديث الطبرانى: «**اغدُ عالماً أو متعلما أو مستمعاً أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك**» والخامسة أن يبغض العلم وأهله. وأما دليل العمل فقوله تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر: 1-3].

.. وارتباط العلم بالعمل، وأنه قبله، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ**﴾ [محمد: 19].

وما أصاب التلف جزءاً من أجزاء الدين الثلاثة: النية، والعلم، والعمل.. أكثر مما أصاب الجزء الخفى منه وهو النية. ولعل هذا يفسر كثرة ما نرى من المسلمين وكثرة أعمالهم، ولكن قلة نجاحهم وتوفيقهم.. يقول تعالى: ﴿ **وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ** ﴾[البقرة: 284].. ويقول ﷺ فى حديث مسلم: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

وإذا كانت الأعمال بالنيات، أدركنا أن الله تعالى لن يبارك فى أعمالنا إلا إذا خلصت نياتنا له. والفرق بين النية عموماً وإخلاصها خصوصاً يوضحه الحديث المتفق عليه: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك ... فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ فعملها كتبها الله سيئة واحدة**».

والحل الإسلامى الذى يريد أن يبدأ بتربية الفرد وينتظمه بالجماعة المسلمة ليجسدوا الإسلام فى دولة الاستخلاف الالهى، هذا الحل يرى فى وجود الصالحين شرطاً ضرورياً، ولكنه كافيا.. فالآية تقول: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾[هود: 117] والمصلحون هم: الصالحون بأنفسهم ويعملون لإصلاح الناس، ومن أين يأتى لى صلاح النفس وإصلاح الناس إذا لم يكن لى الإخلاص ديّنا وديدناً، ولم أصل إلى مرتبة: «**من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راض**» رواه ابن ماجه.

فيا نفسى اسمعى واسمعى:

ها أنت تدّعين الايمان فيصدقك الناس على ما تُظهرين، فإن لم يكن هذا مطابقاً لما تبطنين، فأين تذهبين من رب العالمين.. علام الغيب والسر المكين.. فهل أنت حقاً يا نفسى عند قوله: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ**

إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون ﴿٢﴾ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴿٣﴾ أولئك هم المؤمنون حقًا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ [الأنفال: 2-4].

فلا تُمنّى على الحركة الإسلامية أنك أسلمت.. بل الله يَمُنّ عليك أن هداك للإيمان، فافتحى أيتها النفس المسلمة للإيمان قلبك، وحّدى الله مخلصة له الدين.. واتخذى لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله منهج حياة.. هناك تلمسين حقاً أن الله نور السموات والأرض، بعزته وهيبته وجلاله ينور أرجاء قلبك، فيندحر الشيطان الرجيم اللعين وأتباعه من الجن والإنس، ويُولول: ﴿ولأغوينّهم أجمعين﴾ [الحجر: 39]، فيقول المهيمن الجبار المتكبر: ﴿إنّ عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾[الحجر: 42]، فيخسأ إبليس وجنوده معترفين: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [الحجر: 40]، كونى من عباد الله المخلصين.. وتجمّعى والمخلصين، و ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون﴾ [غافر: 14].

إخوتى

ويقدم لكم المرشد الأول (حسن البنا) ـ رحمه الله ـ توضيحاً سهلاً ممتنعاً عندما يقول: (وأريد بالإخلاص أن يقصد الأخ المسلم بقوله وعمله وجهاده كله وجه الله، وابتغاء مرضاته، وحسن مثوبته من غير نظر إلى مغنم أو مظهر زو جاه أو لقب أو تقدم أو تأخر، وبذلك يكون جندى فكرة وعقيدة، لا جندى غرض ومنفعة: ﴿قل إنّ صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴿١٦٢﴾ لا شريك له

﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162-163].

وبذلك يفهم الأخ المسلم معنى هتافه الدائم: (الله كبر، ولله الحمد، الله غايتنا).. ولو كان حسن البنا حاضرا معكم لأوصى كلاً منكم بما أوصى به رسول الله ﷺ معاذاً حين بعثه إلى اليمن، قال: يا رسول الله أوصنى، قال: «**أخلص دينك يكفك العمل القليل**».

رواه الحاكم

وهل يقال: لعمل مخلص فى سبيل الله مبارك فيه أنه قليل؟ حاشاك ربى.

قليل منك يكفينى، ولكن قليلُك لا يُقال له: قليلُ

والإخلاص كله مجموع فى سوره واحدة، آياتها أربع، ولكنّ قيمتها تعدل ثلث القرآن، كما فى الصحيحين ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص 1-3].. الإيمان نية وعلم وعمل، إنما الأعمال بالنيات، والنيات يجب ن تكون مخلصة لله الأحد الصمد، فالإخلاص جذر الإيمان، وساقه العلم، وثمره العمل، هذه هى شجرة الإيمان المباركة، فعلينا بأصل هذه الشجرة، وهى النيات المخلصة.. نحن بعنا هذه الدنيا الفانية طمعاً بآخرة خالدة، فنحن معتقدون بوحدانية الخلاَّق.. ونحن راغبون فى لقائه، ونحن مشتاقون إلى وجهه الكريم، وإذا كان رجل من الدنيا يقول:

ولو أننى أسعى لأدنى معيشة كفانى - ولم أطلب - قليل من المال

ولكننى أسعى لمجدٍ مؤمَّل وقد يدرك المجد المؤمَّل أمثالى

فكيف بنا ونحن رجال الآخرة، وهل هناك مجد غير مجد الله؟ نعم، نحن نريد إقامة الدولة الاسلامية لنوطد حكم الله العادل فى الأرض، وستكون لنا مغنمًا، وسيكون لبعضنا مظهراً، ولبعضنا جاهًا، ولكن. كل أولئك أدوات، كل هذه وسائل، أما الغاية فهى: مرضاة الله، وحسن مثوبته.. فلنحذر أن تكون هذه الوسائل غايات، سيكون هذا إشراكاً والعياذ بالله، ستشوب إخلاصنا الشوائب، نحن نريد المال مثلاً ولكن لنتقوى به على طاعة الله، وننفقه فى سبيله، أما الدنيويون فيريدون المال لاكتنازه وللاستعلاء فى الارض، وشتان بين ما نريد وما يريدون.

والإخلاص لله مطلق، لا مغنم، ولا مظهر، ولا جاه، ولا لقب.. حتى داخل الحركة الإسلامية، لا تنظر إلى شىء من هذا، وبذلك تكون جندى فكرة وعقيدة، لا جندى غرض ومنفعة، والإخلاص لله مطلق كما يقول ﷺ: **«يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم، فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له، ولا تقولوا: هذه لله وللرحم، فإنها للرحم، وليس لله منها شىء»** رواه البزار.

وكل جندى يقول لنفسه: يا نفس اسمعي واسمعى. إيّاك وشوائب الإخلاص، فهى من علامات خراب الروح.. وهى ليست خليقةً بالصالحين، فكيف للمصلحين. وعلامات خراب الروح منها:

1- **النفاق**: - والعياذ بالله تعالى - و **«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»** متفق عليه.. وفى رواية: **«وإن

صام وصلى، وزعم أنه مسلم» . . . وفى حديث آخر متفق عليه :

«وإذا خاصم فجر» .

ويا نفسى : إذا أنت أخلفت موعداً عاديا لحضور أسرة، أو حتى تأخرت عنه فكيف بك إذا دعا داعى الجهاد هل تكونى قد تدربت على الاستعداد؟!

2- **الجُبن** : حيث أنه فى حديث مسلم : «من مات ولم يَغزُ، ولم يحدث نفسه بغزوٍ مات على شعبة من النفاق» .

3- **الظن وأشباهه** : حيث قال ﷺ فى حديث مسلم «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم الله .. المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا ـ ويشير إلى صدره ـ بحسب امرءٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام : دمه، وعرضه، وماله.. إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» .

4- **الغيبة**: وهي داء مستفحل، كأنه قد نُسى قوله تعالى فيها :
﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات : 12] .

5- **الغضب** : ففى حديث البخارى : أن رجلاً قال للنبى ﷺ أوصنى . قال : «لا تغضب ـ فردد مراراًـ قال : لا تغضب» .

6- **الرياء** : ففى حديث مسلم : «إن أول الناس يقضى عليه : رجل استشهد ، فأتى به، فعرفه نعمته فعرفها، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت

فيك حتى استشهدت، قال: كذبت. ولكنك قاتلت لأن يقال: جرىء. فقد قيل.. ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل تعلم العلم، وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به، فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت. ولكنك تعلمت ليقال: عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء. فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار.. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتى به، فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك، قال: كذبت. ولكنك فعلت ليقال: هو جواد. فقد قيل. ثم أمر فسحب على وجهه، ثم ألقى فى النار».

هذا الحديث دستور الإخلاص، إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر، هذا الرسول الكريم هو دعوة أبيه إبراهيم المستجابة: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 129].. وأى كتاب لا ريب فيه هدى للمتقين إلا قرآن الله.. وأى حكمة عملية إلا حديث رسوله الكريم.

دامت لدينا ففاقت كل معجزة ... من النبيين إذا جاءت ولم تدم

محكمات فما تبقين من شبهٍ ... لذى شقاقٍ وما تبغين من حكَمِ

فما تعد ولا تحصى عجائبها ... ولا تسام على الإكثار بالسأم

قرّت بها عينُ قاريها فقلت له ... لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم

7- **كثرة الترخص والتماس المعاذير**: ففى حديث الترمذى: «لا

يبلغ العبد أن يكون من المتقين، حتى يدع مالا بأس به، حذراً لما به بأس».

8- **ركوب موجة التدين**: وهؤلاء، مساكين، كأنهم لم يسمعوا بتبشير وإنذار رسول الله ﷺ عندما قال: «**بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب**» رواه أحمد.. أي: من تظاهر بالإصلاح وغش وخدع. واستعمل أعمال الآخرة لجلب الدنيا وكسب خيراتها بمسوح الإصلاح لن يكون له في الآخرة حظ.

9- **وغير ذلك من الخراب الروحي**: ككثرة التفكير في متاع الدنيا، وأمور الدراسة، والعمل. والانصراف إليها كلياً على حساب الدين، والشعور بالخوف على المستقبل أو من الناس ذوى الباطل..

إن القلوب المرتبطة يتردد في جنباتها قول ربها الأحد الصمد: ﴿**فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ولاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً**﴾ [المائدة: 44]، ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾ [المائدة: 3].

إخوتي:

وكيف نستصلح هذه الشوائب.. ألا عند رسولنا الأمين خبر السماء اليقين، يقول ﷺ: «**نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، فرُبَّ حاملِ فقهٍ ليس بفقيه.. ثلاث لا يغُلُّ عليهن قلب امرءٍ مؤمن: اخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم**» أي: أن هذه الخلال الثلاث تنصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه إن شاء الله تعالى.

وختاماً:

سواءً اعتبرنا إخلاص النية ثلث الدين، معها العلم والعمل،

يبلغ العبد أن يكون من المتقين، حتى يدع مالا بأس به، حذراً لما به بأس».

8- **ركوب موجة التدين**: وهؤلاء، مساكين، كأنهم لم يسمعوا بتبشير وإنذار رسول الله ﷺ عندما قال: «**بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب**» رواه أحمد.. أي: من تظاهر بالإصلاح وغش وخدع. واستعمل أعمال الآخرة لجلب الدنيا وكسب خيراتها بمسوح الإصلاح لن يكون له في الآخرة حظ.

9- **وغير ذلك من الخراب الروحي**: ككثرة التفكير في متاع الدنيا، وأمور الدراسة، والعمل. والانصراف إليها كلياً على حساب الدين، والشعور بالخوف على المستقبل أو من الناس ذوي الباطل.. إن القلوب المرتبطة يتردد في جنباتها قول ربها الأحد الصمد: ﴿ **فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ولا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً** ﴾ [المائدة: 44]، ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا** ﴾ [المائدة: 3].

إخوتي:

وكيف نستصلح هذه الشوائب.. ألا عند رسولنا الأمين خبر السماء اليقين، يقول ﷺ: «**نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، فرُبَّ حاملِ فقه ليس بفقيه.. ثلاث لا يغُلُّ عليهن قلب امرءٍ مؤمن: اخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم**» أي: أن هذه الخلال الثلاث تنصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه إن شاء الله تعالى.

وختاماً:

سواءً اعتبرنا إخلاص النية ثلث الدين، معها العلم والعمل،

مستلزمات الريادة

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾

[الأنبياء : 73]

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾

[القصص : 5]

شاءت الإرادة الإلهية أن نعيش فى أمن اقصيت فيه شريعة الله عن واقع الحياة، وتصدت قوى الشر من شياطين الإنس تتحكم فى رقاب البشر، وتسومهم سوء العذاب ونتج عن ذلك أن الفساد عمّ الأرض، وأصبحت الحياة جحيماً لا يطاق.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : 41] .

والبشرية اليوم تقف على مفترق الطرق، وهى تقف حائرة لا تدرى ما تصنع. فكثير من الآلهة التى عبدت وتعبد، ها هى الآن تتهاوى تحت معاول الجماهير، وها هى الشيوعية العالمية التى صورها شياطين الإنس من اليهود على أنها الحل لمشكلات البشر تتهاوى فى عنفوانها، وتقف دول المعسكر الشيوعى حائرة تبحث عن الحلول عند دول المعسكر الغربى.. ودول الغرب بدورها تئن تحت وطأة الإفلاس الروحى والتضخم المالى، ولا تجد ما تقدمه لأبنائها سوى المخدرات والانتحار والمصير المجهول.. ودول العالم الثالث

ـ المتأخر ـ أكثر حيرة فها هى ترى بعين الحيرة تلك الدول التى حسبت أن أمنها وأمانها أينما يكون الركون إليها، تراها تهوى يميناً وشمالاً. ويبدو وكأن العالم كله ينحدر فى هاوية لا قرار لها. . ومما يزيد فى دقة الموقف وحراجته أن البشرية لا ترى فى الأفق مرشحاً يتقدم للأخذ بيدها ليريها السبيل إلى الأمن، وليخلصها مما هى فيه من عذاب.

ودعاة الإسلام اليوم أكثر من أى عهد مضى، مدعوون للتفكير الملى والجدى فيما هم فيه وعليه، ومراجعة أنفسهم، وتقويم مسيرتهم، أنهم وحدهم يملكون العلاج لجراحات البشرية، فعندهم المنهج الذى وضعه خالق البشر للبشر، وعندهم الطريق السوى والمتوازن الذى فيه الحلول لمشكلات الإنسانية فى كل زمان ومكان. ومن الخطأ كل الخطأ أن نتصور أن صفات منهجنا هى الوحيدة التى تؤهلنا لقيادة البشرية، ذلك أن من صفات المنهج أنه منهج واقعى [(1)] فهو منهج لا يمكن أن يقدم على شكل نظرية مكتوبة، إنما هو يعمل من خلال (جماعة رائدة) تتمثل ذلك المنهج وتقدمه للبشرية واقعاً مشاهداً لا نظرية باردة، ويوم أن تصل هذه (الجماعة) وأفرادها (الرواد) إلى درجة من الالتزام بالمنهج؛ يأذن لهم بأن يأخذوا مكانهم الطبيعى فى قيادة البشرية وعمارتها، وخلافة الله فى أرضه، وعمارتها حسب منهجه.

والريادة ومستلزماتها هى موضوع حديثنا فيما يلى، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون.

(1) هذا الدين، سيد قطب.

أولاً : في معنى الريادة :

والريادة كما جاء في مختار الصحاح للرازي [1] في باب (رَود) وهي الإرادة والمشيئة و (راوده) على كذا (مراودة) و (رواداً) أي إرادة. و (راد) الكلأ أي طلبه.

و (الرائد) الذي يرسل في طلب الكلأ .

و (المراد) المكان الذي يذهب فيه ويجاء.

وفلان يمشي على (رُودُ) بوزن (عُودِ) أي على مهل، وتصغيره (رُوَيد).

ويقال (أرود) في السير (إرواداً) و (مُروداً) بضم الميم وفتحها أي رَفَق.

وقولهم: «الدهر (أروَدُ) إذا غِيّر» أي يعمل عمله في سكون لا يُشعر به.

إن معنى (الريادة) كما نفهم مما تقدم أنها القيادة، ولكنها قيادة متميزة. . فالرائد هو الدليل الذي يقود الجماعة أو القبيلة إلى مواطن الماء والكلأ. ولقد قيل في الأمثال (إن الرائد لا يكذب أهله) وذلك أن مستقبل الجماعة وحياتها إنما تعتمد على مهارة روادها وقدرتهم على استكشاف مواطن الخير للجماعة. فإن كان (الرائد) عالماً ماهراً قاد الجماعة إلى ما فيه حياتها، وإلا فإنه يقود الجماعة إلى ما فيه حتفها وهلاكها.

---

(1) مختار الصحاح، للرازي.

وليس هنالك مجال للتجريب فى دور (الرواد) فحياة الجماعة أثمن من أن تكون عرضة للتجريب، ولذلك كان دور الرائد فى قومه متميزاً.

ومن ظلال المعانى اللغوية التى ذكرناها آنفاً نفهم ظلال الكلمة وأبعادها غير المباشرة منها الثقة المطلقة التى تعطيها الجماعة أو القبيلة للرائد، وهذه الثقة تمنح للرواد بعد طول تجربة وتمحيص واختبار. وكذلك ففى الكلمة معنى (الرفق)، والرائد فى قيادته للجماعة إنما يقودها برفق يراعى فى ذلك الضعيف قبل القوى، ولا يحمل الجماعة على ما يشق عليها.. وفيها معنى العمل الدؤوب المتواصل على المدى الطويل دون دعاية ولا تطبيل برغم مشاق الطريق ومصاعبه، وبرغم أهمية المهمة وخطورتها.

ثانياً: مستلزمات الريادة:

ولريادة الأمم صفات يجب أن يتصف بها الناس، كى يستحقوا لقب (الرواد)، وهذه الصفات هى التى تؤهلهم لكى يكونوا قادة وقدوات للناس، وموضع ثقة عندهم. وما لم تتوفر هذه الصفات، تكون الريادة دعوى فارغة لا معنى لها.. ونحن فى هذه العجالة سوف نأتى على أهم الصفات، دون أن ندعى الإحاطة بكل المستلزمات، فذلك أمر بعيد المنال، لتشعب الأمر، وتداخله مع مواضيع شتى.. ولعل أهم هذه المستلزمات ما يلى:

1- الإيمان العميق:

ونعنى به إيمان عميق، وصلة قوية بالله ـ تعالى ـ، وثقة بنصره،

تنعكس على شكل إيمان عميق بالمنهج الربانى، وأنه المنهج الوحيد الصالح لسياسة البشر، وأنه الوحيد الذى يحقق خير الدارين للبشرية وأن الناس دون ذلك المنهج إنما تسلم قيادها لألد أعدائها، وأنها بذلك تدع الفرصة لقوى الشيطان كى تقودها نحو حتفها، وتسومها سوء العذاب.

وإن ما تعانيه البشرية اليوم من أمراض إنما هو نتيجة مباشرة لتنحية المنهج الربانى عن واقع الحياة. وهو إيمان أيضاً بأن قدر البشرية فى اتباع هذا المنهج، وإنه سيأتى ذلك اليوم الذى يعم نور الدين على كل بقعة من بقاع الأرض، وأن هذا المستقبل إنما هو واقع لا محالة، نؤمن به حق الإيمان، وهو حق نصدق به أكثر مما نصدق بالمحسوسات التى حولنا، وأن هذا المستقبل إنما هو واقع قريب، بدأت بوارقه تلمح فى الأفق المظلم، وابتدأت أنواره تشع، وابتدأت شياطين الإنس والجن تحسب حساباتها وتعود مرة أخرى إلى جحورها، خشية النور الذى سيأتى لا محالة..

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: 21].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105].

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الصف: 13].

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [القصص: 5، 6].

وقد يعترض علينا معترض، بأن هذا الإيمان موجود عند أبناء الحركة الإسلامية اليوم. ونقول: نعم، وذلك حق، ولكنه ليس بالدرجة المطلوبة، والعمق اللائق، والدليل أنه لم يتحول عند المؤمنين إلى تلك القوة الدافعة، والمعين القوى الذى يدفع بالدعاة لاجتياز الصعاب، هو إيمان لا يمكن إخفاؤه، وتستطيع أن تلحظه. ولكننا نرى على العكس من ذلك، نرى حال الدعاة من الإيمان البارد، إيمان مؤداه أن التمكين حاصل، ولكنه بعيد المنال.. وهو بعيد إذا اعتقدنا ذلك، وكلما اعتقدنا بعده زاد بعداً، ولكننا نقول بلسان اليقين أنه أمر حاصل بلاشك، وهو قريب.

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: 56].

إنه كقرب قصور الشام من المسلمين يوم الخندق، وهو كقرب إيوان كسرى من المؤمنين حينذاك، وهو كقرب سوار كسرى من سراقة يوم هاجر المصطفى ﷺ - مع صاحبه - رضي الله عنه الذى بكى عند اقتراب سراقة منهما، ولكنها بشارة المصطفى ﷺ لا لرفع المعنويات، ولكن لتثبيت حقيقة، وتقرير سنة من سنن الله.

«والذى نفسى بيده، ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراعى من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

2- علو الهمة:

إن التصدى لقيادة الأمم وتخليصها من مخالب الجاهلية التى أطبقت أنيابها حولها، أمر فى غاية الصعوبة، لا بل هو ضرب من

المحال، دون عون من الله وفتح منه، ومثل هذه المهمات الشاقة لا يتصدى لها إلا من عظمت همته، واتصلت بالله ووعده، همة ترفع صاحبها عن الدون من المتاع والملذات، يصدق فيهم قول الشاعر:

قد رشحوك لأمرٍ لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهملِ

يحدوهم فى ذلك الدعاء الذى علمهم إياه خالقهم ومولاهم:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

[الفرقان : 74] .

لهم نفوس تواقة إلى المعالى كنفس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «إن لى نفساً تواقة، لم تتق إلى منزلة إلا تاقت إلى ما هى أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التى ليس بعدها منزلة، وإنها اليوم تاقت إلى الجنة» (1).

وهكذا تتقدم هذه النفوس العظيمة بأصحابها، وترتقى بهم من منزلة إلى منزلة هى أرْفع منها، ولعظم هذه النفوس لن تقنع إلا بأن تحوز على الجائزة الكبرى، والمنزلة العظمى التى ليس بعدها منزلة، والدرجة التى تتضاءل أمامها كل الدرجات، تلكم هى منزلة الفردوس. . . **«وإذا سألتم فاسألوا الله الفردوس»**.

﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء : 69] .

---

(1) أبو الحسن على الندوى، رجال الفكر والدعوة فى الإسلام.

وعلو الهمة يلزمه التشمير عن ساعد الجد، وإلا كان تمنياً على الله. وذلك أن (الدنيا دار سباق إلى أعالى المعالى، فينبغى لذى الهمة أن لا يقصر فى شوطه. فإن سبق فهو المقصود، وإن كبا جواده مع اجتهاده لم يلم) [1].

ولله در شوقى إذ يقول فى مدح الرسول ﷺ :

وكان بيانه فى الهدى سبلا وكانت خيله فى الحق غابا

وعلمنا بناء المجد حتى أخذنا أمره الأرض اغتصابا

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وقد سئلت امرأة عن أولادها، وقد قتلوا فى العراق ومصر وشمال إفريقية، عن السبب، فقالت: (أولئك قوم باعدت بينهم الهمم).

وقال أعرابى، وقد سأل عن قومه، فقال: (نحن قوم لا يبرم الأمر دوننا).

وهكذا دعاة اليوم عليهم أن يعتقدوا ويعملوا، حتى يصبحوا فى موقع لا يمكن أن يبرم أحد أمراً دونهم. ويصبح لهم من الثقل والأهمية فى تقرير مستقبل البشرية. ويعدوا أنفسهم ليكونوا ورثة هذه الحضارات العرجاء التى أوشكت على السقوط. إنه من العار أن يبرم أمر العالم دون أخذ المسلمين بنظر الاعتبار، لا بل والأنكى من ذلك أن يبرم أمر المسلمين دون أن يحسب لهم حساب، إن الوقت قد

---

(1) صيد الخاطر/ 592.

حان ليعلنوها صريحة واضحة : (نحن قوم لا يبرم الأمر دوننا) يصدق فيهم قول النابغة الجعدى :

بلغنا السما مجدنا وجدودنا وإنا لنبغى فوق ذلك مظهــــراً

وصاحب الهمة العالية لا يأخذ بالرخص ، وإنما يأخذ نفسه بالعزائم ، كما علم ابن تيمية تلميذه النجيب ابن القيم ـ رحمهما الله تعالى ـ عندما قال له فى شىء من المباح أن ذلك لا يليق بطلاب المراتب العالية ، وإن لم يكن تركه شرط فى النجاة :

(ذلك أن طلاب المراتب العالية لا يقبلون مجرد النجاة ، إنما هى الفردوس الأعلى ، قد شمروا وشدوا لها الرحال . ومثل ذلك قول ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ ترخصت فى شىء يجوز فى بعض المذاهب ، فوجدت فى قلبى قوة عظيمة ، وتخايل لى نوع طرد عن الباب وبعد وظلمة تكاثفت) .

3- الصبر:

والصبر خلق من الأخلاق التى حث عليها فى القرآن فى نحو تسعين موضعاً .

(وهو واجب بإجماع الأمة . وهو نصف الإيمان . فإن الإيمان نصفان ، نصف صبر ، ونصف شكر) (1) .

(وهو مذكور فى القرآن على ستة عشر نوعاً) . نذكر منها :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة : 153] .

---

(1) تهذيب مدارج السالكين ، لابن قيم الجوزية .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾

[آل عمران : 200] .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : 3] .

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : 10] .

والصبر صفة لازمة لمن أراد المعالى، وأنه يورث صاحبه درجة الإمامة. كما روى ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله :

(بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين. ثم تلا قوله تعالى :

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾

[السجدة : 24] .

وما أجمل قول الشاعر المخضرم حوط بن رئاب الأسدى (1) :

دببت للمجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وألقوا دونه الإزرا

فكابروا المجد حتى ملَّ أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا

لا تحسبنَّ المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ولعل من أهم أنواع الصبر هو صبر أصحاب الهمم العالية، فاستمع معى إلى ابن الجوزى يشرح لنا معاناته مع همته العالية :

(ما ابتلى إنسان قط بأعظم من علو همته، فإن من علت همته يختار المعالى، وربما لا يساعده الزمان، وقد تضعف الآلة فيبقى فى

(1) حوط بن رئاب الأسدى، شاعر مخضرم، أدرك النبى ﷺ ولم يره.

عـذاب. وإنـى أعطيت مـن علوّ الهمة طرفاً، فأنا به فى عذاب. ولا أقـول ليتـه لـم يكن فإنه يحلو العيش بقدر عدم العقل، والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل) [1].

4- الزهد:

لعل من أهم مستلزمات الريادة الزهد فى الحياة الدنيا. وهذه الحقيقة نلمسها من خلال دراسة تأريخ الرجال الذين كان لهم شأن فى تغيير واقع المسلمين.. والزهد المطلوب هو ذلك الزهد الذى امتاز به الرسول ﷺ ـ وصحابته ـ رضوان الله عليهم ـ وتابعيهم من أمثال: الحسن البصرى وعمر بن عبد العزيز وابن المبارك والأئمة الأربعة وابن تيمية وحسن البنا وأمجد الزهاوى وعمر التلمسانى ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ.

إن الدنيا لا تخضع إلا لمن أخرجها من قلبه، وجعلها فى يده. وليس هو زهد أولئك الذين لبسوا الصوف، والدنيا ملء قلوبهم. وقد سأل أعرابى عن سيد قبيلته؛ بم ساد فيهم؟ فقال: (استغنى عن دنيانا، واحتجنا إلى علمه).

5- استشعار المسؤولية:

وهذه الجماعة الرائدة فى سيرها نحو هدفها الأسمى فى السالكين لدين الله، بحاجة إلى وقود وإلى شحنات تدفعها نحو التغلب على ما فى الطريق من صعاب وعقبات تضعها أمامها قوى الشر كى تحول بينها وبين ما هو حقها الطبيعى.. ووقودها ينبع من

(1) صيد الخاطر، ابن الجوزى.

إيمانها بوعد الله بالجنة وبالنصر، وكذلك من استشعارها بمسؤوليتها وهى ترى البشرية البائسة تئن تحت وطأة الجاهلية. تنظر حولها وهى ترى الأعراض تستباح وتنتهك، وفراعنة اليوم تفتك بالأطفال فلا مخلص، وآلات القتل والإرهاب تفتك بالبشر، وطواغيت العصر قد استعبدت البشر واسترقتهم وكبلتهم بقيود أدمت النفوس قبل الأجسام، ويتلفتون حولهم فلا يرون أملاً لهذه البشرية إلا عندهم من منهج ونظام، وأنهم هم المخلصون للبشرية من آلامها، إنهم هم الأطباء الذين عندهم الدواء الناجع لأمراض البشر. فترى أحدهم لا يلتذ بفرش ولا يطيب له مأكل، ولا يضحك ملء فيه، ولا يسمح لنفسه أن تلعب وتلهو، فوقته أثمن من ذلك، أخذ يعد أنفاسه، ويتحسر لا على الساعة تضيع منه بل على النفس لمن كان على غير طاعة، واستمع معى إلى ابن الجوزى يحدثنا عن أثر علو الهمة عليه:

(وها آنذا أحفظ أنفاسى من أن يضيع منها نفس فى غير فائدة).

وكلامه يصدقه الشاعر:

وإذا كانت النفوس كباراً — تعبت فى مرادها الأجسامُ

وله فى (صلاح الدين) قدوة، الذى كان يقول: بيتى خيمتى، وعدتى سلاحى، وكان يتجول منذ صباه، ويدرس قلاع الصليبيين، وكان يخطط لفتح بيت المقدس، ولم تهدأ نفسه، أو تقر عينه، إلا بالفتح.

وفى (محمد الفاتح) مثال، حيث كان يفكر فى حديث المصطفى

ﷺحول فتح القسطنطينية منذ صباه، ويفكر فى جميع الخطط الحربية الموصلة لذلك.

وفى (حسن البنا) إذ يروى عنه ـ رحمه الله ـ أنه سئل عن أهل غابات أمريكا الذين لم يصلهم الإسلام، هل يدخلون النار، فقال: (أخشى أن يدخلنى الله النار بسببهم).

6- العقلية الريادية :

نمط من التفكير تمتاز به النفوس القيادية، وهو تفكير يصدق الهمة العالية، ويحولها من مجرد أمنيات إلى أفكار وخطط وبرامج، ويجعلها حية تمشى على أرض الواقع. وهذا النمط من التفكير يظهر فى أبسط الأمور، ولا يشترط العظيم منها

قد رشحـــوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهملِ

ولعل من أهم ما يميز هذا النمط من التفكير ما يلى :

أ- العالمية :

الإنسان القيادى يتجاوز حدود المكان، ولا يحصره تفكيره فى الحدود الضيقة، فلا قطعة من الأرض تحده، وإنما فكره تجاوز بلده ليعم الأرض، وتجاوز الأرض ليعم الكون جميعاً.

أضحى الإسلام لنا دينا ... وجميع الكون لنا وطنا

فترى هذا الإنسان يرقب كل شاردة وواردة، ويتأمل فى آيات الله فى الكون وفى الخلق، يستلهم منها الايحاءات والسنن الربانية، فهو تلميذ مدرسة الكون الرحيب.

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبرُ

ب- الذاتية:

العقلية القيادية عقلية مبادرة، همتها العالية ونفسها الطموحة، تدفعها نحو المبادرة بالخيرات، فتراه يبادر فى تنفيذ ما يوجه إليه من أوامر ويسبق التفكير القيادى، ويدفع بقائده نحو آفاق جديدة وفتوحات كبيرة، مثله مثل هدهد سليمان كيف أنه ومن خلال طيرانه أتى قائده بتقرير مفصل عن حالة أمة، فوصف له حالتها السياسية والاقتصادية والعقيدية، ومن ثَمَّ أعطى القيادة كل ما تحتاجه من التفاصيل للبدء بمعالجة الأمر.

جـ- الإبداع:

والتفكير القيادى صفته الإبداع، فهو يرتاد الأماكن والآفاق، ما لم يسبقه إليها أحد، وهذه من سمات الريادة التى تحدثنا عنها آنفاً.. فهو أبعد عن التقليد الأعمى، إنما هو فى تقليده لقدرته المتمثلة بالرسول ﷺ تراه يقلد على بصيرة، وعلى هدى:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾

[يوسف: 108].

فتراه دائماً يحسن العمل ويبدع فيه..

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء»

والإبداع المحمود ما كان ملتزما بالكتاب والسنة، غير خارج عن حدودهما، أما إذا كان غير ذلك فهو (ابتداع) نبرأ إلى الله منه.

والفرق بينهما أن الإبداع هو الاستعمال المنضبط للقدرات العقلية، أما (الابتداع) فهو استخدام متهور غير منضبط ولا ملتزم، ولا يأتى بخير.

ثالثاً : صفات الجماعة الرائدة :

إن التمكين لدين الله فى الأرض، وإقامة الخلافة الراشدة، لا يتصور قيامه إلا على يد جماعة رائدة.. ذلك أن مسألة الريادة الفردية يصعب أن تتحقق بمعناها الشمولى. فمن المحال فى هذا الزمان أن تجد الإنسان الذى يبرز فى مجالات شتى، ذلك لأن الحياة قد ازدادت تعقيداً، وأمر الإحاطة بما توصل إليه الإنسان فى هذا العصر أصبح غاية فى الصعوبة فى مجال واحد، ناهيك عن مجالات عدة. ولهذا السبب وجب أن يكون تحقيق المعنى الريادى على شكل جماعى، فتقوم الجماعة الرائدة بتحقيق صفة الريادة فى واقع الحياة ويسمو منهجها وأفرادها تبرز كقيادة للأمة.. ولكى تتحقق صفة الريادة فى الجماعة وجب أن تكون هذه الجماعة رائدة :

1- بأفرادها :

وقد تحدثنا عن مستلزمات الريادة فيما تقدم، وإن من الطبيعى أن نقرر هنا أن أفراد الجماعة يتباينون فيما بينهم فى نسبة تحقق الصفات التى ذكرناها.. ولكن ذلك لا يعنى التساهل فى الشروط، ولكن الصفات القيادية بدرجة أو بأخرى يجب أن تتحقق فى كل الأعضاء.

2- بأهدافها:

لا يمكن أن تكتسب جماعة ما صفة الريادة ما لم تكن رائدة بأهدافها. . فالأهداف هى التى تجمع الناس وهى التى تبرز المكمون من القوى عند الناس. . وكلما سمت الأهداف ازداد العطاء، وكلما تدنت الأهداف كان ذلك مدعاة إلى التراخى والكسل عند الجماعة ، فإن التمكين لن يكون من نصيب جماعة تبتغى أن تتسلط على رقاب البشر، كما يفعل أصحاب الانقلابات العسكرية، ولكن الجماعة يُمكن لها متى ما تجردت عن الأهواء والشهوات، وابتغت بعملها وجه الله، ولا تريد بعملها من الناس جزاءً ولا شكوراً، وإنما هى المعذرة إلى الله.

3- بوسائلها:

إن سمو الأهداف يجب أن يرافقه سمو الوسائل، وذلك تحقيقاً لأصول المنهج الربانى «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً**».

إن الجماعة الرائدة يجب أن تبتعد عن كل ما يخدش سمعتها، وأن تحرص على نقاء صحيفتها. فإن أخوف ما نخشاه على الجماعة الرائدة هو الركون إلى الظالمين، ولو كان الركون قليلاً.

﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾

[الإسراء: 74، 75].

ولذلك فقد كان تركيز الإمام البنا على الجماعة بالابتعاد عن مواطن الشبهات، وكذلك البعد عن هيمنة الكبراء والأعيان من أصحاب المال والنفوذ والسلطة والجاه.

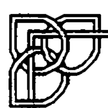
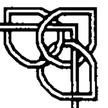
4- بتنظيمها:

والتنظيم أمر مهم، وهو وإن كان يعد من الوسائل إلا أنه لأهميته ولتميزه عن الوسائل المرحلية، فقد ارتأينا أن نفرده، ذلك أن التنظيم المطلوب هو تنظيم أناس يفترض أنهم أصحاب طاقات وكفايات وقدرات عالية.

لذا وجب أن يكون فى غاية الإحكام ليتمكن من الصمود أمام هجمات الأعداء المتربصين.

وكذلك يجب أن يكون غاية فى المرونة التى تمكنه من الاستفادة وتوظيف قدرات الأعضاء على اختلاف إمكاناتهم وتوجيهها للوجهة التى تخدم أهداف الجماعة.

إن من أخطر المشاكل التى تواجه أى عمل منظم، هى عدم القدرة على استيعاب الناشطين من الأعضاء، إننا نرى أن الكثير من الجماعات تخسر الطاقات المتقدمة فيها، لأن الأعضاء الناشطين يتجاوزون التنظيم، ولا يستطيع التنظيم أن يجاريهم، فتكون النتيجة هى التشتت، وهذه خسارة كبيرة إذ أن تلك الجماعة قد خسرت طاقة من الطاقات التى وصلت إلى مرحلة العطاء.

الفهرس



الفهــرس